

السيرة النبوية ٢

www.mediu.edu.my

IHIS 2043

كتاب المادة
Master Textbook

المحتويات

الدرس الأول :	العلاقة بين السيرة والتاريخ العام، ونبذة عن المدينة المنورة قبل الإسلام، و الهجرة وما حدث خلالها من معجزات	٧-٥٢
الدرس الثاني :	وصول النبي ﷺ إلى المدينة، و بناء المسجد النبوي	٥٣-٩٦
الدرس الثالث :	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، و أهل الصفة، و صحيفة المدينة	٩٧-١٣١
الدرس الرابع :	الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والنفاق وظهوره في المدينة المنورة، و الإذن بالقتال، السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى (طبيعتها، وأهدافها)	١٣٣-١٨٢
الدرس الخامس :	غزوة بدر	١٨٣-٢١٢
الدرس السادس :	تابع غزوة بدر وما بعدها من فداء الأسري وغيرها من الأمور	٢١٣-٢٤٠
الدرس السابع :	غزوة أحد	٢٤١-٢٦٦
الدرس الثامن :	غزوة حمراء الأسد وغيرها من السرايا، وغزوة بني النضير	٢٦٧-٢٩٩
الدرس التاسع :	غزوة الأحزاب (الخندق)	٣٠١-٣٣٠
الدرس العاشر :	غزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق	٣٣١-٣٥٥

الدرس الحادي عشر : حادثة الإفك وملاحظات على غزوة بني المصطلق، و صلح الحديبية ٣٥٧-٣٩٧
الدرس الثاني عشر : فتح خيبر ٣٩٩-٣٢٧
الدرس الثالث عشر : تابع فتح خيبر ، وغزوة مؤتة ٣٢٩-٤٥٨
الدرس الرابع عشر : فتح مكة ٤٥٩-٤٨٩
الدرس الخامس عشر : غزوة حنين ٤٩١-٥١٢
الدرس السادس عشر : غزوة تبوك، وعام الوفود ٥١٣-٥٥١
الدرس السابع عشر : حجة الوداع ٥٥٣-٥٧٦
الدرس الثامن عشر : نبذة عن أزواجه ﷺ وأخلاقه، وبعض من معجزاته ٥٧٧-٦٠٦
قائمة المراجع العامة : ٦٠٧-٦١٠

العلاقة بين السيرة والتاريخ العام، ونبذة عن المدينة المنورة قبل الإسلام، والهجرة وما حدث خلالها من معجزات

عناصر الدرس

العنصر الأول : الحديث عما قدمه ابن سعد عن مرحلة المدينة المنورة، والإشارة إلى مصادر للسيرة النبوية ٩

العنصر الثاني : بيان أن السيرة بدأت باعتبارها جزءًا من الحديث النبوي الشريف ١٣

العنصر الثالث : انحصار التَّاريخ عند العرب في أخبار الماضين، وأحوال العرب قبل الإسلام ومراحل تطور الكتابة في التاريخ الإسلامي ١٦

العنصر الرابع : نبذة عن تاريخ المدينة المنورة قبل الإسلام من حيث موقعها، ومن حيث سكانها ١٩

العنصر الخامس : الكلام عن سكان المدينة قبل الهجرة، و حاجة الناس إلى الأمان ٢٨

العنصر السادس : إخبار جبريل # للنبي ﷺ بتآمر المشركين عليه، والإذن له بالهجرة ٣٤

العنصر السابع : معجزات حدثت للنبي ﷺ والصدِّيق في الغار، وفشل كفار مكة في الوصول إليه ٤٠

العنصر الثامن : رحلة النبي ﷺ وهجرته من مكة إلى المدينة ٤٢

الحديث عمّا قدمه ابن سعد عن مرحلة المدينة المنورة، والإشارة إلى مصادر للسيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن استنّ سنته وتبع هديه إلى يوم يبعث الناس لربّ العالمين.

أ. ما قدمه ابن سعد عن مرحلة المدينة المنورة:

تحدث ابن سعد عن مرحلة الجهاد في المدينة المنورة، وتحدث عن غزوات النبي ﷺ وعن سراياه ضد المشركين وضد اليهود، ثم عرض حجة الوداع، وأخيرًا تحدث عن مرضه، وعن تمريضه، وعن موته، ودفنه ورثائه ﷺ يتبع ذلك كله بذكر ما كان يفتي في المدينة ويقتضى به في عهد النبي ﷺ وبعد ذلك يذكر ما يتعلق بجمع القرآن الكريم، ثم المفتون في المدينة المنورة بعد أصحاب النبي ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم، ومن ذلك كله نعرف أن ابن سعد أول من جمع علامات النبوة، واعتبر ذلك أساسًا سارت عليه الكتب المتأخرة التي عالجت موضوع دلائل النبوة، ويعتبر الفصل الذي كتبه عن صفة أخلاق النبي ﷺ سببًا في كتب الشمائل التي ألفت بعد ذلك.

أما تراجم الصحابة والتابعين، فقد جعلها ابن سعد طبقات بادئًا بالطبقة الكبرى، مراعيًا سبق الصحابي إلى الإسلام، ونصرته له، والجهاد من أجله؛ لذلك كان البدريون هم الطبقة الأولى عنده، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، والطبقة الثانية: هم المهاجرون والأنصار الذين لم يشهدوا بدرًا، ثم الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة، وهو بذلك راعى العنصر الزمني، فقد بدأ الطبقة الأولى برسول

اللهﷺ ثم الأقرب إليه من حيث النسب ﷺ أما الطبقة الثانية: فهم الذين أسلموا قديمًا ولم يشهدوا بدرًا، وكان عامتهم قد هاجر إلى الحبشة، ثم شهد أحدًا وما بعدها. والطبقة الثالثة: من شهد غزوة الخندق وما بعدها. والطبقة الرابعة: من أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك. أما الطبقة الخامسة: فخاصة بمن قبض رسول الله ﷺ وهم حديثو السن، ولم يغزُ أحد منهم معه ﷺ.

وبعدَ الصحابة وطبقاتهم تناول ابن سعد طبقات التابعين ومن تلاهم، لكنه هنا راعى العامل الجغرافي، فترجم أولًا للصحابة والتابعين على أساس المدن التي نزلوها، فبدأ بالمدينة المنورة، وقسّم من ترجم لهم إلى طبقات، ثم من نزل مكة من الصحابة والتابعين وقسمهم أيضًا إلى طبقات، ثم من كان في الطائف، ثم في اليمن، ثم اليمامة، والبحرين، والكوفة، والبصرة، وواسط، والمدائن، وبغداد وخراسان، والشام، والجزيرة، ومصر، وأيلة، وإفريقية، والأندلس، وفي كل الأمصار ماعدا المدينة المنورة.

يستهل ابن سعد حديثه بمن نزل هذا المصر من الأمصار الأخرى، ثم يثني بأهل العلم الذين أخذوا عن الصحابة، ثم يذكر الطبقة التي تلي هؤلاء، ويستمر على هذا النهج حتى عصره. وفي قسم النساء يبدأ بأم المؤمنين السيدة خديجة < ، ثم يثني ببنات الرسول ﷺ، ثم يذكر عماته وبنات عمومته وأزواجه، ثم النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، ثم غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات، ثم نساء الأنصار، ثم من لم ترو عن رسول اللهﷺ من النساء وروين عن أزواجهن وغيرهن.

ولم تكن التراجم على مستوى واحد عند ابن سعد، وإنما كان ذلك العالم الكبير يتحدّث باستفاضة عند ترجمته لكبار الصحابة وكبار التابعين من المتقدمين، ويوجز كلما ابتعدنا عن الطبقة الأولى وتأخر الدخول في الإسلام.

ويحرص ابن سعد على ذكر الصفات التي تتسق مع الشخصية المترجم لها، فيبدأ بتحقيق نسبها من حيث الأب والأم، ثم يتحدث عن الأولاد وعن أمهاتهم وعن نسب هؤلاء ويبين هل بقيت ذرية الصحابي المترجم له في المدينة المنورة أم رحلت عنها، كما يبين وقت دخوله إلى الإسلام، وترتيبه بين الداخلين على يدي المصطفى ﷺ، وهل اشترك الصحابي في الهجرة الأولى أو الثانية إلى الحبشة، وأخيرًا يصف كيف توفي الصحابي وزمن هذه الوفاة، وما يتعلق بالجثمان والصلاة عليه ودفنه، ويحرص على وصف المظهر الخارجي للصحابي من حيث الثياب والخاتم والعمامة، ولا ينسى الحديث عن وصية الصحابي والإشهاد عليها، ولا يقل القسم الخاص بالنساء عن غيره من حيث بيان ما قامت به المُتَرْجَم لها من مجهودات أَثْرَتْ الحياةَ الثقافيةَ والفكريةَ، كل ذلك يؤكّد لنا أنهنّ كنّ مصدرًا خصبًا لمعرفة أنهن كن شاهدات على الحديث النبوي الشريف.

ويلاحظ العلماء على هذا الكتاب الهام لابن سعد عدّة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن شخصيته تكاد تتوارى، أو هي بالفعل تتوارى إزاء كثرة الروايات التي يذكرها، فلا ترى له تعليقًا إلا فيما ندر، وإذا ما وجد فإنه يعبّر عن مقدرة نقدية ممتازة لدى ابن سعد.

الملاحظة الثانية: ظهور بعض الإسرائيليات في الطبقات أخذًا مما أشاعه اليهود الذين أسلموا في الصدر الأول من أمثال: وهب بن منبه، وكعب الأحبار، وغير هؤلاء.

الملاحظة الثالثة: التزام ابن سعد بالطريقة الحولية، واعتماده عنصري الزمان والمكان، وكان ذلك سببًا في تمزيق الحوادث، وتفتيت الموضوعات؛ فلم تجمعها وحدة واحدة.

الملاحظة الرابعة: قطع الروايات قبل أن تكتمل، وجمع أسانيد متعددة لمتن واحد، وقد تقتصر الترجمة على سطر أو على عدة أسطر إذا كان المترجم له قريبًا من عصر المؤلف.

الملاحظة الخامسة: أنه لا يذكر المصادر التي نقل عنها، مخالفًا بذلك ما فعله غيره، مثل: ابن إسحاق، والواقدي، إنه يعتمد على ذكره للسند الذي يصل بالخبر إلى قائله وبالوقائع إلى مؤلفي الكتب.

الملاحظة السادسة: أنه يأتي في مصادر رواته ببعض من يضعفهم علماء الجرح والتعديل، مثل: هشام بن السائب، وأبي معشر، وغير هؤلاء، وبالرغم من هذا فإن للكتاب قيمة علمية لا ينكرها منصف.

ب. الإشارة إلى مصادر للسيرة النبوية بخلاف من ذكرنا، منهم ابن هشام:

هناك غير من ذكرنا ممن يُؤخذ برواياتهم لأحداث السيرة النبوية المباركة من أمثال ابن هشام صاحب الفضل الأول في الاحتفاظ لنا بـ(سيرة ابن إسحاق) برواية أستاذه البكائي، وقد قامت لجنة السيرة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بإعداد صفوة لها في مجلدين، وفعلت الشيء نفسه مع (سيرة ابن كثير) التي صدرت في أربعة مجلدات كبار، بتحقيق الأستاذ الدكتور مصطفى عبد الواحد، ونشر نفس المجلس صفوة لها في أربعة أجزاء لكن حجمها أقل من حجم الأربعة الأصليين.

من الثقات الذين كتبوا في السيرة النبوية:

الحافظ ابن حجر، والحافظ ابن عساكر، والحافظ النسوي، والحافظ الذهبي، ومحمد يوسف الصالحي الشامي صاحب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد)، وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة منها أكثر من أحد

عشر مجلدًا كبيرًا، ولا غَرْوَ، فقد جمعها صاحبها من نحو ثلاثمائة كتاب، وجاءت في نحو سبعمائة باب.

ممن نالت السيرة النبوية المباركة كثيرًا من عنايتهم واهتمامهم:

الإمام ابن قيم الجوزية صاحب (زاد المعاد من خير هدي العباد)، المنشور في أربعة أجزاء وفي أربعة مجلدات بالقاهرة، وله مختصر منشور في مجلد واحد، كل ذلك بالإضافة إلى الأبواب التي خصصتها كتب صحيح الحديث النبوي المختلفة لسيرة سيدنا رسول الله ﷺ لم تنقطع خدمة المسلمين لسيرة رسول الله ﷺ لا في القديم ولا في الحديث، وكل عام تقدم لنا المطابع ثمرات جهود المحبين الدارسين، والمحققين، والْمُحَلّلين، والمعلقين لأحداث سيرة المصطفى ﷺ وما تدل عليه، أو ما يستنبط منها، أو ما تشرد إليه، أو ما يستفاد من هديه ﷺ.

بيان أن السيرة بدأت باعتبارها جزءاً من الحديث النبوي الشريف

يتضح من كل ما سبق وذكرته أن السيرة النبوية جزء لا يتجزأ من الحديث النبوي الشريف، إنها التطبيق العملي النموذجي للإسلام، وإنها أمثل أسلوب لتعليم سياسة الدنيا والدين على النحو الذي نقل إلينا عن رسول الله للبشر ﷺ.

ثم حدث أن اتسعت الدولة الإسلامية، وانتشرت الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين، ووقعت الفتن العظمى، ونبض عرق العصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة، والديانات غير الإسلامية على يد أمثال كعب الأحبار الذي توفي سنة أربع وثلاثين من الهجرة، ومثل عبيد بن شريه الذي توفي

نحو سنة سبعين من الهجرة، ومثل وهب بن منبه الذي أشرنا إليه من قبل، والذي توفي نحو سنة مائة وعشرة من الهجرة، ومعنى ذلك أنه دعت دواعٍ وطرأتْ أسباب تدعو إلى جمع الأخبار المتعلّقة بكل ذلك وتدوينها، إنها الرغبة في فهم الإشارات التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خاصّة بالأمم السّابقة، ومنها ميل الملوك أمثال: معاوية > ، وأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي إلى الاطلاع على سياسات الملوك السابقين ومكايدهم، كما حدث للموالي على التنويه بمجدهم القديم في الحركة الشعوبية، أو في حركة الشعوبية العنصرية التي اشتدّ أوّارها في العصر العباسي، كما احتاج الشعراء إلى تدوين الأنساب وأيام العرب لاستخدامها في مقام الفخر والهجاء، بل إن الدولة الإسلامية نفسها احتاجت للأنساب للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند، وقد كان ذلك العطاء -يعني: المرتبات- يحدد بناء على القرابة من الرسول ﷺ مع السبق إلى الإسلام.

أما الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح؛ فهو رغبة أولي الأمر في معرفة ما فتح من البلاد صُلحًا، وما فتح عنوة، وما فتح بعهد؛ لأن لكل حالة من ذلك حكمها من حيث الجزية والخراج، كل ذلك يجعلنا نقول: إنه نشأ نوع من العلاقة بين الأخبار وبين السيرة النبوية المباركة، أو أن الرواية التاريخية أصبح لها وجود بجوار السنة النبوية الشريفة، الرواية التاريخية التي تعالج أخبار الماضين وأحوال الجاهلية وحوادث الإسلام، وأطلق على ذلك كله لفظ الأخبار، وعُرف المتخصص فيه بالإخباري، كما عُرف المتخصص في رواية الحديث باسم المحدّث، لوحظت النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم: ابن إسحاق،

والواقدي، والمدائني المتوفى عام خمسة وعشرين ومائتين من الهجرة فقد كان إخباريًّا ومحدثًا معًا، كما لوحظت بداية التخصص في الأخبار عند أمثال محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ست وأربعين ومائة من الهجرة، وكان مقدمًا في علم الأنساب، وفي عوانة بن الحكم المتوفى عام سبعة وأربعين ومائة من الهجرة، وقد جمع أخبار بني أمية، كذلك عند أبي مخنف المتوفى عام سبعة وخمسين ومائة من الهجرة، وله كتب في الرّدة، وفي وقعة الجمل، وفي وقعة صفين، وفي أخبار الخوارج.

وهناك أيضًا في نفس الاتجاه نجد سيف بن عمر المتوفى عام سبعين ومائة من الهجرة وله كتاب كبير في الفتوح، وكذلك هشام بن محمد السائب الكلبي المتوفى عام أربعة ومائتين من الهجرة، وله في أخبار الأوائل، وأيام العرب، وأنسابهم، وأخبار الإسلام كتب كثيرة، أحصاها ابن النديم في كتابه (الفهرست)، ومن بين كتبه المطبوعة (كتاب الأصنام)، وقد وجد في هذه المرحلة تخصص محلي في روايات الأخبار -أي: أخبار ذلك الإقليم- وتدوينها، فابن النديم ينقل في كتابه (الفهرست) عن علماء قولهم: أبو مخنف أمير بأمر العراق، أو هو خبير بأمر العراق وأخبارها وفتوحها، يزيد في ذلك على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة، وقد اشتركوا جميعًا في فتوح الشام، وكان المحدث عند جمهور ذلك الزمن أشرف من الإخباري، نظرًا لشرف موضوع الحديث النبوي، ثم إن الأخبار وخصوصًا القديمة منها مظنّة التلفيق والاختلاق والاغتراب.

انحصار التَّاريخ عند العرب في أخبار الماضين، وأحوال العرب قبل الإسلام ومراحل تطور الكتابة في التاريخ الإسلامي

نستطيع أن نقرّر مطمئنين أنه في أواخر القرن الثاني الهجري رُسمت الأبواب الأساسية للتاريخ عند العرب، وانحصرت في أمور أربعة:

الأول: أخبار الماضين.

الثاني: أحوال العرب قبل الإسلام.

الثالث: السيرة النبوية المباركة.

الرابع: أخبار الدولة الإسلامية.

ثم في الفترة التالية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أوائل القرن الرابع الهجري، لوحظت زيادة جوهرية في المادة التاريخية، مع دقة وتحرر في مصادرها، ذلك أنه قد استقرت الدواوين زمن الدولة العباسية.

بدأت الدواوين في عهد الدولة الأموية ولكنها استقرت في عهد الدولة العباسية، ولا سيما ديوان الإنشاء، وديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان البريد، واندفع المشتغلون بصناعة التاريخ، انتفعوا بكل ذلك في صنعتهم. يدل على ذلك ما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث الهجري، من عهود رسمية، ومراسلات سياسية، وإحصائيات للمواليد والوفيات، وتحديد مدد كبار الدولة من وزراء، وقواد، وعمال، وقضاة، وأمراء على موسم الحج، ووصف للحروب الداخلية، ووقائع الصوافي والشواتي على الحدود؛ يعني المعارك العسكرية التي كانت تقوم بين المسلمين وبين أعدائهم على الحدود بين الدولة الإسلامية وبين

الدول الأخرى، ثم إنه في نفس العصر قويت حركة الترجمة عن الفارسية وعن السريانية وعن اليونانية وعن اللاتينية، كما كانت سهولة التنقل بين أرجاء الدولة الإسلامية المختلفة عاملًا مهمًّا ساعد على الرحلة العلمية في طلب العلم، وساعدت هذه الرحلات المؤرخين خاصة على السفر؛ طلبًا للرواية وأخذها عن الشيوخ، هذا فوق رؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها، ومعنى ذلك أنه قد توفر مصدر هام للمؤرخين هو المشافهة والمشاهدة؛ ولهذا فقد حدّد مؤرخو القرن الثالث مصادر التاريخ في أربعة أشياء، قالوا: هذه الأشياء الأربعة:

الأول: كتب السيرة والأخبار.

الثاني: السجلات الرسمية.

الثالث: الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية.

الرابع: المشاهدة والمشافهة.

وهكذا أخذ التاريخ مظهره الرائع باعتباره من أجلّ علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية، كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة سياسية أو غير سياسية. لم يَرَ كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء باسًا، لم يَرَ هؤلاء بأسًا في التوفّر على دراسة التاريخ والتأليف فيه، وتضاءَل مفهومُ الإخباري فأصبح يطلق على من يروي الحكايات والقصص والنوادر، هذه أشياء مقررة مثبتة في الكتب، يذكرها الدكتور أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام)، ونجد أيضًا النص الأصلي الذي أشرنا من قبل في كتاب (أنساب السمعاني)، أو كتاب (الأنساب) للإمام السمعاني.

لكن الوحدة السياسية التي انتظمت الدولة العباسية، بدأت تتداعى وبدأت تتلاشى وتقل اعتبارًا من منتصف القرن الثالث الهجري، وتحوّلت الدولة إلى دويلات يحكمها متغلبون أجناسهم مختلفة، إن شرقًا وإن غربًا، وجرت اللامركزية السياسية إلى لامركزية أدبية، وتوزعت الثقافات على الأمصار بعد أن كانت الثقافة محصورة في مركز الخلافة وحدها، وكثر العلماء في الأمصار المختلفة كثرة عظيمة، وكل ذلك أثّر فيما ظهر ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري، من تواريخ محلية ومن كتب للتراجم والطبقات؛ خاصة مع استمرار سلسة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبري، فوضع كل من المسعودي، وأبي الفداء، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن خلدون وغير هؤلاء، وضع كل هؤلاء مؤلفاتهم التاريخية، كذلك ترتب على التفرق السياسي وهن في القوة الذاتية وطمع أعداء الدولة الإسلامية فيها، فاستأسد الروم وهاجموا شمالي بلاد الشام في القرن الرابع الهجري، وأغار الصليبيون على أملاك المسلمين شرقًا وغربًا في القرن الخامس والسادس الهجريين، ثم كانت الطامة الكبرى عندما جاء المغول أو التتار ودمروا معالم الحضارة الإسلامية في آسيا، بل وقضوا على عاصمة الخلافة العباسية في بغداد، وقتلوا الخليفة نفسه، وحولوا نهر دجلة إلى نهر من الدماء بسبب الآلاف المؤلفة من الذين قتلوهم بطريقتهم الغوغائية عندما هاجموا بلاد المسلمين.

إذا نظرنا إلى جانب غرب العالم الإسلامي نرى أن الأندلس مُدُنها هي الأخرى بدأت تتهاوى واحدة وراء الأخرى، كل ذلك جعل العالم الإسلامي يدخل في طور جديد، أو في مرحلة جديدة، تختلف عن الأطوار أو عن المراحل السابقة عليها اختلافًا بعيدًا، وكان من الطبيعي في ظل هذا الوضع الجديد أن ينحو المؤرخ الإسلامي الذي رأى ذلك كله أمام ناظريه أن ينحو منحى فلسفيًّا عميقًا،

ويحاول التعرف على علل الحوادث، وأسباب قيام الدول، وعوامل سقوطها، ومظاهر العمران، وأصول الاجتماع إلى غير ذلك.

وهذا الاتجاه وصل في مقدمة ابن خلدون على ذروته، يعني وصل إلى ذروته على يدي ابن خلدون في مقدمة تاريخه الشهير التي لم يكتب أحد مثلها في الإسلام على الإطلاق، واستحقّ لهذا أن يكون ابن خلدون فيلسوف مؤرخي العرب قاطبةً، ثم أخيرًا أصبح علم التاريخ نفسه محلًّا للبحث والدراسة على يدي أمثال الصفدي المتوفى عام أربعة وسبعين وستمائة من الهجرة في مقدمة كتابه (الوافي بالوفيات)، ثم عند السخاوي المتوفى عام اثنتين وتسعمائة من الهجرة في كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ).

تلك لمحة سريعة عن تطور الكتابة التاريخية، وما مرت به من مراحل وأطوار بعد انفصالها عن السيرة النبوية المشرفة وعن علم الحديث، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم، وبعد أن اتضحت أمامنا معالم السيرة النبوية المباركة وصلتها بالتاريخ العام، وبالأطوار والمراحل التي مرّ بها تدوين كل من السيرة النبوية المباركة، والتاريخ العام أو التاريخ الخاص بمعناه العام.

نبذة عن تاريخ المدينة المنورة قبل الإسلام من حيث موقعها، ومن حيث سكانها

يلزمنا بعد ذلك كله أن نقدم نبذة سريعة عن تاريخ المدينة المنورة قبل الإسلام، من حيث الموقع والسكان، وفي البداية نستطيع أن نقول: إن يثرب هو الاسم القديم للمدينة المنورة، وقد ورد اسم يثرب في الكتابات المعينية -الدولة المعينية- مما يدل على قدم هذا الاسم، ويثرب هذه واحة خصبة التربة، كثيرة المياه، تحيط بها الحرات من جهاتها الأربع، ويقع جبل أحد في شمالها، وجبل عير في جنوبها الغربي، وتقع فيها عدة وديان، وهي منحدرة من الجنوب إلى الشمال.

وللمدينة المنورة خمسة وتسعون اسمًا، وكثرة الأسماء كما يقول العلماء تدل على شرف المسمى، وهذه الأسماء جميعها في استقصاها وذكرها مرتبة على حروف المعجم نقلًا عن مصادره المعتمدة الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، وذكرها في الجزء الثالث من كتابه (سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد) كما تحدّث عن بدء نشأة يثرب.

وقد سماها النبي ﷺ المدينة المنورة، ونهى عن أن تسمّى باسم يثرب، هذا النهي أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة > يقول: إن رسول الله ﷺ قال: ((أمرتُ بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد)). وروى أنه ﷺ قال: ((من سمّى المدينة يثرب، فليستغفر الله؛ هي طابة هي طابة هي طابة)). إما لكون ذلك الاسم يثرب مأخوذ من الثرب وهو الفساد، وإما من التثريب؛ وهو المؤاخذة بالذنب، وهذا ذكره الرجل نفسه في صفحة سبع وعشرين وأربعمائة.

ويقال: إن اسم طابة مذكور في التوراة علمًا على المدينة، وهي المدخل الصدق الذي جاء في قول الله ﷻ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] ذكر ذلك صاحب (الدرر في اختصار المغازي والسير)، وهو الحافظ ابن عبد البر يوسف بن عبد البر النميري.

العنصر الأول الذي سكن المدينة المنورة:

يقال: إن أهل المدينة من غير عدنان، وأن أصلهم من اليمن في جملة من هجرها بعد سيل العرم، والمشهور عند العرب أن أول من نزلها هم العماليق الذين يرجع نسبهم إلى سام بن نوح # وقد أقامت فيها قبائل ثم نزلها اليهود، وقيل: إنهم

أتوها من أيام سيدنا موسى في أثناء حربه مع الكنعانيين، أو أنهم أتوها فرارًا من اضطهاد الرومان خاصة على نحو ذلك الذي جاء في المرجع المشار إليه في سنة سبعين بعد الميلاد؛ يعني: أنهم أتوا إلى هذه المدينة في سنة سبعين بعد الميلاد فرارًا من اضطهاد الرومان خاصة لهم، وليس هناك اتفاق على المكان الذي هاجروا منه، ولا على الزمان الذي قدموا فيه.

وهناك من يميل إلى أنهم نزحوا من الشام في القرنين الأول والثاني للميلاد بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول قبل الميلاد، أقام اليهود دولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد مما أدّى باليهود إلى الهجرة إلى شبه جزيرة العرب بعيدًا عن سيطرة الرومان، بيد أن هجرة اليهود اشتدّت إلى الحجاز بعد فشل تمرّدهم ضدّ الرومان عام سبعين ميلادية، كما أن بعضهم وصل إلى يثرب، ووصلت مجموعة أخرى منهم بعد فشل ثورة أخرى قاموا بها بين سنتي مائة واثنين وثلاثين، ومائة وخمسة وثلاثين من الميلاد، وشكّل هؤلاء جميعًا اليهود، أو الجالية اليهودية التي كانت موجودة في الجزيرة العربية في المدينة وفي الحجاز.

وقد استقرّ يهود بني النضير وبني قريظة في منطقة يثرب لخصوبة ترتبها، وأهمية موقعها التّجاري على طريق القوافل إلى بلاد الشام، واستقرّ يهود قريظة وبني النديم في حرّة واقم شرقي يثرب، وهي أخصب بقاعها، أما بنو قينقاع فقد اختلفت الآراء بشأنهم، كما اختلفت بشأن البطون الأخرى من اليهود، هل هم عرب تهوّدوا؟ أو أنهم نَزَحوا مع النازحين إلى الحجاز؟ ولم تذكر لنا المصادر إحصائية بعدد اليهود، ولكن كتب السيرة ذكرت أن عدد المقاتلين من الرجال البالغين كانوا سبعمائة من بني قينقاع، ومثلهم تقريبًا من بني النضير، وما بين

السبعمائة والتسعمائة من بني قريظة، فهم جميعًا أزيد من ألفين قليلًا، بخلاف البطون اليهودية الأخرى التي تناثرت في يثرب، والتي تزيد على عشرين بطنًا، ذكر ذلك السمهودي في كتابه (وفاء الوفا).

وقد ترك اليهود طابعهم على يثرب، وتأثّروا بالقبائل العربية التي تحيط بها، لقد نقلوا من الشام فكرة الآطام التي بلغ عددها تسعة وخمسين أطمًا كما حملوا معهم خبرتهم الزراعية والصناعية، وهذا ما يفسّر ازدهار بساتين يثرب بما فيها من نخيل وأعناب وفواكه وحبوب، كما ظهر الاهتمام بتربية الدواجن والماشية، وبرزت صناعات النسيج وكل ما يلزم المجتمع الزراعي، كما أثر اليهود على عرب المدينة، وتأثر العرب بهم أيضًا، فظهرت بينهم بعض الطبائع العربية متأثرين في ذلك بطبائع العرب، وجدنا عندهم شيئًا من العصبية، ووجدنا عندهم الكرم، والاهتمام بالشعر، والتدريب على السلاح، ومعيشتهم في شكل قبائل متنازعة لم تتوحد صفوفها رغم أنهم من أبناء جنس واحد.

العنصر الثاني الذي سكن المدينة المنورة:

هم العرب، هؤلاء العرب -سكان المدينة أو سكان يثرب. من الأوس والخزرج، وقد اضطروا إلى سكنى الأماكن المهجورة من يثرب بعد أن سبقهم اليهود إليها، واحتلّوا أخصب بقاعها وأعذب مياهها، وينتمي الأوس والخزرج إلى قبيلة الأزد اليمنية التي خرجت من اليمن إلى الشمال في فترات مختلفة أقدمها عام سبعة بعد المائتين من التاريخ الميلادي.

ويقال: إن سبب هجرة الأزد من اليمن هو انهيار سدّ مأرب، وحدوث سيل العرم الذي أشار إليه ربنا ﷻ في القرآن الكريم في سورة سبأ، حيث يقول ربنا ﷻ في القرآن

الكريم : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦].

وهناك مَن يرى أن سبب نزوح الأزد هو الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الذي سببه سيطرة الرومان على البحر الأحمر، وانتقال تجارة الهند ذلك هو الراجح ؛ لأن معظم الأزد كانوا يقيمون خارج منطقة سدّ مأرب، فلم يتأثروا به، وهذا ما اطمأنّ إليه في دراسته الدكتور أحمد إبراهيم في كتابه (عن مكة والمدينة).

وقد استقرّ الأوس والخزرج -على أي حال- في يثرب مجاورين لليهود ؛ حيث سكنتْ الأوس في منطقة العوالي، بجوار قريظة وبني النضير، وسكنت الخزرج سافلة المدينة بجوار بني قينقاع، وكانت ديار الأوس أخصب، الشيء الذي ترتب عليه الصراع بين الطرفين. لقد كان لليهود نفوذهم فهم يمتلكون الأراضي الزراعية ويستحوذون على الأموال بينما كان الأوس والخزرج في ضنك، يعملون في أراضي اليهود ويدفعون لهم مالًا حتى قال بعض الشعراء :

نؤدّي الخراج بعد خراج كسرى ❖ وخرج بني قريظة والنضير

وبمرور الأيام تمكن عرب الأوس والخزرج من تكوين الثروات وتنمية نشاطهم الاقتصادي، فشعر اليهود أنهم أمام منافس خطير، وبدأ الصراع والقتال، وانتهى لصالح اليهود، فاستنجد الأوس والخزرج بإخوانهم غساسنة الشام، وهم مثلهم عرب يمنيون فأعانوهم، ومالت الكفّة لصالح العرب، وغُلب اليهود وذُلّوا.

لقد أصبحت السيادة للأوس والخزرج بيثرب، وبقيت بأيدهم حتى جاء الإسلام، ولقوا النبي ﷺ عند العقبة وهم جماعة واحدة، وهاجر النبي ﷺ وهم رؤساؤها وحكّامها، كما سنعرض بعد ذلك، لقد كانوا قبل ذلك متفرقين، بل ووقعت بينهم حروب قبلية انتهت لصالح الخزرج، لكن الأوس ما لبثوا أن استعانوا باليهود فكانت لهم الغلبة في يوم بعاث، لكن القبيلتين معًا: الأوس والخزرج رأيتا أن تنازعهما سيكون في صالح اليهود، فبالتالي مال الطرفان إلى التصالح ثم دخلوا جميعًا الإسلام وصهرتم بَوْتَقته، وأصبحوا جميعًا يكونون جماعة الأنصار، كل هذا وما يتعلق بحروب الأوس والخزرج قبل الإسلام يمكن أن نجده في (تاريخ اليعقوبي)، وقد نجده عند ابن الأثير في كتابه (الكامل)، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وهم -أعني: العرب. رؤساؤها وحكامها.

لكن عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كانوا قد انتهى ما بينهم تقريبًا من نزاع، ووصلوا إلى شيء من التصالح، وكانوا هم الرؤساء والحكّام، وإن كانت الحروب قد حدثت بعد ذلك وانتهت لصالح الخزرج، واضطر الأوس أن يستعينوا باليهود فكانت لهم الغلبة في يوم بُعَاث آخر يوم قبل وفود النبي ﷺ ووصوله إلى المدينة.

على أيّ حال القبيلتان رأتْ أن تنازعهما سيكون في صالح اليهود فمالتا إلى التصالح، ثم دخلوا جميعًا الإسلام وصَهَرتهم بوتقته، وقد كوّنوا الجماعة الإسلامية المقابلة للمهاجرين والتي نسمّيها: جماعة الأنصار، وعلى كل حالٍ فقد ترتب على زيادة عدد العرب أن زادت ثرواتهم، وحدثت تحولات اقتصادية وسكّانية لصالح العرب.

هذا ما أكّدته الدراسات الحديثة التي قام بها رجل مثل "سيديو" في كتابه: (تاريخ العرب العام) الذي ترجمه الدكتور/ عادل زعيتر إلى اللغة العربية، وكذلك ذكر

شيئًا من ذلك الدكتور/ أحمد إبراهيم شريف في كتابه عن مكة والمدينة ؛ حيث قرر أن هجرة العرب إلى المدينة المنورة قد بدأت عام ثلاثمائة ميلادية ، ودانت لهم السيطرة على يثرب عام ٤٩٢ ميلادية ذلك موجود في كتاب (مكة والمدينة)، ولا يعرف على وجه الدّقة عدد الأوس والخزرج ، وإن كان معروفًا أن الجيش الذي فتح مكة عام ثمانٍ من الهجرة كان يضم أربعة آلاف مقاتل من هؤلاء العرب الذين هم الأوس والخزرج أو من الأنصار ، وهذا كله ساعد على تحرك وتحول السيطرة على يثرب إلى العرب بعد أن كانت هذه السيطرة لليهود.

ولهذا كله حاول اليهود تفتيت وحدة الأوس والخزرج ، ونجحوا في إذكاء العداوة بينهم حتى قامت الحروب بين الجانبين ، وكان آخرها يوم بُعَاث قبل الهجرة بخمس سنوات ، وكانت الغلبة في هذا اليوم للأوس بسبب تحالفهم -كما أشرنا. مع يهود قريظة وبني النضير ضدّ إخوانهم من الخزرج الذين طالما حقّقوا انتصارات على الأوس.

ورغم ذلك كما أشرنا -أيضًا. أن الطرفين نظروا فوجدوا أن المصلحة في التصالح وأن خطورة الحرب ؛ إنما تكون لصالح اليهود وليس لصالحهم ، فسعوا إلى هذه المصالحة وتبيّنوا أهميتها ولجئوا إليها ، وسنرى أن الدكتور/ أكرم ضياء العمري يذكر لجوءهم إلى هذه المصالحة في الجزء الأول من كتابه عن السيرة النبوية الصحيحة ، أما جورجي زيدان صاحب كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) فسيذكر طرقًا من الحروب بينهم قبل الإسلام في كتابه المشار إليه من قبل ، وهكذا كانت الأوضاع في يثرب.

والتقاء طائفتين مهمتين -هما : اليهود القادمون من الشمال ، والعرب القادمون من الجنوب. كان لهذا الأثر الأكبر في تقبّل المدينة للإسلام ، وفي بُزُوغ ضوء ذلك

الدين العظيم من تلك المنطقة العظيمة، لقد كان التقاء هاتين الطائفتين سببًا في ظهور الأشياء التي نشير إليها الآن.

أولًا: كون عرب يثرب أقرب العرب إلى الأديان السماوية؛ لكثرة ما سمعوا من اليهود عن الله، وعن الوحي، وعن البعث والحساب... إلى آخره.

ثانيًا: كان هناك -أيضًا- عداء شبه متواصل بين العرب واليهود، وكان اليهود دائمًا يفتخرون على العرب، ويقولون: "إنه تقارب زمان نبي يبعث نجد ذلك في كتبنا، فإذا بعث اتبعناه، وقوينا به عليكم، ونقتلكم بعونه قتل عاد وإرم" وإلى هذه الإشارة في قول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩]، وهذا ما قرّره ابن هشام، وقرّره ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد).

من ضمن العوامل -أيضًا- التي ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة المنورة ما أشرنا إليه من حروب بين الأوس والخزرج انتهت بالتصالح بينهما، وكل واحد منهما كان يبحث عن حليف يتعاقد معه، ويتقوّى به على الآخر، لهذه الأسباب سارع العرب إلى الإيمان بدعوة محمد ﷺ أول ما عرفوا بها عند العقبة -كما سنعرف فيما بعد. لماذا؟ حتى لا يسبقهم اليهود إلى الإيمان بهذا النبي الذي طالما بشروا به، وهدّدوا بأنهم سينضمون إليه، ويقتلون العرب قتل عاد وإرم، سارعت الخزرج حتى لا تسبقها الأوس، وسارعت الأوس حتى لا تسبقها الخزرج، فكان هناك لون من التسارع بين هؤلاء، وبين أولئك؛ للانضمام إلى الإسلام، هذا ما قرّره الأستاذ الدكتور/ أحمد شلبي في كتابه عن السيرة النبوية المطهرة، وهو الجزء الأول من موسوعته عن التاريخ، والحضارة الإسلامية.

هذا القتال الذي اشتدّ أُوَارُهُ بين سكان يثرب كان من بين العوامل التي أكسبتهم -أيضًا- قدرة قتالية متميزة جعلت منهم أبطال الإسلام عندما مَنّ الله عليهم باعتناق هذا الدين، ولما فُرض الجهاد كانوا أبطاله واستحقّ كل واحد منهم أن يفخر بذلك، وهو يُعلن استعداده للقتال يوم بدر، قال: "نحن أبناء الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر".

هذا ما أكّده رواة سيرة النبي ﷺ وذكرها -أيضًا- الدكتور/ حمدي شاهين في كتابه (دروس في السيرة النبوية المباركة).

لقد عبّرت أم المؤمنين السيدة عائشة < عن أثر الحروب والمنازعات في إقبال أهل المدينة على الإسلام فقالت: "كان يوم بُعَاث يومًا قدّمَه الله لرسوله ﷺ، فقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق ملأهم، وقتلت سراتهم -أي: خيارهم وأشرافهم- وجرحوا، قدّم هذا كله لرسوله ﷺ وكان سببًا في دخولهم لإسلام".

هذا -أيضًا- موجود عن الإمام البخاري، وموجود في (سيرة ابن هشام)، وعند الدكتور/ أكرم ضياء العمري (السيرة النبوية الصحيحة)، وكذلك موجود في مسند الإمام أحمد < بترتيب الشيخ البنا، وقد علق الشيخ على ذلك موضحًا أن رؤساء الأوس والخزرج قُتِلوا في ذلك اليوم، وإذ لو كانوا أحياء؛ لاستكبروا عن متابعة النبي ﷺ ولمنع حبّ رياستهم عن حبّ دخول رئيس عليهم، هذا شيء نجده عند واحد ممّن اهتموا بالسيرة النبوية المعاصرين وهو الدكتور/ يسري أحمد زيدان في كتابه (قراءة في السيرة النبوية المطهرة).

تلك نبذة صغيرة عن المدينة المنورة قبل الإسلام، وعن موقعها، وعن سكانها.

الكلام عن سكان المدينة قبل الهجرة، و حاجة الناس إلى الأمان

أ. سكان المدينة قبل الهجرة:

لم يُوفق الأوس والخزرج إلى وضع نظام لحكومة السهل، فعاشتا فيه مجموعتين قبليتين متجاورتين مستقلة الواحدة عن الأخرى، ونشب النزاع بينهما فكثرت الحروب وتعدّدت الوقائع، وكان الخزرج أكثر عددًا من الأوس، وكانوا كذلك أكثر أرضًا ومالًا، ولكن الأوس كانوا ذَوِي شوكة وضراوة في الحرب مكّنت لهم من الاحتفاظ بمكانهم برغم قلّة عددهم، وقد استعانوا باليهود في صراعهم مع الخزرج، وكان اليهود يرحبون بذلك ويعملون على توسيع شُقّة الخلاف بين الجانبين، ويجتهدون في تأييد الأوس ما أمكنهم ذلك، ولم يمنعهم هذا من الوقوف من الجانبين موقف العداء إذا اقتضت مصالحهم ذلك.

تلك هي كانت عناصر السكان الأربعة: القضاعيون، الخزرج، الأوس، ثم اليهود، وهذه العناصر الأربعة هي التي كانت تعمّر سهل المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليه، وينبغي أن نقرّر أنها بطبيعة تكوينها كانت عاجزة عن الانتفاع بالسهل كما ينبغي، ونتيجة لذلك عجزت عن الانتفاع برجالها وملكاتهم على نحو قريب مما كان المكيّون يصنعون في بلدهم، فكانت مساحات واسعة من السهل متروكة هملًا دون زراعة بل دون تمهيد، وكانت الوديان الجافة تشكّل عقبات حقيقية في اتصال أجزاء البلد بعضها ببعض دون أن يستطيع المدنيون إقامة قنطرة أو معبّر، وكان اتصال المدينة بطرق التجارة المارة غربها عسيرًا، ولم يكن ذلك الاتصال ممكنًا إلا من ناحية الشمال الغربي فحسب. أما من الغرب فكان الاتصال بطريق

التجارة غير ممكن بسبب مرتفعات وَعِرة لا يخترقها طريق ممهّد يسمح بمرور القوافل.

أما من ناحية الجنوب ناحية قباء ضاحية المدينة الجنوبية، فكانت هناك رمال سائلة لا يسهل على القوافل قطعها، فكانت هذه المدينة التي تقع على بعد كيلومترات يسيرة، شرقي طريق من أكبر طرق التجارة العالمية منقطعة تقريبًا على ذلك الطريق، وكأنها تقع على مسافة شاسعة منه، ومن ثمّ فلم تستطع أن تستفيد منه، في حين نجح المكّيون في أن يجعلوه موردًا رئيسيًّا لثروتهم، يدرّ عليهم أرزاقًا طائلة، ويجعل لمدينتهم مركزًا سياسيًّا كبيرًا في الحجاز، بل وفي جزيرة العرب كلها.

ومن المعروف أن مكة بفضل حسن استغلالها لطريق التجارة، كانت قد أصبحت من أزهر مدن الدنيا وأغناها خلال القرن السادس الميلادي، وهو القرن الذي سبق مجيء الإسلام، والسبب الرئيسي في قلّة توفيق المدنيّين في الاستفادة من سهلهم أو من موقعه الجغرافي هو أن عناصرهم السكانية كانت متخالفة متدابرة، فكانت القاعدة القضاعية -التي أشرنا إليها من قبل- حاقدة على اليهود، وعلى الأوس والخزرج جميعًا، بسبب استغلالهم إيّاها، وعجز أفرادها عن إقامة كيان قبلي مستقلّ لهم، يستطيع الثبات في وجه الطوائف الثلاث السائدة، وكان فريق منهم قد اختلط بالأوس، ونشأ عن ذلك فرع منهم يُعدّ من أقوى فروعهم، وهم بنو سماك بن عتيك، الذين منهم أسيد بن حضير الصحابي الباسل المعروف، لكن ذلك الاختلاط بالأوس لم يرفع مكانة القضاعيين فظلّوا على وضعهم الذي ذكرناه من قبل في أسفل السلم الاجتماعي في سهل المدينة.

أما اليهود فكانوا موزّعين في ثلاث مجموعات قبلية رئيسية هي: بنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو النضير، لعلنا نذكر ذلك، وكانت هناك مجموعات يهودية صغيرة أخرى تعيش في حلف فروع من الأوس أو الخزرج، فيقال: يهود بني عوف، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جُشَم، وغير ذلك، وقد أورد المؤرخون أسماء الكثير من فروع اليهود الصغيرة هذه، وقد وجدنا -كما ذكرنا. عددًا منها مذكورًا في الوثيقة، أو الدستور الذي كتبه الرسول ﷺ بين أهل المدينة، وكان بعض كبار اليهود يعيشون في آطام خاصة بهم كأنهم سادة إقطاعيون، مثل كعب بن الأشرف، الذي روعه انتصار المسلمين في بدر، فمضى يقلب الناس عليهم، ويحذرهم من امتداد الإسلام، وقد قتل هذا الرجل بعد موقعة بدر بقليل.

وكان سهل المدينة كله يسمّى المدينة، وهي كلمة كما يقول علماء اللغة: معربة من اللفظ السرياني "مدينة"، ويراد به البلد وحوزه، أي: المساحة التي يمتد عليها سلطانه، وفي سهل المدينة هذه قامت النواحي المأهولة كأنها واحات متناثرة مثل: قباء، ويثرب، والسنح، وسلع، وبعاث... إلى آخره، وكان بين المواضع العامرة مساحات من أرض خلاء مهملة لا يسكنها أو يفيد منها أحد، وكان العداء بين الأوس والخزرج مستمرًّا وشديدًا، على النحو الذي أشرنا إليه من قبل، وكان سبب الخلاف هو التنازع على السيادة، فقد كانت لكل منهما مناطقه التي ينشر عليها سيادته، ولم يكن من عادات القبائل العربية أن تحاول إحداها السيادة على الأخرى في مجالها، وإنما كان النزاع يقوم على مصادر الماء والواحات خارج منازل القبائل؛ لأن الماء كان أساس الحياة والثروة، وفي حالة الأوس والخزرج كانت العداوة نتيجة للخوف، خوف كل منهما من الأخرى، وخوفهما معًا من اليهود، ثم خوف أهل المدينة جميعًا من الأعداء الخارجيين، وهذا الخوف ينشأ عادة من قلة التفاهم أو انعدامه بين الجماعات البشرية المتجاورة في مكان محدود.

ب. حاجة الناس إلى الأمان:

إذا أردنا أن نتعرف على الظروف المباشرة التي مهدت لهجرة النبي ﷺ إلي المدينة المنورة، فإننا نستطيع أن نقول: إن هذه الظروف التي أشرنا إليها تجعل الحاجة شديدة في مثل هذه المجتمعات إلى الأمان، ويتمثل الأمان في صورة نظام عادل يتراضى عليه الناس، ويطمئنون إليه، يقوم عليه شخص أو أكثر من ذوي الحكمة، والعدالة، والشخصية القوية، فيكون هذه الشخص أو الأشخاص ضمانًا لتنفذ ذلك النظام عن طريق سلطان منظم، ومن الممكن أيضًا أن يتمثل الأمان في صورة شخص قوي، ذي فضيلة وقوة، يفرض نفسه على الناس، ويخضع الناس له، فيتولى الحكم فيهم، ويقيم النظام، وينشر الأمان، وكان الأوس والخزرج يحتاجون دون وعي منهم إلى ذلك الأمان والطريق إليه.

أما اليهود -القسم الآخر من سكان المدينة- فكانوا في انتظار المسيح الذي يرون -في مذهبهم الديني- أنه قادم يومًا من الأيام؛ لينصرهم على العالمين، وكانوا يؤكّدون لغيرهم أن ذلك المسيح المُخَلِّص قادم لا محالة، وكانت لهم فيه شروط معقدة، يزعم أحبارهم أنهم يعرفونها، وعندما ظهر السيد المسيح -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- عندما ظهر في فلسطين أنكروه وكذبوه؛ لأنه في رأيهم لم يستوفِ الشروط التي يعرفونها، وكان اليهود في المدينة يؤكّدون لغيرهم أن هذا المسيح إذا ظهر فسيتعزون به على غيرهم، ويبلغون به السيادة، وكان ذلك يثير مخاوف الأوس والخزرج وغيرهم من سكان سهل المدينة.

وعندما كانت الشدّة قد بلغت بمحمد ﷺ مبلغها في مكة بعد موت أبي طالب، والسيدة خديجة أم المؤمنين < مما اضطر معه إلى الخروج إلى الطائف، يبحث فيها عن الاستجابة التي لم يجدها من أهل مكة. عندما وجد النبي ﷺ نفسه في

هذه الظروف، كان الأوس والخزرج قد التقوا في معركة دامية عند بُعاث، انتصر فيها الأوس انتصارًا كبيرًا، فزادت مخاوف الخزرج، فبعثوا في العام التالي رسلًا إلى مكة يلتمسون المحالفة والمساعدة من أهلها، وما إن سمع محمد ﷺ بنبأ قدوم هذا الوفد حتى قصد إليه؛ ليعرض عليه الإسلام على طريقته في عرض نفسه على القبائل التي كانت تأتي إلى مكة المكرمة، زائرة أو معتمرة، وكان محمد ﷺ مجتهدًا أشد الاجتهاد، يبذل قصارى جهده في أداء رسالته ومهمته، لا يدع فرصة لإبلاغ الدعوة إلا ابتدرها وانتهزها، دون أن يعرف الملل سبيلًا إلى قلبه، غير أنه لم يجد عند رجال هذا الوفد قبولًا؛ لأنهم كانوا في هذه الآونة مشغولين بموقفهم وخوفهم الشديد من الأوس.

وهذه المحاولة من جانب محمد ﷺ تضع يدنا على نقطة البداية في اتصاله بالمدينة، ذلك الاتصال الذي أدى إلى الهجرة، ثم إلى قيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة، وإلى خطوات الاتصالات بينه وبين أهل المدينة التي هي معروفة بعد ذلك، إذ إنه بعد عام من اتصاله بوفد الخزرج، اتصل بوفد من الأوس فلقي عندهم قبولًا، ووعدوه بأن يبلغوا قومهم، وينشروا الدعوة بينهم، ويلقوه في بحر عام؛ ليعقدوا معه اتفاقًا ثابتًا، فأرسل معهم مندوبًا من طرفه، هو مصعب بن عمير > لكي يعمل على نشر الإسلام بينهم، ويدرس أحوال الناس في المدينة عن كَثَب وعن قرب.

نقول: ليعقدوا معه اتفاقًا. والآن نسأل ما أساس هذا الاتفاق؟

والجواب الذي يقدمه لنا مؤرخو السيرة النبوية، هو أن أساس الاتفاق كان دخول أهل المدينة في الإسلام، وتعهدهم بحماية الدين والرسول المبشر به، وهذا صحيح، لكن هذه كانت مطالب محمد ﷺ، فماذا كانت مطالب أهل المدينة؟

الجواب: أنهم كانوا يرجون الأمان إذ توسم فيه الفريقان "الأوس والخزرج"، القدرة على أن يكون واسطة خير والتفاهم من بينهم، وأحسوا في أثناء حديثه معهم أنه الرجل المرتجى، القادر على التأليف بين قلوبهم، وجمع كلمتهم على مبادئ الدين السامي الذي شرحه لهم، وأدركوا منذ الوهلة الأولى، أن هذا الدين في الحقيقة رسالة سماوية، تشبه تلك التي كان اليهود يتحدثون عنه، ويهددون بها غيرهم، وكان من أظهر صفات الرسول ﷺ أن إخلاصه كان ظاهرًا في كلامه، وأنه كانت له شخصية غلابة قادرة على إقناع من يكلمه بصدق ما يقول، إلا إذا كان ذلك الغير مصرًّا على الاستكبار والإنكار، متمسكًا بمصالح شخصية أو قبلية يخشى ضياعها.

والمهم لدينا الآن أن أهل المدينة الذين اتصلوا بمحمد ﷺ وتفاهموا معه، واقتنعوا بصدقه فيما أبلغهم به من نبوته، فمالوا إلى الدخول في دعوته وتأييده، وكما كانت المدينة في ذلك الحين محطًّا لآمال الرسول ﷺ في إنشاء الجماعة الإسلامية الأولى، وهي الخطوة الأولى لتثبيت أقدام الإسلام على الأرض. فكذلك تمثلت رئاسة محمد ﷺ لأهل المدينة حلًّا لمشكلاتهم الكبرى، وهي الأمان، وكان السبيل إلى ذلك الأمان هو الاجتماع على الإسلام الذي بشرهم به الرسول ﷺ، وقد تطابق المطلبان -مطلب محمد ﷺ ومطلب أهل المدينة تطابقاً. تطابقًا تامًّا، يُعدّ من أسعد مصادفات التاريخ، ولهذا دخل أهل المدينة جميعًا عدا غالبية اليهود في الدين الجديد ونظامه، وأطاعوا محمدًا ﷺ بالفعل حتى قبل قدومه عليهم، وقد ظهر ذلك بوضوح في بيعة العقبة الثانية التي يُفهم منها أن مندوبي الأوس والخزرج اعترفوا بمحمد ﷺ رئيسًا لجماعة المدينة كلها، وإن لم ينصّ على ذلك صراحة، ويؤيّد هذا الفرض ما نعرفه من خلال قراءتنا في كتب السيرة النبوية المباركة، من دخول عدد عظيم من أهل المدينة في الإسلام قبل هجرة النبي ﷺ إليها، وكان خروج أهل المدينة للقائه عندما وصل إليهم بعد ذلك اعترافًا منهم بقيادته لهم ﷺ.

إخبار جبريل # للنبي ﷺ بتآمر المشركين عليه، والإذن له بالهجرة

لقد جاء جبريل # إلى رسول الله ﷺ وأخبره بتآمر قريشٍ والمشركين وما اتفقوا عليه في دار الندوة، وأعلمه بإذن الله ﷻ له في الهجرة إلى المدينة، وحدّد له وقتها، وطلب منه ﷺ ألا يبيت في فراشه الذي تعوّد المبيت عليه في هذه الليلة، وأمره ألا ينام في مضجعه، وكشف له عما دبّروه وما أسروه وما أعلنوه، قال ﷻ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس: ٧٦].

وبالفعل بدأت خطوات تنفيذ أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالهجرة. لنستمع معًا إلى أم المؤمنين السيدة عائشة > وهي تقول: "إن النبي ﷺ أتى منزلهم -يعني: أتى إلى منزل والدها الصديق > وقت الهاجرة في منتصف النهار عند شدّة الحرّ، وهي ساعة كان ﷺ لا يأتيهم فيها، وإنما يأتيهم في أول النهار، أو في آخره في المساء، فلما رآه أبو بكر > في الوقت الذي جاء فيه، والذي لم يكن مألوفًا إتيانه ﷺ فيه، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر جلل".

قالت أم المؤمنين عائشة > : "فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في حرّ الظهيرة قال قائل: لأبي بكر > هذا رسول الله ﷺ متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله، ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر"، ثم قالت } : "استأذن النبي ﷺ فأذن له، ولما دخل تأخر له أبي بكر > عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ((أخرج من عندك))، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، أو قال: إنما هم أهلك، ثم سأل الصديق > النبي ﷺ قائلًا: وما ذاك فداك أبي وأمي؟، فقال ﷺ: ((إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة))".

قالت السيدة عائشة < : "إن أبا بكر قال: الصحبة يا رسول الله"، وفي رواية: "الصحابة، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال ﷺ: ((نعم الصحبة))"، قالت < : "فوالله، ما شعرت قط قبل ذلك أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ. ثم قال < : يا رسول الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، -قال أبو بكر-: فخذ -بأبي أنت يا رسول الله- إحدى هاتين الراحلتين، قال رسول الله ﷺ: ((بالثمن))، فاستأجر عبد الله بن أريقط من بني عدي هاديًا خِرِّيتًا -يعني: ماهراً.، وكان مشركًا، يدلهما على الطريق؛ فدفع إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما".

وبعد هذا الاتفاق على خطة تنفيذ أمر الله ﷻ بالهجرة إلى المدينة عاد النبي ﷺ إلى بيته ينتظر مجيء الليل، وعندما حل الظلام كان هناك أحد عشر رئيسًا من زعماء القوم من المشركين، هؤلاء -كما في كتاب (زاد المعاد) لابن القيم الجوزية- هم: أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، هذه المجموعة من المشركين اجتمعوا عند باب النبي ﷺ متيقظين متربصّين، يرصدون موعد نوم النبي ﷺ، ومتى تغفل عيناه؛ ليثبوا عليه -كما اتفقوا في دار الندوة- ويضربوه ضربة رجل واحد حسبما نصّ عليه اتفاقهم، ورأى النبي ﷺ مكانهم، فطلب من ابن عمه علي بن أبي طالب أن يبيت على فراشه قائلًا له: ((نَمْ على فراشي، وتسجى -يعني: تغطى- ببردي هذا الأخضر الحضرمي، فنم، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم))، وكان النبي ﷺ ينام في برده هذا إذا نام، ثم خرج رسول الله ﷺ وسط هؤلاء المشركين المجتمعين، وقد أخذتهم سنة من النوم، فأخذ حفنة من تراب في يده ﷺ، وأخذ الله على أبصارهم فلم يروه وجعل ﷺ ينثر التراب على رءوس

القوم وهو يردد: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١- ٩].

فلم يبق رجل إلا وقد سقط التراب على رأسه، ومضى النبي ﷺ إلى حيث أراد، والقوم يتطلعون فيرون عليًّا > مسجًى على الفراش، مغطًّى ببرد رسول الله ﷺ الأخضر الحضرمي –يعني: الذي أتى من حضرموت- فيقولون: والله، إن هذا لمحمد نائمًا وعليه برده، ولما طال انتظارهم جاءهم رجل ممن لم يكن معهم رآهم من فتحة في بابه، فقال لهم: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا محمدًا، قال: خبتم وخسرتم، قد -والله- مرّ بكم، وذرّ على رءوسكم التراب، قد -والله- خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، قالوا: والله، ما مرّ بنا، قال: لقد مرّ بكم، وذر على رءوسكم التراب، قالوا: والله، ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم، ثم تطلعوا من ثقب الباب فرأوا عليًّا > نائمًا، فقالوا: إن هذا لمحمد نائمًا عليه بردّه الأخضر، واستمروا كذلك على هذا الحال حتى أصبحوا فإذا بعلي > يقوم عن الفراش، فأيقنوا أن رسول الله ﷺ قد نجا من مكرهم، قالوا هذه العبارة: والله، لقد صدقنا الذي كان حدثناه، وتوجهوا إلى علي > وأخذوا في ضربه، وسحبوه إلى الكعبة المشرفة، وحبسوه هناك ساعة في محاولة منهم لمعرفة شيءٍ عن محمد ﷺ فلم يظفروا منه بشيء، وأكد لهم > أنه لا علم له بمحمد ﷺ.

وهنا يذكر العلماء السبب المانع لهم من التهجم على علي > في الدار مع قصر الجدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله، فذكر الخبر أنهما هموا بالولوج عليه -يعني هموا بدخول الدار عليه- فصاحت امرأة من الدار؛ فقال بعضهم لبعض: إنها المسبة في العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، وفي هذا دليل على ما كان عند العرب من نخوة رغم أنهم غير مسلمين، ولكنهم لا يجيزون لأنفسهم انتهاك الأعراض أو ترويع الآمنين، أو التسور على النساء.

وأيًّا ما كان الأمر فقد سجّل القرآن الكريم تآمر هؤلاء المشركين، وما جرى منهم في دار الندوة في قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وفي قولهﷻ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١].

وحين خرج رسول الله ﷺ لم يعلم بخروجه أحد إلا أبو بكر الصديق > ، وعلي بن أبي طالب > ، وآل أبي بكر، أما عليّ بن أبي طالب فقد أمره النبي ﷺ أن يتخلّف بمكة المكرمة، وأن يبقى بها بعده حتى يؤدّي عن رسول الله ﷺ الوَدَائع التي كانت عنده للناس؛ ذلك أنه لم يكن أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه وديعة عند المصطفى ﷺ؛ لما يعلم إلى درجة اليقين من صدقه ﷺ ومن أمانته.

ومهما يكن من أمر فإن رسول الله ﷺ لما أجمع أمره على الخروج أتى أبا بكر > فخرج من خوخةٍ في ظهر بيته أي: من فتحةٍ جانبيةٍ بين المساكن خلف بيت الصديق > ثم عمدا معًا -يعني: توجها معًا. إلى غار بجبل ثور الذي يقع

جنوب غربي مكة في اتجاه اليمن، في طريق غير الطريق الرئيسي الموصل إلى المدينة المنورة، يبعد عن أم القرى -يعني: يبعد عن مكة- نحو خمسة أميال -يعني: نحو ثمانية كيلو مترات-، ويقع هذا الغار في جبل شامخ صعب المرتقى -يعني: أن الصعود إليه ليس أمرًا سهلًا.، وقد دخله المصطفى ﷺ وصاحبه الصديق > في شهر صفر سنة ثلاث عشرة من البعثة، الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر سبتمبر سنة ستمائة اثنين وعشرين من التقويم الميلادي؛ وذلك بعد أن اختبر الصديق > المكان -يعني: دخله وحده أولًا. ومسح المكان خشية أن يكون فيه شيء يؤذي رسول الله ﷺ.

ومما يذكر في هذا المقام: أن أبا بكر > أثناء الهجرة كان يمشي ساعة بين يدي رسول الله ﷺ، وساعة خلف رسول الله ﷺ حتى فطن رسول الله ﷺ لذلك؛ فسأله، فقال له أبو بكر: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فقال: يا أبا بكر، لو كان شيءٌ أحببت أن يكون بك دوني، قال: نعم، والذي بعثك بالحق، ثم دخلا معًا الغار بعد اختبار الصديق > له.

وتشير رواية (صحيح البخاري) إلى أن رسول الله ﷺ وأبا بكر ركبا فانطلقا حتى أتيا الغار -وهو بثور-، وثمة رواية حسنة تفيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته؛ حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فلبس علي > ثوبه، ونام مكانه، واخترق رسول الله ﷺ حصار المشركين دون أن يروه بعد أن أوصى عليًّا بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به؛ فجاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله، تقول الرواية: "فقال أبو بكر: يا نبي الله، فقال له علي: إن نبي الله ﷺ قد انطلق نحو بئر ميمون، وهذه البئر تقع في سبيل الست في طريق منى، قال: فانطلق أبو بكر فدخل مع النبي ﷺ الغار، وجعل علي يرمى بالحجارة كما كان يرمى نبي الله ﷺ، وهو -أي: علي- يتدور قد لف رأسه في الثوب لا يخرجه

حتى أصبح، ثم كشف عن رأسه فقالوا: إنك للئيم كان صحابك نرميه فلا يتدور، وأنت تتدور وقد استنكرنا ذلك".

لكن هذه الرواية لا تقوى على معارضة ما في (الصحيح)، كما يقرّر ذلك الأستاذ أكرم ضياء العمري في كتابه ودراساته عن السيرة النبوية الصحيحة، وما بهذه الصفحات من مصادر.

ومهما يكن في الأمر فقد كان أبو بكر > قد أمر ابنه عبد الله -، وهو غلام شاب ثقفٌ لقنٌ أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارًا، أي: ينصت لما يقول الناس من أهل مكة حول رسول الله ﷺ، وحول صاحبه في لحظات النهار، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من خبر، وكان الصديق أيضًا قد أمر مولاه أي: العامل عنده- عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهارًا، ثم يريحها عليهما ويأتيهما إذا أمسى في الغار؛ ليتزودا بلبنها، كذلك كانت أسماء بنت أبي بكر > تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، وأقام رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر > في الغار ثلاث ليالٍ: ليلة الجمعة، وليلة السبت، وليلة الأحد.

أما عن قريش فقد جن جنونها حين تأكد زعماؤها من نجاة رسول الله ﷺ وكيف أن الله أنقذه من كيدهم، حاولوا الحصول على شيء من الإمام علي > -كما أشرنا. فكان نصيبهم الفشل؛ فتوجهوا إلى منزل الصديق >، ووقف أبو جهل علي بابه في نفر من القرشيين وخاطب ابنته أسماء قائلًا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: والله، لا أدري أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده ولطم خدها لطمة شديدة كانت سببًا في طرح قرطها من أذنها، ولم يعد أمام الكفار إلا أن يجعلوا مائة ناقة -وهذا مبلغ ضخم، ومكافأة ضخمة بمقياس ذلك الزمان- هذه المائة ناقة لمن يأتي بالنبي ﷺ وبصاحبه، ويردهما حيين أو ميتين إلى القرشيين.

أما عبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة، فقد نفّذ كل منهما ما طلب منه، وكان عبد الله إذا غدا من عندهما إلى مكة بعد إخبارهما بما عليه الحال هناك اتبع أثره عامر بن فهيرة ومعه الغنم حتى يعفي عليه -أي: يزيل كل أثر لوجوده-، ولما مضت الليالي الثلاث، وسكن عنهما الناس، ولم يعد هناك طلبٌ كما كان في الأول أتاهما صاحبهما الذي استأجراه لهذه المهمة عبد الله بن أُريقط، أتاهما ببعيريهما اللذين تركاهما عنده، بالإضافة إلى بعير له ليستخدمه هو، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر { بسفرتهما، سفرتهما أي: ما يلزمهما من طعام، ونسيت أن تجعل لها عصامًا -أي: رباطًا. يعني نسيت أن تربطها بشيء، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق الشعيرة، فإذا بها ليس لها عصام، فحلت نطاقها -وهو أشبه بالإزار- فجعلته اثنين، وجعلت أحد هذين الاثنين عصامًا علقت به -يعني: ربطت به- وانتطقت بالنصف الآخر -أي: جعلته نطاقًا لها.، ومن هنا جاء لقبها < : ذات النطاقين.

معجزات حدثت للنبي ﷺ والصديق في الغار، وفشل كفّار مكة في الوصول إليه

من آيات الله أن رسول الله ﷺ عندما دخل الغار هو وصاحبه بعث المولى ﷻ العنكبوت، فنسجت ما بين الغار والشجرة التي كانت في مدخل الغار، وأتت حمامتان وحشيتان بأمر الله ﷻ فأقبلتا حتى وقعتا بين الشجرة وبين العنكبوت، وفي اقتفاء المشركين أثر المهاجرين وصلوا إلى فم الغار، ولم يبقَ بينهم وبين الوصول إلى مرادهم إلا أن ينظر أحدهم تحت قدميه، ولكن الأمر اختلط عليهم فلم ينظروا عندما رأوا نسج العنكبوت على باب الغار.

يقول علماء السير، وكذلك جاء في (مسند البَزَّار): إن الله ﷻ أمر شجرة فنبتت في وجه الغار فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته، وأمر حمامتين فوقعتا بفم الغار، واقتفى الأعداء الأثر حتى وصلوا الغار، وكانوا من النبي ﷺ قدر أربعين ذراعًا، نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع؛ فقال له أصحابه: مالك لم تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمع النبي ﷺ قوله فعرف أن الله قد درأ عنه بهما.

ونذكر في هذا الموقف خطاب أبي بكر > لرسول الله ﷺ قائلًا: "يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه أبصرنا"، فقال له ﷺ بلغة الواثق المطمئن: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))، وهذا هو ما سجله القرآن الكريم في آيات بينات تتلى إلى يوم الدين في كتاب الله ﷻ؛ حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومهما يكن من أمر فقد ركب رسول الله ﷺ بعيرًا، وركب أبو بكر بعيرًا، بعد أن صمّم النبي أن يدفع ثمن بعير، وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فُهيرة خلفه، يعني: أركبه خلفه على الناقة؛ ليخدم النبي ﷺ وأبا بكر في الطريق.

وبذلك يمكننا أن نقول: إن حادث الهجرة قد شهده فقط أربعة أشخاص هم: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق >، وعامر بن فهيرة >، وعبد الله بن أريقط الليثي خبير الطريق الذي كان لا يزال على شركه.

وجدير بالذكر أن الصديق > خرج بماله كله خمسة أو ستة آلاف درهم، خرج بها جميعًا أثناء هجرته مع رسول الله ﷺ، وقد اضطرت ابنته أسماء > أن تضع حجارة في فوة بالبيت -يعني: في فتحة في البيت- حيث كان الصديق > يحتفظ بماله، ثم وضع عليها ثوبًا، وأمسكت بيد جدها -والد أبي بكر، وكان كفيف البصر- لتضعه في ذلك الموضع حتى توهمه أن ابنه أبا بكر قد ترك لهم مالًا.

تقول السيدة أسماء > : والله، ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكن الشيخ -يعني: أردت أن أطمئن الشيخ- أن أبا بكر قد ترك لنا شيئًا من المال.

رحلة النبي ﷺ وهجرته من مكة إلى المدينة

مضى النبي ﷺ ومن معه في طريقهم إلى المدينة المنورة، قال أبو بكر > : "أخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلًا"، ووقعت معجزة للنبي ﷺ في طريق الهجرة سجّلها الصديق > قال: "أسرينا ليلتنا -يعني: مشينا بالليل- كلها حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظلّ لم تأتِ عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانًا ينام فيه النبي ﷺ في ظلّها، ثم بسط عليه فروًا، ثم قلت: نَمْ يا رسول الله، وأن أنفض لك ما حولك، فنام ﷺ"، ثم حكى أبو بكرٍ خبر مرور راعٍ بهما فطلب منه لبنًا، وصادف استيقاظ الرسول ﷺ فشرب، ثم قال: "ألم يأنِ الوقت للرحيل؟ قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس، واتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جَلَدٍ من الأرض"، أي في أرض صلبة مستوية، وهذا مذكور في (فتح الباري).

وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث أيضًا خبر نزول رسول الله ﷺ، ونزول أصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القرى -أي: طعامًا يقدم للضيفان- فاعتذرت لهم السيدة -كما سيأتي-؛ لعدم وجود طعام عندها إلا شاة هزيلة لا تدرّ لبنًا، فأخذ النبي ﷺ الشاة فمسح ضرعها بيده، ودعا الله وحلب في إناء حتى علت الرغوة، وشرب الجميع، لكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية، أخرجها ابن إسحاق، كما أخرجها البيهقي في (دلائل النبوة) من رواية يونس بن بكير عنه -يعني: عن ابن إسحاق-.

ولكن هناك رواية صحيحة يرويها الصحابي الجليل قيس بن النعمان السكوني ونصّها: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر > يستخفيان نزلا بأبي معبد، فقال: والله، ما لنا شاة، وإن شاءنا -يعني: شياهنأ. حوامل فما بقي لنا لبن، فقال رسول الله ﷺ: ((أحسبه فما تلك الشاة؟)) فأتى بها، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عسًا فسقاه ثم شربوا، فقال: أنت الذي يزعم قريشٌ أنك صابئ، قال ((إنهم ليقولون))، قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك؟ قال: ((لا. حتى تسمع أنا قد انتصرنا وظهر أمرنا)). تقول الرواية: فاتبعه بعد ذلك.

وهذا الخبر فيه معجزة حسية للرسول ﷺ شاهدها أبو معبد هذا فأسلم، وهذا ما يقرره الأستاذ أكرم ضياء العمري في (السيرة النبوية الصحيحة)، وما هناك من مصادر.

ولندع رواية سراقة بن مالك تكمل الخبر التاريخي ففيها تفاصيل تكشف المعجزة النبوية، قال سراقة الذي أشرنا إليه من قبل: (لما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة جعلت قريشٌ فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم)، قال سراقة: "فبينا أنا

جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال: والله، لقد رأيت ركبةً ثلاثة مروا عليّ آنفًا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه -قال-: فأومأت إليه بعيني أن أَسْكُتْ، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، ثم قال: لعلهم، ثم قال: سكت، قال سراقة: ثم مكثت قليلًا، ثم قمت قد خليت بيني وبين فرسي، ثم أمرت بفرسي فقُيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي بعد أن دخلت بيتي فأخرج لي من دور حجرتي، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها –أي: أستشيرها كما كان يفعل المشركون- ثم انطلقت فلبست لأمتي -يعني لبست دروعي- ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها؛ فخرج الذي أكره -يعني لا يضر- يعني كأن القداح تقول له: إنك لن تضر الذي ابتغيته، ولن ينال منك رسول الله ﷺ شيئًا، قال سراقة: وقد كنت أرجو أن أردّه على قريش -يعني: أن أعيد النبي ﷺ- إلى قريش- فآخذ المائة ناقة، قال: فركبت على إثره، فبينا فرسي يشتدّ بي عثر فسقطت عنه، قال: فقلت ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره -أي: لا يضره- قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في إثره، فبينا فرسي يشتد بي عثر، فسقطت عنه، قال: فقلت ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره -يعني: لا يضر، يعني: لن تضر رسول الله ﷺ قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في إثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض –يعني: ذهبت الرجلان الأولان في الأرض، ساختا فيها فذهبت يداه في الأرض- وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كأنه الإعصار، قال: فعرفت، حين رأيت أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر -يعني منتصر على أعدائه- قال: فناديت القوم؛ فقلت: أنا سراقة بن جعشم أنظروني أكلمكم، فوالله، لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه، قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر:

((قل له: وما تبتغي منا؟)) فقال له ذلك أبو بكر، فأخبرتهم بأمر الدية، وما يريد الناس بهم، ثم قلت: تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك، قال: اكتب له يا أبا بكر، أو اكتب له يا عامر بن فهيرة، فكتب لي كتابًا في عظم، أو في رقعة، أو في خزفة –يعني: قطعة من الخزف- ثم ألقاه إلي فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئًا مما كان"، ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وإسلامه على النحو الذي سيأتي إن شاء الله، لكنّ الذي ذكر الخبر الذي مر بإسناد صحيح هو ابن هشام >، وهو أيضًا موجود في (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

وقد ذكر سراقة في رواية صحيحةٍ أنه اقترب من الاثنين، يعني: من النبي ﷺ ومن أبي بكر الصديق >، حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو -أي: النبي ﷺ لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئًا، وأن وصيته كانت: اخف عنا، هذا موجود في (صحيح البخاري فتح الباري).

وتذكر رواية صحيحة أيضًا: أنه صار آخر النهار مسلمة، يعني: مسالمًا للنبي ﷺ بعد أن كان جاهدًا عليه أول النهار، وأن الرسول ﷺ هو الذي دعا عليه، فصرعه الفرس.

وقد احتاط الاثنان النبي ﷺ والصديق > في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق، فإذا سئل أبو بكر > عن رسول الله ﷺ قال: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني يهديه الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، وقد صحّ أن الدليل الذي استأجراه أخذ بهم طريق السواحل على النحو الذي فسره ابن إسحاق، وفسره أيضًا الحاكم، أما ابن إسحاق فروايته موجودة فيما

رواه ابن هشام عن أستاذه البكائي، وأما الحاكم فقد ذكرها في (المستدرك)، وانظر ذلك عند الأستاذ أكرم ضياء العمري في (السيرة النبوية الصحيحة).

ونعود مرة أخرى إلى قصة سراقة؛ لنقرّر أن الرجل انطلق إلى المهاجرينِ صباحًا يبغي قتلهما، وعاد في المساء يصرف الناس عنهما، فلما كان فتح مكة، وفرغ رسول الله ﷺ من حنين ومن الطائف، يقول سراقة: "خرجت ومعي الكتاب فدنوت من رسول الله ﷺ فرفعت بيدي الكتاب، فقلت: يا رسول الله، هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جشعم، فقال رسول الله ﷺ: ((هذا يوم وفاء وبر، ادْنه)) -يعني: قرب هذا الكتاب مني-، فدنوت منه فأسلمت، ثم رجعت إلى قومي، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي".

وهنا يحسن بنا أن نذكر أن رسول الله ﷺ قال لسراقة عندما لقيه في هذا الموقف العصيب حالك الظلام أثناء الهجرة: "كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟" الشيء الذي يؤكّد ثقة رسول الله ﷺ في تحقيق ما وعده به ربه ﷻ من إعزاز دينه، وإظهار أمره، وقد نفذ عمر بن الخطاب > ذلك، عندما تم فتح المدائن عاصمة الفرس في زمن عمر بن الخطاب > .

وإذا كنا قد فرغنا من قصة سراقة وما تضمنته من آيات، ومعجزة حسية لرسول الله ﷺ فإن المنهج يفرض علينا أيضًا أن نعرض معجزة حسّية أخرى كانت لرسول الله ﷺ، في طريق هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وإذا كنا قد أشرنا إليها من قبل فإننا نتناولها الآن اعتمادًا على الروايات الصحيحة التي ذكرت لنا هذه المعجزة الحسية.

فقد روى الحاكم وصححه، كما روى الطبراني، وروى ابن سعد، والبيهقي عن أبي معبد، وابن السكن عن أم معبد < وهي عاتكة بنت خالد بن نظيف

الخزاعية، روى هؤلاء كما روى غيرهم: "أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو وأبو بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهم الليثي عبد الله بن الأُرَيْقِط مرّوا على خيمة أم معبد الخزاعية، وهي لا تعرف النبي ﷺ وكانت برزة جلدة تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وإذا القوم مُرمِلون مسنون، فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناه، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جسر الخيمة -وفي لفظ: في كفاء البيت-، فقال: ((ما هذه الشاة يا أم معبد؟)) قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم -يعني: هي متعبة فلم تستطع أن تخرج لترعى مع بقية الغنم- فقال لها ﷺ: ((هل بها من لبن؟)) قالت: هي أجهد من ذلك، قال: ((أتأذنين لي أن أحلبها؟)) قالت: بأبي أنت وأمي نعم، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فوالله ما ضربها فحل قط، فشأنك بها؛ فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها وظهرها، وسمى الله ﷻ ودعا لها في شاتها، فتفاجّت عليه ودرّت واجْتَرّت، ودعا بإناء يربض -يعني يروي حتى النوم- يربض الرهط، فحلب فيه ثجًّا حتى علاه البهاء -وفي لفظ: حتى علاه الثمال، أي: الرغوة- ثم سقاها حتى رويت، ثم سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، وقال: ((ساقي القوم آخرهم شربًا))، ثم حلب فيه ثانيةً بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، فبايعها وارتحلوا عنها".

وروى ابن سعد، وأبو نعيم عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة، وهي سنة ثماني عشرة من الهجرة، في زمن سيدنا عمر بن الخطاب > وكنا نحلبها صبوحًا، وغبوقًا، وما في الأرض قليل ولا كثير.

وقال هشام بن حبيش: "أنا رأيت الشاة، وإنها لا تأدم أم معبد وجميع صرمتها -أي: أهل ذلك الماء- فقلما لبثت -أي: بعد قليل- جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا حبالًا -أي: غير حوامل- عجافًا يتساوكن هزالًا، مخهن قليل -أي: تتمايل من ضعفها. ولحمها قليل، فلما رأى اللبن في منزله عَجِب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاة عازب، ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حالة كذا وكذا، قال: صفية لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلًا ظاهر الوضاءة، أبْلَج الوجه -يعني: مشرق الوجه- حسن الخلق، لم يعبه ثَجْلَةٌ - الثجلة: عظم البطن واسترخاء أسفله، يعني: لم يكن عظيم البطن- لم تذر به صَعْلَةٌ -يعني: لم تكن رأسه صغيرة- وسيمٌ قسيمٌ، في عينيه دَعْج -دعج يعني: سواد في عينيه- وفي أشفارة وَطَفٌ - الوطف هو الطول- وفي صوته صَحَلٌ أو صَهَل -يعني: بحة-، وفي عنقه سَطَع -السطع أيضًا الطول- وفي لحيته كثاثة، أزَجَّ أقْرَن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأعلاهم من قريب، حلو المنطق -المنطق يعني: النطق، نطقه حسن- فَصَلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، كأن منطقه خرزات نظم يَتَحدَّرن، وربْعَةٌ لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر -لا تقتحمه عين أي: لا تحتقره عين من قصر- غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، وهو رفيق يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفودٌ -يعني: يخدمه أصحابه- مَحْشودٌ لا عابسٌ ولا مفنّد -المفند الهرم الكبير السن- فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريشٍ الذي ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلًا". وهذا النص موجود عن الصالحي الشامي في كتابه: (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد).

وروى البيهقي بسند حسن، والحافظ ابن كثير عن أبي بكر < قال: "خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حيٍ من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيتٍ منتحيًا فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة، فقالت: يا عبدَي الله، إنما أنا امرأة وليس معي أحد، فعليكما بعظيم الحي إن أردتم القرى -يعني: إن أردتم واجب الضيافة- قال: فلم نجبها وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعنز يسوقها، فقالت له: يا بني، انطلق بهذه العنزة والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما: تقول لكما أمي اذبحا هذه واطعمان، فلما جاء قال له النبي ﷺ: ((انطلق بالشفرة وجئني بالقدح))، قال: إنها عازب، وليس لها لبن، قال: انطلق، فانطلق فجاء بقدح، فمسح النبي ﷺ ضِرعها، ثم حلب ملء القدح، ثم قال: ((انطلق به إلى أمك))، فشربت، ثم رويت، ثم جاء به، فقال: ((انطلق بهذه وجئني بأخرى)) ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك، ثم شرب النبي ﷺ فلبثنا ليلتين، ثم انطلقنا، وكانت أم معبد تسمي النبيﷺ باسم المبارك، وكثرت غنمها حتى حلبت حلبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر < فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمّه، إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك فقامت إليه، فقالت: يا عبد الله، مَن الرجل الذي كان معك؟ قال: وما تدرين؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله ﷺ قالت: فأدخلني عليه، قال: فأدخلها، فأطعمها، وأعطاها"، وفي رواية: "فأهدت إليه شيئًا من أقط -يعني: شيئًا من لبن مجفف- قال: ولا أعلم إلا قال: أسلمت".

قال البيهقي في (الدلائل): وهذه القصة وإن كانت تنقص عما رويناه في قصة أم معبد، وتزيد في بعضها، فهي قريبة منها، ويشبه أن تكون واحدة.

وقد ذكر ابن إسحاق في قصة أم معبد شيئًا يدل على أنها وهذه القصة شيء واحد: قد طلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: أرأيت محمدًا من حليته كذا وكذا؟ فوصفوه لها، فقالت: ما أَدْري ما تقولون، فقد ضافني حالب الحائل، قالت قريش: فذلك الذي أردنا.

قال البيهقي: فيحتمل أولًا أنه رأى التي في كسر الخيمة، كما روينا في حديث أم معبد، ثم رجع ابنها بأعنز كما روينا، ثم لّما رجع زوجها وصفته له، والله أعلم.

وهذه أيضًا ما ذكره صاحب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد). هذا ما كان من أمر النبي ﷺ في الطريق من مكة، ومنذ خرج من غار ثور مهاجرًا إلى المدينة المنورة.

أما عن أهل ثور فسنعرض لها بإيجاز، ثم نفصلها بعد ذلك.

أما أهل المدينة فعندما سمعوا بخروجه ﷺ من مكة إليهم، فإنهم كانوا يقفون في كل يوم حتى يغيب الظل مما يدل على شدة حبهم لرسول الله ﷺ الذي أحبهم من كل قلبه، وأخيرًا قدم رسول الله ﷺ فكان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته قائلًا: يا بني قَيْلة –يعني: الأنصار- هذا جَدُّكم قد جاء، يقول راوي الخبر: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وأكثرنا لم يكن رآه قبل ذلك، وركبه الناس -يعني تزاحموا عليه- وما يعرفونه من أبي بكر > حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك، وإن السكينة تغشاه، والوحي يتنزل عليه، وإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، كما ذلك في سورة التحريم.

وكان قدوم رسول الله ﷺ المدينة المنورة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من البعثة النبوية المباركة، الموافقة سنة ستمائة واثنين وعشرين من الميلاد.

أما خروجه ﷺ من الغار فكان أول يوم من ربيع الأول في نفس السنة، وقد أقام ﷺ بقباء أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس بها مسجد قباء، أول مسجد أسس على التقوى، وصلى فيه ﷺ وفي اليوم الخامس يوم الجمعة أدّى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في المسجد الذي كان ببطن الوادي، وصلى مع النبي ﷺ مائة رجل، ثم مضى المصطفى ﷺ يمتطي ناقته، ويطلب من كل من أراد أن ينال شرف نزول النبي عنده - أن يدع الناقة، فإنها مأمورة، فلما بركت حمل أبو أيوب خالد بن زيد الخزرجي الأنصاري، حمل رحل النبي ﷺ فوضعه في بيته، ونزل عنده رسول الله ﷺ وظلّ الرجل وزوجته يتبركان برسول الله ﷺ طوال فترة إقامته، ثم أمر النبي ﷺ أن يُبنى مسجده النبوي هناك، وتغير اسم يثرب لتصبح: المدينة المنورة، وبقي ﷺ في منزل أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وأسهم ﷺ في العمل مع المهاجرين والأنصار، ترغيبًا في العمل، وحبًا فيه، وكان ﷺ ينشد قائلًا وهو يعمل:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فارحم الأنصار والمهاجرة))

وبعد فراغه من البناء انتقل النبي ﷺ إلى مساكنه وحسبنا هذا القدر من الحديث الموجز الآن.

نقول: إنه > بقي بمكة ثلاث ليالٍ بأيامها، حتى أدى الودائع التي كانت عند النبي ﷺ لأصحابها، ثم لحق برسول الله ﷺ وتتالى المهاجرون يلحقون برسول الله ﷺ ولم يبقَ بمكة إلا مفتون أو محبوس. وبهذا ينتهي الدور المكي أو الطور المكي من الدعوة الإسلامية، لتنتقل بعد ذلك إلى الطور المدني.

وقد كتب النبي ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الطائفتين، ووادع اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وشرط لهم واشترط عليهم، وخطب الناس خطبتين حبب فيهما إليهم الإيمان، ورغبهم فيما عند الله ﷻ وطالبهم بحسن عبادته وتقواه.

وبهذا تكون المدينة المنورة قد شهدت في هذه المرحلة المبكرة بناء المسجد النبوي، والمؤاخاة بين المسلمين مهاجرين وأنصار، كما شهدت إقامة ميثاق وتحالفٍ بين سكانها وعناصر مجتمعها من مسلمين وغير مسلمين، وشهدت تكوين مجتمعٍ جديد على أسس ومبادئ خالدة، وبهدي وتوجيه من النبي ﷺ.

ومن المدينة المنورة بدأ الإسلام ينتشر، وترتفع راياته، ولما تم فتح مكة في العام الثامن للهجرة الموافق عام ستمائة وتسع وعشرين من الميلاد، أصبح للهجرة مفهوم جديد حدّده النبي ﷺ بقوله: ((لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية))، وأضحى المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

وصول النبي ﷺ إلى المدينة، و بناء المسجد النبوي

عناصر الدرس

العنصر الأول : ما استنبطه العلماء من حادث الهجرة، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية؟ ٥٥

العنصر الثاني : وصول النبي إلى المدينة، واستقبال النبي ﷺ ونزوله عند أبي أيوب ٦٢

العنصر الثالث : النبي ﷺ يرسل إلى أخواله من بني النجار ٦٤

العنصر الرابع : فرح أهل المدينة، وترحيبهم برسول الله ، وخمسمائة من الأنصار استقبلوا النبي ﷺ ٦٦

العنصر الخامس : بروك الناقة قرب بيت أبي أيوب ٧٢

العنصر السادس : كانت الهجرة شديدة الو ـأة على المهاجرين ٧٩

العنصر السابع : الخطبتان اللتان خطبهما النبي ﷺ في أول جمعة صلاها ٨١

العنصر الثامن : (بناء المسجد النبوي) اشتراك النبي ﷺ وأصحابه في البناء، وما صاحب ذلك من آيات ٨٧

ما استنبطه العلماء من حادث الهجرة، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية؟

أ. ما استنبطه العلماء من حادث الهجرة:

ربما كان من المناسب قبل أن نترك موضوع الهجرة الكريمة أن نشير إلى شيء مما استنبطه العلماء من هذا الحدث الهام:

الأول: أن الرسول ﷺ خطط وَدبَّرَ واستعدّ لكل حادث بما يناسبه، ولم يدخل المدينة المنورة إلا بعد أن هيأ الظروفَ المناسبةَ للدعوةِ، لقد أرسل القرّاء، وأرسل المعلمين بين يديه، فلما فتحوا قلوب الناس، وبدأ الناس التحول لدين الله غزاها النور فأضاءت، فقد كانت حياة العربي سَفَرًا من أجل متاع الدنيا وزاد المعدة، وهي الآن سَفَرٌ مستمر، وهجرة دائمة ليس من أجل الزاد والمتاع، وإنما من أجل دين الله ﷻ ومن أجل العقيدة.

الثاني: أن هذه الهجرة مَثَّلَتْ قيام نظامٍ جديد، وهذا المعنى هو الذي لاحظه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب > عندما اختارها مبدأً للتقويم الإسلامي، لقد كانت عنوان النصر، وبداية عهد النجاة.

هناك من يقول: إن التقويم الهجري يرجع إلى ما قبل ذلك إلى زمن النبي ﷺ والذي فعله عمر بن الخطاب هو أنه ثبت اعتبار هذا الحادث مبدأ للتقويم الإسلامي، ومهما يكن من أمر؛ فمعروف أنه > قد اختارها لتكون مبدأ للتقويم الإسلامي؛ لأنها كانت عنوان النصر وبداية النجاة.

الثالث: أثبتت الهجرة النبوية أن الإنسان يضحي بكلِّ غالٍ ونفيسٍ، وبكل ما يحبه ويؤثره في سبيل نصرة الدين والدعوة والعقيدة، يتمثل هذا في قول

الرسول ﷺ مخاطبًا مكة فيما يرويه الإمام الترمذي عن ابن عباس { يقول النبي ﷺ عن مكة: ((ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)). وهذا هو التطبيق العملي لقول الله ﷻ: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

الرابع: أن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، والذي انقضى بفتح مكة المكرمة هو قصد النبي ﷺ يعني: هو القصد إلى النبي ﷺ لكن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة في رأي بعض العلماء.

الخامس: يجب على المسلمين أن يناصر بعضهم بعضًا، وإن اختلفت الديار، وتناءت البلاد، طالما كان ذلك في الإمكان، وهذا ما فعله الأنصار مع المهاجرين؛ ولهذا يقرر أبو بكر بن العربي المؤرخ الأندلسي أنه إذا كان في المسلمين أسراء -يعني: أسرى- أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة بالبدن والمال، طالما كان ذلك في احتمالنا.

السادس: اقتضت رحمة الله بعباده ألا يقوم المسلمون بالقتال إلا بعد أن تكون لهم دار إسلام، تعتبر بمثابة معقل يلوذون به، ولقد كانت المدينة المنورة هي تلك الدار، فكان الإذن بالقتال كما سنعرض -إن شاء الله- في مناسبة قادمة.

السابع: في موقف المكيين من رسول الله ﷺ تناقض عجيب، ففي الوقت الذي كانوا يكذبون فيه محمدًا، ويتهمونه بالسحر تارةً، وبالجنون أخرى، فإنهم لم يجدوا أفضل منه أمانةً وصدقًا، فيتركون عنده أغلى ما عندهم، ويضطر علي -كرم الله وجهه- بأمر النبي ﷺ إلى التخلف

لأيامٍ حتى يؤدي للناس ودائعهم، ويرد الحقوق والأمانات لأصحابها وصدق الله العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

الثامن: ما قام به عبد الله بن أبي بكر، وأخته أسماء، وعامر بن أبي فهيرة من خدمة رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق > أثناء وجودهما في الغار، وقيام كل منهم بما طلب منه بكل الجدية، وبكل المسئولية والأمانة، ينبغي أن يكون نموذجًا يحتذيه الشباب المسلم.

كما أن استئجار النبي ﷺ وصاحبه > لعبد الله بن أريقط ليكون دليلًا يدلهما على الطريق برغم شِرْكِهِ، يدل على أنه لا بأس من الاستعانة بغير المسلمين؛ طالما كان غير المسلم موضع ثقة، وصاحب خبرة معًا.

التاسع: يُلاحظ أن النبي –ﷺ- لم يقصر دعوته على قريش؛ بل كان يدخل بين القبائل الوافدة من خارج مكة، ومن شتى الجهات، وكان أنصاره أول الأمر من غير بيئته، ومن غير قومه، حتى لا يُظن ظانٌّ أن دعوة محمد ﷺ كانت قومية، فرضتها ظروف قومه، أو فرضتها بيئة قومه، أو فرضتها حاجتهم إليه.

العاشر: تدل بيعة العقبة على أن الجزم القلبي وحده لا يكفي، والنطق بالشهادتين دون عمل ليس كافيًا، بل لا بد مع ذلك من التمسك بالنظم والأخلاق، وكل المبادئ الإنسانية، وليس هناك مجال للإشراك بالله، ولا للسرقة أو الزنا، ولا للقتل، أو لإتيان بهتانٍ أو العصيان في معروف، ومن يزعم أن قلبه نقي وهذا يكفيه، وليس في حاجةٍ إلى عملٍ فَقَد كَذَبَ، كما أخبرنا رسول الله ﷺ: ((إن قومًا غرتهم الأماني،

فزعموا أنهم يحسنون الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا اظن لأحسنوا العمل)).

الحادي عشر: يستنبط من الهجرة وأحداثها أن أموال غير المسلمين لا تستباح، ولا تحل لأحد، وليس من حقِّ أيِّ إنسانٍ أن يستحِلَّهَا لنفسه، فقد استبقى النبي ﷺ عليًّا -كرم الله وجهه- ليرد الأموال لأصحابها، فَرَدُّ الأماناتِ واجبٌ حتى مع من خانونا، وقد جاء في الحديث: ((أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)).

الثاني عشر: خروج النبي ﷺ من بين أيدي الكفار المحيطين بمنزله من أكبر المعجزات، وفي هذا إعلان لأعداء الإسلام في كل وقت و في كل عصر أن معاناة المسلم لا تعني أن الله ﷻ قد تخلَّى عنه، إن نصر الله قريب، ولا ينبغي أن يفرح المشركون، فإن الله لن يتخلى عن عباده المؤمنين.

الثالث عشر: في الهجرة يعلمنا المصطفى ﷺ أنه لا بد من التخطيط الدقيق، حتى لو كان الإنسان مطمئنًا على سلامة موقِفِهِ، وكل الحقائق كانت تؤكد لرسول الله ﷺ أن الله معه وناصره، ومع هذا لم يتعجل الهجرة، وإنما انتظر الوقت المناسب، وخطط تخطيطًا دقيقًا، حتى جاءه أمر الله بالخروج من مكة، ولم يخرج نهارًا، وإنما خرج ليلًا ليس جبنًا أو خوفًا، وإنما هو الترتيب الدقيق، والتخطيط السليم، والتأني في اتخاذ القرار.

ب. لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية؟

الرابع عشر: ينبغي أن نشير إلى سؤال فحواه: لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية، كما فعل عمر بن الخطاب < حسبما ذكرت بعض الروايات؟ فإن

بعض الروايات ذكرت أن عمر بن الخطاب > خرج علانيةً معلنًا هجرته للناس جميعًا، قائلًا العبارات المشهورة عنه: "من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته، فليتبعني وراء هذا الوادي، فلم يتبعه أحد". هذه رواية جاءت تجعلنا نتساءل، لماذا لم يهاجر النبي ﷺ علانية، كما فعل عمر بن الخطاب، حسبما جاء في هذه الرواية؟

السبب: أن النبي ﷺ استعمل كلَّ الأساليبِ الماديةِ التي يمكن أن يتوصل إليها عقلٌ بشري، لقد ترك عليًّا على فراشه، واستعان بأحد المشركين ليدله على الطريق، وأقام في الغار أيامًا ثلاثة حتى سكن الطلب عليه، كل ذلك ليؤكد لنا أن الإيمان بالله ﷻ لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب المادية، فما فعله النبي ﷺ وظيفة تشريعية، قضية الأخذ بالأسباب، فلما فرغ ﷺ من أدائِهَا، وأخذ بكلِّ الأسبابِ المتاحةِ والممكنة، عاد قلبه مرتبطًا بالله ﷻ مطمئنًا إلى حمايته وتوفيقه؛ ولذلك عندما اقترب منه سراقة بن مالك يريد قتله لم يشعر به؛ لأنه كان مستغرقًا في مناجاة ربه ﷻ موقنًا أن الذي أمره بالهجرة لابد وأن يعصمه من شرور أعدائه، ومن هنا يتفق العلماء على أن ما حدث من سراقة معجزة من معجزات رسول الله ﷺ مِثْلُه مثل خروج النبي ﷺ من بيته وسط جموع المشركين، وما دمت مع الله فإن الله ﷻ ناصرك، مهما تكالب عليك الأعداء، وجاعلٌ لك مخرجًا مهما اشتد عليك ظلام الليل، وكل هذا لا ينفي وجود الأخذ بالأسباب.

إن رسول الله ﷺ أحكم خطته، وأعد لكلِّ فردٍ عدته، ولم يدع في حسبانه مكانًا للحظوظ العمياء، ثم توكل بعد ذلك على ربه ﷻ واثقًا من مناصرة الله له.

هذا، وقد نبه الصحالي الشامي صاحب كتاب (سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد) إلى عدة مسائل ترتبط بحادث الهجرة، وما يتعلق بها، أحببنا أن نشير إليها، ففي هذا إفادة لمن يريد الاستفادة.

المسألة الأولى: يقول: كان بين ابتداء هجرة الصحابة، وبين العقبة الأولى والثانية، وبين هجرته ﷺ شهران وبعض شهر على التحرير، كما ذكر ذلك الحافظ، يقصد الحافظ ابن حجر العسقلاني، والله أعلم.

المسألة الثانية: سئل بعض شيوخ المغرب عن سبب امتناع النبي ﷺ عن أخذ الراحلة من أبي بكر، مع أن أبا بكر أنفق عليه مالًا، وقدم للدعوة مالًا كثيرًا، لماذا لم يقبل النبي ﷺ أن يأخذ منه الراحلة مع أنه > أنفق كثيرًا في سبيل الدعوة الإسلامية؟

فأجاب ذلك العالم المغربي قائلًا: أحب ألا تكون هجرته إلا من مال نفسه. وذكر السهيلي في الجزء الثاني صفحة "٣" أن قوله هذا قول حسن، حدث به بعض الأصحاب يعني: هو يحدد من قال هذا الكلام، قال: هذا قول حسن حدث به بعض الأصحاب عن الزاهد الفقيه أبي الحسن بن اللوان -رحمه الله-.

المسألة الثالثة: كانت هجرته ﷺ في شهرِ ربيعٍ الأول سنة ثلاث عشرة من النبوة وذلك يوم الاثنين، روى ذلك -كما أشرنا من قبل- الإمام أحمد عن ابن عباس، والنص يقول فيه: "ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين".

قال الحاكم: "تواترت الأخبار أن خروجه ﷺ كان يوم الاثنين، وأن دخوله المدينة كان يوم الاثنين" إلا أنَّ محمد بن موسى الخوارزمي قال: إنه خرج من مكة يوم الخميس، قال الحافظ: يجمع بينهما بأن خروجه من مكة كانت يوم الخميس، وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال: هي ليلة الجمعة، وليلة السبت، وليلة الأحد، وخرج في أثناء ليلة الاثنين.

المسألة الرابعة: مما نبه إليه الصالحي الشامي، ونقله عن السهيلي، نقل عن السهيلي قوله: انتبه أيها العبد، المأمور بتدبر كتاب الله ﷻ كما قال ربنا ﷻ في القرآن: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] فالسهيلي يقول لنا: انتبه أيها العبد، المأمور بتدبر كتاب الله ﷻ كما جاء في هذه الآية، انتبه إلى قول الله ﷻ في الآية الكريمة: ﴿الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠]، وانظر كيف كان الله ﷻ معهما باللفظ والمعنى حسبما تدل هذه الآية، أما المعنى: فكان معهما بالنصر والإرفاد والهداية والإرشاد والعون دائمًا، وأما اللفظ: فإن اسم الله ﷻ كان يذكر إذا ذكر رسوله، وإذا دعي، فقيل: يارسوله الله، أو فعل رسول الله ﷺ فاسم الله يذكر دائمًا مع النبي ﷺ ثم كان لصاحبه كذلك يُقال: يا خليفة رسول الله، فيذكر اسم الله ﷻ مع الخليفة أبي بكر الصديق > فيقال: يا خليفة رسول الله، ويقال: فعل خليفة رسول الله. فكان اسم الله يذكر دائمًا مع النبي ﷺ ومع صاحبه سواء في زمن الرسالة، أو في زمن الخلافة، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء، ولن يكون.

الذي حدث بعد ذلك أن سيدنا عمر بن الخطاب > لقب بلقب أمير المؤمنين، ومن أتى بعد ذلك من الخلفاء ما حمل أحدهم لقب خليفة رسول الله، قد يقال له: خليفة، قد يقال له: سلطان، قد يقال له غير ذلك، ولكن الذي حمل لقب خليفة رسول الله هو الصديق > .

وصول النبي إلى المدينة، واستقبال النبي ﷺ ونزوله عند أبي أيوب

نبدأ بما رواه البخاري < عن عائشة، ورواه ابن سعدٍ عن عبد الرحمن بن عُوَين بن ساعدة، وقد شهد أبوه ساعدة العقبات الثلاث: العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، ثم بيعة العقبة الكبرى والأخيرة، أبوه شهد هذه العقبات الثلاث، وروى هذا الابن عن جمع من الصحابة، قال: "إن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من مكة، وتوكَّفُوا قدومه -أي: استشعروا خروج النبي ﷺ وأنه سيأتي إليهم في المدينة المنورة، عندما استشعروا ذلك كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهرة الحرة، ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلًّا دخلوا، وذلك في أيام حارة، حتى كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت، فأوفى -أي طلع- رجل من اليهود على أُطْم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وبصر بأصحابه مبيضين -يعني: يلبسون ملابس بيضاء- يلوح بهم -أي: يظهرهم- السراب -والسراب هو ما يراه الإنسان نصف النهار بسبب شدة حر كأنه ماء- فلم يملك اليهودي أن صرح بأعلى صوته قائلًا: يا بني قيلة -وقيلة هذه هي اسم الجدة الكبرى للأنصار جميعًا أوسهم وخزرجهم؛ ولهذا ينسبون جميعًا إليها، فيقال لهم: يا بني قيلة -وهذا الرجل اليهودي صرخ بأعلى صوته قائلًا: يا بني قيلة، وفي لفظ: يا معشر العرب. هذا جدكم -وفي لفظ آخر: هذا صاحبكم- الذي تنتظرون قد جاء، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الأول، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ

وسلم صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك".

وفي رواية: "فلما رأوا أبا بكر ينحاز له عن الظل؛ عرفوا رسول الله ﷺ فعدل بهم رسول الله ﷺ ذات اليمين حتى نزل بهم علو المدينة بقباء، في بني عمرو بن عوف، على كلثوم بن الهدب، قيل: وكان يومئذ مشركًا، وقيل: إنما نزل على سعد بن خيثمة، والأول أرجح عند الثقات من العلماء".

وروى الزبير بن بكار عن عبد الله بن حارثة، قال: "نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدب، فصاح كلثوم بغلام له، فقال: يا نُجَيْح، فقال رسول الله ﷺ: ((أنجحت يا أبا بكر -أي أنجحنا الله- ونلنا ما نطلب))".

ولما رد علي > الودائع التي كانت عند النبي ﷺ لأصحابها -لَحِق بالمصطفى ﷺ بقباء، فنزل -أيضًا- على كلثوم بن الهدْم.

وروى الطبراني عن جابر بن سمرة > قال: لما سأل أهل قباء النبي ﷺ أن يبني لهم مسجدًا، قال رسول الله ﷺ: ((ليقم بعضكم فيركب الناقة، فقام أبو بكر > فركبها فحركها فلم تنبعث فرجع، فقام عمر > فركبها فحركها، فلم تنبعث فرجع، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه مرة أخرى: ليقم بعضكم فيركب الناقة، فقام علي > فلما وضع رجله في غرس الركاب، وثبت به قال ﷺ: أرخِ زمامها، وابنوا على مدارها؛ فإنها مأمورة)).

وروى الطبراني برجالِ الثقاتِ عن الشّموس بنت النعمان > قالت: نظرت إلى رسول الله ﷺ حين نزل، وقدِم وأسس هذا المسجد -مسجد قباء- وهو أول مسجد أسس على التقوى، وهو أول مسجد أسس -بعد النبوة- على التقوى،

كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قول الله ﷻ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ﴾ [التوبة: ١٠٨].

تقول: فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يَهْصِرَهَا، فيأتي الرجل من أصحابه ويقول: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أعطني أكْفِك. فيقول -ﷺ-: ((لا، خذ مثله)) حتى أسسه.

ويقال: إن جبريل # هو يؤم الكعبة، فكان يقال: إنه أقوم مسجد قبلة، وقد نقل عن ابن العربي -وغيره-: أن استقبال الكعبة كان مشروعًا في ذلك الوقت، ثم نسخ ببيت المقدس، ثم نسخ بالكعبة، ومعنى ذلك: أن القبلة قد نسخت مرتين.

وروى ابن شَبَّة: أن عبد الله بن رواحة كان يقول -وهم يبنون مسجد قباء-: أفلح من يعمر المساجد، فقال رسول الله ﷺ: ((المساجد))، فقال عبد الله: ويقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا، فقال رسول الله ﷺ: ((وقاعدًا))، فقال عبد الله: ولا يبيت الليل عنه راقدًا، فقال رسول الله ﷺ: ((راقدًا)).

النبي ﷺ يرسل إلى أخواله من بني النجار

يحسن بنا هنا أن نذكر الروايات التي ذكرها العلماء حول قدومه ﷺ باطن المدينة، وما آلت إليه، وفَرَحُ أهلِ المدينة برسول الله ﷺ.

لقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر، وروى سعيد بن منصور عن عبد الله بن الزبير > وروى البيهقي عن موسى بن عقبة، وابن إسحاق عن عويم بن ساعدة، وروى يحيي بن الحسن عن عمارة بن خزيمة، أن رسول الله ﷺ لما

أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النجار، وكانوا أخواله؛ لأن أم عبد المطلب منهم، فجاءوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول ﷺ ولأصحابه: اركبوا آمنين مطاعين، وكان اليوم يوم الجمعة، فلما ارتفع النهار دعا رسول الله ﷺ براحلته، وحشد المسلمون، ولبسوا السلاح.

ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وقد يقال لها: العضباء، والجدعاء، والصلماء، كل هذه ألقاب لناقةٍ واحدةٍ لسيدنا رسول الله ﷺ. ركبها النبي ﷺ والناس معه عن يمينه، وعن شماله، وعن خلفه، منهم الماشي، ومنهم الراكب، فاجتمع بنو عمرو بن عوف، وقالوا: يا رسول الله، أخرجت مَلَالًا لنا، أم تريد دارًا خيرًا من دارنا؟ يعني: أخرجت سآمةً منا، أم تريد قبيلة خيرًا من قبيلتنا؟ فالدار هنا المقصود بها: القبيلة، قال: ((إني أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها -يعني: اتركوا الناقة- فإنها مأمورة))، فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة، فتلقاه الناس فخرجوا في الطرق، وعلى الأباعر، والأباعر: جمع بعير، ويقال للجمل والناقة: بعير.

خرج الناس في الطرق وعلى الأباعر، وصار الخدم والصبيان يقولون: الله أكبر، جاءنا رسول الله، جاءنا محمد.

قال أنس فيما رواه البيهقي: وإني لأسعى مع الغلمان؛ إذ قالوا: محمد جاء، فننطلق فلا نرى شيئًا، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر، فكمنّا -أي استترنا. في بعض جدر المدينة، وبعث رجلًا من أهل البادية لِيُؤْذِنَ بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء -يعني: قدر- خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمِنَيْنِ مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق فوق البيوت، يتراءينه- والعواتق يعني: الشابات أول ما تدرك- يتراءينه ﷺ يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيهًا به يومئذ.

فرح أهل المدينة، وترحيبهم برسول الله، وخمسمائة من الأنصار استقبلوا النبي ﷺ

أ. فرح أهل المدينة، وترحيبهم برسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد، وأبو داود عن أنس > أنه قال: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحًا بقدومه ﷺ".

وروى البيهقي ورزين عن عائشة > قالت: "لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة جعل النساء والصبيان والولائد -أي: الإناث- يقلن:

طلع البدر علينا ❖ من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ❖ ما دعا لله داع"

وهناك موضوع يتعلق بـ"ثنيات الوداع" وما يدور حولها من كلام، سوف نذكره في حينه -إن شاء الله سبحانه وتعالى.

زاد رزين:

أيها المبعوث فينا ❖ جئت بالأمر المطاع

وروى البخاري عن البراء > أنه قال: "ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ".

وروى ابن ماجه عن أنس > أنه قال: "لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء".

وروى ابن أبي خيثمة > قال: شهدت يوم دخل رسول الله ﷺ فلم أرَ يومًا أحسنَ منه ولا أضوأ، فلم يمر رسول الله ﷺ بدارٍ من دورِ الأنصارِ إلا قالوا:

هَلُمَّ يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة، فيقول لهم خيرًا ويدعو، أو يقول: إنها –أي: الناقة- مأمورة خلوا سبيلها. فمر ببني سالم، فقام إليه عِتْبان بن مالك، ونوفل بن عبد الله بن مالك بن العجلان، وهو آخذ بزمامِ راحلتِهِ، فقال: يا رسول الله أنزل فينا، فإن فينا العدد والعشيرة والحلقة، ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدَّرَك، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البُحْرة -أي: المدينة- خائفًا، فيلجأ إلينا فنقول له: قَوقِل حيث شئت -أي: ادخل حيث شئت- فجعل رسول الله ﷺ يتبسم ويقول: ((خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فقام إليه عبادة بن الصامت، وعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان، فجعلا يقولان: يا رسول الله، انزل فينا، فيقول النبي ﷺ: بارك الله عليكم، إنها مأمورة)).

والحكمة كما يقول العلماء في إحالة الأمر إلى الناقة هي: أن يكون تخصيصه # عمن خصه الله ﷻ بالنزول عنده آية ومعجزة تطيب بها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئًا.

من بين العلماء الذين علقوا مثل هذا التعليق: الدكتور شوقي ضيف -رحمة الله عليه- في تعليق له قدمه في نشرته لكتاب ابن عبد البر (الدرر في اختصار المغازي والسير) في صفحة أربع وتسعين.

تمضي الروايات بعد ذلك فتقول: "لما أتى النبي ﷺ مسجد بني سالم، وهو المسجد الذي في الوادي -وادي رانوناء- أدركته الجمعة هناك فصلاها، وكانت أول جمعة صلاها في المدينة، وقيل: إنه كان يصلي الجمعة بمسجد قباء".

وعند ابن سعد أنه صلى معه الجمعة مائة نفس، ثم أخذ رسول الله ﷺ يمين الطريق حتى جاء بنو الحُبْلى -وهذا لقب لُقِّب به سالم بن غنم- جاء إليه

النبيﷺ فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهو يومئذٍ سيدُ الخزرج في أنفسها، فقال: اذهب إلى الذين دعوك فانزل إليهم، فقال سعد بن عبادة: لا تجد يا رسول الله في نفسك من قوله -يعني: لا تتأثر يا رسول الله ﷺ من قولة هذا المنافق- لا تجد يا رسول الله في نفسك من قوله، فقد قدمت علينا، والخزرج تريد أن تملكه علينا، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، يعني تألم من ذلك وغضب؛ لأن رسول الله ﷺ جاء في هذه الآوانة التي كاد هو يصبح فيها رئيسًا للخزرج.

ولكن -يضيف الراوي-: ولكن هذه داري -على لسان سعد بن عبادة- وذكر ذلك موسى بن عقبة ورزين، قال السيد -يقصد بالسيد السمهودي صاحب كتاب (وفاء الوفا) الذي ذكر في الصحيح جاء ذكر سعد بن عبادة، لذلك في قصة عيادته ﷺ له من مرض بعد سكناه المدينة، يقول العلماء: ويحتمل أن سعدًا قال ذلك مرتين.

وأيًّا مَّا كان الأمر، فقد مر رسول الله ﷺ ببني ساعدة، فقال له سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأبو دجانة: هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد. وسعد يقول: يا رسول الله ليس من قومي رجل أكثر عذْقًا ولا فمَ بئرٍ مني، مع الثروة والجلد والعُدد، يقصد بالعذق: النخيل يعني: ليس هناك إنسان عنده نخيل أكثر من عندي، وليس هناك إنسان عنده ماء أكثر مما عندي، ولا آبار أكثر مما عندي، فأنا عندي الثروة والجلد والعدد.

لكن رسول الله ﷺ علق على كلماته قائلًا: ((يا أبا ثابت، خلِّ سبيلها، فإنها مأمورة" يعني: اترك الناقة تمضي لسبيلها، فإنها مأمورة فمضى. واعترضه سعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وبشير بن سعد، فقال: يا رسول الله لا

تجاورنا، فإنا أهل عدد وثروة وحَلْقَة، قال ﷺ: "بارك الله فيكم، خلوا سبيلها، فإنها مأمورة)).

واعترضه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو من بني بياضة، فقال: يا رسول الله، هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة، نحن أهل الدَّرك يا رسول الله، فقال ﷺ: ((خلوا سبيلها، فإنها مأمورة)).

وفي حديث البراء قال: "إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك"، ثم مر ببني عدي بن النجار -وهم أخواله- فقام أبو صليت وصرمة بن أبي أنس في قومهما فقالا: يا رسول الله، نحن أخوالك، هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة، لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك، فقال رسول الله ﷺ: ((خلوا سبيلها، فإنها مأمورة)).

فسار حتى إذا أتت دار بني عدي بن النجار قامت إليه وجوههم، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد فبركت راحلته على باب مسجده ﷺ.

ب. خمسمائة من الأنصار استقبلوا النبي ﷺ:

سجلت بعض الروايات أن عدد الذين استقبلوا النبي ﷺ خمسمائة من الأنصار، فأحاطوا بالرسول ﷺ وأبي بكر وهما راكبان، ومضى الموكب داخل المدينة، وقيل في المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ.

وكما أشرنا: صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله، قال الصحابي البراء بن عازب -وهو شاهد عيان-: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ.

أما الأستاذ أكرم ضياء العمري: فيرى أن تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد:

طلع البدر علينا ❖ من ثنيات الوداع

لم ترد بها رواية صحيحة، وقد أشرنا إلى أن محقق كتاب (سبل الهدى والرشاد) له تعليق حول هذا الموضوع، وإن كان الأستاذ العمري يرى أن هذه الرواية غير صحيحة.

وأيًّا ما كان الأمر فقد أقبل الرسول ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري، فتساءل: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري وهذا بابي، فنزل في داره.

وقد ورد في كتب السيرة: أن زعماء الأنصار تطلّعوا -كما أشرنا- إلى استضافة رسول الله ﷺ فكلما مر بأحدهم دعوه للنزول عنده فكان يقول لهم: "دعوا الناقة، فإنها مأمورة" فبركت على باب أبي أيوب، وكان داره طابقين.

قال أبو أيوب الأنصاري: ولما نزل على رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلوّ، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون أنت تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت، قال: فقد انكسر حِبٌّ لنا فيه ماء -يعني: إناء لنا فيه ماء- فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا -ما لنا لحاف غيرها. ننشف بها الماء تخوّفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وهذا نقوله مرة أخرى؛ لأن الأستاذ أكرم ضياء العمري يقول: إن رواية ابن سعد أتت بصورة ضعيفة تقول: إن مكث النبي ﷺ في دار أبي أيوب كان سبعة

أشهر، وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين وآثروهم على أنفسهم، فنالوا من الله الثناء العظيم الذي خلّد ذكرهم على مر الدهور وتتالي الأجيال، إذ ذكر الله مأثرتهم في قرآن يتلوه الناس إلى يوم القيامة يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناءً عظيمًا، فقال: ((لَوْلَا الْهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ)) هذا حديث رواه البخاري في الجزء السابع في الصفحة ١١٢، وقال: ((ولو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم)) وهذا رواه البخاري -أيضًا- في الجزء السابع في الصفحة ١١٠.

وكان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار، هذا في (البخاري) في الجزء السابع الصفحة ٢٦٥، وقد اشتراها رسول الله ﷺ وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها، وصفّوا الحجارة في قبلة المسجد، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه، ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ❖ فانصر الأنصار والمهاجرة

وقد بناه النبي ﷺ أولًا بالجريد، ثم بناه باللَّبِن -يعني: الطوب غير المحروق- بعد الهجرة بأربع سنين، هذا موجود -أيضًا- عند ابن حجر في (فتح الباري) الجزء السابع، الصفحة ٢٦٤.

بــروك النــاقــة قــرب بيــت أبــي أيــوب

ذكر الأقشهري في روضته، عن ابن نافع صاحب مالك، في أثناء كلامه نقله عن مالك: أن ناقته ﷺ لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها، وأخذه الذي كان يأخذه عند الوحي، ثم وثبت فصارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها، لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تلحلحت -أي ثبتت مكانها. وأرزمت -يعني: صوتت، أصدرت صوتًا. ووضعت جِرَانَها، وجعل جبار بن صخر ينخسها؛ رجاء أن تقوم، فتنزل في دار بني سلمة، فلم تفعل.

فنزل رسول الله ﷺ عنها وهو يقول: هنا المنزل -إن شاء الله- ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٩] وجاء أبو أيوب، فكلموه في النزول عليهم، فقال رسول الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أُقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، وقد حططنا رحلك فيها، قال: فانطلق فهيئ لنا مقيلًا، فذهب فهيأ لهما مقيلًا.

وروى الطبراني عن عبد الله بن الزبير: أنه كان هناك عريش يرشونه، ويعمرونه ويبتدرون فيه، حتى نزل رسول الله ﷺ عن راحلته، فآوى إلى ظله فنزل فيه، فأتاه أبو أيوب، فقال: يا رسول الله، منزلي أقرب المنازل إليك فانقل رحلك، قال: نعم، فذهب برحله إلى المنزل، فأتاه آخر: فقال يا رسول الله، انزل عليّ، فقال ﷺ: ((المرء مع رحله حيث كان)) فمضت مثلًا -يعني: أصبحت هذه الكلمة مثلًا ((المرء مع رحله حيث كان))- فنزل ﷺ في منزل أبي أيوب، وقرّ قراره، واطمأن الدار، ونزل معه زيد بن حارثة، وكان ذلك في بني النجار؛

لأنهم أخوال النبي ﷺ وكان من توفيق الله أنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب فحمل الرحل إلى منزله، فنزل عنده النبي ﷺ تكريمًا لأخوال المصطفى ﷺ كما أشرنا من قبل، وكما أكّد ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد) الجزء الثاني الصفحة الخامسة والثمانين.

وذكر ابن سعد أن أسعد بن زرارة أخذ بزمام الناقة فكانت عنده، وعند عائذ وسعيد بن منصور أن ناقته استناخت به أولًا، فجاء ناس فقالوا: المنزل يا رسول الله، فقال: دعوها، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد، ثم تلحلحت -أي: ثبتت- فنزل عنها، فأتاه أبو أيوب فقال: منزلي أقرب المنازل فأْذن لي أن أنقل رحلك، قال: نعم، فنقل رحله وأناخ الناقة في منزل أبي أيوب، وجعل النبي ﷺ يقول: ((المرء مع رحله)).

قال أنس > : شهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا، وشهدته يوم مات، فما رأيته يومًا قط كان أقبح، ولا أظلم من يوم مات ﷺ وهذا حديث أخرجه الإمام أحمد في الجزء السادس الصفحة ٢٤٠، وأخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٦٣١، وأخرجه الترمذي تحت رقم ٣٦١٨.

وروى الحاكم وأبو سعيد النيسابوري أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبي أيوب خرج جوارٍ -جمع جارية- من بني النجار يضربن بالدفوف، ويقلن:

نحن جوار من بني النجار ❖ يا حبذا محمد من جار

فقال رسول الله ﷺ: ((أتحبينني؟)) قلن: نعم، يا رسول الله، فقال: ((وأنا والله أحبكن))، قالها ﷺ ثلاثًا.

وذكر ابن إسحاق في (المبتدأ) وابن هشام في (التيجان) أن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مَقْدَمه المدينة، بناه تُبَّع الأول واسمه: تُبَّان أسعد، وكان معه أربعمائة حبر، فتعاقدوا على ألا يخرجوا منها، فسألهم تبع عن سر ذلك، فقالوا: إنا نجد في كتبنا أن نبيًّا اسمه: محمد هذه دار هجرته، فنحن نقيم لعلنا نلقاه، فأراد تُبَّع الإقامة معهم، ثم بنى لكل واحد من أولئك دارًا، واشترى له جارية، وزوجها منه، وأعطاه مالًا جزيلًا، وكتب كتابًا فيه إسلامه، ومنه:

شهدت على أحمد أنه ❖ رسول من الله باري النسم
فلو مد عمر إلى عمره ❖ لكنت وزيرًا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ❖ وفرجت عن صدره كل هم

هذا يؤكد أن هؤلاء كانوا يعرفون محمدًا ﷺ ويعرفون أوصافه، ويعرفون موعد بعثة ربه ﷻ له، ويعرفون هجرته إلى المدينة المنورة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

تقول الرواية: إن هذا الكتاب ختمه ذلك الرجل بالذهب، ودفعه إلى كبيرهم، وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ إن أدركه، وإلا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده، وبنى للنبي ﷺ دارًا ينزلها إذا قدم المدينة، فتداول الدار المُلّاك إلى أن صارت لأبي أيوب، وهو من ولد ذلك العالم، وأهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء.

ويقال: إن الكتاب الذي فيه الشعر كان عند أبي أيوب حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ فما نزل رسول الله ﷺ إلا في بيته.

وإذا كان علماء الحديث يقولون عن هذه الرواية: إنها غريبة، إلا أن لها دلالتها في أن هؤلاء يعرفون كل شيء عن النبي ﷺ مما بشرت به الكتب والرسالات السابقة على محمد ﷺ.

وروى الترمذي وصححه، ويحيي بن حسن العلوي عن عبد الله بن سلام > قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه -يعني: توجه الناس إليه- فجعلت لأنظر إليه، فلما تبيّنت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال: ((يا أيها الناسِ، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام)).

وروى ابن إسحاق، ومسلم عن أبي أيوب > قال: لما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال ﷺ: إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت، قال: فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حِبٌّ لنا فيه ماء -يعني: شيء مثل الجرة فيه ماء- فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا -ما لنا لحاف غيرها. ننشف بها الماء؛ تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وذكر أن أبا أيوب لم يزل يتضرع إلى النبي ﷺ حتى تحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل.

قال أبو أيوب: كنا نصنع له العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، يعني: كان هو وزوجته يقصدان إلى الموضع الذي أكل منه النبي ﷺ فيأكلان منه، بهدف أن تحدث لهما بركة النبي ﷺ.

يقول أبو أيوب: حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه، وقد جعلنا له فيه بصلًا أو ثومًا، فردّه رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثرًا، قال: فجئته فزعًا، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي رددت عشاءك، ولم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة، قال النبي ﷺ: ((إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي))- يعني: أتحدث إلى الناس- فأما أنتم فكلوه، قال: فأكلناه، ولم نضع له تلك الشجرة بعد.

يعني: أن النبي ﷺ كان يَعَافُ هذا الأكل الذي يدخله شيء من هذه الشجرة - شجرة البصل أو الثوم- لأنه يناجي الناس، وهذه تترك رائحة، والنبي ﷺ لا يحب أن يتضرر الناس عندما يناجيهم المصطفى ﷺ.

في كتاب (أخبار المدينة) ليحيي بن الحسن، عن زيد بن ثابت > قال: لما نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب لم يدخل منزل رسول الله هدية، وأول هدية دخلت بها عليه قصعة مَثْرُودة خبز بُرٍّ وسمن ولبن، فأضعها بين يديه ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال: ((بارك الله فيها))، ودعا أصحابه فأكلوا، فلم أرم الباب -يعني: لم أترك الباب. حتى جاءته قصعة سعد بن عبادة على رأس الغلام مغطاة، فأقف على باب أبي أيوب، فأكشف غطاءها لأنظر فرأيت ثريدًا عليه عراق- أي: ثريدًا عليه من العظم- فدخل بها على رسول الله ﷺ قال زيد: فلقد كنا في بني مالك بن النجار ما من ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ منا الثلاثة، والأربعة، يحملون الطعام ويتناوبون بينه حتى تحول رسول الله ﷺ من بيت أبي أيوب، وكان مقامه فيه سبعة أشهر، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة، وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة، وفيه أنه قيل لأم أيوب: أي الطعام كان أحب إلى رسول الله ﷺ فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندكم؟

قالت: ما رأيته أمر بطعام فصنع له بعينه، ولا رأيناه أتي بطعام فعابه، وقد أخبرني أبو أيوب أنه تعشى عنده ليلة من قصعة أرسل بها سعد بن عبادة طَفْشِيل -يعني: نوع من المرق- فقال له أبو أيوب: فرأيت رسول الله ﷺ ينهل من تلك القدر ما لم أره ينهل غيرها، فكنا نعملها له، وكنا نعمل له الهريس، وكانت تعجبه، وكان يحضر عشاءه خمسة إلى ستة عشرة كما يكون الطعام في الكثرة والقلة.

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، فقدم عليه بفاطمة وأم كلثوم -ابنتيه- وسودة بنت زمعة -زوجته ﷺ- وحمل زيد بن حارثة امرأته -أم أيمن- مع ابنها أسامة بن زيد، وأما زينب بنت رسول الله ﷺ فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج.

أكّد ذلك ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد) في الجزء الثاني الصفحة الخامسة والثمانين.

تضيف الرواية: وخرج عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة، وأختها أسماء زوج الزبير، وأم رومان أم عائشة، فلما قدموا المدينة أنزلوا في بيت حارثة بن النعمان، وذكر رزين أن أبا بكر أرسل عبد الله بن أريقط مع زيد ليأتيه بأهله.

قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس، ولما اطمأنت برسول الله ﷺ داره، وأظهر الله بها دينه، وسرّه بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس أخو بني عدي بن النجار يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام، وما خصهم به من نزوله ﷺ في شعر يذكره هؤلاء الرواة.

يأتي بعد ذلك ما أشرنا إليه من قبل من حديث حول "ثنيات الوداع" وما دار من كلام حول موضوع هذه الثنيات مقْدَم رسول الله ﷺ.

يقول المعلق على هذا الموضوع في كتاب (سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد) يقول: حاول كثير من كتاب السِيَر تحقيق موقع "ثنيات الوداع" التي وردت في كتب الحديث والسيرة النبوية المباركة، وكثُر النقاش حولها ابتداء من عهد القاضي عياض المتوقي سنة ٥٤٤ هجرية، ومن أبرز من اشترك في هذا النقاش ابن القيم وابن حجر، ثم استأنف البحث فيه السمهودي المتوفى سنة ٩١١ هجرية، في كتابه (وفاء الوفا) كما تحدث عن ذلك أيضاً القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هجرية في (المواهب اللدنية).

ومؤلف هذا الكتاب المتوفى سنة ٩٤٢ هجرية، يقصد الشامي الصالحي، ثم الدياربكري المتوفى سنة ٩٨٢ هجرية، وعلى بن إبراهيم الحلبي صاحب (السيرة الحلبية) المتوفى سنة ١٠٤٤ من الهجرة، وأخيرًا محمد بن عبد الباقي الزرقاني المتوفى١١٢٣ أو ١١٢٢ هجرية، وذلك في شرحه لـ(ـمواهب القسطلاني).

وتتفاوت كتابات هؤلاء في عرضها وإيرادها للروايات المختلفة الخاصة بـ"ثنيات الوداع" ونقدها، والموضوع يتصل بما يسمى حديثًا بالجغرافية التاريخية. وأقدر من كتب فيه هو من أتيحت له فرصة الإقامة في المدينة، والتجوال في ربوعها وبقاعها مثل السمهودي.

وقد أورد الصالحي الشامي مؤلف كتاب (سبل الهدى والرشاد) جانبًا مما كتب في هذا الصدد، غير أن أوفى تلخيص له نجده فيما كتبه الديار البكري في (تاريخ الخميس) الجزء الأول صفحة ٣٤٢، ويقول فيما روي عن السمهودي: "ثنية الوداع" شامي المدينة خلف سوقها القديمة بين مسجد الراية ومسجد النفس الزكية قرب "سلا"، وقال عياض: هي موضع بالمدينة بطريق مكة.

وفي (المواهب) أنشئ هذا الشعر الذي سمعناه عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، أنشئ عند قدومه ﷺ.

وقد روى ذلك البيقهي في (دلائل النبوة)، وأبو الحسن بن مرقلي في كتاب (الشمائل) له، عن ابن عائشة، وذكره المحب الطبري في (الرياض النضرة) وسميت "ثنية الوداع"؛ لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها، ويودع عندها قديمًا، وهناك كلام طويل حول هذا الموضوع، لا نريد أن نمضي فيه؛ لأنه ربما يطيل بنا حديثًا في موضوع ربما لا يدخل في صميم عملنا.

وعلى كل حال فهذا الأمر موجود بالتفصيل في هذا التعليق الذي كتبه معلق الكتاب -كتاب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) هذا الرجل الذي كتب هذا التعليق يقول كلامًا طويلًا لا يدخل في نطاق ما نريد أن نتحدث عنه، وحسبنا ما أشرنا إليه.

بقى أن نقول فقط: إن هذا التعليق موجود في الجزء الثالث من كتاب (سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد) في الصفحة ٣٩٨، وهو التعليق الثاني في الجزء الثالث للأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمي الذي قام بتحقيق هذا الجزء من ذلك الكتاب.

كانت الهجرة شديدة الوطأة على المهاجرين

كانت الهجرة قاسية الوقع على المهاجرين، وقد وقف رسول الله ﷺ بالحزورة في سوق مكة، فقال: ((والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت)) هذا رواه الترمذي في (السنن) في الجزء الخامس في الصفحة ٧٢٢، وابن ماجه في (السنن) في الحديث رقم ١٠٣٧، والدرامي في (السنن) في الجزء الثاني الحديث ٢٣٩٢.

بل واجه المهاجرون من مكة صعوبة في اختلاف المناخ ؛ لأن المدينة بلد زراعي تغطي أرضها ببساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى منه في مكة ، وقد أصيب العديد من المهاجرين بشيء من الحمى ، منهم أبو بكر وبلال ، كان أبو بكر إذا أخذته الحمى وارتفعت حرارته يقول :

كل امرئ مصبح في أهله ❖ والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ، ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ❖ بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة ❖ وهل يبدون لي شامة وطفيل

فأخبرت عائشة > رسول الله ﷺ فقال ﷺ : ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها ، انقل حماها فاجعلها بالجحفة)). وهذا موجود في (فتح الباري) الجزء السابع الصفحة ٢٦٢.

وقال النبي ﷺ : ((اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم)). وهذا النص موجود أيضًا في نفس الكتاب في صفحة ٢٦٩.

لقد تغلب المهاجرون على المشكلات العديدة ، واستقروا في الأرض الجديدة ، مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة ، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس ، حتى كان فتح مكة ، فأوقفت الهجرة ؛ لأن سبب الهجرة ومشروعيتها نصرة الدين ، وخوف الفتنة من الكافرين.

وكما يقرر الأستاذ أكرم ضياء العمري في كتابه (عن السيرة النبوية الصحيحة) : فإن الحكم يدور مع علته ، ومقتضاه أن من قدر الله على عباد الله في أي موضع اتفق -لم تجب عليه الهجرة منه ، وإلا وجبت ، ومن ثم قال الإمام الماوردي

صاحب (الأحكام السطانية): إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر، فقد صارت البلد به دار الإسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها، لما يترجى من دخول غيره في الإسلام. وهذا ذكره ابن حجر في فتح الباري الجزء السابع الصفحة ٢٢٩.

عندما دُوِّنَ التاريخ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب اتخذت الهجرة بداية التقويم الإسلامي، لكنهم أخروا ذلك من ربيع الأول؛ لأن الهجرة كانت في ربيع الأول، أخروا التقويم من ربيع الأول إلى المحرم؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم؛ إذ أن بيعة العقبة الثانية وقعت في أثناء ذي الحجة، وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة، كان أول هلال هو هلال المحرم، فناسب أن يجعل ذلك مبدءًا للتاريخ الإسلامي. وهذا أيضا موجود عند البخاري في (فتح الباري) الجزء السابع الصفحة ٢٦٨.

الخطبتان اللتان خطبهما النبي ﷺ في أول جمعة صلاها

كيف وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة؟ وكيف صلى الجمعة؟

يقول العلماء: إن النبي ﷺ صلى أول جمعة له في بني سالم بن عوف، وكانت أول خطبة خطبها ﷺ كانت أيضًا في بني سالم بن عوف، جزم بذلك أبو سلمة بن عبد الرحمن، والعيون، نقلًا عن ابن إسحاق، وجزم بذلك البيهقي أيضًا، نقلًا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: كان أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

((أما بعد: أيها الناس، فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه -وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه-: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالًا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينًا وشمالًا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم)).

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى، فقال:

((إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا من أحبه الله، أحبوا الله من قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنكم قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي. قد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كان ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروحِ اللهِ بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)).

وروى ابن جرير عن سعيد بن عبد الرحمن الجحمي، أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف: ((الحمد لله،

أحمده وأستعينه، واستغفره، وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره. وأشهد وأن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالًا بعيدًا.

أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله ﷻ فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكرًا، وإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه - عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلا ما قدم، وما كان مما سوى ذلك: ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠] هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف في ذلك، فإنه يقول ﷻ: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٥] ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، فخذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ

﴿ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأكثروا ذكر الله -تعالى- واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

قال في (الروض الأنف) للسهيلي قوله ﷺ: ((أحبوا الله من كل قلوبكم))، يريد أن تستغرق محبة الله تعالى جميع أجزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجًا من قبله خالصًا لله ﷻ، وعلى الإنسان أن يقدم محبته لله ولرسوله ﷺ على محبته لأعز الناس عليه في الدني: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ﴾ [التوبة: ٢٤] وقوله ﷺ: ((لا تملوا ذكر الله وذكره، فإنه من كل ما يخلق يختار ويصطفي)).

قال السهيلي في (الروض الأنف): إن الحديث من كل ما يخلق الله يختار، فالأعمال كلها من خلق الله، وقد اختار منها ما شاء، قال ربنا ﷻ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨].

"وقد سماه الله خيرته من الأعمال" هذه كلمة للنبي ﷺ في الخطبة، يعني: الذكر وتلاوة القرآن لقوله ﷻ: ﴿ وَيَخۡتَارُ ﴾ فقد اختاره من الأعمال.

وقوله: "المصطفى من عباده" يعني: سمى المصطفى من عباده، بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾

[الحج: ٧٥]، وقد اختلف العلماء في تسمية ذلك اليوم مع أنه كان في الجاهلية، يعني: يوم الجمعة كان باتفاق العلماء يسمى "يوم العروبة" في الجاهلية، قال أبو جعفر النحاس في كتابه (صناعة الكتابة): لا يعرفه أهل اللغة إلا بالألف واللام إلا شاذًّا -يعني: العروبة- ومعناه اليوم المبين المعظم، من أعرب إذا بين، قيل: سمى بذلك اليوم؛ لأن الخلائق جمعت فيه. ذكره أبو حذيفة البخاري في المبتدأ عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، وقيل: لأن خلق آدم قد جمع فيه.

وروى الإمام أحمد، والنسائي، وابن خزيمة، وابن أبي حاتم عن سلمان < قال: قال رسول الله ﷺ: ((أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، قال في الثالثة: هو اليوم الذي جمع فيه أبوكم آدم))، وله شاهد عن أبي هريرة < رواه أبو حاتم بإسناد قوي، قال الحافظ: وهذا أصح.

قالو: إذًا يوم الجمعة هو يوم العروبة، والظاهر: أنهم غيروا الأيام السبع بعد أن كانت: أوله، وأوهن، وجبار، ودبار، ومؤنس، وعروبة، وشيار.

ولكن على كل حال غيروا هذه الأسماء، ويوم الجمعة هو الذي كان يسمى قبل ذلك يوم العروبة.

وقد تقدمت الإشارة فيما ذكرنا من روايات من قبل أن صلاة الجمعة صلاها الصحابة بالمدينة قبل قدوم النبي ﷺ هنا يبين العلماء أن ذلك كان بإذن من النبي ﷺ.

روى الدارقطني عن ابن عباس أن ذلك كان بإذن من النبي ﷺ قال: أذن رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يجمع بمكة، ولا أن يبدي لهم، فكتب إلى مصعب بن عمير < : أما بعد، فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم، فاجمع نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره

عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله -تعالى- بركعتين، قال فأول من جمع مصعب بن عمير حتى قدم رسول الله ﷺ فجمّع عند الزوال من الظهر. والمعروف في هذا الإرسال.

وقد روى في كتاب (الأوائل) لأبي عروبة الحراني، قال: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ابن وهب، حدثنا ابن جريج، عن سليمان بن موسى أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب به.

وقيل: إن ذلك كان باجتهاد الصحابة، يعني: إن هؤلاء الصحابة صلوا الجمعة في المدينة المنورة قبل أن يأتي النبي ﷺ باجتهاد منهم. هذا ما رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين، قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يومًا يجمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلموا فلنجعل يومًا نجمع فيه، فنذكر الله، ونصلي ونشكر، فجعلوا يوم العروبة، يعني: هذا هو الاسم الذي كان يسمى به يوم الجمع في الجاهلية قديمًا، وقد اجتمع الناس إلى أسعد بن زرارة فصلي بهم يومئذ، وأنزل الله ﷻ بعد ذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

قال الحافظ: وهذا وإن كان مرسلًا فله شاهد بإسناد حسن، رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة، وغير واحد، من حديث كعب بن مالك، وقال: كان أول من مصلى بنا الجمعة قبل مقدم النبي ﷺ أسعد بن زرارة. فمرسل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة باجتهاد منهم.

ولا يمنع ذلك أن النبي ﷺ علمه بالوحي وهو بمكة، فلم يتمكن من إقامتها، كما روى ابن عباس في حديثه؛ ولذلك جمّع بهم أول ما قدم المدينة كما رواه ابن إسحاق وغيره، وعلى هذا فقد حدثت الهداية للجمعة بخبر نبي البيان والتوفيق، وقيل: الحكمة في اختيارهم الجمعة وقوع خلق آدم فيه، والإنسان إنما خلق للعبادة، فناسب أن يشتغل بالعبادة فيه، وكان الله -تعالى- أكمل فهي الموجودات، وأوجد فيه الإنسان الذي ينتفع بها، فناسب أن يشكر الله على ذلك بالعبادة فيه، هذا ما ذكره العلماء خاصًا بهذه الجزئية.

"بناء المسجد النبوي" اشتراك النبي ﷺ وأصحابه في البناء، وما صاحب ذلك من آيات

نأتي بعد ذلك إلى أمر حدث للنبي ﷺ أيضًا في المدينة المنورة، بعد تمام الهجرة واستقراره ﷺ فيها، هذا الأمر الذي نود أن نتوقف عن مروياته بعض الوقت، هو ما ذُكِر حول بناء مسجده الأعظم، وبعض ما وقع في ذلك من الآيات:

تقدم أن ناقته ﷺ بركت عند باب مسجده، فقال رسول الله ﷺ: ((هذا المنزل إن شاء الله))، ثم أخذ في النزول: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، والموضع الذي بركت فيه كان مربدًا ليتيمين -المربد هو المكان الواسع الذي يجمع فيه التمر ليجف، كان مربدًا -مكانًا واسعًا يوضع فيه التمر ليجف، وكان مملوكًا ليتيمين هم: سهل، وسهيل. قال يحيي بن الحسن، والبلاذري وغيرهم: ابنا رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غن بن مالك بن النجار. وبذلك صرح ابن حزم، وأبو عمرو ورجحه، وكان هذان اليتيمان في حجر أسعد بن زرارة، يعني: تحت رعاية أسعد بن زرارة، كما جاء في (صحيح البخاري) عند أكثر رواته.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بني النجار بسبب موضع المسجد، فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، يعني قدروا لي ثمنًا أدفعه لهذا المكان، فقالو: والله لا نطلب ثمنه إلا من الله، وفي رواية: فدعا بالغلامين وساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقال: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا، -ابتاعه منهم: اشتراه منهما بالثمن، ثم بناه مسجدًا. وكان أسعد بنى المربد مسجدًا قبل أن يقدم النبيﷺ وروى يحيي بن الحسن عن النوار بنت مالك أم زيد بن ثابت، أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم النبي ﷺ يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويجمع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل ابني رافع بن عمرو بن عائذ، قالت: كأني انظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم ﷺ بهم في ذلك المسجد، وبناه فهو مسجده، وهذا -أيضًا. وذكر البلاذي نحوه.

وروى الشيخان -البخاري ومسلم- والبيهقي عن أنس > قال: كان المسجد جدارًا ليس له سقف، وقبلته إلى القدس، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل بالغرقد أن يقطع، وكان فيه قبور جاهلية، فأمر بها فنشبت، وأمر بالعظام أن تغيب، كان في المربد ماء فسيره حتى ذهب، وكان فيه خِرَب -يعني: أرض خربة- فأمر بها فسويت، فصف النخل قبلة له، أي: جعلت سواريه مثل الأعمدة له في جهة القبلة، فسقف عليها، وجعلوا عضودتيه حجارة.

وروى ابن عائذ أن النبي ﷺ صلى فيه وهو عريش اثني عشر يومًا، ثم سقف. يعني: النبي ﷺ صلى فيه قبل أن يسقف اثني عشر يومًا، ثم سقف المكان بعد ذلك.

وروى محمد بن الحسن المخزوني، ويحيي بن الحسن، عن شهر بن حوشب قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يبني المسجد، قال: ((ابنوا لي عريشًا كعريش موسى،

ثمامات وخشبات، وظلة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك، قيل: وما ظلة موسى؟ قال: كان إذا قام أصاب رأسه السقف)) وعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة في بناء المسجد بنفسه الكريمة، كما في الصحيح أنه طفق بهم، طفق ينقل معهم اللبن، اللبن: يعني الطوب الذي لم تدخل عليه النار، الطوب الأبيض الذي لم تسو طينته بالنيران- طفق ينقل معهم باللبن ترغيبًا لهم في العمل، ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ❖ فارحم الأنصار والمهاجرة

ويذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة، وكان شاعرًا، وعن الزهري أن رسول الله ﷺ كان يقول:

((اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فارحم المهاجرين والأنصار)). وروى محمد بن الحسن المخزومي، عن أم سلمة < أنها قالت: "بنى رسول الله ﷺ مسجدًا، فقرب اللبن، وما يحتاجون إليه، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم، وجعلوا يرتجزون ويعملون، ويقولون:

لئن قعدنا والنبي يعملُ ❖ ذاك إذن للعمل المضللُ"

وروى البيهقي عن الحسن قال: "لما بني رسول الله ﷺ المسجد، أعانه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى أغبر صدره".

وكان عثمان بن مظعون رجلًا متنطعًا، وكان يحمل اللبنة فيجافي بها ثوبه، يعني يبتعد بها عن ثوبه فإذا وضعها نفض كمه، ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه علي بن أبي طالب < فأنشد يقول:

لا يستوي من يعمر المساجدَ
يدأب فيها قاعدا
ومن يُرى من الغبار حائدا

فسمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها، وهو لا يدري من يعني بها، فمر بعثمان بن مظعون، فقال: يا ابن سمية، ما أعرفني بمن تعرض، ومعه جريدة فقال: لَتَكُفَّنَّ أو لاعترضن بها وجهك، فسمعها رسول الله ﷺ، فغضب ثم قال: ((إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد أبلغ))، ووضع يده بين عينيه، فكف الناس عن عمار، ثم قالوا لعمار: إن النبي ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله، مالي ولأصحابي، قال: مالك ولهم، قال: يريدون قتلي، يحملون لبنة لبنة، ويحملون عليَّ لبنتين لبنتين، فأخذه بيده وطاف به في المسجد، وجعل يمسح فروته -يعني: شعر رأسه- بيديه من التراب، ويقول: ((يا ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة، ويدعونك إلى النار)).

ويقول عمار: أعوذ بالله من الفتن، وهذا مما أخبر به ربنا ﷻ نبيه محمدًا ﷺ فعلم الغيب لا يكون إلا عند الله ﷻ ومن أراد أن يطلعه على شيء من ذلك من رسله، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦].

وروى عبد الرزاق بسند على شرط الشيخين عن أم سلمة، والبخاري، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري > قال: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، جعل أصحاب رسول الله ﷺ يحمل كل رجل منهم لبنة لبنة، وعمار يحمل

لبنتين، لبنة عنه، ولبنة عن رسول الله ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال: ((يا ابن سمية للناس أجر، ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة، ويدعونك إلى النار))، وعمار يقول: أعوذ بالله من الفتن.

وروى أبو يعلى برجال الصحيح إلى أن التابعي لم يسمع عن عائشة > قالت: لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة، جاء بحجر فوضعه، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه، وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه. قالت: فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: هذا أمر الخلافة من بعدي.

وروى البيهقي بسند قوي جيد عن سفينة > نحو ذلك، وفيه قال: ((هؤلاء ولاة الأمر من بعدي)).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة > : إنهم كان يحملون اللبن إلى بناء المسجد، ورسول الله ﷺ معهم، قال: فاستقبلت رسول الله ﷺ وهو عارض اللبنة على بطنه، فظننت أنها شقت عليه، فقلت: يا رسول الله ناولنيها. فقال: ((خذ غيرها، لا عيش إلا عيش الآخرة)). وهذا كان في بنائه المرة الثانية؛ لأن أبا هريرة لم يسلم في المرة الأولى.

وروى يحيي بن الحسن عن أسامة بن زيد { عن أبيه قال: خرج رسول الله ﷺ ومعه حجر فلقيه أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله، أعطينيه، فقال: ((اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله مني)).

وروى الإمام أحمد، ويحيي بن الحسن عن طلق بن عدي > ، قال: "أتيت رسول الله ﷺ وهو يبني المسجد والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين، فأخذت المسحاة أخلط الطين، والنبي ﷺ ينظر إلي،

ويقول: ((إن هذا الحنفي لصاحب طين)) وكان يقول: ((قربوا اليمامي من الطين، فإنه أحسنكم له مسكنا، وأشدهم منكبًا))".

وروى يحيي بن الحسن من طريق عبد العزيز بن عمر، عن يزيد بن السائب، عن خارجة بن زيد بن ثابت > قال: "بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين في ستين ذراعًا أو يزيد، ولبن لبنة من بقيع الخبخبة، وجعل جدارًا، وجعل سواريه خشبًا شقة شقة، وجعل وسطه رحبة، وبني بيتين لزوجتيه".

وروى يحيي أيضًا عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: "كان بناء مسجد رسول الله ﷺ بالسميط، لبنة على لبنة، ثم بالسعيد، لبنة ونصف أخرى، ثم كثر الناس، فقالو: يا رسول الله، لو زيد فيه، ففعل، فبني بالذكر والأنثى، وهما لبنتان مختلفان، وكانوا رفعوا أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع بالحجارة، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع، وكذا في العرض، وكان مربعًا". وفي رواية جعفر: "ولم يسطح فشكوا الحر، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعًا وظللوه بالجريد، ثم بالخسف، فلما وكف عليهم طينوه بالطين، وجعلوا وسطه رحبة، وكان جداره قبل أن يسقف قامة وشيئًا".

وروى يحيي، عن أسامة بن زيد بن حارثة، عن أبيه } : "أن رسول الله ﷺ جعل قبلته إلى بيت المسجد، وجعل له ثلاثة أبواب في مؤخره: باب أبي بكر، وهو في وجهة القبلة اليوم، وباب عاتكة الذي يدعي باب عاتكة، ويقال له: باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ" وهو باب آل عثمان اليوم، وهذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبلة، ولما صرفت القبلة سد النبيﷺ الباب الذي كان خلفه، وفتح هذا الباب، وحذاءه هذا الباب، أي: ومحاذيه هذا الباب الذي سد.

وروى ابن جبالة عن جعفر بن محمد: " أن النبي ﷺ بني مسجده مرتين، بناه حين قدم أقل من مائة في مائة، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله في الطول". وهذا الذي أشرنا إليه من قبل من أن أبا هريرة > قد اشترك في هذا البناء الثاني.

وروى الزبير بن بكار عن أنس > أنه قال: "بنى رسول الله ﷺ مسجده أول ما بناه بالجريد، وإنما بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين".

وروى الطبراني عن أبي المليح أنه قال: "قال رسول الله ﷺ لصاحب البقعة التي زيدت في مسجد المدينة -وكان صاحبها من الأنصار- فقال النبي ﷺ: ((لك بها بيت في الجنة))، قال: فجاء عثمان فقال: لك بها عشرة آلاف درهم، فاشتراها منه، ثم جاء عثمان إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اشترِ مني البقعة التي اشتريتها من الأنصاري، فاشتراها منه ببيت في الجنة، قال عثمان: إني اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع رسول الله ﷺ لبنة، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة، ثم دعا عمر فوضع لبنة، ثم دعا عثمان فوضع لبنة، ثم قال للناس: ((ضعوا))، فوضعوا".

وروى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه في حديث قصة إشراف عثمان يوم الدار عن ثمامة بن حزن القشيري، والإمام أحمد والدارقطني عن الأحنف بن قيس أن عثمان > أشرف على الناس، فقال: أهاهنا علي؟ قالوا: نعم، قال: أهاهنا طلحة؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو هو أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: ((من يبتاع بقعة بني فلان فليزيدها في المسجد بخير منها في الجنة))، وفي رواية: ((غفر الله له))، فاشتريتها من صلب مالي بعشرين ألفًا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: قد ابتعتها، فقال: اجعلها في مسجدنا ولك أجرها؟

قالو: اللهم نعم. هذا حدث بينما كان عثمان > محاصرًا من قبل هؤلاء الغوغاء في داره قبيل مقتله بقليل.

وروى الزبير بن بكار عن نافع بن جبير وداود بن قيس، وابن شهاب، وإسماعيل بن عبد الأزدي عن رجل من الأنصار، والطبراني بسندٍ رجاله ثقات، عن الشموس بنت النعمان < ويحيي بن الحسن، عن الخليل بن عبد الله الأسدي، عن رجل من الأنصار، عن ابن عجلان والغرفي، عن مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر: "أن رسول الله ﷺأقام رهطًا على زوايا المسجد ليعدل القبلة، فأتاه جبريل، فقال: يا رسول الله، ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده هكذا، فانماط كل جبل بينه وبينها، فوضع تربيع المسجد وهو ينظر إلى الكعبة، لا يحول دون نظره شيء، فلما فرغ قال جبريل بيده، فأعاد الجبال والشجر والأشياء حالها، وصارت قبلته إلى الميزاب، فقال رسول الله ﷺ: ((ما وضعت قبلة مسجدي هذا حتى رفعت لي الكعبة، فوضعتها أمامها))".

وقال الإمام مالك -رحمه الله- كما في (العتبية) -كتاب (العتبية) كتاب في مذهب الإمام مالك، مصنفه العتبي محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة-: "سمعت أن جبريل هو الذي أقام لرسول الله ﷺ قبلة مسجد المدينة".

وروى البخاري وأبو داود عن نافع وأبي داود من طريق ابن عطية، وكلاهما عن ابن عمر { : "أن مسجد رسول الله ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل، وأعلاه مظلل بجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر، فبناه بجذوع النخل، وبجيد النخل ولم يزد فيه، وزاد فيه عمر، وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، وأعاد عمده خشبًا، ثم إنها

نخرت في خلافة عثمان، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج، ونخل إليه الحصواء من العقيق كما جاء في بعض الروايات، وأول ما اتخذ فيه المقصورة مروان بن الحكم، بناها بحجارة منقوشة وجعل لها قُوَل، ثم لم يحدث فيه شيء إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه، كان مروان بن الحكم أحد الخلفاء من بني أمية، ولكن الإشارة إليه عندما سبقت قبل ذلك بقليل، كانت عندما كان مسئولًا عن المدينة المنورة كوال عليها، وكان عمر بن العزيز عاملًا على المدينة للوليد بن عبد الملك، فجاءه الأمر بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه الوليد بمال وفسفياء ورخام، وثمانين صانعًا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولي القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان، وذلك في سنة سبع وثمانين، ويقال: سنة ثمان وثمانين؛ لأن الوليد بن عبد الملك تولى في الفترة من عام ست وثمانين إلى عام ست وتسعين، ولم يحدث فيه أحد من الخلفاء شيئًا حتى استخلف المهدي الخليفة العباسي".

قال محمد بن عمر: "بعث المهدي عبدَ الملك بن شيب الغساني، ورجلًا من ولد عمر بن عبد العزيز إلى المدينة لبناء مسجدها، والزيادة فيه، وعليها يومئذ جعفر بن سليمان بن علي، فمكث في عمله سنة، وزاد في مؤخره مائة ذراع، فصار طوله ثلاثمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع".

وقال علي بن محمد المدائني: "ولي المهدي جعفر بن سليمان مكة والمدنية واليمامة، فزاد في مكة، ومسجد المدينة، وتم بناء مسجد المدينة في سنة اثنتين وستين ومائة، وكان المهدي أتى إلى المدينة في سنة ستين ومائة قبل

الحج، فأمر بقلع المقصورة، وتسويتها مع المسجد، ويقال: إن المأمون عمره أيضًا وزاد فيه. ثم لم يزد فيه شيئًا أحدٌ من الخلفاء بعد المأمون، ولم يعمروا إلا مواضع يسيرة إلى أن حصل الحريق في المسجد النبوي في أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبي بكر بن أوحد الفراش، الحاصل الذي في الزاوية الغربية؛ لاستخراج قناديل لمنائر المسجد، وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل، وفيه مشاق، فاشتعلت النيران فيه، وأعجزه إطفاؤها، وعلقت ببسط وغيرها مما في الحاصل، وتزايد الالتهاب حتى اتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف آخذةً قبلةً، فأعجلت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة، واجتمع معه غالب أهلها، لم يقدروا على قطعها، وما كان إلا القليل حتى استوى الحريق على جميع سقف المسجد الشريف، وما احتوى من المنبر النبوي والأبواب، والخزائن، والمقاصير، والصناديق، ولم تبق خشبة واحدة.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وأهل الصفة، وصحيفة المدينة

عناصر الدرس

العنصر الأول	: من الأسس التي أقام النبي ﷺ مجتمع المدينة عليها: نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	٩٩
العنصر الثاني	: إبطال التوارث بين المتآخين من المهاجرين والأنصار بنص القرآن الكريم	١٠٠
العنصر الثالث	: آصرة العقيدة هي الأساس الأول في تآلف الناس	١٠٣
العنصر الرابع	: قيام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل بين أفراده	١٠٧
العنصر الخامس	: (أهل الصفة) عدد أهل الصفة وذكر أسمائهم	١١٢
العنصر السادس	: انقطاع أهل الصفة للعبادة، ومشاركتهم في أحداث المجتمع والجهاد، وصفة ملابس أهل الصفة و طعامهم، ومواساة النبي ﷺ لهم	١١٦
العنصر السابع	: رعاية النبي ﷺ وأصحابه لأهل الصفة	١١٩
العنصر الثامن	: (صحيفة المدينة) الوثيقة التي حددت الحقوق والواجبات ورسمت العلاقات بين طوائف السكان في المدينة المنورة	١٢٣

من الأسس التي أقام النبي ﷺ مجتمع المدينة عليها نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لقد طابت نفوس الأنصار بما سيبذلونه لإخوانهم المهاجرين من عون، وتصور بعض الروايات عمق التزامهم بنظام المؤاخاة، وتفانيهم في تنفيذه، ومن النماذج الفريدة التي نذكِّر بها ما سبق أن ذكرناه من قبل خاصًّا بهذه المؤاخاة، وهو ما حدث بين سعد بن الربيع الأنصاري وعبد الرحمن بن عوف المهاجر، حيث قال له سعد -كما أشرنا فيما سبق-: "إن لي مالًا فهو بيني وبينك شطران، ولي امرأتان فانظر أيهما أحب إليك فأنا أطلقها، فإذا حلت فتزوجها"، قال: "بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق" فلم يرجع حتى رجع بسمن وأقط قد أفضله. قال الراوي -على لسان عبد الرحمن بن عوف-: "لقد رأى رسول الله ﷺ عليّ أثر صفرة، فقال: مهيم؟ فقلت: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال: أولم ولو بشاة". (سنن النسائي) (٦/ ١٣٧).

ولا شك أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصور الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل الذي لا نشهد له مثيلًا في تواريخ الأمم الأخرى، وليس موقف ابن عوف في أنفته، وكرم خلقه، وعدم استغلال لأخيه بأقل روعةً من إيثار ابن الربيع، فقد تمكن -وهو التاجر الماهر- من شق طريقه في الحياة الجديدة، وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج، ودفع المهر نواة من ذهب، ثم بورك له في عمله، ونمت ثروته، ليصبح من كبار أغنياء المسلمين، فقد أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التي تعطي ولا تأخذ، وهذا الخبر أيضًا في (صحيح البخاري) (٥/٣٩).

إبطال التوارث بين المتآخين من المهاجرين والأنصار بنص القرآن الكريم

لا شك أن التوارث بين المتآخين كان لمعالجة ظروف استثنائية مرت بها الدولة الناشئة، فلما ألف المهاجرون جو المدينة، وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية، على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص آيات القرآن الكريم، حيث يقول ربنا ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. هذه الآية -كما هو واضح منها. نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة، ويرى ابن عباس أن آية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] هي التي نسخت التوارث بالمؤاخاة، فالموالي في رأيه هم الورثة بالرحم، ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هم المهاجرون الذين كانوا يرثون بنظام المؤاخاة، وذكر ابن عباس: أن ما ألغي من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، يمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين، ودون وصية لا يرث، وهذا قد وردت الإشارة إليه في (صحيح البخاري) (٣/١١٩)، (٦/٥٥، ٥٦)، (٨/١٩٠، ١٩١).

إلى هذا المعنى -أن الميراث لا يكون بين المتآخين دون وصية- ذهب الإمام النووي، فقال: "أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأما المؤاخاة في الإسلام، والمحالفة على طاعة الله ﷻ، والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة الحق، فباقٍ لم ينسخ". أشار إلى هذا في (صحيح مسلم) (٤/١٩٦٠) في الحاشية.

وينفرد ابن سعد بنقل رواية بإسناده إلى عروة بن الزبير، تذكر هذه الرواية -التي انفرد بها ابن سعد. أن إلغاء التوارث بين المتآخين ونزول آية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ كان بعد غزوة أحد التي وقعت في شهر شوال سنة ٣ من الهجرة، وهذا أمر ذكره الإمام السيوطي في كتابه (لباب النقول في أسباب النزول) ص٢٦٠ نقلًا عن ابن سعد، ونقله الشوكاني في (فتح القدير) (٢/ ٣٣٠، ٣٣١) وقال الشوكاني: "أخرجه ابن سعد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه".

ومن الغريب أن ابن حجر ذكر المؤاخاة بين الحتات التميمي ومعاوية بن أبي سفيان، وأن الحتات مات في خلافة معاوية فورثه بالأخوة، مكتفيًا في التعليق على الخبر بإبداء تعجبه —يعني: ابن حجر- تعجب من هذا الخبر؛ لأن للحتات بنين يرثونه، دون أن يشير إلى إبطال التوارث بالمؤاخاة أصلًا منذ السنة الثانية الهجرية، ولا يصح مثل هذا الخبر إلا أن يكون الحتات قد أوصى لمعاوية بشيء من ميراثه وليس كل ميراثه. وهذا موجود عند ابن حجر في كتابه (الإصابة) في (٢/ ٣٠).

لكن المؤاخاة مستمرة دون توارث، فهي ألغيت من ناحية التوارث فقط، لكنها مستمرة بدون توارث. فالذي يبدو من النصوص أن النبي ﷺ استمر يؤاخي بين أصحابه مؤاخاة مواساة وتعاون وتناصح، دون أن يترتب على ذلك حق التوارث بين المتآخيين، وهكذا وردت أخبار تفيد أنه آخى بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي. (صحيح البخاري) (٥/ ٨٨)، (٣/ ٤٤)، مع أن سلمان أسلم بين أحد والخندق، مما جعل الواقدي والبلاذري ينكران ذلك، البلاذري أنكر ذلك في (أنساب الأشراف) (١/ ٢٧١).

وكذلك أنكر ابن كثير مؤاخاة جعفر بن أبي طالب لمعاذ بن جبل ؛ لأن جعفرًا قدم في فتح خيبر أول سنة سبع من الهجرة، كما ذكر ابن حجر في (الإصابة) (٢/ ٣٠).

ومثل ذلك مؤاخاة الحتات مع معاوية بن أبي سفيان التي وردت عند ابن كثير في (السيرة النبوية) (٢/ ٣٢٦) ؛ لأن معاوية أسلم بعد فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، وكذلك فإن الحتات قدم المدينة في وفد تميم في العام التاسع للهجرة كما ورد في (سيرة ابن هشام) (٤/ ٢٢٢).

وإذا اعتبرنا المؤاخاة مستمرة إلا ما يتعلق بحق التوارث الذي أبطل بعد غزوة بدر، فلا موجب لأي اعتراض أو إنكار، الذي أبداه بعض المؤرخين تجاه هذه الروايات ؛ لأنه -كما قلنا. استمر النبي ﷺ في المؤاخاة بين أصحابه بمعنى المواساة والتعاون والتناصح، دون أن يترتب على ذلك حق التوارث، وكذلك إذا قبلنا وقوع مؤاخاة دون إرث قبل وبعد تشريع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار- فإن ذلك سوف يفسر الالتباس الذي وقع فيه ابن إسحاق عندما أورد في قائمة المتآخين خبر مؤاخاة النبي ﷺ لعلي، ومؤاخاة حمزة لزيد بن حارثة، وكلهم مهاجرون، في حين أن سائر الأسماء الأخرى التي وردت في قائمته توضح أن المؤاخاة كانت بين مهاجري وأنصاري، وقد عقّب ابن كثير على مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ومؤاخاة حمزة لزيد بأنه لا معنى لهذه المؤاخاة إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه الرسول ﷺ منذ صغره، وإلا أن يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار، ولكن هذا التعليل الذي قدمه ابن كثير غير مقبول ؛ لأن المصادر ذكرت مؤاخاة بين حمزة بن عبد المطلب وكلثوم بن الهدم أو غيره، كما ذكرت مؤاخاة زيد بن حارثة لأسيد بن حضير، وهذا موجود في (سيرة ابن هشام) (١/ ٥٠٤-٥٠٧)، كما أن المؤاخاة بين الرسول ﷺ وعليّ تقتضي التوارث، والنبي لا يورث كما

جاء في الحديث الصحيح، كما أن البلاذري ذكر مؤاخاة علي لسهل بن حنيف في كتابه (أنساب الأشراف) (١/٢٧٠)، وكذلك ذكر مؤاخاة بين النبي ﷺ وعلي، وبين حمزة وزيد بمكة في نفس المصدر السابق، كما وردت أيضًا في (مسند الإمام أحمد) (١/٢٣٠)، وأخيرًا فإن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية.

نخلص من ذلك إلى أن هذه المؤاخاة بين علي وبين النبي ﷺ وبين حمزة وزيد إذا كانت قد وقعت- فإنها مؤاخاة تقتضي المؤازرة والرفقة دون حقوق في التوارث، وأنها جرت في غير الوقت الذي أعلن فيه نظام المؤاخاة في دار أنس بن مالك > .

إن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ، اللهم إلا ما يترتب عليها من توارث، فإنه منسوخ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين المقررة بقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

إن استجابة المسلمين لأوامر الله ﷻ تظهر في انخلاعهم عن علاقاتهم الاجتماعية والمكانية إذا اقتضت ذلك مصلحة العقيدة.

آصرة العقيدة هي الأساس الأول في تآلف الناس

نأتي بعد ذلك إلى مظهر آخر من مظاهر الأخوة بين المسلمين في مجتمع المدينة المنورة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ:

ما هي الآصرة؟ ما هو الرباط الذي ربط بين المسلمين؟

إن آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين الناس في مجتمع المدينة المنورة الذي أقامه رسول الله ﷺ؛ فالروابط التي تجمع بين الناس مختلفة، وهم يجتمعون

قبائل، وشعوب، وأوطان، وقوميات، وقد يجتمع أبناء القوميات المختلفة تحت لواء واحد بسبب الدين أو المصالح المشتركة، وتعتبر آصرة القرب أو الدم والانتماء إلى أصل عرقي من أقدم الروابط التي كونت المجتمعات البشرية.

ويوم أن ظهر الإسلام كانت تجمعات الناس تظهر بشكل قبائل كما في جزيرة العرب، وكما في أماكن أخرى، وتظهر في شكل قوميات، كما في بلاد فارس، أو في شكل مجتمعات دينية، كما في الإمبراطورية البيزنطية، لكن الإسلام جعل رابطة العقيدة هي الأساس الأول في ارتباط الناس وتآلفهم، وإن أقرَّ بعض الأواصر الأخرى إذا انضوت تحت هذا الأصل، مثل الأرحام التي حث الإسلام على وصلها، ورتب على ذلك الأحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعي والإرث، ومثل صلة الجوار، وما يترتب عليها من حقوق الجار، ومثل الصلة بين أفراد العشيرة، وما يترتب عليها من تضامن في الديات، ومثل الصلة بين أبناء المدينة، وجعلهم أولى من سواهم بزكاة أغنيائهم، لكن هذه الصلات ينبغي أن تندرج تحت آصرة العقيدة، فإذا خالفتها وأضرت بها لم يبقَ لها أي لون من ألوان الاعتبار، فأساس الارتباط في الإسلام هو العقيدة، التي تقتضي مصلحتها التفريق بين المرء وأبيه، وبين المرء وابنه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، وهكذا قاتل أبو عبادة > أباه الذي كان يمجد الأصنام، فقتله عندما التقى به في معركة بدر الكبرى، ورأى أبو حذيفة > أباه المشرك وهو يسحب لِيُرمى في القليب ببدر دون أن ينكر قلبه شيئًا من ذلك (سيرة ابن هشام ٢/٧٥).

قال ابن إسحاق كما ذكر ذلك ابن كثير في (البداية والنهاية) (٣/٣٠٦، ٣٠٧): حدثني ابن وهب أخو بني عبد الدار: أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى

فرقهم بين أصحابه، وقال: ((استوصوا بهم خيرًا))، وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه –يعني: كان أخًا شقيقًا. كان من بين الأسرى، قال أبو عزيز: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: اشددْ يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديك منه، قال ابن هشام: "وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر -وهو الذي أسره- ما قال، قال له أبو عزيز: يأخي، هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

وروى الترمذي في (السنن) في كتاب التفسير (٩٠/٥) بإسناد حسن صحيح عن عمرو بن دينار، سمع جابر بن عبد الله يقول: "كنا في غزاة -قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق- فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار"، وفيه: "فسمع ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال: أوَقد فعلوها؟! والله لئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل"، وقال غير عمرو: فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك أنت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل، وقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبي بارًّا بأبيه هيَّابًا له، لكن مصلحة العقيدة هي المعتبرة عنده أولًا، فلما رأى أباه يؤذي المسلمين عرض على النبي ﷺ أن يقتله وأن يأتيه برأسه، كما ورد في (مجمع الزوائد) للهيثمي (٣١٨/٩).

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فيما قصَّه عن نوح # وابنه، قال الله ﷻ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]. هكذا بيّن الحق ﷻ أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة، لكنه لم يعد من أهله لّما فارق الحق، وكفر بالله،

ولم يتبع نوحًا نبي الله، وصرح القرآن الكريم بعلة انقطاع الآصرة بين نوح وابنه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.

فإذا كانت القرابة من الدرجة الأولى تنبتّ عندما تصطدم بالعقيدة، فالأحرى أن تنبتّ صلات الدم، والعرق، والوطن، واللون إذا اصطدمت بمصلحة العقيدة.

وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقد قطع سبحانه وتعالى الولاية بين المؤمنين وبين الكافرين من المشركين واليهود والنصارى، حتى لو كانوا آباءهم، أو إخوانهم، أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم، مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وقد وضع القرآن الكريم مصالح المسلم، وعلاقاته الدنيوية كلها في كفة، ووضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيل العقيدة في كِفة أخرى، وحذر المؤمنين وتوعدهم إن هم غلّبوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقد نزلت هذه الآيات في الحضّ على الهجرة إلى المدينة المنورة؛ للدفاع عن الدولة الإسلامية التي نشأت فيها، وقد نجح الصحابة الكرام في امتحان العقيدة، ففارقوا الأهل والأموال والمساكن التي يحبونها، وهاجروا إلى الله ورسوله والجهاد في سبيله.

خلاصة القول: أن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقيديًّا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا الله ولرسوله وللمؤمنين، وهي أعلى أنواع الارتباط وأرقاها؛ إذ إنه يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه، على أن ينخلع من صفته الجاهلية، ويكتسب الشخصية الإسلامية؛ ليتمتع بسائر حقوق المسلمين.

قيام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل بين أفراده

وإذا كانت العقيدة هي آصرة الناس في المجتمع الإسلامي فإن الحب هو أساس بنية المجتمع المدني؛ لأن الإسلام أقام مجتمعه المدني على أساس الحب والتكافل، كما في الحديث الشريف الذي يعرفه الناس جميعًا، وهو قول النبي ﷺ: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)). فالتواد والرحمة والتواصل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم.

وقد تكفلت تعاليم الإسلام بتدعيم الحب وإشاعته في المجتمع، ففي الحديث النبوي: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)). فيعيش المؤمنون بعيدًا عن الأثرة والاستغلال، وهم يتعاونون في مواجهة أعباء الحياة، فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، والترمذي { وكما في قول النبي ﷺ: ((والله في عون العبد ما كان العبد في

عون أخيه)). أخرجه الإمام الترمذي، والإمام أبو داود { .

علاقة المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل، فلا يستعلي غنيٌّ على فقير، ولا حاكم على محكوم، ولا قوي على ضعيف؛ ((بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)) رواه مسلم.

وقد تفتر العلاقة بين المسلم وأخيه، وقد تنقطع ساعة غضب، لكن انقطاعها لا يستمر فوق ثلاث ليالٍ، ((لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام))، كما جاء في (الصحيحين).

وتدعم أسس الحب بالصلة والصدقة، ((تهادوا تحابوا))، ويضع الغني أمواله في خدمة المجتمع، وسد الثغرات التي تظهر في بنائه الاقتصادي بسبب التفاوت في توزيع الثروة، فيخرج زكاة أمواله فريضة من الله، ويواسي المحتاجين بأمواله، حتى إنهم ليفرحون إذا كثرت ثروته؛ إذ تعود عليهم بالخير والمواساة الذي يكون سببًا في تكثير الزكاة، أخرج الإمام البخاري في (كتاب التفسير) (٣١/٦) عن أنس بن مالك < قال: "كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلًا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة < فقال: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله، حيث أراك الله، قال رسول الله ﷺ: ((ذلك مال رايح)). أي: أن أجرها يروح ويغدو عليه، كما في (فتح الباري) (٣٢٦/٣)، وكررها النبي ﷺ ثم قال: ((وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين))، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله،

فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

وكان أغنياء الصحابة يعرفون أنهم مستخلفون على المال الذي اكتسبوه، فإذا وجدوا ثغرة تعجز الدولة عن سدها -أو لا تتنبه لها. بذلوا أموالهم في سدها، وقد ثبت في التاريخ أن عثمان بن عفان > تصدق بقافلة ضخمة ألف بعير، تحمل البُرَّ والزيت والزبيب، تصدق بهذه القافلة الضخمة التي يحملها ألف بعير على فقراء المسلمين عندما حلت الضائقة الاقتصادية بالمدينة المنورة في خلافة الصديق > وقد عرض عليه تجار المدينة خمسة أضعاف ثمنها ربحًا، فقال: "أعطيت أكثر من ذلك"، فقالوا: "من الذي أعطاك، وما سبقنا إليك أحد، ونحن تجار المدينة؟"، قال: "إن الله أعطاني عشرة أمثالها"، ثم قسمها بين الفقراء المسلمين.

ومثل هذا كثير في سير المسلمين من سلفنا الصالح؛ لذلك لم تظهر عندهم الطبقية، ولم يحدث الصراع الطبقي، ولم يتكتل الناس وفق مصالحهم الاقتصادية لحرب من فوقهم أو حرب من تحتهم، إن المجتمع الإسلامي لم يشهد صراع الطبقات، ولا يعرف استعلاء غني على فقير، ولا حاكم على محكوم، ولم يعترف ابتداء باختلاف البشر تبعًا لألوانهم أو أعراقهم أو دمائهم، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، والمجتمع الإسلامي مفتوح أمام الجميع، ففرص الارتقاء بالكسب متكافلة أمام أفراده، والعلاقات الاجتماعية متكافئة أيضًا، فلم يحدث أن منع فقير من الزواج بغنية، أو حجب ضعيف من الترقي إلى أرفع مناصب الدولة وأعلى مراكز القيادة والتوجيه في المجتمع الإسلامي، فليست هناك طبقة يصطدم رقي الفرد بسقوفها، ولو قدر للمجتمع الإسلامي أن يستمر في تقدمه العلمي والحضاري، وأن يمسك

بزمام البشرية اليوم، لظهرت مزايا الإسلام في بناء مجتمع متراصّ على أساس الحب والتكافل، وليس الحقد والصراع الذي ليس وراءه إلا الدمار، وإذا كان هذا هو موقف أغنياء المسلمين في المجتمع المدني، فهل لضعفاء المسلمين وفقرائهم موقف -أيضًا- في هذا المجتمع المدني؟

هذا ما يفرضه علينا هذا التطور في تقديم الموضوع حتى الآن، الفقراء والأغنياء يجاهدون جميعًا في صف واحد، لقد وقف الأغنياء والفقراء في صف جهادي واحد؛ لأن العقيدة التي منعت ظهور الصراع الطبقي، وآخت بين الأغنياء والفقراء، ووحدت الصف الداخلي، هي نفس العقيدة التي طلبت منهم جميعًا أن يواجهوا متطلبات الجهاد، وتلك صورة من المجتمع المدني، توضح كيف عاشت مجموعة من أفقر المسلمين في عصر السيرة النبوية المباركة، يقول ربنا ﷻ: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، يذكر ابن سعد في (الطبقات الكبرى) (١/٢٥٥): أن هذه الآية نزلت في أهل الصُّفة، وذكر الطبري في (تفسيره) (٥/٢٩١) تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، بأسانيد عن مجاهد والسدي: أنها نزلت في فقراء المهاجرين.

ولهذا كان من المناسب أن نعرض صورة من حياة هؤلاء الفقراء في المجتمع الإسلامي الأول، وهي حياة هؤلاء الذين يلقبون بلقب أهل الصفة؛ لنصل إلى ذلك نعرف أنهم من فقراء المهاجرين، بسبب أنه عقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فرارًا بدينهم من طغيان المشركين، ولا شك أن بعض

المهاجرين لم يستطيعوا العمل حال قدومهم إلى المدينة المنورة؛ لأن الطابع الزراعي يغلب على اقتصاد المدينة، وليست للمهاجرين حياة زراعية، فمجتمع مكة مجتمع تجاري، كما أنهم لا يمتلكون أرضًا زراعية في المدينة، وليست لديهم رءوس أموال، فقد تركوا أموالهم بمكة، وقد وضع الأنصار إمكانياتهم المادية في خدمة المهاجرين، لكن تدفق بعض المهاجرين بقي محتاجًا إلى المأوى، واستمر تدفق المهاجرين إلى المدينة، خاصةً بعد موقعة الخندق، حيث كان الكثيرون منهم يستقرون في المدينة، كما طرقت الوفود الكثيرة المدينة، ومنهم من لم يكن على معرفةٍ بأحد من أهل المدينة، وقد كان هؤلاء غرباء، وبحاجة إلى مأوى دائم أو مأوى مدة إقامتهم.

ولا شك أن النبي ﷺ فكر في إيجاد المأوى للفقراء المقيمين والوفود الطارقين، وهنا تأتي فرصة ظهور أهل الصفة، وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وكما نعلم جميعًا كان ذلك بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، وهناك من يقول: إنها كانت بعد تسعة أشهر، أو عشرة، أو سبعة عشر شهرًا، أو بعد سنتين، لكن في (صحيح البخاري) كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة (١٠٤/١): أن ذلك كان بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وهذا هو المعول عليه عند جمهور العلماء: أن تحويل القبلة إنما كانت بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، حيث بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به، فظلل أو سقف، وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة، ولم يكن لها ما يستر جوانبها، ويذكر ابن جبير في رحلته أن الصفة دار في آخر قباء يسكنها أهل الصفة، وتأول السمهودي ذلك بأن من ذكر من أهل الصفة أنهم اتخذوا تلك الدار فيما بعد فاشتهرت بذلك، بمعنى أن المكان الذي ذكره ابن جبير نُسب إلى أهل الصفة، ولم ينسبوا

هم إليه ؛ لأن نسبتهم كانت إلى صُفة المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ولا يعرف سعة الصفة، ولكن يبدو أنها كانت تتسع لعدد كبير، حتى إن النبي ﷺ استخدمها في وليمة حضرها ثلاثمائة شخص، وبعض العلماء يذكر أن بعض هؤلاء الذي حضروا الوليمة قد جلس في حجرة من حجرات أزواج النبي ﷺ الملاصقة للمسجد، وهذا موجود في (صحيح مسلم) في كتاب النكاح، حديث (٩٤).

(أهل الصفة) عدد أهل الصفة وذكر أسمائهم

أ. سكان الصُّفة :

أول من نزل الصفة هم المهاجرون ؛ لذلك نسبت إليهم، فقيل : صفة المهاجرين، وهذا موجود عند أبي داود في (السنن) (٣٦١/٢)، وكذلك بالإضافة إلى المهاجرين كان يسكنها أو ينزل بها بعض الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنةً إسلامها وطاعتها، وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، والعريف : هو النقيب أو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة، وهذا الذي ذكر من أنه من كان له عريف نزل عليه، ومن لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُّفة، موجود في (مسند الإمام أحمد) (٤٨٧/٣)، وعند أبي نعيم في (الحلية) (٣٣٩/١، ٣٧٤)، والسمهودي في (وفاء الوفا) (٣٢٣/١).

كان أبو هريرة > عريف من سكن الصفة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم، لمعرفته

بهم، وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة، كما ذكر أبو نعيم في (الحلية) (١/٣٧٦).

وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار في الصفة؛ حبًّا لحياة الزهد والفقر، رغم استغنائهم عن ذلك، ووجود دور لهم في المدينة، ومنهم كعب بن مالك الأنصاري، وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري -غسيل الملائكة- وحارثة بن النعمان الأنصاري وغير هؤلاء؛ ولأن أهل الصفة كانوا أخلاطًا من قبائل شتى؛ فسماهم النبي ﷺ الأوفاض، وقيل في سبب هذه التسمية أيضًا: أن كل واحد منهم كان معه وفضه، وهو شيء مثل الكنانة الصغيرة يضع فيها طعامه، لكن القول الأول هو الأجود كما يقول بعض العلماء، وكما ورد عند الإمام أحمد بن حنبل في (المسند) (٦/٣٩١)، وعند أبي نعيم في (الحلية) (١/٣٣٩).

ب. ماذا عن عددهم؟ وماذا عن أسمائهم؟

كان عددهم يختلف باختلاف الطبقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة، ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلًا، كما حدد ذلك أبو نعيم في (الحلية) (١/٣٣٩، ٣٤١)، وقد يزيد عددهم كثيرًا، حتى إن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم، فضلًا عن الآخرين الذين يتوزعهم بقية الصحابة، ويذكر السمهودي: أن أبا نعيمٍ سرد أسماءهم في (الحلية) فزادوا على المائة، لكن عدد من سماهم أبو نعيم اثنان وخمسون فقط، منهم خمسة نفى أبو نعيم نفسه أن يكونوا من أهل الصفة، وأبو نعيم وحده هو الذي يقدم لنا قائمة طويلة بأسماء المشهورين من أهل الصفة، وهو ينقل من مصدر أسبق لا يصرح باسمه،

ولعله الكتاب الذي صنفه أبو عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ في أهل الصفة، هذا ذكره حاجي خليفة في (كشف الظنون) (١/٢٨٦)، وابن حجر في (الإصابة) (١/٦٠١)، وسماه أصحاب الصفة، (٦/٥٥٠).

وهنا نستطيع أن نذكر قائمة بأسماء أهل الصفة كما ذكرهم أبو نعيم (١/٣٤٨) وما بعدها، مضافًا إليهم من ذكرتهم بقية المصادر ممن لم يذكرهم أبو نعيم:

١. أبو هريرة > حيث نسب نفسه إليهم، كما هو موجود في (صحيح البخاري) كتاب البيوع، الباب الأول، وعند ابن سعد أيضًا في (الطبقات الكبرى) (١/٢٥٦)، وعند ابن سيد الناس في (عيون الأثر) (٢/٢١٧)، عند ابن حجر في (الإصابة) ترجمة (٥٥٠٥).

٢. أبو ذرٍّ الغفاري > حيث نسب نفسه إليهم كذلك، كما هو موجود عند ابن سيد الناس في (عيون الأثر) (٢/٣١٧)، وابن سعد في (الطبقات) (١/٢٥٦).

٣. واثلة بن الأسقع.

٤. قيس بن طهفة الغفاري، حيث نسب نفسه إليهم أيضًا، ثم كعب بن مالك الأنصاري، كما جاء في كتاب (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم (٣/١٦٠)، وبعد كعب بن مالك الأنصاري يأتي سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي، ثم سلمان الفارسي > ثم أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلمي، ثم حنظلة بن أبي عامر الأنصاري غسيل الملائكة، ثم حازم بن حرملة، فحارثة بن النعمان الأنصاري النجاري، فحذيفة بن أسيد أبو سريحة الأنصاري، ثم حذيفة بن اليمان > وهو من المهاجرين، حالف الأنصار فعُد في جملتهم، ثم جارية بن جميل بن شبة بن قرط، ثم جعيل

بن سراقة الضمري، ثم جرهد بن خويلد الأسلمي، ثم رفاعة أبو لبابة الأنصاري، ثم عبد الله ذو البجادين، ثم دكين بن سعيد المزني، وقيل: الخثعمي، ثم خبيب بن يساف بن عنبة، ثم خريم بن أوس الطائي، ثم خريم بن فاتك الأسدي، ثم خنيس بن حذافة السهمي، ثم خباب بن الأرت، ثم الحكم بن عمير الثملي، ثم حرملة بن إياس، وقيل: هو حرملة بن عبد الله العنبري، ثم زيد بن الخطاب، ثم عبد الله بن مسعود، ثم الطفوي الدوسي، ثم طلحة بن عمرو النضري، ثم صفوان بن بيضاء الفهري، ثم صهيب بن سنان الرومي، ثم شداد بن أسيد، ثم شقران مولى النبي ﷺ، ثم السائب بن خلاد، ثم سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف، ثم سالم بن عبيد الأشجعي، ثم سفينة مولى النبي ﷺ، ثم سالم مولى أبي حذيفة، ثم أبي رزين، ثم الأغر المزني، ثم بلال بن رباح، ثم البراء بن مالك الأنصاري، ثم ثوبان مولى النبي ﷺ، ثم ثابت بن وادعة الأنصاري، ثم ثقيف بن عمرو بن الشميط الأسدي، ثم سعد بن مالك أبو سعيد الخدري > ، ثم العرباض بن سارية، ثم غرفة الأزدي، يأتي بعده عبد الرحمن بن قرط، ثم عباد بن خالد الغفاري.

وقد أورد أبو نعيم أسماء رجال ذكروا في أهل الصفة، ونفى نسبتهم إليها، وهم: سعد بن أبي وقاص، وقد اعتمد من نسبه إليهم على قول سعد > : فينا نزلت آية: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، والآية مكية كما في (تفسير ابن كثير)، ولم تنزل في أهل الصفة. حبيب بن زيد بن عاصم الأنصاري النجاري، هو من أهل العقبة، فوقع تصحيف فصارت الصفة. أبو أيوب الأنصاري، هو من أهل العقبة، فصحفت فصارت الصفة، حجاج بن عمرو المازني الأنصاري، وأخيرًا ثابت بن الضحاك الأنصاري.

انقطاع أهل الصفة للعبادة، ومشاركتهم في أحداث المجتمع والجهاد، وصفة ملابس أهل الصفة وطعامهم، ومواساة النبي ﷺ لهم

أ. انقطاع أهل الصفة للعبادة، ومشاركتهم في أحداث المجتمع والجهاد:

ماذا كان يفعل أهل الصفة الذين استقروا في صفتهم في مسجد رسول الله ﷺ؟

كانوا ينقطعون للعلم، ويعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون حياة الفقر والزهد؛ فكانوا في خلوتهم يصلون، ويقرءون القرآن، ويتدارسون آياته، ويذكرون الله ﷻ ويتعلم بعضهم الكتابة، حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت >؛ لأنه كان يعلمهم القراءة والكتابة، ذكر ذلك أبو داود في (السنن) (٢/٢٣٧)، وابن ماجه في (السنن) (٢/٧٣٠).

واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي ﷺ مثل أبي هريرة > الذي عُرف بكثرة تحديثه، ومثل حذيفة بن اليمان الذي اهتم بأحاديث الفتن.

لكن انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة في أحداث المجتمع والإسهام في الجهاد كما قد يفهم البعض.

لم يتفرغوا للعبادة والذكر فقط، وإنما أسهموا مع إخوانهم في أحداث المجتمع، كما أسهموا معهم -أيضًا- في الجهاد في سبيل الله ﷻ، بل كان منهم الشهداء ببدر، مثل: صفوان بن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسدي، وخبيب بن يساف، وسالم بن عمير، وحارثة بن النعمان الأنصاري، ومنهم من استشهد بأحد مثل: حنظلة الغسيل، ومنهم من شهد الحديبية مثل: جرحد بن خويلد، وأبي صريحة الغفاري، ومنهم من استشهد بخيبر مثل: سقف بن عمرو، ومنهم من استشهد

بتبوك مثل: عبد الله ذي البجادين، ومنهم من استشهد باليمامة مثل: سالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن الخطاب. هكذا كانوا رهباناً في الليل، لكنهم كانوا -أيضًا. فرسانًا في النهار.

ب. صفة ملابس أهل الصفة وطعامهم، ومواساة النبي ﷺ لهم:

ولم يكن لأهل الصفة من الملابس ما يقيهم من البرد أو يسترهم سترًا كاملاً، فليست عندهم أردية، وما لأحد منهم ثوب تامّ، فكانوا يربطون في أعناقهم الأكسية أو البرد، أو يأتزرون بالأزر أو الكساء، فمنهم من تغطي ما يبلغ نصف الساقين، ومنهم من يغطي لباسه، وقد لا يصل حتى يبلغ الركبتين، وتذكر المصادر أنهم كانوا يلبسون ما يسمى بالحويتيكية، وهي عمة يتعمم بها، كما ذكر ذلك الإمام أحمد في (مسنده) (١٢٨/٤)، والخنف أيضًا وهي برد شبه يمنية، تعمل من نوع غليظ من أردأ الكتان، كانوا يستخدمونها، وكثيرًا ما كانوا يخجلون من الظهور بملابسهم؛ لأنها لا تسترهم سترًا كاملاً، وسرعان ما كانت تتسخ ملابسهم، فجوانب الصفة مكشوفة للهواء والتراب، حتى اتخذ العرق من جلودهم طوقًا من الغبار، كما ورد في (الحلية) لأبي نعيم (٣٤١/١).

أما طعامهم فكان جله -يعني معظمه- من التمر، كان النبي ﷺ يجري لكل رجلين منهم مدًّا من تمر في كل يوم، وقد اشتكوا من أكل التمر، وقالوا له: أحرق بطونهم.

لكن النبي ﷺ لم يستطع أن يوفر لهم طعامًا غيره، فصبّرهم وواساهم، كما جاء في (مسند الإمام أحمد) (٤٨٧/٣)، وعند السمهودي -أيضًا. في (وفاء الوفا) (٣٢٣/١)، لكن النبي ﷺ كان كثيرًا ما يدعوهم إلى تناول الطعام في بيته، لكنه لم يتمكن من تقديم الطعام الجيد لهم، فلم يكن يوسع على نفسه

وأهله بالنفقة، ففي بعض المرات سقاهم لبنًا، ومرة أطعمهم جشيشةً، وهي طعام يصنع من طحين ولحم أو تمر مطبوخ، ومرة أخرى حيسة، وهي طعام من التمر والدقيق والسمن، ومرة ثالثة شعير محمص، لكنهم نالوا في إحدى المرات الثريد، كما ورد في (صحيح البخاري) (٦٨، ١١٩)، وابن سعد (١/٢٥٦)، وغير هؤلاء.

كان ﷺ يقدم لهم ما يستطيع، لكنه كان يعتذر إليهم إذا لم يكن الطعام جيدًا، فقد قدم لهم مرة صحفة فيها صنيع من شعير، وقال: "والذي نفس محمد بيده، ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيئًا ترونه"، هذا في (طبقات ابن سعد ١/٢٥٦).

لا شك أنهم كانوا ينالون طعامًا أجود عندما يستضيفهم أحد أغنياء الصحابة في داره، وكثيرًا ما كان الصحابة يفعلون، ولكنهم في كثير من الأحيان ما كانوا يحصلون على ما يمسك رمقهم؛ فأثر ذلك فيهم، فكانوا يخرون في الصلاة، لما بهم من جوع، حتى قال الأعراب: إن هؤلاء مجانين، وكان أبو هريرة > يصرع بين المنبر وحجرة عائشة > لما به من الجوع، كما جاء في (الحلية ١/٣٣٩، ٣٧٨).

لكن قلة طعامهم ما كانت لتؤدي بهم إلى الشره والمغالبة على الطعام، بل كانت حقوق الأخوة، وكانت آدابها تحكم علاقاتهم ببعضهم، وقد حكى أبو هريرة > أنهم كانوا إذا اجتمعوا على أكل التمر وأكل أحدهم تمرتين معًا قال لأصحابه: إني قد قرنت فأقرنوا؛ لئلا ينال من التمر أكثر مما معهم، وهذا أيضًا موجود في (الحلية) في نفس الموضع السابق.

لقد قنعوا بالقليل من الطعام، وبالخشن من الثياب، وعافت نفوسهم القصور؛ لينقطعوا إلى العبادة والعلم والمجاهدة، فكانوا أمثلة للزهد والترفع عن الدنيا.

رعاية النبي ﷺ وأصحابه لأهل الصفة

لكن النبي ﷺ كان يرعى أهل الصفة، فقد كانوا موضع رعاية النبي ﷺ وكان يتعهدهم بنفسه فيزورهم، ويتفقد أحوالهم، ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم، ويرشدهم ويواسيهم، ويذكرهم ويقص عليهم، ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته، وذكر الله والتطلع إلى الآخرة، ويشجعهم على احتقار الدنيا وعدم تمني الحصول على متاعها، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها، وكثيرًا ما كان يدعوهم إلى الطعام في إحدى حجرات أزواجه -رضي الله عنهن- ولم يكن يغفل عنهم مطلقًا، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه، وقد طلب من ابنته فاطمة > أن تتصدق عليهم لما ولدت الحسن > بوزن شعره من الفضة، هذا موجود في (سنن الإمام البيهقي) (٩/ ٣٠٤) وقد جاءه مرة سبي، فسألته ابنته فاطمة > خادمًا؛ لأنها تعبت من كثرة أعمالها وكلّت، فأجابها ﷺ: ((لا أخدمكما وأدع أهل الصفة تطوى))، وأوضح لها أنه سيبيع السبي وينفقه على أهل الصفة، ويبدو أنها سألته أيضًا أن يعطيها مالاً، وكان النبي ﷺ قد زار عليًّا > فوجد أن فراشهما قصير لا يغطيهما، فعلمهما كلمات في الدعاء، وآثر إعطاء أهل الصفة عليهما، وقال: ((لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تلوى بطونهم من الجوع)) (مسند أحمد) (١/ ٧٩، ١٠٦).

وقد أوصى النبي ﷺ الصحابة بالتصدق على أهل الصفة، فجعلوا يصلونهم بما استطاعوا من خير، فكان أغنياء قريش يبعثون بالطعام إليهم، وكان النبي ﷺ يوزع أهل الصفة بين أصحابه بعد صلاة العشاء؛ ليتعشوا عندهم، ويقول:

((من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس))؛ فيأخذ الصحابة بعضهم، ومن بقي منهم يصحبهم النبي ﷺ إلى داره، فيتعشون معه ﷺ.

ويبدو أن الأمر كان كذلك في بداية الهجرة، فلما جاء الله بالغنى لم تعد هناك حاجة لتوزيعهم على دور الصحابة، وقد استثارت حالة أهل الصفة سبعين من الأنصار يقال لهم القراء، وهم الذين استشهدوا يوم بئر معونة، فكانوا يقرءون القرآن، ويتدارسونه بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء، وهذا موجود في (صحيح مسلم) في كتاب الإمارة حديث (١٤٧) وفي (مسند الإمام أحمد) (٢٧٠/٣) وعند ابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٥١٤/٣).

وقد اقترح محمد بن مسلمة الأنصاري وآخرون من الأنصار على النبي ﷺ أن يخرج كل واحد منهم قنوًا -والقنو هو العرق بما فيه من الرطب. من بستانه، حتى ينضج التمر لأهل الصفة والفقراء، فوافق على ذلك، ووضع في المسجد حبلاً بين ساريتين، فأخذ الناس يعلقون الأقناء على الحبل، فربما اجتمعت عشرون قنوًا وأكثر، وكان معاذ بن جبل > يقوم على حراسة الأقناء، وتشير رواية أخرى إلى أن النبي ﷺ هو الذي أشار على الناس بالتصدق بقنو من ثمار بساتينهم؛ ليرفع الله ﷻ عنهم عاهة أصابت ثمارهم، ففعلوا، كما ذكر ذلك السمهودي في (وفاء الوفا) (٣٢٤/١، ٣٢٥)، وأنكر النبي ﷺ على رجل علق قنوًا فيه حشف، وأراد أن يكون التصدق بأطيب من ذلك، ويشير نص أورده السمهودي إلى استمرار عادة تعليق الأقناء في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة على الأقل خلال القرن الثاني الهجري.

وهناك آيات من القرآن الكريم قيل: إنها نزلت في أهل الصفة، من هذه الآيات قول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٦] ذكر الطبري، وأبو نعيم بسندهما إلى عمرو بن حريث وغيره: "إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة"، لكن الآية مكية، فلا يصح أن تكون فيهم.

وقول الله ﷻ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وذكر ابن سعد بسنده إلى ابن كعب القرظي قال: "هم أصحاب الصفة"، وذكر الطبري بأسانيده عن مجاهد والسدي: "أنها في فقراء المهاجرين".

قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ذكر ابن كثير: أنها مكية لا يمكن أن تكون قد نزلت في أهل الصفة، وإلى ذلك تذهب بعض روايات الإمام الطبري.

قوله ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨]، هذه الآية مكية لا يمكن أن تكون قد نزلت أيضًا في أهل الصفة.

قوله ﷻ: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]، ذكر أبو نعيم: "أنها نزلت في أهل الصفة"، لكن الروايات التي يوردها كل من الطبري وابن كثير لا تنص على ذلك، وأغلبها تنص على أن الآية نزلت في السبعة البكائين من بني مزين.

وأقدم من عقد فصلاً في أهل الصفة هو محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠، كما ذكرنا في مطلع هذه الدروس، وسائر ما ذكره مأخوذ من أستاذه الواقدي، ومع ذلك فلا نجد تلك النصوص في كتاب (المغازي) للواقدي الذي حققه المستشرق الإنجليزي "مارسدن جونز" كما أشرنا من قبل، لكن لعلها كانت موجودة في كتاب له آخر عنوانه (الطبقات)، وهو من بين الكتب المفقودة، وينقل عنه ابن سعد كثيرًا في (الطبقات الكبرى)، لكن أقدم من ذكر العلماء أنه أفرد كتاباً في أهل الصفة هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري، المتوفى عام ٤١٢ هجرية، في كتاب له عنوانه (تاريخ أهل الصفة)، ذكره حاجي خليفة في (كشف الظنون) (٢٨٦/١) وإن سماه (تاريخ أهل الصفة)، هذا الكتاب -على أي حال- مفقود، ولعله المصدر الذي نقل عنه أبو نعيم كثيرًا في الفصل الذي عقده لأهل الصفة من كتابه (حلية الأولياء)، وإن لم يصرح باسمه، وإن صرح بالنقل عنه في موضع آخر من كتابه (٢٥٨/٨)، وقد وصفه بأنه مرتب على حروف المعجم، وأمن فيه أسماء جماعة عرفوا من أهل القبلة، نسبوا إلى أهل الصفة، وهو تصحيف من بعض النقلة.

ومن المتأخرين ألَّف تقي الدين السبكي المتوفى عام ٧٥٦هـ كتابًا عنه سماه (التحفة في الكلام على أهل الصفة)، وألف شمس الدين السخاوي رسالة بعنوان (رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة)، وهذا الكتاب يقع في نحو ٣٢ ورقة، وهي مجلدة بمكتبة الجمعية الآسيوية "بكلكتا" بالهند، ومنها صورة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، كما عقد السمهودي مقالاً في أهل الصفة جمع فيه الروايات المشتتة في كتب الحديث والتاريخ والجغرافيا ومعاجم اللغة.

أنهى الأستاذ أكرم ضياء العمري -جزاه الله خيراً. حديثه عن أهل الصفة بهذه

الكلمات النهائية حول هذا الموضوع: "رحم الله القوَّامين الصوَّامين المجاهدين الزاهدين أهل الصفة، وصدق الله العظيم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٢]. فأنى هذا النموذج مما يحدثه الفقراء المدقعون في المجتمعات الجاهلية من تكوين العصابات التي تتولى أعمال السرقة والقتل، وأنواع العدوان الذي يفقد المجتمعات الاستقرار والإحساس بالأمن، إلا أنه الفرق -كما يقول- بين تربية محمد ﷺ وبين التربية الجاهلية، والفرق بين نظام الله والنظم البشرية".

هذه صورة من صور الارتباط القوي الذي أوجده الإسلام عمليًّا في المدينة المنورة، حيث تظهر صورة المجتمع الإسلامي بأزهى وأكمل حالاتها، ومنها نتبين لماذا لم يكن هناك صراع طبقي في المجتمع الإسلامي؟ ولماذا يقف الأغنياء والفقراء جميعًا صفًّا واحدًا لدعم رسالة الإسلام؟ إنها الإخوة بين المؤمنين، والتكافل بينهم، كما يظهران في تشريع دستور دولة المدينة المنورة.

(صحيفة المدينة) الوثيقة التي حددت الحقوق والواجبات ورسمت العلاقات بين طوائف السكان في المدينة المنورة

يصل بنا الحال هنا إلى موضوع مهم من أهم الموضوعات التي عالجها الناس قديمًا وحديثًا، هو موضوع دستور المدينة المنورة، أو ما يُعنون له بهذا العنوان: باب في موادعته ﷺ لليهود، وكتبه بينهم وبينه كتابًا بذلك، ونصبهم العداوة له ولأصحابه حسدًا وعدوانًا ونقضهم العهد.

نودُّ أن نذكر النصوص كما وردت في المصادر القديمة، ثم بعد ذلك نأتي

بتعليقات علمائنا من المحدثين حول هذا الموضوع:

يقول ابن إسحاق كما جاء في (سيرة ابن هشام) (٢/١١٩): "كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادَع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم أي: لما امتنعوا من اتباعه، وذلك قبل الإذن بالقتال، وأخذ الجزية ممن أبى الإسلام.

وذكر ابن إسحاق نسخة الكتاب في نحو ورقتين من غير إسناد في (سيرة ابن هشام) من ص١١٩ إلى ص١٢٣، ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام اللغوي الفقيه الأديب، في كتابه (الأموال) بسند جيد عن الزهري، وفيه يذكر ابن عبيد نص هذه الوثيقة التي عقدها النبي ﷺ بينه وبين اليهود وسكان المدينة المنورة.

وهنا يستحسن بنا أن نذكر ذلك التعليق المطوَّل الذي ذكره الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمي محقق الجزء الثالث من كتاب (سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد). يقول في النسخة المطبوعة من كتاب (الأموال) التي نشرها المرحوم الشيخ محمد حامد الفقي في القاهرة سنة ١٣٥٣هـ، يستغرق نص هذا الكتاب بين المهاجرين والأنصار واليهود الصفحات من ص٢٠٢ إلى ص٢٠٦، وقد راجعناه على ما أورده محمد بن إسحاق في (سيرة ابن هشام)، وابن كثير في (البداية والنهاية) (٣/٢٢٤-٢٢٦)، وحقق النص بالرجوع إلى المصادر المختلفة الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي الباكستاني في كتابه (مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة) المطبوع في القاهرة سنة ١٩٤١م من ص١ إلى ص٧، وقد وصل ما جاء فيه إلى موادّ بلغت عدتها ٤٧ مادة، وتوجد بعض الاختلافات والزوائد بين هذه النصوص، فضلاً عن أخطاء غير قليلة فيما جاء في (البداية والنهاية) طبعة القاهرة ١٩٣١م، وسيأتي تفسير من بعض علمائنا

المحدثين -وهو الدكتور حسين مؤنس- لهذا الاختلاف الذي يوجد بين بعض روايات هذا النص الهامّ، لكن الأستاذ عبد العزيز عبد الحق يقول: "إنه سيورد في هذه الحاشية، يعني سيورد في تعليقه نص هذه الوثيقة الهامة، التي هي أولى وثائق التاريخ الإسلامي، كما أوردها بسندها أبو عبيد القاسم بن سلام الذي اعتمد عليه إلى حد كبير محمد حميد الله في تحقيق النص.

قال أبو عبيد: "حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صالح، قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب الزهري أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب: ((هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة دون الناس، المهاجرون من قريش على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، وهم يفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين، وبنو عوف على رباعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين)).

نذكر النص كما جاء، ثم نذكر شرح الشراح له بعد ذلك -إن شاء الله- ثم ذكر النبي ﷺ هذا الشرط: ((على رباعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين)).

هذا ذكره النبي ﷺ لكل بطن من بطون الأنصار، وأهل كل دار، وهم بنو الحارث بن الخزرج، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس، إلى أن قال: ((وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا -يعني: مثقلاً بالدين منهم- أن يعينوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى أو ابتغى منهم دسيعة -أي: عطية ظلم، أو إثمًا

أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين- وأن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له المعروف والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحد، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء عدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضًا، وإن المؤمنين يبيئ -بمعنى: يكف- بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشركًا ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة، فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافّة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فيه هذه الصحيفة، أو آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يئويه، فمن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف ولا عدل، وأنكم ما اختلفتم فيه من شيء فإن حكمه إلى الله والرسول، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، كذلك ليهود كل من بني الحارث، وبني جشم، وبني ساعدة، والأوس، وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن المدينة جوفها حرم لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير

مضار ولا آثم، وإنه لا تُجارُ حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان من بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه، وإن دعينا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، وعلى كل أناس حصته من النفقة، وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة، وإن بني الشطبة بطن من جفنة، وإن البرَّ دون الإثم، فلا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم، وإنه من خرج آمِن، ومن قعد آمِن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن، وإن الله جارٌ لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ)).

قال أبو عبيد محاولاً شرح بعض الكلمات التي وردت في هذه الصحيفة:

قوله: ((بنو فلان على رباعتهم)) الرباعة: هي المعاقل، وقد يقال: فلان على رباعة قومه، إذا كان المتقلد لأمورهم والوافد على الأمراء فيما ينوبهم.

وقوله: ((إن المؤمنين لا يتركون مفرحًا في فداء أو عقل)) المفرح: هو المثقل بالدين، يقول: فعليهم أن يعينوه وإن كان أسيرًا فكُّوا إساره، وإن كان جنى جناية خطأ عقلوا عنه؛ يعني تحملوا الدية عنه.

وقوله: ((لا يجير مشركًا مالاً لقريش)) يعني: اليهود الذين كان وادعهم، يقولون: فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائه، ولا يعينوهم عليه.

وقوله: ((من اعتبط مؤمنًا قتلًا فهو قود)) الاعتباط: أن يقتله بريئًا محرم الدم، وأصل الاعتباط في الإبل أن ترحم بلا داء يكون فيها.

وقوله: ((إلا أن يرضى أولياء المقتول بالعقل)) جعل النبي ﷺ الخيار في القود أو الدية إلى أولياء المقتول، وهذا مثل حديثه الآخر: ((ومن قتل له قتيل فهو بأحد النظرين: إن شاء قتل، وإن شاء أخذ الدية)). وهذا يرد قول من يقول: ليس للولي في العمد أن يأخذ الدية إلا بطيب نفس من القاتل، ومصالحة منه له عليها.

وقوله: ((لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا أو يئويه)) المحدث: هو كل من أتى حدًّا من حدود الله، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه، وهذا شبيه بقوله الآخر: ((من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادّ الله في أمره)).

وقوله: ((لا يقبل منه صرف ولا عدل)) الصرف التوبة، والعدل الفدية، قال أبو عبيد: وهذا أحب إليَّ من قول من يقول: الصرف الفريضة، والعدل النافلة، لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. فكل شيء فدي به شيء فهو عدله.

وقوله: ((إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين)) فهذه النفقة في الحرب خاصة، فقد شرط عليهم المعاونة على عدوه، ونرى أنه إنما كان يُسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم في النفقة، كان ﷺ يسهم لليهود -يعني يعطيهم سهمًا من الغنيمة- إذا غزوا مع المسلمين، لكن بهذا الشرط الذي شرطه عليه من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم، وقال أبو عبيد: وقوله: ((وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين)) إنما أراد نصرهم المؤمنين، ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة على شرطها الذي شرطناه، فأما الدين فليس منه في شيء، ألا تراه قد بين ذلك، فقال: ((لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم)).

وقوله: ((لا يوتغ إلا نفسه)) يعني: لا يهلك غيرها - وقد وقع الرجل وتغًا إذا

وتغ في أمر يهلكه أو قد أوتغه غيره.

قال أبو عبيد: "وإنما كان هذا الكتاب مقدم رسول الله ﷺ المدينة قبل أن يظهر الإسلام ويقوى، وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب، وكان اليهود ثلاث فرق: بنو قينقاع، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول، فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة، ثم بنو النضير، ثم بنو قريظة، فكان من إجلائه أولئك، وقتله هؤلاء ما قد ذكره أبو عبيد في نفس كتابه الذي يشير إليه تحت عنوان "كتاب الموادعة"، وهذا ما أوردناه من رواية ابن إسحاق مع ما كان من رواية حققها محمد حميد الله.

وقد ذكر ابن كثير في ختام ما نقله عن ابن إسحاق: أن أبا عبيد القاسم بن سلام تكلم عليه في (كتاب الغريب) وغيره بما يطول، ولعله يقصد كتاب (غريب الحديث)، هذا وقد ترجم بعض المستشرقين نص هذه الموادعة في مؤلفاتهم، وإن أخطئوا في ترجمة بعض الكلمات.

لكنا نعود إلى نفس هذه الوثيقة فنذكر أن ابن عائذ روى عن عروة بن الزبير "أن أول من أتى رسول الله ﷺ من اليهود أبو ياسر بن أخطب أخو حيي بن أخطب، فسمع منه، فلما رجع قال لقومه: أطيعوني؛ فإن هذا هو النبي الذي كنا ننتظره، فعصاه أخوه وكان مطاعًا فيهم؛ فاستحوذ عليهم الشيطان فأطاعوه".

وروى أبو سعيد النيسابوري (في الشرف) عن سعيد بن جبير قال: "جاء ميمون بن يامين -وكان رأس يهود. إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ابعث إليهم واجعلني حكمًا بينهم، فإنهم يرجعون إليَّ، فأدخله داخلًا، ثم أرسل إليهم فأتوه، فخاطبوه، فقال: اختاروا رجلًا يكون حكمًا بيني وبينكم، قالوا: قد رضينا ميمون بن يامين، فلما خرج إليهم قال: أشهد أنه رسول الله، فأبوا أن يصدقوه".

وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة < أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لو آمن بي عشرة من أحبار يهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض)).

وروى ابن أبي حاتم وأبو سعيد النيسابوري قال: وقال كعب: اثنى عشر، وتصديق ذلك: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، قال الحافظ: فعلى هذا فالمراد عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به ﷺ أكثر من عشرة، وقيل المعنى: لو آمن في الزمان الماضي، كالزمن الذي قبل قدوم النبي ﷺ المدينة أو حال قدومه، قال الحافظ: والذي يظهر أنهم هم الذين كانوا حينئذ رؤساء في يهود، ومن عداهم كان تبعًا لهم، فلم يسلم منهم إلا القليل، كعبد الله بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في يهود بني قينقاع عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وأسلم من بني النضير أبو ياسر، وأخوه حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وأبو رافع سلام بن ربيع بن أبي الحقيق، ورفاعة بن زيد بن التابوت، من بني قريظة، أسلم الزبير، وكعب بن أسد، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت أحد منهم، وكان كل منهم رئيسًا في يهود، لو أسلم لتبعه جماعة، فيحتمل أن يكونوا المراد.

وروى أبو نعيم في (الدلائل) من وجه آخر عن أبي هريرة < بلفظ: "لو آمن بي الزبير بن باطا وذووه من رؤساء لأسلموا كلهم".

وأغرب السهيلي فقال: لم يسلم من أحبار اليهود إلا اثنان عبد الله بن سلام، وعبد الله بن صوري، قال الحافظ: كذا قاله، ولم أرَ لعبد الله بن صور إسلامًا من طريق صحيحة، فإنما نسبه السهيلي في موضع آخر لتفسير النقاش.

قال ابن إسحاق: ونصبت بعد ذلك أحبار اليهود لرسول الله ﷺ العداوة بغيًا وحسدًا وضغنًا، لما خص الله ﷻ به العرب من اصطفاء رسوله منهم، وكانت

أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، وكان القرآن ينزل فيهم، وفيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام، كان المسلمون يسألون عنها، وذكر ابن إسحاق وغيره أسماء يهود، بل جاء ذكره في كتاب تكلمت عنه في اليهود، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع -وهم الوسط من يهود المدينة- وقريظة -وهو أخو النضير والوسط من يهود المدينة- والنضير وقد حاربته هؤلاء الثلاثة، ونقضوا العهد الذي بينهم وبين النبيﷺ فمنّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

هذا ما جاء خاصًّا بهذه المعاهدة أو بهذا الدستور الذي عقده النبي ﷺ بينه وبين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا يقيمون في المجتمع المدني أول قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة.

وهنا يأتي دور العلماء من المعاصرين، الذين عالجوا هذه القضية، ودرسوا هذه الصحيفة، وقدموا لنا معلومات مفيدة لا بأس أن نذكرها ونحن نتكلم عن سيرة سيدنا رسول الله ﷺ، لقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكتب هذا الكتاب الذي أوردته المصادر التاريخية، وكان الهدف من وراء ورود هذا الكتاب توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد حقوق وواجبات كل طرف، وقد سمّت المصادر القديمة هذا الكتاب أحيانًا بـ"الكتاب" وأحيانًا بـ"الصحيفة" وأطلقت الأبحاث الحديثة على هذه الصحيفة لفظ "الدستور"، ولفظ "الوثيقة".

اعتمد الباحثون المعاصرون على الوثيقة في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة.

وكتب حول هذه الوثيقة كل من الدكتور صالح أحمد العلي في (تنظيمات الرسول ﷺ الإدارية في المدينة)، والدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (النظم الإسلامية).

الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والنفاق وظهوره في المدينة المنورة، والإذن بالقتال، السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى (ـبيعتها ، وأهدافها)

عناصر الدرس

العنصر الأول : الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٥
العنصر الثاني : النفاق وظهوره في المدينة المنورة ١٤١
العنصر الثالث : الحديث عن مشروعية القتال، والإذن به ١٤٣
العنصر الرابع : تابع مراحل الدعوة الإسلامية، وأقسام الكفار بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ ١٤٧
العنصر الخامس : عدد غزوات رسول الله ﷺ ١٥١
العنصر السادس : أول من صنف في المغازي، وغزوات النبي ﷺ ١٥٧
العنصر السابع : الغزوات التي كانت قبل غزوة بدر الكبرى ١٦٥
العنصر الثامن : غزوة بدر الأولى، وسرية عبد الله بن جحش ١٧١

الخطـوات الأولى لإقامـة الجماعـة الإسـلامية بـالمدينـة المنـورة

كانت المهمـة الأولى أمـام محمـد ﷺ عنـد استقراره في المدينة وبدئه العمـل : هـي إنـشاء جماعـة منظمـة آمنـة في ذلـك البلـد ، وكـان الإسـلام هـو المـدخل لقيـام الجماعة ، فهو يتضمن عقيدة سماوية سامية ، كفيلة بأن تجمع قلوب الناس حـول لواء واحد ، وذلك الدين يتضمن مثلًا أعلى ، وعروة وثقـى تحفز النـاس للعمـل ، وتفيـض في قلـوبهم الـشعور بـالأمن ، ويتـضمن الإسـلام كـذلك شـريعة فاضـلة متكاملة ، تضمن الحقوق داخل الجماعة ، ويتضمن قانونًـا أخلاقيًّا يرتفـع بالنـاس عن فوضى المنازعات الدائمة ، ويحمي الجماعة من عدوان الكبار على الـصغار ، والأقوياء على الضعفاء ، ويحيط أموال الناس وأشخاصهم بسياج قانوني لا غنـى عنه في مجتمع مستقر منظم ، وهناك إلى جانـب ذلـك كلـه الرجـل الكفيـل بتحقيـق هـذه الآمـال كلـه ، وتطبيقهـا في الواقـع ، وهـو رسـول الله ﷺ الـذي اختـاره الله رسولًا إلى الناس كافة ، كي ينشئ الجماعة الإسلامية في الأرض ، ووهبه الملكـات والخصائص الكفيلة بتمكينه من القيام بذلك العمل العظيم.

وقد بدأ محمد ﷺ في إنشاء هذه الجماعة في الأيام الأولى لوصـوله إلى قبـاء ، فقـد أسـرع إليـه كبـار رجـال المدينـة وأخـذوا يجتمعـون معـه ليتـشاوروا ، واجتمـع معـه المهاجرون ، وكان عدد منهم قد سكن قبـاء ، وتفـرق البـاقون في نـواحي المدينـة ، وكانت نواة تكـوين الجماعة أولئك المهـاجرين ، ومعهـم نقبـاء أهـل المدينـة الاثنـا عشر الذين انتخبوا ليلة بيعة العقبة الثانية ، ومجرد تفكير محمد ﷺ في أن يطلب إلى أهل المدينة ، الذين قابلوه في مكة في اجتماع العقبة الثانية انتخاب أولئك النقبـاء ؛ ليشتركوا معهم في تدبير أمر الجماعة المقبلة ، يعطينا فكرة عن تصوره ﷺ لتكـوين

الجماعة الإسلامية، فهي جماعة من رجال مؤمنين أحرار يتشاورون ويديرون ويدبرون أمورهم معًا، ومحمد ﷺ في وسطهم، يرشدهم إلى الطريق السوي، ويوجههم إلي ما فيه خير الجماعة كلها، وهو لا يقطع دونهم أمرًا فيما عدا ما يتصل بالشريعة والعقيدة، فهذه يتلقاها من الله، ويبلغهم إياها ويوضحها لهم، ويقوم فيها مقام القدوة التي يتبعها الناس.

وقد انتقل محمد ﷺ إلى وسط المدينة -كما أشرنا من قبل- واستقر الرأي على المقام في منازل بني عدي بن النجار الخزرجيين، والخزرج كانوا مغلوبين على أمرهم منذ يوم بعاث، فاختيار محمد ﷺ للإقامة معهم في حي من أحيائهم، تقويةً لجانبهم، وعزاءً لهم عن هزيمتهم في يوم بعاث، وكان لا بد نتيجة لهذا من أن ينسوها. أما ما يقال من أنه نزل فيهم؛ لأنهم كانوا أخواله، فربما جاز ذلك القول على أساس زواج هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ من سلمى بنت عمرو التي يقال: إنها كانت من بني غَنْم بن النجار، وكانت من كبريات نساء المدينة، ولكن ذلك مستبعد إلى حد ما؛ لأن محمدًا ﷺ عندما كان ينشئ جماعة على أساس من الإسلام ما كان ليقيم وزنًا في قراراته السياسية للقرابة من أي نوع كان.

على أي حال نزل محمد ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري، وكان أبو أيوب من أوساط الخزرجيين، لا هو بالغني ذي الجاه، ولا هو بالفقير المجهول، ولو أن رجلًا غير محمد ﷺ تولى رئاسة المدينة منذ أيام قليلة لأقام في دار لأحد كبار أهل المدينة؛ لأن ذلك كان يضفي عليه مظهرًا من الجاه له أهميته، ولكن الجماعة التي كان يعمل على إنشائها ﷺ كانت جماعة أوساط، وفي حياة محمد ﷺ كلها كان هواه مع الأوساط، ومنهم كان معظم رجال ومعاونيه ومستشاريه.

ولقد كان أبو أيوب رجلًا من عامة الناس عندما نزل محمد ﷺ في بيته، ولكنه عندما توفي قرب أسوار القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية، أثناء إحدى الحملات التي كان معاوية بن أبي سفيان > يرسلها للجهاد في أراضي الدولة البيزنطية، كان أبو أيوب قد أصبح رجلًا شهيرًا، له مكانه في تاريخ الإسلام، وقد أقيم على قبره جامع عظيم، تعاقب خلفاء آل عثمان وأمراؤهم، وكبار رجال دولتهم على تجميله والزيادة فيه، حتى أصبح من أجمل المساجد العثمانية، وفي هذا المسجد كانت تتم مراسيم تتويج خلفاء العثمانيين بتقليدهم السيف رمز الخلافة، بل أصبح المسجد من الآثار الطريفة في الدنيا التي يتحدث عنها الرحالة وأهل الأدب في كتبهم، وقد تحدث عنه الأدباء الفرنسيون منهم الأديب الفرنسي الشهير "بييرلوتي" وتحدث عنه أيضًا الأديب المصري المعروف "يحيى حقي". هذا الذي بلغه أبو أيوب الأنصاري من الكرامة إنما هو مثال من آثار لمسة الإسلام لقلب رجل مخلص صادق من أوساط الناس.

أ. أهمية المسجد في بناء الجماعة الإسلامية الأولى:

كانت الخطوة الأولى لإنشاء هذه الجماعة هي بناء المسجد، والمساجد كما نعلم جميعًا في الإسلام هي رموز الجماعات الإسلامية ومراكزها، وهذا يتجلى بوضوح في إنشاء مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة، فقد أنشأه في وسطها تقريبًا، ولم يجعله مصلى فحسب، بل جعله أيضًا مركزًا لتدبير شئون الجماعة، ومكانًا لالتقاء أفرادها، وفي ركن من صحنه الواسع أقام محمد ﷺ الحجرات - حجرات أمهات المؤمنين - التي أقام فيها بقية حياته، وفي الطرف الشمالي للجامع أنشأ العريش، هذا العريش الذي كان يعين ناحية القبلة، وفي الطرف المقابل لناحية القبلة أقيمت الصفة، وهي عبارة عن سقف أو ظلة مقامة بعرض الجدار،

تحملها جذوع نخل ليجلس تحتها أهل الصفة وهم -كما تؤكد كتب السيرة- نفر من الفقراء أحبوا أن يقضوا حياتهم قرب مسجد الرسول ﷺ للقيام بخدمته، وعبادة الله فيه، ولكننا عندما نقرأ أسماء أهل الصفة نجد الكثيرين منهم -وقد ذكرناهم من قبل- لا ينطبق عليهم وصف الفقراء، ويبعد أن يكونوا قد عاشوا على صدقات الناس، فقد كان فيهم أبو ذر الغفاري، وأبو ذر لا يمكن أن يكون قد عاش على صدقات الآخرين، وفيهم أيضًا عمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وصهيب الرومي، وهم من الصحابة القدماء، وكانت لهم بيوتهم المعروفة، ومن هنا فلا بد أن يكون لأهل الصفة عمل محدد، ووظيفة بالنسبة للمسجد، وبالنسبة للرسول ﷺ ولنذكر هنا أن نفرًا من أهل الصفة كانوا دائمًا في خدمة الرسول ﷺ يقدمون له وللمسجد أجلَّ الأعمال التي لا يستغنى عنها.

كان قيام المسجد إيذانًا لقيام الجماعة، فإلى جانب وظيفته الرئيسية كمكان للصلاة كان مجمع المسلمين ودار ندوتهم، وهناك يسمعون أخبار جماعتهم، وما تحققه من تقدم وما يحيط بها من ظروف، وما كانت تقوم به من نشاط ديني وسياسي وعسكري واسع، هنا كان يقيم محمد ﷺ رأس الجماعة وقائدها، وكان رجلًا نشيطًا قلما يركن للراحة، فهو دائمًا في حركة، تجده إما غازيًا في غزوة من مغازيه، أو زائرًا الناس أو طائفًا بنواحي المدينة، وقليلة هي تلك الأوقات التي كان يقضيها ساكنًا يتحدث مع أصحابه خارج غرفه؛ لأنه كان ينفر من الدعة، وكان قليل الكلام ﷺ فإذا تكلم فالبقدر المناسب فقط، وكان من صفاته الكبرى عندما يجتمع مع الناس -الإنصات وحسن الاستماع، وكان يستوعب المهم مما يسمع، سواء أكان جالسًا في بيته أم خارجه أو في طريقه إلى إحدى الغزوات، وكانت عادته أن يدع الآخرين يتحدثون، وأن يطيل التفكير فيما يسمع ولا يتكلم إلا عن روية، ولم تكن إدارته لشئون الجماعة قائمة على

أوامر يصدرها، بل على القدوة الصالحة التي كان يضربها، وقد كان نادرًا ما يصدر أمرًا، ولقد حكى خادمه أنس بن مالك > أنه ﷺ لم يرفع صوته في خطابه معه قط، ولا ترك الغضب يستولي عليه مهما أخطأ خدمه ومعاونوه، ولم يرفع يدًا على خادم أو مولى قط، ولقد كان المنافقون من خصوم الإسلام -وسنعرض لهم بعد قليل- يرتكبون ما يثير ويغضب، فلا يغضب محمد ﷺ ولا يدع العاطفة تستبد به، وإنما كان هادئًا دائمًا يتصرف في صمت، وفي هدوء وبعد مشاورة أصحابه في ما جلَّ من الأمور.

ب. عمران المدينة بعد وصول النبي ﷺ إليها:

لم يكن المسجد وقيامه رمزًا لجماعة إسلامية فقط، بل كان أيضًا هذا المسجد بداية لعمران المدينة، لقد امتد شارع من غربي الجامع إلى جبل "سَلْع" في الجانب الغربي من المدينة، واتصل هذا الشارع شرقًا حتى بلغ بقيع الغرقد الذي أصبح مقبرة المدينة، ومن عند المسجد امتد شارع آخر نحو الشمال في اتجاه "السنح"، ونشأت الدور على طول هذين الشارعين الكبيرين.

وكان الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل المدينة، يسمح له بالتصرف في الأراضي المهملة التي لم تكن تتبع أحدًا، ولم يكن يستغلها أحد، فأعطى المهاجرين والطارئين على المدينة من المسلمين قطعًا من الأرض بنوا فيها بيوتًا، وسمح لمن يريد أن يعمر قطعة منها بالزرع بأن يفعل ذلك لحسابه الخاص، فأقبل على ذلك الكثيرون من القضاعيين والأسالمة بصورة خاصة، فأصبحت لهم أراضيهم، وأصبحت لهم زروعهم، وكان لذلك أكبر الأثر في تحسن أحوالهم وفي عمران المدينة بصفة عامة، وكانت بعض القطع التي وهبها رسول الله ﷺ نصيب نفر لم تكن لهم بيوت واسعة، فأنشئوا فيها بيوتًا لهم ولآلهم، وسميت القطعة بما فيها من البيوت

"الدار"، ومع الزمن تصرف أصحابها أو ورثتهم فيما لا يحتاجون إليه من أرضها فأصبح مكان بعض هذه الدور أحياءً تسمى بأسماء أصحابها مثل: دار عبد الرحمن بن عوف، ودار الزبير بن العوام، وشيئًا فشيئًا، ومع زيادة الرخاء في المدينة كثر إنشاء الناس للبيوت، والحدائق -وكانوا يسمونها الحوائط.

واتصل عمران المدينة بهذه الطريقة، وارتبطت الواحات المتباعدة في السهل بعضها ببعض، وظهرت المدينة كبلد واحدة متصل الأجزاء، عامر بالبيوت والشوارع والحارات، مترابط الأطراف، آهل بالناس.

وعندما توقفت تجارة مكة بسبب سيطرة المدينة على طريق التجارة نتيجة لسياسة محمد ﷺ اتجه جانب كبير من التجارة نحو المدينة المنورة، وأخذت المساحات الواقعة بينها وبين طريق التجارة تتمهد في اتجاه الغرب، مارة بوادي العقيق ومسجد القبلتين، وفي اتجاه الجنوب الغربي مارة غربي جبل عير، وهنا ظهرت أهمية موضع بئر عروة الذي أصبح منذ ذلك الحين مركزًا تجاريًّا هامًّا، وأُنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسيرًا للمواصلات، وجدير بالذكر أن محمد ﷺ تنبه لأهمية القناطر والمعابر، فشجع على إنشائها حتى تتصل الشوارع، وكثرت في المدينة الأسواق، والمراد بالأسواق هنا الشوارع التجارية، وانصرف إلى التجارة كثيرون من أهل المدينة، وزاد السكان زيادة كبيرة، بل كانوا يزيدون باستمرار بسبب إقبال الناس من كل ناحية؛ لسكنى ذلك البلد العامر الآمن، ومن خلال ما يكتب السمهودي في كتابه (وفاء الوفاء) نستطيع أن نتبين كيف كانت أسعار الأرض والمباني وحاجات الحياة ترتفع في المدينة شيئًا فشيئًا، وهذه كانت بعض نتائج العمران الذي دب في البلد، والسلام الذي سادها عقب قيام الجماعة الإسلامية الأولى فيها.

والسمهودي -الذي أشرنا إليه- يعدد أسماء المساجد التي بنيت في المدينة أيام الرسول ﷺ وإذا نظرنا إليها، نجد أن عددها كان كبيرًا حقًّا، وإذا نحن اعتمدنا على عدد المساجد كأساس لتقدير عدد السكان، استطعنا أن نقول: إن ذلك العدد تضاعف مرات خلال السنوات القليلة التي أقامها محمد ﷺ في المدينة يدبر أمرها ويسوس جماعتها، ويرسم الخطوط الرئيسية لتنظيم هذه الجماعة التي ستصبح نموذجًا تحتذيه كل الجماعات الإسلامية فيما بعد.

النفاق وظهوره في المدينة المنورة

يذكر لنا الصالحي الشامي صاحب كتاب (سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد) بعض طواة المنافقين الذين انضافوا إلى اليهود، وبعض أمور دارت بينهم وبين رسول الله ﷺ ويذكر لنا هذا المرجع الهام أن ابن إسحاق وجماعة من مؤرخي السيرة ذكروا أسماء المنافقين، وهو يقول: "أنا أذكر هنا بعض من نزل القرآن الكريم بكشف حاله، وقبل ذلك أقدم معنى النفاق. فالنفاق: اسم إسلامي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به".

ونحن لا نريد أن ندخل في تفصيلات لغوية، وإنما يكفينا أن نقول: النفاق: هو فعل المنافق الذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، كما يتستر الرجل بالنفق الذي هو السرب، فقيل هذا في اشتقاقه، وقيل: بل هو من قولهم: نافق اليربوع، إذا دخل في قصعائه، وخرج من نفقائه وبالعكس، فهو يرقق أقصى النافقاء -يعني إحدى حجراته- ويكتمها ويظهر غيرها، وله جحر فمن أيها قصد دخل وخرج من الأخرى، فكذلك المنافق يدخل في الإيمان من جهة، ويخرج من جهة أخرى، فعل هذا اليربوع، فاشتقت كلمة النفاق مع هذا الفعل، لكن هذا لا يعنينا كثيرًا،

الذي يعنينا أن المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر، ومحل النفاق القلب، فالنفاق كما يقول الشريف الجرجاني: إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة أسلم بشر كثير ممن أراد الله ﷻ هدايتهم، وانضاف إلى اليهود أناس من الأوس والخزرج مما كان أمر أمرًا في الجاهلية، فكانوا أهل نفاق، على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فتظاهروا بالإسلام، واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود؛ لتكذيبهم برسول الله ﷺ وجحودهم الإسلام.

وقد ذكر الله ﷻ أخبار المنافقين في سورة براءة وغيرها، وسيأتي حديث عن السور التي تحدثت عن النفاق وعن المنافقين، من بين هؤلاء المنافقين المشهورين هذا الرجل الذي يلقب بالجلاس بن سويد بن الصامت، يقول عنه ابن إسحاق: وكان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وروى ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعبد الرزاق، وابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عروة، قالوا: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين؛ قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير. فسمعها عمير بن سعد > وكان في حجر جلاس، خلف على أمه بعد أبيه، فقال له عمير: والله يا جلاس، إنك لأحب الناس إلي وأحسنه عندي يدًا، وأعزه علي أن يصيبه شيء يكرهه، ولئن قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك، ولئن صمت ليهلكن ديني، ولإحداهما أيسر علي من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر ما قال له جلاس، فأرسل رسول الله ﷺ إليه، فحلف جلاس بالله لرسول

الله ﷺ: "لقد كذب عليّ عمير، وما قلت ما قال عمير"، فقال عمير: "بل والله قلته فتب إلى الله تعالى، ولولا أن ينزل قرآنٌ فيجعلني معك ما قلتُه"، فجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ فسكتوا، لا يتحرك أحد -وكذلك كانوا يفعلون، لا يتحركون إذا نزل الوحي- فرفع عن رسول الله ﷺ فقال بعد "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" في سورة براءة: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤]، عندئذ قال جلاس: "قد قلته، وقد عرض الله علي التوبة، فأنا أتوب"، فقبل ذلك منه، وكان همّ أن يلحق بالمشركين. وقال ابن سيرين: لما نزلت هذه الآية أخذ النبي ﷺ بأذن عمير: ((يا غلام، وفت أذنك وصدقك ربك)).

الحديث عن مشروعية القتال، والإذن به

أول سرية خرجت من المدينة المنورة، وهي سرية: حمزة، وسرية عبد الله بن جحش إلى نخلة.

قبل أن نبدأ في الحديث نشير إلى ما قاله الدكتور شوقي ضيف في تعليقه على كتاب (الدرر في اختصار المغازي والسير) -تعليق ١ صـ١٠٣-: "كان عدد الغزوات التي خرج فيها الرسول ﷺ بنفسه غازيًا سبعًا وعشرين، وقد قاتل بنفسه في تسع منها، هي: بدر، وأحد، والمُرَيْسِيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف، وبلغ عدد بعوثه وسراياه: سبعًا وأربعين، وقيل: بل نحوًا من ستين".

وفي اصطلاح الرواة وأصحاب السير أن الغزوة: هي الحرب التي يحضرها الرسول ﷺ بنفسه، أما البعث أو السرية: فإنه يرسل فيهما طائفة من أصحابه. وأول آية نزلت بالإذن في القتال هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ونزل بعدها قول الله عز وجل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، وحتى يعبد الله ولا يعبد سواه، فغزا الرسول ﷺ وبعث البعوث والسرايا، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا.

هذه لمحة سريعة عن الموضوع قبل أن ندخل في تفاصيله، وسنرى أن هناك خلافًا بين العلماء حول عدد الغزوات التي غزاها الرسول ﷺ وعدد البعوث، نظرًا لاعتبارات قام بها من أحصوا هذه الغزوات وهذه البعوث.

نبدأ أولًا بما ذكره الصالحي الشامي في كتابه: (سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد ﷺ)، يقول: في الإذن بالقتال ونسخ العفو عن المشركين وأهل الكتاب: قال العلماء { : أول ما أوحى إليه ربه سبحانه وتعالى أن يقرأ بسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] فبدأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١] وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم إنذار قومه، ثم إنذار من حولهم من العرب قاطبة، ثم إنذار من بلغته الدعوة من الجن والإنس إلى آخر الدهر، فأقام ﷺ بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة.

فلما استقر ﷺ بالمدينة المنورة، وأيده الله عز وجل بنصره، وبعباده المؤمنين، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنحته أنصار الله وكتيبة

الإسلام الأوس والخزرج، منعوه من الأسْوَد والأحمر، وبذلوا أنفسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم. عادتهم العرب، وعادتهم اليهود.

روى البيهقي وغيره عن أبي بن كعب > قال: "لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، حتى كان المسلمون لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: تُرى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله ﷻ؟" فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

يقول البيهقي: وفي مثل هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١- ٤٢] ذكر بعض أهل التفسير: أنها نزلت في المعذبين بمكة حينما هاجروا إلى المدينة بعد ما ظلموا، فوعدهم الله ﷻ في الدنيا حسنة، يعني بها الرزق الواسع، فأعطاهم ذلك،

فيُروى عن عمر بن الخطاب > أنه إذا كان أعطى الرجل عطاءه من المهاجرين يقول: "خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله ﷻ في الدنيا، وما ادخره لك في الآخرة أفضل".

وكانت اليهود والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأمرهم الله ﷻ بالصبر والعفو والصفح، فقال ﷻ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: قطعه قطع إيجاب وإلزام، وهو من التسمية للمصدر كما يقول علماء اللغة، أي من معزومات الأمور.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] أي: أن محمدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: الإذن بقتالهم وضرب الجزية عليهم.

روى أبو داود وابن المنذر والبيهقي عن كعب بن مالك < قال: "كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمرهم الله ﷻ بالصبر على ذلك، والعفو عنهم".

وروى الشيخان، وابن المنذر عن أسامة بن زيد } قال: "كان رسول الله ﷺ يعفو عن المشركين وأهل الكتاب، يتأول في العفو ما أمره الله ﷻ به، حتى أذن الله ﷻ فيهم، فقتل من قتل من صناديد قريش".

تابع مراحل الدعوة الإسلامية، وأقسام الكفار بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ

أ. تابع مراحل الدعوة الإسلامية:

قال العلماء: لما قويت الشوكة واشتد الجناح، أذن الله عندئذ في القتال للمسلمين، ولكنه لم يفرضه عليهم، فقال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ﴾ يعني: رخص، وفي قراءة بالبناء للفاعل -وهو الله- يعني: أذِنَ الله للذين يقاتلون المشركين وهم مؤمنون، والمأذون فيه محذوف لدلالته عليه، وفي قراءة بفتح التاء أي: للذين يقاتلهم المشركون بأنهم ظُلِموا، يعني: بسبب ظلم الكافرين لهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعدهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم، ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ يعني: المسلمون الذين حُملوا حَملًا على الخروج من مكة، بغير حق في الإخراج، ما أخرجوا إلا أن يقولوا ربنا الله وحده، وهذا القول حقٌّ؛ فالإخراج بغير حق، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ للرهبان، ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى، ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، والمراد بتهديم الصلوات تعطيلها، ﴿وَمَسَـٰجِدُ﴾ للمسلمين، ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ -أي: في المواضع- ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وتنقطع العبادات بخرابها، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: من ينصر دينه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلقه، ﴿عَزِيزٌ﴾ منيع في سلطانه وقدرته.

قال العلماء: ثم فُرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، قال ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ -أي: في قتالهم، فتقاتلوا غير الذين يقاتلونكم- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة حتى يكون الدين لله، قال اللهﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ ﴾ أي: جميعًا ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقال -عز من قائل-: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وكان القتال محرمًا، ثم صار مأذونًا فيه، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين، إما فرض عين، أو فرض كفاية على المشهور.

ب. أقسام الكفار بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم: أن أول آية نزلت في القتال هي قول الله ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾، وروى الإمام أحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، والدارقطني، وغيرهم عن أبي هريرة > قال: والصواب: أن ابن عباس وعن ابن مالك الأشجعي، وروي عن الشيخين ومسلم كل هؤلاء عن أبي هريرة، وابن ماجه رواه عن معاذ } كل هؤلاء رووا أن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، ويؤتوا الزكاة، ويأكلوا ذبيحتنا، ويصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وحسابهم على الله، قيل: وما حقها؟ قال: زنًا بعد إحصان، أو كفر بعد إسلام، أو قتل نفس فيُقتل بها)).

ثم كان الكفار معه ﷺ بعد الهجرة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صالحهم، ووادعهم على ألّا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم.

القسم الثاني: حاربوه ونصبوا له العداوة.

القسم الثالث: تركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يئول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصاره، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن؛ ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون، فعامل ﷺ كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه ﷻ فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، تحدثنا عنه بالتفصيل فيما مضى، وكانوا ثلاث طوائف -كما أشرنا من قبل- حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فنقض العهد الجميع، وكان من أمرهم ما سيعرض له العلماء عند دراستهم لموضوع الغزوات -إن شاء الله.

أما أهل العقد والصلح؛ فقد أمره الله ﷻ أن يقيم لأهل العقد والصلح بعهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنبذ العهد، وأمره أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت سورة براءة، نزلت ببيان هذه الأقسام كلها، فأمره الله ﷻ أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في دين الإسلام، وأمره بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة والبرهان.

وأمره ﷻ في سورة براءة أيضًا بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

الأول: قسم أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

الثاني: قسم لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

الثالث: قسم لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، وكان لهم عهدٌ مطلق، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت الأربعة قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]. فـ﴿ ٱلۡحُرُمُ ﴾ هنا هي أشهر التسيير، أولها: يوم الأذان وهو العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها: العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦]. فإن تلك واحدٌ فردٌ، وثلاثةٌ سردٌ: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ولم يُسَيِر المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن؛ لأنها غير متوالية، وإنما هو أجّلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقاتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته؛ فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

استقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصار الكفار قسمين: أهل ذمة آمنون، وأهل حرب وهم خائفون منه.

وصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأمر في المنافقين أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله ﷻ وأن يجاهدوهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، وأن يغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي عن أن يصلي عليهم، وقد جاء النهي بعد أن صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين، نهي النبي ﷺ أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم؛ فلن يغفر الله لهم.

بعض الملحدين يقول: إنما بعث محمد ﷺ بالسيف والقتل!.

والجواب: أنه ﷺ بعث بالبراهين والمعجزات، فأقام يدعو الناس أكثر من عشر سنين؛ فلم يقبلوا ذلك، وأصروا على الكفر والتكذيب، فأمر بالقتال، وهو عوض العذاب الذي عذب الله ﷻ به الأمم السابقة لما كذبت رسلهم.

عدد غزوات رسول الله ﷺ

يقول صاحب كتاب (سبل الهدى والرشاد من سيرة خير العباد): روى ابن سعد عن ابن إسحاق، وابن عقبة، وأبي معشر، وعن شيخه محمد بن عمر الأسلمي، عن جماعة سماهم قالوا: كان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزا فيها بنفسه: سبعًا وعشرين، وقيل: تسع وعشرون، وقيل: ست وعشرون، ومن قال بذلك

جعل غزوة خيبر ووادي القرى غزوة واحدة. وقيل: خمس وعشرون، وزعم الحافظ عبد الغني المقدسي أنه المشهور، وعزاه لابن إسحاق، وابن عقبة، وأبي معشر، والذي رواه عنهم ابن سعد ما سبق، وهو الصحيح الذي جزم به أبو الفرج في: (التلقيح)، والدمياطي والعراقي وغيرهم، قال في (المورد): وهذا الذي نقله المؤلف: الحافظ عبد الغني عن هؤلاء الأئمة الثلاثة لم يقع لي من نقله عنهم غير المؤلف، وسرد أسماء الغزوات وهي:

- غزوة الأبواء ويقال لها ودّان.
- ثم غزوة بُواط.
- ثم غزوة سَفْوان، وهي بدر الأولى؛ لطلب كرز بن جابر.
- ثم غزوة العُشَيْرة.
- ثم غزوة بدر الكبرى.
- ثم غزوة بني سُليم بالقدر، ويقال: لها قرقرة القدر.
- ثم غزوة السَّويق.
- ثم غزوة غطفان، وهي غزوة ذي إمر.
- ثم غزوة الفُرع من بحران بالحجاز.
- ثم غزوة بني قينقاع.
- ثم غزوة أحد.
- ثم غزوة حمراء الأسد.
- ثم غزوة بني النضير.

- ثم غزوة بدر الأخيرة، وهي غزوة بدر الموعد.

- ثم غزوة دومة الجندل.

- ثم غزوة بني المصطلق، وهي المُرَيْسِيع.

- ثم غزوة الخندق.

- ثم غزوة بني قريظة.

- ثم غزوة بني لحيان.

- ثم غزوة الحديبية.

- ثم غزوة ذي قَرَد.

- ثم غزوة خيبر.

- ثم غزوة ذات الرِّقاع، وهي غزوة محارب، وبني ثعلبة.

- ثم غزوة عمرة القضاء.

- ثم غزوة فتح مكة.

- ثم غزوة حنين.

- ثم غزوة الطائف.

- ثم غزوة تبوك.

وفي بعض ذلك تقديم وتأخير عن بعض المحدِّثين، قال ابن إسحاق وغيره: قاتل النبي ﷺ في تسع من هذه التي ذكرناها هي:

بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق وهي المريسيع، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، ويقال: إنه ﷺ قاتل أيضًا في بني النضير، ووادي القرى، والغابة، قال ابن عقبة: قاتل في ثمانية مواطن وأهمل عد قريظة؛ لأنه ضمها إلى الخندق؛ لكونها كانت إثرها، وأفردها غيره؛ لوقوعها منفردة بعد هزيمة الأحزاب، وكذا وقع لغيره عدّ الطائف وحنين واحدة؛ لكونها كانت في إثرها.

وروى مسلم بسنده > قال: قاتل رسول الله ﷺ في ثماني غزوات، قال النووي، لعل بريدة أسقط غزوة الفتح، ويكون مذهبه أنها فتحت صلحًا كما قال الشافعي وموافقوه، والتوجيه الأول أقعد؛ لأن ذو القرد موضع قرب المدينة أغاروا به على لقاح رسول الله ﷺ فغزاهم.

قال الحافظ أبو العباس الحراني: لا يفهم من قوله: أنه ﷺ قاتل في كذا وكذا أنه قاتل بنفسه، كما فهمه بعض الطلبة ممن لا اطلاع له على أحواله ﷺ ولا يُعلم أنه قاتل بنفسه في غزوة إلا في أحد فقط، قال: ولا يُعلم أنه ضرب أحدًا بيده إلا أبيّ بن خلف ضربه بحربة في يده.

قلت: وعلى ما ذكره يكون المراد بقولهم: قاتل في كذا وكذا: أنه ﷺ وقع بينه وبين عدوه في هذه الغزوات قتال قاتلت فيها جيوشه بحضرته ﷺ بخلاف بقية الغزوات، فإنه لم يقع فيها قتال أصلًا، لكن نقل الحافظ في الفتح عن ابن عقبة أنه قال: قاتل رسول الله ﷺ بنفسه في ثماني غزوات، ورجعت نسخة صحيحة في (مغازي ابن عقبة) ونصه: "ذكر مغازي رسول الله ﷺ التي قاتل فيها: قاتل في بدر..." إلى آخر ما ذكر، ثم قال: وغزا رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة لم يكن فيها قتال، ولم يذكر فيها أنه ﷺ قاتل بنفسه.

وسيأتي في غزوة أحد أن رسول الله ﷺ رمى بقوسه حتى صارت شظايا، وأنه أعطى ابنته فاطمة > يوم أحد سيفه فقال: ((اغسلي دمه عنه)). وفي حديث: "كنا إذا التقينا كتيبة أو جيشًا أول من يضرب رسول الله ﷺ". والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك.

وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن الكريم، ففي "بدر" كثير من سورة الأنفال، وفي "أحد" آخر آل عمران من قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١]، إلى قبيل آخر السورة بيسير، وفي قصة الخندق، وقريظة صدر سورة الأحزاب، وفي بني النضير سورة الحشر، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة الفتح، وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح أيضًا في سورة النصر، وتبوك في سورة براءة، وجُرح منها رسول الله ﷺ في غزوة أحد فقط، وقاتلت معه الملائكة منها: في بدر، وحنين، وأحد على خلاف في الثالثة، كما سيأتي عند الحديث عن هذه الغزوة، ونزلت الملائكة يوم الخندق فزلزلوا المشركين وهزموهم، ورمى بالحصباء في وجوه المشركين فهربوا، فكان الفتح في غزوتين: بدر وحنين، وقاتل بالمنجنيق في غزوة واحدة وهي: الطائف، وتحصن بالخندق في واحدة وهي: الأحزاب، أشار به عليه سلمان الفارسي > .

وهنا أمور يرى المؤلف أنه من المناسب أن ننبه عليها:

روى الخطيب البغدادي في (الجامع) وابن عساكر في (تاريخه) عن زين العابدين علي بن الحسين ابن أمير المؤمنين علي -كرم الله وجهه- قال: "كنا نُعلَّم مغازي رسول الله ﷺ كما نُعلم السورة من القرآن".

وروي عن ابن سعد بن أبي وقاص قال: "كان أبي يُعلمنا مغازي رسول الله ﷺ ويعدها علينا وسراياها، ويقول: يا بني هذه شرف آبائكم؛ فلا تضيعوا ذكرها".

وروي عن الزهري أنه قال: "في علم المغازي خير الدنيا والآخرة".

وروى ابن إسحاق والإمام أحمد والشيخان عن عبد الله بن بريدة قال: قلت لزيد بن أرقم: "كم غزا رسول الله ﷺ؟" قال: "تسع عشرة"، قلت: "كم غزوت أنت معه؟" قال: "سبع عشرة غزاة"، قال الحافظ: تسع عشرة، والمراد الغزوات التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة، سواء أقاتل أم لم يقاتل.

لكن روي عن جابر بن عبد الله } أن عدد الغزوات إحدى وعشرون، وأصله في مسلم، فعلى هذا فات زيد بن أرقم ثنتان منها، ولعلهما: الأبواء، وبُواط، وكان ذلك خفي عليه لصغره، ويؤيده ما قلته ما وقع عند مسلم بلفظ: "أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ذات العُشيرة أو العُسيرة"، والعسيرة الغزوة الثالثة، كذلك ابن سعد توسع فبلغ بعدد المغازي التي غزاها رسول الله ﷺ بنفسه سبعًا وعشرين، وتبع في ذلك شيخه محمد بن عمر، وهو مطابق لما عده ابن إسحاق، إلا أنه لم يفرد وادي القرى من خيبر، أشار إلى ذلك السهيلي، وكأن الستة الزائدة من هذا القبيل، وعلى هذا يحمل ما أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب قال: غزا رسول الله ﷺ أربعًا وعشرين، ورواه يعقوب بن سفيان عن سلمة بن شبيب عن عبد الرزاق؛ فزاد فيه أن سعيدًا قال أولًا: ثماني عشر، ثم قال: أربعًا وعشرين، قال الزهري: فلا أدري أوهم الشيخ، أو كان شيئًا سمعه، قال الحافظ -رحمه الله-: وحمله على ما ذكر يرفع الوهم، ويجمع الأقوال.

أول من صنف في المغازي، وغزوات النبي ﷺ

أول من صنف في المغازي: عروة بن الزبير أحد أئمة التابعين، ثم تلاه تلميذاه: موسى بن عقبة، ومحمد بن شهاب الزهري على النحو الذي أشرنا إليه، ونحن نتحدث عن أوائل المؤلفين في السيرة النبوية المباركة، الإمام مالك -رحمه الله- يقول: "مغازي موسى بن عقبة أصح المغازي"، والسهيلي: "إن مغازي الزهري أول ما صنف في الإسلام"، والأمر ليس كذلك، وأجمع الثلاثة، وأشهرها مغازي أبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، مولاهم المدني نزيل العراقي -رحمه الله- وكما قلنا من قبل: تكلم فيه جماعة، وأثنى عليه آخرون، والمعتمد أنه صدوق لا يدلس، وإذا صرح بالتحديث فهو حسن الحديث.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: من أراد أن يتبحر في المغازي؛ فهو عيال على ابن إسحاق، وقد اعتمد عليه في هذا الباب أئمة لا يحصون، ورواها عن جمع، ويقع عند بعضهم ما ليس عند بعض، وقد اعتمد أبو محمد عبد الملك بن هشام -رحمه الله- على رواية أبي محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي، وهو صدوق ثبتٌ في المغازي، وفي حديثه من غير ابن إسحاق لين، فرواها ابن هشام عنه وهذبها ونقحها، وزاد فيها زيادات كثيرة، واعترض أشياء سلم له كثير منها بحيث نُسبت السيرة إليه.

ومن المفيد أن نقول: إنه قد اعتني بكتاب (ابن هشام) فاهتم به جماعة من أئمة العلماء، فشرح الإمام الحافظ أبو ذر الخشني -رحمه الله- غريب لغاته، وهو على اختصاره كما يقولون: مفيدٌ جدًّا، وشرح الإمام أبو القاسم السهيلي كثيرًا من مشكلها، واختصره الحافظ الذهبي وسماه: (بلبل الروض)، وأجحف في

اختصاره الشيخ محمد بن أحمد بن موسى الكفيري الدمشقي، والتقى يحيى بن شيخ الإسلام الشمس الكِرماني وسماه كل منهما: (زهر الروض)، والعلامة الشيخ عز الدين بن جُماعة وسماه: (نور الروض)، والعلامة جمال الدين محمد بن مكرم صاحب (لسان العرب)، ورأيت لبعض المحققين من السادة الحنفية حواشي مفيدة على هوامش نسخة من الروض، نكّت عليه فيها كثيرًا -نكت عليه يعني: أتى بطرفٍ وظرائف لطيفة- وعلق الحافظ علاء الدين مغلطاي -رحمه الله- على الروض والسيرة بكتابٍ في مجلدين، وتعقب السهيلي كثيرًا في النقل، وذكر شرح كثيرٍ من غريب السيرة الذي أخل به وهو شيء كثير.

هناك اهتمام بسيرة النبي ﷺ على النحو الذي أشرنا إليه من قبل، ولا نريد أن نطيل أكثر من هذا، فقط نريد أن نؤكد ما ذكرناه في مطلع هذا الحديث من أن المغازي جمع مغزى، والمغزى يصلح أن يكون مصدرًا فيقال: غزا يغزو غزوًا ومغزًى ومغزاةً، ويصلح أن يكون موضع الغزو، وكونه مصدرًا متعين هنا، والغزوة مرة من الغزو، وتجمع على غزوات، هكذا قال علماء اللغة، والمراد بالمغازي: ما وقع من قصد النبي ﷺ بنفسه، أو بجيش من قبله، وقصدهم أعم من أن يكون إلى بلادهم، أو إلى الأماكن التي حلوها حتى دخل مثل أحد والخندق، ويأتي بعد هذا حديث عن الفترات السابقة على بدرٍ الكبرى، والقتال الذي بدأ بعد أن أذن الله ﷻ فيه قبل أن تقع بدر الكبرى.

يكتب صاحب: (سبل الهدى والرشاد) عنوانًا، فيقول: إن الباب الثالث في غزوة الأبواء، وهي: ودّان، هذا في الجزء الرابع من كتابه هذا (سبل الهدى والرشاد) الذي حققه الأستاذ إبراهيم الترزي، والأستاذ عبد الكريم العزباوي، يقول تحت العنوان الذي ذكرناه: غزوة الأبواء هي: ودّان، قال أبو عمرو: أقام

رسول الله ﷺ بالمدينة باقي ربيع الأول الشهر الذي قدم فيه، وباقي العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة، ثم خرج غازيًا في صفر، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواءً أبيض، واستعمل على المدينة -فيما قال أبو سعد وأبو عمر- سعد بن عبادة، وخرج بالمهاجرين ليس منهم أنصاري يعترض عيرًا لقريش فلم يلق كيدًا، ووادع بني ضمرة بن عبد مناة بن كنانة، وعقد ذلك معه سيدهم، قال ابن إسحاق وغيره نقلًا عن ابن حزم في (الجمهرة): إنه عمارة بن مخشي ووادعهم -وادع بني ضمرة هؤلاء- على ألا يغزوا بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعًا، ولا يعينوا عليه عدوًّا، وكتب بينه وبينهم كتابًا هذا نسخته:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بلّ بحر صوفه، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى)).

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة.

وهنا ننبه إلى أن الأبواء قرية بين مكة وبين المدينة، قيل: سميت بذلك لما فيها من الوباء، ولو كان كما ذكر لكانت الأبواء، أو كان مقلوبًا منه، والصحيح أنها سميت بذلك لتبوّء السيول بها، وودّان قرية جامعة من عمل الفُرع، وكلمة "وادعته" يعني صالحته، و"لم يلق كيدًا" يعني: لم يلق حربًا، ((ما بل بحرٌ صوفه)) أي: ما دام في البحر ما يبل الصوفه، ((ذمة الله)): أمان الله ﷻ.

يأتي بعد ذلك حديث عن غزوة بُواط.

يقول مؤلف الكتاب: خرج إليها رسول الله ﷺ في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرًا من مهاجَره، هكذا قال ابن سعد وغيره، وكان يحمل لواءه الذي كان لونه أبيض -سعدُ بن أبي وقاص، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وقال ابن هشام وغيره: السائب بن عثمان بن مظعون وتابعهما على ذلك بعض المؤلفين، خرج ﷺ يعترض عيرًا لقريش، وكان فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بُواطًا ولم يلق كيدًا فرجع إلى المدينة، وبُواطٌ جبل من جبال جهينة من ناحية رضوى، وجبل بينبع بينه وبين المدينة أربعة أبرد.

قال في (الروض): ذكر ابن هشام استخلاف رسول الله ﷺ على المدينة: السائب بن مظعون، وهو أخو عثمان بن مظعون بن حبيب، ثم قال: وأما السائب بن عثمان وهو ابن أخي هذا؛ فشهد بدرًا؛ فاقتضى كلامه أن المستخلف السائب بن مظعون لا السائب بن عثمان بن مظعون، وفيه نظر؛ لأن الموجود في نسخة السيرة السائب بن عثمان بن مظعون الصحابي، هذا ما ذكره صاحب كتاب: (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) فيما يتعلق بهذا الموضوع موضوع: الإذن بالقتال، والغزوات الأولى، أو السرايا الأولى، أو الغزوات على وجه أدق؛ لأن الرسول ﷺ كان موجودًا فيها.

ثم نأتي بعد ذلك لواحد من علمائنا المعاصرين الذين تناولوا هذا الموضوع بالدراسة والتحري أيضًا، وهو الأستاذ أكرم ضياء العمري، الذي أشرنا إليه أكثر من مرة من قبل، ونريد الآن أن نعرف كيف تناول هذا الموضوع بطريقته وهي طريقة العلماء المعاصرين؟.

تحت عنوان: (تشريع الجهاد) يقول: "الجهاد مصطلح شرعي يراد به القتال في سبيل الله؛ لإقامة نظام عادل يلتزم بأحكام الشريعة، ويسعى لتحقيق أهداف الإسلام في المعمورة، ولم يُشرع الجهاد في الإسلام في العهد المكي، بل أُمر المسلمون ألا يواجهوا المشركين بالقوة، وألا يحملوا السلاح في وجوههم، فكان الشعار المعلن آنذاك: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

وهذا الموقف الذي اتخذ، اتخذ عندما كانت الدعوة جديدة مثل النبتة الصغيرة تحتاج إلى الماء والغذاء؛ لترسخ جذورها وتقوى على مواجهة العواصف، فلو واجهت الدعوة آنذاك المشركين بالسيف فإنهم يجتثونها، ويقضون عليها من أول الأمر، فكانت الحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على أذى المشركين، وأن يتجهوا إلى تقويم أنفسهم وزيادة إيمانهم بدعوتهم عن طريق العبادة، ومجاهدة النفس، ودعوة الآخرين حتى يكثر سواد المسلمين.

ولم يكن المسلمون متميزين عن المشركين في معيشتهم اليومية، وليس لهم معسكر ينحازون إليه عند إسلامهم، وإن كانوا يجتمعون بعضهم مع البعض الآخر في دار الأرقم وغيره؛ لتلقي تعاليم الإسلام من رسول الله ﷺ ولو كان الجهاد قد فرض في تلك الفترة؛ لجرت معركة في كل بيت أسلم منه أحد، لكن لما هاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة، وآزر الأنصار دعوة الإسلام، وصارت للمسلمين أرضٌ يمتلكون السيادة عليها، شرع الله ﷻ الجهاد، وكان الإذن بالقتال دفاعًا عن النفس أول المراحل، وذلك في الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ثم أمر المسلمون بالقتال دفاعًا عن النفس والعقيدة في الآية الكريمة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]،

وكانت هذه هي المرحلة الثانية في تشريع الجهاد، والجهاد بذلك يختلف عن القتال والحروب التي شهدها التاريخ الإنساني، والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسيةٍ أو اقتصاديةٍ لأفراد أو جماعات طموحين يريدون العلو في الأرض، فالهدف وضوابط الحق والعدل والرحمة التي احتفت بالجهاد ميزته عن أنواع الحروب الأخرى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]، والنبي ﷺ يقول في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: ((اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا)).

ثم كانت المرحلة الثالثة، وتتمثل في الأمر بقتال المشركين وابتدائهم به، وذلك للتمكين للعقيدة الإسلامية من الانتشار دون أية عقبات تضعها قوى الشرك؛ ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين، وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا، ويظهر هذا التوجيه الأخير في الآيات الكريمة وهي قول الله ﷻ: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

إن الجهاد يمثل فريضة من أبرز الفرائض الإسلامية، وهو يوضح الهدف الكبير الذي يسعى المسلمون إلى تحقيقه، حرية اعتناق الناس للإسلام، في سائر أرجاء الأرض، وتكوين القوة العسكرية والسياسية اللازمة لدعم هذه الحرية وحماية

المسلمين الجدد، ورغم أن اعتناق الإسلام على صعيد الأفراد لا يمكن أن يتحقق بالقوة؛ إذ لا إكراه في الدين، ولكن الإعلان عنه، والتمكين له، وحماية معتنقيه في سائر المعمورة، يقتضي التفوق على القوى السياسية والعسكرية العالمية الأخرى، خاصة في العالم الذي ظهر فيه الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، حيث كانت الحكومات المعاصرة تمنع أتباعها من اعتناق الإسلام، وتُوقع بالمسلمين الفتنة، مثلما حدث من قبل الملأ من قريش بمكة، ومثل موقف الفرس والروم المتاخمين لجزيرة العرب في الشام ومصر، وقد أوضحت النصوص الإسلامية أن تشريع الجهاد ليس مؤقتًا بظرف طارئ، وإنما هو فرض ديني دائم، ففي الحديث: ((الجهاد باقٍ إلى يوم القيامة، ومن مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق)) (صحيح مسلم) ٣- ١٥١٧.

وهو فرض من فروض الكفاية إلا إذا غُزيت ديار الإسلام في عقرها، فيتعين على الجميع الدفاع عنها، وقد خصصت كتب الفقه أقسامًا خاصة لأحكام الجهاد المتنوعة، مثلما خصصت للصلاة والصوم والحج والزكاة، مما يدل بوضوح على دوام هذه الفريضة على الأمة الإسلامية مثل بقية الفروض والأركان الأخرى، وكان الجهاد يوحد الجبهة الداخلية للأمة الإسلامية، ويصرف طاقاتها في مواجهة أعدائها، وكان النداء بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، والمساواة بين الناس، وتكريم الإنسان أيًّا كان لونه أو جنسه، كان ذلك يسبق قوات المسلمين حيثما توجهت، فيجتذب النداء المبادئ السامية ويعلنها، فيجتذب بهذا الإعلان القلوب قبل أن تصدعها السيوف، وهذا هو السر في انتشار الإسلام وانتصار قواته.

وقد حاول بعض الدارسين للحركات الإسلامية في الفتوحات أن يضعوا تفسيراتٍ متنوعةٍ لنجاحها وامتدادها السريع، هناك من فسر ذلك بالدوافع الاقتصادية، وهناك من فسرها بالعوامل السياسية، وهناك من فسرها بطابع تبريري، وهو أن حركة الفتح ذات صبغةٍ دفاعيةٍ، وأنها استخدمت الهجوم للدفاع عن الأمة الإسلامية أمام خصومها الأقوياء.

ولسنا نريد أن نتحدث عن ذلك بالتفصيل، وإنما يكفي أن نقول: إن القرآن الكريم أوضح بما لا يقبل الشك، حرية الإنسان في اختيار الإسلام، أو البقاء على دينه نصرانيًّا أو كان يهوديًّا، حتى داخل المجتمع الإسلامي، وضمن سيادة الدولة الإسلامية، وهذا ما تثبته آيات القرآن الكريم، وتدعمه الوقائع التاريخية الصحيحة، حيث رحبت الشعوب بتحرير الإسلام لها من سيطرة الرومان والفرس، وعبر القبط في مصر، واليعاقبة في الشام عن سرورهم بالحرية الدينية التي أعلنها الإسلام، ولولا هذا الإعلان الصادق لحرية المعتقد لذابت سائر الأقليات الدينية في المسلمين، ولما حافظت على وجودها حتى الوقت الحاضر، رغم مرور أربعة عشر قرنًا على ظهور الإسلام.

إن دراسة الواقع التاريخي لانتشار الإسلام، تكشف عن حقيقة اعتناق الناس للإسلام منذ عصر السيرة، وأنه كان يتم في ظروف السلم، بنطاق أوسع بكثير مما يتم في ظروف القتال، فعدد من دخله بعد صلح الحديبية كان أضعاف عدد من دخله قبل الصلح، وكانت البعثات الدعوية في عصر السيرة إلى البوادي تترى رغم الأخطار المحدقة بها، وقد استمر انتشار الإسلام بعد انحصار سلطانه العسكري والسياسي، وما يزال يمتد في العصر الحديث، فلا شك إذًا في تهافت مقولة: "أن الإسلام انتشر بالسيف".

إن وصف حركة الفتح بأنها دفاعية، هو محاولة تبريرية لا تصمد بأي مناقشة جادة؛ فهل اعتدى سكان الأندلس، أو ما وراء النهر على حدود المسلمين ليفتحوها؟! وهل تأمين الحدود يقتضي التوغل في القارات الثلاث آسيا وأوربا وأفريقيا، حيث وقعت الأحداث الخطيرة، والمواقع الحاسمة بعيدًا عن جزيرة العرب؛ فكانت "تيربواتيه" جنوب فرنسا، وكان فتح "كريت"، وجنوب إيطاليا، وكانت موقعة "طراز" على نهر أطلس فيما وراء النهر، وأخيرًا حصار "فيينا"؟! لذلك فإن التفسير الصحيح لحركة الفتح أنها تطبيق لفريضة دينية هي الجهاد الذي وصفه الحديث الشريف بأنه: ((ذروة سنام الإسلام)).

الغزوات التي كانت قبل غزوة بدر الكبرى

إن طلائع حركات الجهاد تتمثل في غزواتٍ وسرايا صغيرة، اتجهت إلى مواقع غربي المدينة، واستهدفت ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.

الأمر الثاني: عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة؛ لضمان تعاونها، أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش، وهذه تعتبر خطوة هامة، نجاحها يعتبر نجاحًا عظيمًا للمسلمين؛ لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها؛ إذ بينها محالفات تاريخية سماها القرآن الكريم بـ"الإيلاف"، وقد سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن، ثم إن هذه القبائل لها مصالح وثيقة مع قريش، سادنة البيت الحرام وخادمته، حيث يحج العرب جميعًا إلى

الأصنام من حوله، هذا فضلًا عن وحدة العقيدة بين هذه القبائل وبين قريش، واشتراك الجميع في معاداة الإسلام، فليس من شك إذًا في أن تمكين المسلمين من موادعة هذه القبائل وتحييدها خلال الصراع، يعتبر نجاحًا كبيرًا لهم في تلك المرحلة من عمر الدعوة والدولة الإسلامية.

الأمر الثالث: إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة وحدها، بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل، ويؤثرون في مصالحها وعلاقاتها.

وأولى الغزوات التي قامت لتحقيق هذه الأهداف أو شيء منها، هي: غزوة الأبواء، وتسمى أيضًا: بغزوة ودّان، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، والأبواء تبعد عن المدينة نحو أربعة وعشرين ميلًا، ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل تمت موادعة بني ضمرة من كنانة، وكانت هذه الغزوة في الثاني عشر من شهر صفر سنة اثنتين من الهجرة، وقد عاد الجيش إلى المدينة المنورة بعد أن مكث خارجها إلى بداية شهر ربيع الأول حسبما يروي المدائني، وكما جاء في (تاريخ خليفة بن خياط) صـ٥٦.

ويذكر عروة بن الزبير أن النبي ﷺ أرسل سرية من الأبواء تضم ستين رجلًا بقيادة عبيدة بن الحارث، هذا أيضًا موجود في (فتح الباري) جـ٧، صـ٢٧٩، في حين يذكر ابن إسحاق أن السرية أرسلت إلى سيف البحر بعد العودة إلى المدينة، وأن ثمة سرية أخرى من ثلاثين رجلًا بقيادة حمزة بن عبد المطلب، اتجهت إلى سيف البحر أيضًا في نفس الوقت للتعرض إلى قافلة قرشية، لكن السريتين لم تشتبكا، مع القرشيين في قتال، فقد حالت القبائل الموادعة للطرفين دون ذلك في

سرية حمزة، وجرى تراشق بالسهام فقط بين سرية عبيدة والقرشيين، كما جاء في (سيرة ابن هشام) جـ١، صـ٥٩١- ٥٩٢، وكما جاء أيضًا في (تاريخ خليفة بن خياط) صـ٦١- ٦٢، وليس من شك في أن السريتين استهدفتا تهديد تجارة قريش بالدرجة الأولى، وهو تحذير أولي لقريش بأن تجارتها أصبحت في خطر ما لم تغير موقفها المتعنت من الإسلام.

وفي ربيع الثاني استمر المسلمون في حملاتهم باتجاه الطريق التجاري أيضًا، فكانت غزوة بُواط إلى رضوى قرب ينبع في مائتي مقاتل؛ لاعتراض قافلة تجارية قرشية.

ثم غزوة العشيرة بينبع في جمادى الأولى، ولم يقع قتال في رضوى، والعشيرة، ولكن جرت موادعة بين مدلج في العشيرة، وقد تعرض كرز بن جابر الفهري في جمادي الآخرة في أعقاب العشيرة إلى أطراف المدينة، ونهب بعض الإبل والمواشي، فطارده الرسول ﷺ إلى صفوان من نواحي بدر، فسميت الغزوة ببدر الأولى، وقد تمكن كرز من الإفلات في حملة المطاردة هذه، لكن الحادث أكد للمسلمين ضرورة تأمين العلاقة مع جيران المدينة، فاستمرت الحملات، ولم يقتصر تعرض المسلمين لتجارة قريش مع الشام، بل تعرضوا لطريق تجارتها أيضًا مع اليمن، فأرسلت سرية عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين إلى نخلة جنوبي مكة في آخر رجب؛ للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها، وأسروا اثنين من رجالها، وعادوا بها إلى المدينة كما يروي صاحب (تاريخ خليفة بن خياط) صـ٦٣.

ونظرًا لأن هذه الحادثة قد وقعت في الشهر الحرام، فقد أثار المشركون ضجة كبرى بدعوى أن المسلمين ينتهكون حرمة الأشهر الحرم، وكان لذلك وقع خطير في الحواضر والبوادي، فهو خرق لعرف عام ساد الجزيرة العربية مدة طويلة قبل الإسلام، والواقع أن عبد الله بن جحش كان يدرك خطورة الأمر، فقد اختار قرار القتال بعد مشاورة لأصحابه، ولما رجع إلى المدينة، وأراد تسليم الغنائم أبى الرسول ﷺ تسلمها، وقال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، وانتشرت داعية قريش، أن قد استحل محمد ﷺ وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، وقد نزلت آيات كريمات من كتاب الله ﷻ توضح سلامة موقف المسلمين، فأخذ الرسول ﷺ الغنائم وفادى الأسيرين من قريش.

والآيات هي قول الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقد بينت هذه الآيات أن ما فعلته قريش من فتنة المسلمين عن دينهم، وإخراجهم من مكة أكبر من قتال المسلمين في الشهر الحرام، كما هو موجود في (سيرة ابن هشام) جـ١، صـ٥٩- ٦٠، ومطلع الآية يقرر حرمة الأشهر الحرم، فهلا التزمت قريش بالقيم والأعراف فيما فعلته مع المسلمين حتى يحق لها أن تعلن عن نفسها، وكأنها القيِّم على الأعراف والمقدسات.

وقد تعرض الشبهة للبعض، فيظن أن تعرض المسلمين لقوافل المشركين، يشبه أعمال قطاع الطرق، فرد هذه الشبهة بأن المسلمين كانوا في حالة حرب مع قريش، فإضعافها اقتصاديًّا أو بشريًّا من مقتضيات حالة الحرب، هذا فضلًا عما

قامت به قريش من مصادرة أموال المسلمين عند هجرتهم من مكة، ومازالت حالة الحرب حتى الوقت الحاضر تسمح بضرب الطاقات البشرية والاقتصادية للعدو.

وهنا لا بد أن نشير أيضًا إلى دراسة طيبة حول هذا الموضوع، قام بها عالم جليل، تلقي مزيدًا من الضوء حول هذه الأمور التي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى، والتي تمثلت في سرايا وبعوث النبي ﷺ حول المدينة المنورة، صاحب هذه الدراسة هو الأستاذ الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف، صاحب كتاب (تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة)، ونظن أنه من المفيد أن نعرض لما جاء في هذا الكتاب حول النشاط العسكري قبل بدر:

لقد ظل النبي ﷺ أكثر من ستة أشهر في المدينة بعد الهجرة قبل أن يقوم بأي نشاط عسكري، وقد كان مشغولًا خلال تلك الفترة بتأسيس الدولة الإسلامية، وترتيب أوضاع المسلمين في موطنهم الجديد، ولم يغفل أمر تدريب المسلمين على فنون القتال، وحثهم على تعلم الرمي، وأثر عنه ﷺ أنه قال: ((ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي))، قالها ﷺ ثلاثًا، وأول عمل عسكري قام به ﷺ كانت السرية التي عقد لواءها لعمه حمزة بن عبد المطلب > وكان ذلك في شهر رمضان من العام الأول الهجري على رأس سبعة أشهر من مهاجَره، وكان اللواء أبيض، وحمله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وبعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلًا من المهاجرين، وخرج حمزة يعترض عير قريش التي جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل ابن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر -سيف البحر يعني: ساحل البحر من ناحية العَيْصِ- فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفًا للفريقين جميعًا إلى هؤلاء مرة وهؤلاء مرة، حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا، فتوجه أبو جهل وأصحابه إلى مكة،

وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة، كما يذكر ابن سعد في (الطبقات الكبرى) جـ٢، صـ٦، تلك رواية ابن سعد في (الطبقات) حول أول حملة عسكرية أرسلها النبي ﷺ لتناوش قريشًا وتعترض طريق تجارتها.

أما ابن إسحاق فيقدم سرية عبيدة بن الحارث في السياق على سرية حمزة، ولكنه يتبع ذلك بقوله: وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحَدٍ من المسلمين، ذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معًا، فشَبِه ذلك على الناس، هذا في الجزء الثاني من (السيرة النبوية) لابن هشام، صـ٢٠٠، وكيفما كان الأمر فقد تتابعت السرايا قبل بدر لتصل إلى أربع.

فبالإضافة إلى سريتي حمزة وعبيدة كانت هناك سرية سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة من العام الأول الهجري، ثم سرية عبد الله بن جحش في رجب من العام الثاني الهجري، وسنتكلم بعد ذلك -إن شاء الله- عن سرية عبد الله بن جحش، لكن إلى جانب هذه السرايا كان النبي ﷺ يرسل على رأسها أحد أصحابه، فقد قام بنفسه بأربع غزوات بالإضافة إلى السرايا التي كان يرسل عليها بعض أصحابه.

أول هذه الغزوات هي غزوة الأبواء -كما أشرنا. وكانت في صفر على رأس اثني عشر شهرًا من مهاجره ﷺ وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواءً أبيض، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة، وخرج في المهاجرين ليس فيهم أنصاري واحد حتى بلغ الأبواء يعترض لعير قريش؛ فلم يلقَ كيدًا، وهي غزوة ودّان، وكلاهما قد ورد وبينهما ستة أميال، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ وفي هذه الغزوة وادع مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم في زمانه، على ألا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثّر عليه جمعًا، ولا يعين عليه عدوًّا، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وضمرة من بني كنانة، ثم انصرف الرسول ﷺ إلى المدينة وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

ثم غزا رسول الله ﷺ بُواط في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، وخرج في مائتين من أصحابه يعترض لعير قريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بُواط وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رضوى، وهي قريبة من ذي خُشُب مما يلي طريق الشام، وبين بواط والمدينة المنورة نحوًا من أربعة بُرُد، فلم يلق رسول الله ﷺ كيدًا، ورجع إلى المدينة.

وفي جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عير قريش حين ابتدأت إلى الشام، وقد جاءه الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال قريش فبلغ العشيرة، وهي لبني مدلج بناحية ينبع، وبين ينبع والمدينة تسعة برد، فوجد العير التي كان قد خرج لها مضت قبل ذلك بأيام، وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدًا، وهذه القافلة ذاتها هي التي اعترضها رسول الله ﷺ وهي عائدة من الشام فأفلتت منه أيضًا، ومن أجلها كانت غزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر الأولى، وسرية عبد الله بن جحش

أ. غزوة بدر الأولى:

قال ابن إسحاق: ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من العشيرة إلا ليالي قلائل تبلغ العشرة، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على صرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديًا يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه، وهي غزوة بدر الأولى، كما روى ابن هشام في (السيرة النبوية)، جـ٢، صـ٢٣٨.

ويبدو لدارس سيرة الرسول ﷺ وأسلوبه ﷺ في التعامل مع قريش في هذه المرحلة أنه كان يتوخى من هذه الغزوات والسرايا تحقيق أهداف كثيرة، وهذا موضوع يستحق أن نفصّل الحديث فيه شيئًا من التفصيل بعد أن أجملنا هذه الأهداف فيما قبل، من بين هذه الأهداف:

الهدف الأول: أن النبي ﷺ أراد تدريب المسلمين عمليًّا على الطرق والمسالك والأماكن، التي ستصبح مستقبلًا ميادين فعلية للقتال، وساحات للمعارك الحاسمة مع أعداء الله من قريش وغيرها؛ فالرسول ﷺ من خبرته الطويلة في التعامل مع قريش، أدرك أنها لن تذعن إلا لقوة قاهرة تعيدها إلى صوابها، وتزيحها عن طريق الدعوة.

الهدف الثاني: هذه الجهات والأماكن التي اتجهت إليها هذه الغزوات والسرايا الأولى، تقع كلها على طريق القوافل، الذي تسلكه قريش في طريقها إلى الشام، ولقريش صداقات وعلاقات ودية مع أغلب القبائل المقيمة في هذه الجهات، وهذه القبائل تعرف الكثير من أخبار قريش وتحركاتها، وقوة الحراسة التي تحرس عيرها، فإذا نجح النبي ﷺ في كسب ود هذه القبائل، وأقام معها علاقات صداقة، فسوف يفوز بمعلومات دقيقةٍ عن خطط قريش، وبالفعل حققت تلك الغزوات والسرايا نتائج طيبة لهذا السبيل، وتمكن النبي ﷺ من إقامة علاقات ودية، بل وعقد محالفات دفاعية مع بعض القبائل، هذه التحالفات كانت لها دلالات عميقة على بعد نظره ﷺ في تخطيطه لمستقبل الدعوة الإسلامية، وإذا أردنا نموذجًا لهذه المحالفات، ففي الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لبني ضمرة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن

يحاربوا في دين الله، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصرته أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ونص هذه المحالفة موجود في (السيرة الحلبية) جـ٢، صـ١٢٥.

أنت ترى إذًا من نص هذه المعاهدة، أن النبي ﷺ لم ينجح فقط في تحييد هذه القبائل، والتي كانت في الأصل صديقة لقريش، بل ذهب إلى أكثر من ذلك، فنجح في عقد معاهدات دفاعية معها، وسوف يكون لهذا أثر كبير في مستقبل العلاقات مع قريش، وهذه المعاهدة تدلنا على شيء عظيم آخر وهو: أن كلمة المسلمين أصبحت نافذة في هذه الجهات، وأن قوتهم أصبحت ظاهرة، وأضحت القبائل في هذه النواحي تخشاهم، وتخطب ودهم، فبنو ضمرة -وهم من القبائل المهيمنة على طريق القوافل- يبسط عليهم النبي ﷺ حمايته، ويضمن لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، والذي يمنح الأمان هو دائمًا الأقوى الذي يستطيع أن يخيف، وأن يرهب، وأن يؤمّن أيضًا، فهذا كله يدلنا على المدى الكبير الذي وصلت إليه قوة المسلمين في تلك الفترة.

الهدف الثالث: تضييق الخناق على قريش، وضرب حصار اقتصادي صارم عليها، يقطع طريق تجارتها إلى الشام، فالتجارة هي مصدر حياتها، وأساس قوتها وازدهارها وسيادتها، وبدون التجارة لن تقوم لها قائمة، فحرمانها من نشاطها التجاري هو الموت بعينه، وهو أمر لن تحتمله طويلًا، ولا جدال في أن النبي ﷺ لم يكن يهدف أن يهلك قريشًا ويدمر حياتها، وإنما كان يقصد أن يلقنها درسًا قاسيًا، وأن يذيقها من نفس الكأس، ومن نفس طعم الكأس التي جرعتها للمسلمين في مكة.

وقد حققت هذه التحركات العسكرية هدفًا آخر نفسيًّا: فقد زرعت الخوف والرعب في قلوب قريش، ولا أدل على ذلك من الأعداد الهائلة من الرجال، الذين كانوا يقومون على حراسة القوافل في ذهابها وإيابها إلى الشام ومنه، فقد رأيت أن القافلة التي كان على رأسها أبو جهل ابن هشام والتي اعترض لها حمزة بن عبد المطلب كان يرافقها ثلاثمائة من الحراس، وهو أمر لم يكن مألوفًا قبل الآن في حراسة القوافل التجارية، إذًا فقد استطاع المسلمون أن يبقوا قريشًا على حذر، فحراس القوافل وقادتها يتوقعون لقاء المسلمين في كل لحظة، يخافونهم إذا انبلج الصبح أو اقترب الليل، وكل غبار يتطاير من وراء الأفق يظنون فيه الظنون، وكل همس في الليل يقدرون أن وراءه الموت، وهذا الاستعداد الدائم للحرب يثير الأعصاب، وهو أشد إجهادًا من القتال، وكان في هذا كسب معنوي للمسلمين، وقد نجحت سياسة الحصار الاقتصادي ضد قريش، واضطرتها إلى تغيير طريقها المعتاد، وأن تتنكب طرقًا أخرى وعرة عبر الصحراء حينًا وعلى ساحل البحر حينًا آخر، وفوق ما في هذا من خسارة جسيمة لقريش، وهو شيء لم تألفه ولم تتعود عليه، وهو يحطُّ من هيبتها بين العرب، ويزري بمكانتها عندهم.

والأخطر من ذلك كله أن النبي ﷺ لم يدعها تنعم بهذه الطرق البديلة التي ظنتها بعيدة عن متناول المسلمين، فقد لاحقها المسلمون في كل طريق سلكته، مما يدل على أن ضرب حصار اقتصادي صارم عليها، كان هدفًا رئيسًا من أهداف السياسة النبوية، على محمد ﷺ أفضل الصلاة وأتم التسليم، فبعد بدر تجنبت قريش المرور في الطريق الذي يمر بالمدينة؛ لئلا تصطدم بالمسلمين، وسلكت طريقًا آخر يمر عبر نجد إلى العراق متجشمةً في ذلك متاعب كبيرة، وكانت تظن أنها أصبحت في أمانٍ من تصدي المسلمين لها، ولكن كانت مفاجأتها كبيرة

عندما وجدت المسلمين لها بالمرصاد، فقد علم رسول الله ﷺ أن صفوان بن أمية بن خلف خرج على رأس قافلة فيها أموال كثيرة سالكًا طريق نجد إلى العراق، فأرسل زيد بن حارثة > على رأس مائة من الصحابة، فاعترضوا طريق القافلة وأصابوها جميعًا، فأفلت منهم صفوان ومن معهم من أعيان القوم، وقدم زيد بالعير على رسول الله ﷺ فخمسها، فبلغ الخمس عشرين ألف درهم، وقسم الرسول ﷺ ما بقي على أهل السرية، كما ذكر ابن سعد في (الطبقات الكبرى) جـ٢، صـ٣٦.

ب. سرية عبد الله بن جحش:

هي آخر الحملات الصغيرة التي جردها النبي ﷺ قبل موقعة بدر الكبرى، وقد رأينا أن نخص هذه السرية بكلمة خاصة مفصلة؛ لما ترتب عليها من نتائج، ولطبيعتها أيضًا، فالغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه، والسرايا التي أرسل على رأسها أحد أصحابه كانت وجهتها الطريق الساحلي بين مكة والمدينة، بهدف تهديد الطريق التجاري الرئيسي الذي تمر منه تجارة قريش، أما سرية عبد الله بن جحش، فقد شذت عن هذه القاعدة، فقد أُمِرت هذه السرية باستطلاع أخبار قريش من مكان قريب جدًّا من مكة "وادي نخلة" بين مكة والطائف، وهو اتجاه جديد في سياسة الحصار ضد قريش، فها هو الخطر أصبح قريبًا منها وهي في عقر دارها، وقد أمّر رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على اثني عشر في رواية ابن سعد، وعلى ثمانية في رواية ابن إسحاق.

وهنا يقول ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن الرئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى -يعني عندما قفل ورجع من بدر

الأولى- وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا، فلما صار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه، فإذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصُد بها قريشًا وتعلَم لنا من أخبارهم))، فلما نظر عبد الله في الكتاب، قال: "سمعًا وطاعة"، ثم قال لأصحابه: "قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشًا، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ"، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بحران، أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه كما يذكر ابن هشام جـ٢، صـ٢٣٩-٢٤١.

ومضى عبد الله بن جحش، وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأُدْمًا وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيْسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبًا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصِّن، وكان قد حلق رأسه فلما رأوه أمنوا وقالوا: "عمار لا بأس عليكم منهم"، وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: "والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فلا يمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام"، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم،

وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأثر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم من عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش، وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ فلما رآهم، قال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين، فيما صنعوا، وقالت قريش: "قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال"، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرّج الله ﷻ عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: "لا نفديكهما حتى يقدم صاحبانا -يعني: سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان- فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم". فقدم سعد وعتبة، ففداهما رسول الله ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا.

هذا ملخص رواية ابن إسحاق عن سرية عبد الله بن جحش > كما وردت في (السيرة النبوية) لابن هشام في جـ٢، صـ٢٤٠- ٢٤٢.

هذه السرية كانت في نهاية شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، وكانت على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لعلاقات المسلمين وقريش في هذه الفترة، وقد ترتب عليها نتائج كبيرة، وكشفت للمسلمين عن أشياء ربما كانت خافيةً عنهم، وعلى رأس ذلك موقف اليهود الذين كشفوا عن نواياهم الخبيثة، في التحريض على الحرب بين المسلمين وبين قريش، فقد أخذوا يرددون: "عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب"، أرادوا أن يشعلوها حربًا على المسلمين.

وسرية عبد الله بن جحش هذه كانت حملة استطلاع، وجمع معلومات، ورصد أخبار عن قريش، ولم تكن حملة قتالٍ أو تصدٍ لعير قريش، إذ لا يعقل أن يرسل النبي ﷺ ثمانيةً من أصحابه؛ ليقاتلوا قريشًا في عقر دارها، ولو كان النبي ﷺ يريدهم أن يقاتلوا لكان حجم الحملة أكبر من هذا بكثير، فالهدف إذًا هو جمع المعلومات، وعندئذٍ كلما كان العدد أقل كانت الفرصة أكبر في تحقيق الهدف، والدليل على أنها ليست حملة قتال: قول النبي ﷺ عند عودتهم: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، فالقتال إذًا جاء اجتهادًا من قائد الحملة ورفاقه.

ولكن بعض المستشرقين ممن هم مولعون بتشويه التاريخ الإسلامي، وتلفيق الروايات، وتفسيرها تفسيرًا خاصًّا؛ ليصلوا إلى ما يريدون من معلومات، وليرتبوا عليها ما يشاءون من النتائج التي تعجبهم وتتفق مع مخططاتهم العدائية للإسلام، ها هو "مونتجمري وات" صاحب كتاب (محمد في المدينة) يحاول أن يوحي لقارئه -وهو قارئ غربي أوربي معلوماته عن الإسلام وتاريخه ضئيلة إن لم تكن معدومة- ولذلك فإن هذا القارئ معذور إذا وقع فريسة للمعلومات الخاطئة التي يقدمها بعض من يسمون أنفسهم مستشرقين عن الإسلام، يحاول

"مونتجمري وات" أن يوحي لقارئه الغربي بأن المسلمين كانوا قطاع طرق، ويفسر بعض الكلمات تفسيرًا غريبًا، وكأنه يعرف أسرار اللغة العربية وما تدل عليه مفرداتها أكثر من أهلها، فيقول: "كان الشيء الأساسي في أوامر محمد المختومة إلى عبد الله بن جحش أن يذهب إلى نخلة، وأن ينصب كمينًا لقافلة قرشية، والشيء الثاني: أن يرفع تقريرًا لمحمد، وهذه إضافة لاحقة تحاول أن تجعل لكلمة ترصدوا، بمعنى راقبوا بدلًا من أن ينصب كمينًا، وهكذا ترفع المسئولية عن محمد بسبب أي معركة دموية، ولا شك فيه أن محمدًا أمر بالقيام بهذه المهمة مع علمه، بأنها ربما تؤدي إلى سقوط القتلى من رجاله أو من رجال أعدائه". اهـ. (محمد في المدينة) "مونتجمري وات"، صـ١٢.

ونحن بادئ ذي بدء لا نعتبر التعرض لقوافل قريش التجارية من قبل المسلمين تهمة ندفعها، بل إن هذا حقهم، وهو العدل الذي بعينه قصاصًا من قريش، التي صادرت أموالهم وديارهم وحريّاتهم، وقد خرج النبي ﷺ بنفسه يعترض لعير قريش أكثر من مرة -كما ذكرنا من قبل- وكذلك أمر أصحابه بالتعرض لقريشٍ وتجارتها، فليس هذا عيبًا؛ بل هو واجب عليهم، فالمسلم مطالب برفع الظلم أينما كان وكيفما كان، ومن باب أولى فعلى المسلم الحق أن يحارب الظلم الواقع عليه هو نفسه، ولكن الذي نلاحظه أن هذا المستشرق، يحاول أن يفهم اللغة العربية بطريقةٍ تغاير ما تدل عليه مفرداتها، وبغير الطريقة التي يفهمها بها أهلها، فكلمة "ترصدوا" يفهمها بمعنى: ينصبوا كمينًا، لا ندري كيف؟ ويجد من نفسه الجرأة على القول، أن هذه إضافة لاحقة تحاول أن تجعل لكلمة "ترصدوا" بمعنى راقبوا بدلًا من أن ينصب كمينًا، وهكذا ترفع المسئولية عن محمد... إلى آخر

تَرِهاته، ولم يقل لنا الأستاذ "وات" متى أضيفت هذه الإضافة؟ وممن كان النبيﷺ يخشى المساءلة؟ أمِنَ المشركين؟ أم من هذا المستشرق الذي جاء في آخر الزمان يفسر تاريخ الإسلام على هواه؟!.

ويمضي هذا المستشرق فيقول: "ومما لا شك فيه أن محمدًا أمر بالقيام بهذه المهمة مع علمه بأنها ربما تؤدي إلى سقوط القتلى من رجاله أو من رجال أعدائه".

الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق يقول لأصحابه: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام))، والأستاذ "وات" يحاول أن يوحي كما لو أن في هذا الأمر خديعة أو تغريرًا بالمسلمين، وتهربًا من جانب النبي ﷺ، وحاشا لله- من المسئولية. وهذا افتراء على الحقيقة، وليٌّ للنصوص وتحريف لمعناها، هذا هو فهم المستشرقين للتاريخ الإسلامي وتدخلاتهم؛ لتفسير النصوص، وتقديمها لقارئهم الغربي مشوهة محرفة، وقد نجحوا في إقامة حائط كبير بين القارئ الغربي وبين حقيقة الإسلام، ولو كان لدى هؤلاء قدر من النزاهة وحرية التفكير؛ لاختلف موقف القارئ العادي في أوربا من الإسلام اليوم، ليس سرًّا أن القارئ الأوربي يميل إلى تصديق أية أخبار مشوهة عن الإسلام؛ لأن المفكرين الغربيين الذين أجرموا في حق الإسلام، وفي حق القارئ الغربي نفسه، يقدمون له الإسلام كدين للإرهاب وللخرافات وللأساطير، وهذا الكلام ينطبق على الغالبية المطلقة من المستشرقين، الذين يعجزون عن فهم اللغة العربية التي يقرءون بها تاريخ الإسلام فيفسرون النصوص بالطريقة التي تعجبهم، وهذا لا يمنع أن هناك قلة من المستشرقين تحاول الإنصاف ولكل قاعدة شذوذ.

لعلنا أطلنا في الكلام عن "مونتجمري وات"، ولكن العذر أن الإنسان يشعر بالأسف الشديد عندما يقرأ لهؤلاء الناس، ونقول: حتى متى ندع نحن المسلمين أمر ديننا لهؤلاء، يمرحون فيه، ويصولون، ويجولون؟! لماذا لا يتصدى علماء الإسلام للكتابة في تاريخ الإسلام بلغاتٍ أجنبية؛ ليقدموا للقارئ الأجنبي ما يريدونه هم؟! إذا عجزنا عن هذا، فهل نعجز عن تناول هذه المؤلفات وما ترجم منها إلى العربية كثير فنقوم بنقدها وتفنيدها وتبيان ما فيها من أباطيل؟!.

حاولت قريش أن تستغل الحادثة في الإساءة إلى سمعة النبي ﷺ، أقصد سرية عبد الله بن جحش- بين العرب الذين يعظمون الشهر الحرام، وأخذوا يذيعون في القبائل أن محمدًا يأمر أصحابه بالقتل وأخذ الأموال في الشهر الحرام، ولكن الله ﷻ يرد عليهم بما معناه: أن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن من الذي يتساءل عن الحرمات، وعن الأشهر الحرم، وعمّا يحل فيها ويحرم؟ قريش التي انتهكت كل الحرمات وأخرجت المسلمين من الحرم وهم أهله، وصدوهم عن المسجد الحرام، وعن سبيل الله، وكل ذلك أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وكذلك فتنة المسلم عن دينه، ومحاولة إعادته إلى الكفر أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧] أي: لن يكفوا عن محاولاتهم لفتنة المسلمين عن دينهم، فهم كما يقول ابن إسحاق: مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين، فلما حسم القرآن الكريم الموقف على هذا النحو، ورفع الحرج عن المسلمين الذين قاموا بهذا العمل، واعتبر عملهم أمرًا

مشروعًا لا جناح عليهم فيه، تصرف رسول الله ﷺ في الغنائم فخمّسها، خمس للرسول ﷺ والأربعة أخماس لأصحاب السرية.

وخلاصة القول: أن سرية عبد الله بن جحش كانت نهاية مرحلة بدأت بعد الهجرة، وهي مرحلة الدراسة، والاستعداد والتدريب على القتال، وجمع المعلومات والأخبار عن قريش، واستطلاع الطرق والمسالك التي تسلكها، وإقامة محالفاتٍ وصداقات مع القبائل ذات الشأن في منطقة الساحل التي تطرقها قريش؛ لإحكام حلْقة الحصار حولها؛ لإجبارها على الإذعان وعلى التسليم، فلما جاءت سرية عبد الله بن جحش آذنت بنهاية المرحلة السابقة وبداية مرحلة جديدة، وهي مرحلة الحرب الصريحة المكشوفة مع قريشٍ، التي ابتدأت بغزوة بدر الكبرى، ولم تنته إلا بعد أن أذعنت قريش، ودخل رسول الله ﷺ مكة ظافرًا منتصرًا، في رمضان من العام الثامن للهجرة.

غزوة بدر

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	تحسُّس العير نواحي الشام	١٨٥
العنصر الثاني	:	علم أبي سفيان بخروج المسلمين ،ومساحلة أبي سفيان، واستنجاده بقريش، ونجاته	١٨٨
العنصر الثالث	:	علمه ﷺ بمجيء قريش واستشارته الصحابة	١٩١
العنصر الرابع	:	الإمساك بسقاة قريش، ومشورة الحباب بن المنذر	١٩٤
العنصر الخامس	:	مبيت المسلمين ليلة القتال، ومبيت المشركين ليلة القتال	١٩٦
العنصر السادس	:	الاستعداد للمعركة، وصف الصفوف، وعتبة وبداية المعركة	٢٠٠
العنصر السابع	:	شهود الملائكة للمعركة، قتلى المشركين، وأسراهم	٢٠٧
العنصر الثامن	:	بشرى النصر في المدينة، ونبأ الفاجعة في مكة	٢١٠

تحسس العير نواحي الشام

وكانت هذه الغزوة قد ندب النبي ﷺ لها المسلمين لما علم برجوع أبي سفيان من الشام بالقافلة التي أفلت بها من ملاحقة المسلمين في غزوة "العسيرة" أو العشيرة التي خرج النبي ﷺ لها في شهر جمادى الأولى، وهي صاعدة ممن مكة إلى الشام.

وكان أبو سفيان قد أفلت بهذه القافلة فلم يدركه النبي ﷺ فعاد إلى المدينة بعد أن وادع بني مدلج وأقام معهم فترة ختم فيها جمادى الأولى وأيامًا من جمادى الثانية، ثم عاد إلى المدينة ﷺ وكان يترقب هذه القافلة حين عودتها، وترصد لها حتى في نواحي الشام، فإنه ﷺ قبل خروجه لهذه الغزوة في الثاني عشر من شهر رمضان كان قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد { نواحي الحوراء فيما يقارب الشام، ونزل على كثير بن مالك الجهني الذي أحسن مقامهما عنده، وكتم على أمرهما، وأنزلهما في خباء على شرف من الأرض مرتفع منهما، حتى جاءت القافلة -قافلة أبي سفيان- فرآها الرجلان، فلما مضت القافلة بعد أن سأل أبو سفيان ومن معه كثيرًا هذا: هل رأى أحدًا من عيون محمدٍ ﷺ؟ فقال الرجل مستنكرًا: وأنّا عيون محمدٍ بالنخبار؟! أي: في مكان نزول هذه القبيلة؟ فلما مضت القافلة خرج كثير بالرجلين حتى أوردهما ذا المروة.

ورجع الرجلان إلى المدينة فوجدا النبي ﷺ قد خرج للقاء العير، ولعل النبي ﷺ جاءته الأخبار سريعة، ربما خبر أمر القافلة عن طريق طلحة وسعيد، أسرع بالخبر بعض الصحابة، أو ربما كانت هناك وسائل أخرى يتعرف بها النبي ﷺ على أمر هذه القافلة؛ لأنه خرج بعد أن أتى طلحة وسعيد، وندب المسلمين لهذه القافلة،

وقال: ((هذه عير قريش أقبلت فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا لعل الله أن ينفلكموها)).

فخرج المسلمون سراعًا تلبية لأمر النبي ﷺ وكان أكثر الناس استجابة لهذا الأمر من الأنصار من الخزرج؛ لأنهم المساكنون للنبي ﷺ نواحي المسجد، أما الأوس فكانت منازلهم في علو المدينة واستأذنوه ﷺ أن يأتوا بظهورهم من أماكنها لكن النبي ﷺ لم يأذن رغبة في أن يتمكن من اللحاق بأبي سفيان، وهذا مما جعل اشتراك الأوس أقل من غيرهم في هذه الغزوة، فقد كان عددهم واحد وستين رجلًا من مجموعهم الذين كانوا ثلاثمائة وثلاث عشرة رجلًا من المسلمين.

خرج النبي ﷺ مع أصحابه، وعلى نحو ميل من المدينة في مكان السقيا استعرض النبي ﷺ الرجال معه، فأجاز من يطيق أمر القتال، ورد من استصغره من المسلمين، وكان ممن رد: زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وغيرهما من الشباب المسلم الذين كانت سنهم صغيرة، ولكن دفعهم الإيمان إلى أن يشاركوا في هذه الغزوة، وأن يصحبوا النبي ﷺ فيها.

وكان ممن ردهم النبي ﷺ: عمير بن أبي وقاص، أخا سعد بن أبي وقاص، فبكى عمير فرق له النبي ﷺ له وأجازه، يقول سعد: إنه كان يرى أخاه يتوارى حتى لا يراه النبي ﷺ فلما أجازه النبي ﷺ يقول سعد: كنت أعقد له حمائل سيفه حتى لا يجر على الأرض، وكان من نصيب هذا الشاب الناشئ في الإسلام أن نال الشهادة في هذه الغزوة.

خرج النبي ﷺ بعد أن استعرض الرجال معه أمرهم أن يتعادوا أي حتى يعرف عدد من معه، فعرف بأنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فسر النبي -ﷺ وتفاءل

خيرًا، لأن هذه كانت عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر معه، فنصرهم الله ﷻ على جالوت وجنوده.

مضى النبي ﷺ من بيوت السقيا بعد أن دعا لأهل المدينة، ودعا لسكانها، ومضى ﷺ مع أصحابه يعتقبون سبعين بعيرًا، كل ثلاثة وأربعة من الرجال يتعاقبون بعيرًا واحدًا، حتى إن النبي ﷺ كان معه صاحبان هما: علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي.

فكان ﷺ حينما كانت تأتي نوبته في المشي كانا يحاولان ويعزمان عليه ﷺ ألا يمشي، وأن يكفياه مؤونة المشي، ولكنه ﷺ قال لهما: لستما بأقوى مني على السير، ولست بأزهد منكما في الأجر.

مضى النبي ﷺ في طريقه إلى بدر، وكان قد استخلف عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة في المدينة، وفي الطريق رد أبا لبابة بن عبد المنذر، مستخلفًا إياه على المدينة، كما أنه رد عثمان بن عفان > ليقوم بتمريض زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

ولما مضى النبي ﷺ في مسيره حتى وصل واديًا يسمى الصفراء قريبًا من ينبع، هناك بعث بسبس بن عمرٍ، وعديًّا بن أبي الزغباب نواحي بدر ليتعرفا أمر القافلة، قافلة أبي سفيان، فمضى الرجلان لمهمتهما.

وجاوز النبي ﷺ الصفراء، ولم يمض بعيدًا حتى جاءه خبر خروج قريش لمنع عيرها بعد أن وصلها النذير -الذي بعثه أبو سفيان- لقريش حتى يهبوا لمنع قافلتهم، هذا الأمر.

علم أبي سفيان بخروج المسلمين، ومساحلة أبي سفيان، واستنجاده بقريش، ونجاته

أما أبو سفيان فإنه كان يتحسس هو الآخر منذ أن خرج من الشام أمر المسلمين ؛ لأنه قد بلغه من رجل من جذام بأن المسلمين ، وبأن محمدًا ﷺ خرج له متعرضًا له عند خروجه أول الأمر ، وهو صاعد إلى الشام ، وهو الآن يعد الأيام عدًّا لهم ، وحذرهم الرجل أنهم كانوا يومئذ مخفين ، أما الآن فهم مثقلون بتعب المسير والرحلة والكسب الذي حققوه ، فهم الآن غرض واضح للنبي ﷺ.

وهنا بدأ أبو سفيان يأخذ حذره ويترقب ، ويسأل الركبان وأهل الطريق ، وتأكد له ذلك قريبًا من الشام.

ويدلنا على هذا ما ذكره مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص ، قال مخرمة : لما لحقنا بالشام أدركنا رجل من جذام ، فأخبرنا أن محمدًا كان عرض لعيرنا في بدأتنا ، وأنه تركه مقيمًا ينتظر رجعتنا ، قد حالف علينا أهل الطريق ووادعهم.

قال مخرمة : فخرجنا خائفين نخاف الرصد ، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فصلنا من الشام ، وكذلك يقول عمرو بن العاص : إنه حدث بأن الخبر أتاهم لما كانوا بالزرقاء ، والزرقاء بالشام ناحية معان.

فهنا تحدد مكان معرفتهم بالخبر ، والمكان الذي بعثوا منه ذلك النذير الذي بعثوه إلى قريش وهو ضمضم بن عمرو الغفاري.

وهذا الأمر هو الأقرب للصواب ؛ لأن ابن هشام يقول بأن أبا سفيان تحسس أمر المسلمين هناك نواحي بدر لما نزل في ديار مجدي بن عمرو الجهني ، فعرف أمر المسلمين وبعث من هذا المكان يستنفر قريشًا ، وهذا لا يستقيم لأن الأمر كان

النبي ﷺ على مقربة من بدر، وقريش كانت قد أقبلت هي الأخرى نواحي بدر وقريب منها، فهذا لا يستقيم على كلام ابن هشام من أن استنفار قريش كان من نواحي بدر، وإنما المعقول أن يكون من نواحي الشام كما ذكر الواقدي في (المغازي).

على أية حال فإن أبا سفيان أخذ في الحذر وبعث يستنفر قريشًا وساحَل بالقافلة، وأغذ في السير، ولذلك نجده قد تمكن من أن ينجو بالقافلة، ولكنه لم يتأكد له ذلك بعد إلا بعد أن وصل نواحي بدر، وغادر المكان بعد أن عرف أن عيون المسلمين وصلت نواحي بدر تترصده.

فإن النبي ﷺ لما بعث بسبس وعدي بن أبي الزغباء لما بعثهما نواحي بدر نزلا في مكان وسمع امرأتين تتلازمان، أحداهما لها دين على الأخرى وتقول المدينة: غدًا تأتي القافلة، فأعمل لهم وأقضيكِ دينك، قال مجيبًا لهما مجدي بن عمرو: صدقت، فهذا يدل على أن أهل الطريق يعرفون موعد القافلة ويتوكفون - يعرفون أمر مسير القافلة- موعد وصولها، هنا عاد الصحابيان ليخبرا النبي ﷺ بما سمع، وبما لاحظ في هذا المكان.

وجاء من بعدهما أبا سفيان ليسأل مجدي بن عمرو، وكان موادعًا للفريقين للمسلمين ولقريش، فسأل أبو سفيان مجدي بن عمرو: هل رأى شيئًا من رجال محمد في هذه النواحي؟ فقال مجدي: إنه لم يلاحظ شيئًا، وإنما رأى رجلين راكبين نزلا في ناحية، واستقيا ماءً ومضيا، فذهب أبو سفيان إلى مكان مناخ الراحلتين راحلة الصحابيين، فأخذ بعرة من أبعار بعيريهما ففته فوجد فيه النوى، فقال: هذه علائف أهل المدينة، ولذلك توجس خيفة من هذا الأمر، ثم خرج مسرعًا حتى يدفع القافلة ويسير على نهجه الذي اتخذه من نواحي الشام في مساحلته، وفي إغذاذه السير نحو مكة، وتمكن أبو سفيان بهذا الأمر، وتلك الخطة من أن يفلت بالقافلة بهذه الخبرة، وهذه الحنكة التي كانت عند أبي سفيان.

وبعث أبو سفيان لما تأكد له نجاته بالقافلة قيسًا بن امرئ القيس إلى قريش يبشرهم أنه نجا بالقافلة والعير، ويطلب إليهم أن يرجعوا، وألا يتابعوا المسير.

لكن قريشًا كان لها رأي آخر، فكانت قريش حين قدم ضمضم قد هبت جميعًا لمنع أموالهم من المسلمين، وقالوا: أيظن محمد أنها عير كعير بن الحضرمي؟ والله ليعلمن غير هذا، فخرجوا في نفرة كاملة لا تردد فيها عندئذ، وأعان بعضهم بعضًا على الخروج، ذلك أن قريشًا كادت أن تكون كلها مشتركة ومساهمة في هذه القافلة، وإنها لم تنس بعد مصابها في أمر قافلة نخلة التي حازها المسلمون، وأسر أسيرين من رجالها، وكان من بني مخزوم واحد من صميمهم، وواحد من حلفاء بني مخزوم، وكانت هذه صفعة موجهة إلى بني مخزوم على الخصوص من بين قريش، فخرجوا، وكانوا أكثر الناس حماسًا وتحمسًا، لهذا الأمر هم بنو مخزوم، فقد كانت عدتهم نحو من مائة وثمانين رجلًا، وكانت لهم أموال كثيرة في القافلة، ولذلك كان أمر إصرارهم على الخروج.

ولكن لما نجت القافلة وجدنا بأن كثيرين من ذوي الرأي والمكانة في مكة أمثال: عتبة بن ربيعة، وحكيم بن حزام، وأبي البختري علي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، هؤلاء ما رغبوا في المسير وبخاصة بعد أن تأكد لهم نجاة القافلة، ولكن أبا جهل استفزهم للخروج في أسلوب ينال من رجولة الرجال.

وهنا حسم الأمر لما وصل البشير الذي بعثه أبو سفيان بنجاة القافلة، حسم الأمر جماعة من بطون قريش هم بنو زهرة، وبنو عدي، الذين رأوا أنه لا داعي لمتابعة المسير.

فلقد استجاب بنو زهرة لأمر حليفهم الأخنس بن شريق الذي قال لهم: علام تخرجون وقد نجى الله صاحبكم مخرمة بن نوفل؟ ونجى أموالكم؟ فرجع بهم من

الجحفة، كذلك رجع بنو عدي رهط عمرو بن الخطاب، رجعوا من مر الظهران فلم يشارك في المسير، ولا في بدر عدوي واحد، وهذا مما أثنى به عمر > على قومه، فقال حينما أثنى عليهم: بأنهم لم يشهد بدرًا منهم عدوي، ولم يكن بمكة حين الفتح مشرك من بني عدي، فقد كانوا كلهم على الإسلام.

هنا تابع القوم المسير ناحية بدر لما قال لهم أبو جهل: لم نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم ثلاثة أيام، فننحر الجزور، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، فلا تزال تهابنا العرب.

إذًا فقد كان هذا هو قصد أبا جهل من المسير نوع من الاستعراض، وكأنها نزهة عسكرية، ولكنه ما كان يعلم بما يريده الله ﷻ من هذا اللقاء الذي جعله الله على غير ميعاد بين الفريقين.

تابع القوم المسير، وهم يمنون أنفسهم بما قال أبو جهل لهم من أن الأمر لن يعدو أن يكون مجرد رحلة، لن يكون من ورائها قتال، كما كانت النية، والقصد قبل ذلك. تابع القوم المسير على هذا النحو حتى وصلوا نواحي بدر.

علمه ﷺ بمجيء قريش واستشارته الصحابة

نرجع إلى أمر المسلمين، الذين كان لهم شأن آخر، فإن الأحداث كانت تتابع عند كل فريق، فإن النبي ﷺ لما بعث الرجلين نواحي بدر، بسبس وعدي وعادا ليخبراه ﷺ بالأمر، وإن النبي ﷺ كان قد عرف بمسير قريش، لتمنع قافلتها.

وهنا قام النبي ﷺ عرف هذا الأمر بعد أن جاوز وادي الصفراء في مكان يسمى وادي ذفران وعرف النبي ﷺ بمسير قريش.

الرجال خرجوا مع النبي ﷺ للتجارة والقافلة، وها هو الآن يعلم النبي ﷺ أن الأمر تحول في القصد، فقريش خرجت، والقافلة قد نجت.

ومن ثم رأى النبي ﷺ أن يعلم الرجال معه، وأن يأخذ رأيهم ويستشيرهم؛ لأن العدد كان في الأنصار، وكان الأنصار لا يرون عليهم أو كما نصت بنود العقبة بيعة العقبة -بيعة النصرة- على أنهم يمنعونه داخل المدينة، وليس خارجها، ولذلك قال النبي ﷺ بعد أن أعلم الناس بمسير قريش، وهذا ما يحكيه ابن عباس } فيما يرويه ابن جرير قال: كان الله ﷻ وعدهم إحدى الطائفتين، وكان أن يلقوا العير أحب أليهم وأيسر شوكة.

فلما سبقت العير، وفاتت رسول الله ﷺ أخبر النبي ﷺ المسلمين وسار يريد القوم، فكره القوم مسيرهم لشوكتهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

هنا نجد الوصف الدقيق الذي يصفه القرآن لأحوال المسلمين حينما علموا بأمر المسير أنه تحول القصد من طلب للقافلة غير ذات الشوكة إلى هذا اللقاء المرتقب بين المسلمين وبين المشركين.

وهنا كان من أمر النبي ﷺ أن وقف يستشير أصحابه، فقد خرجوا لأمر تحول القصد فيه إلى غير ذلك، إلى أمر كان ما أسهله، وأصبح الآن أمرًا صعبًا على نفوسهم، وصعبًا في ممارسته، فقال النبي ﷺ: ((أشيروا عليّ أيها الناس)) فهنا تكلم أبو بكر فأحسن الكلام وكذلك عمر > ثم قام المقداد بن عمرو؛ فقال: امض يا رسول الله لما أراد الله، لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكنا نقول:

اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، فسر النبي ﷺ وقال له خيرًا.

ثم أعاد النبي ﷺ قوله: أشيروا عليّ أيها الناس وكان يقصد الأنصار، فتلقفها سعد بن معاذ > وكان مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ من الأوس، فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: لقد آمنا بك وصدقناك، وأعطيناك على ذلك مواثيقنا، وعهودنا، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك؛ فامض لما أراك الله يا رسول الله، وإنا تركنا إخوانًا لنا لو يعلمون إنك ستلقى قتالًا ما تخلفوا عنك.

وهنا سر النبي ﷺ وبشرهم بنصر الله ﷻ وقال لهم: بأن الله وعده إحدى الطائفتين، وقد نجت القافلة بمالها وعيرها، فوعد الله سيتم بإذنه ﷻ في هذه الجماعة المشركة التي خرجت بعددها وعددتها تحاد الله ورسوله.

وكانت ثقة النبي ﷺ في نصر الله ووعده عظيمة، ومضى النبي ﷺ حتى نزل قريبًا من بدر حينما علم برغبة الرجال معه وعزمهم على القتال، وهذا من رحمة الله بالمسلمين، وكذلك من فضل الله على هذه الأمة وعلى رسوله ﷺ فهؤلاء الرجال الذين خرجوا لغير قتال ولصيد سهل، هو القافلة، هم الآن أمام خيار صعب، ومع ذلك أعطوا الموافقة للنبي ﷺ من عند أنفسهم على أن يلقوا عدوهم، وعدو الله، وعدو هذا الدين، مضى النبي ﷺ كما قلنا نواحي بدر ونزل قريبًا منها.

ثم أخذ يتحسس المكان، ويسأل الناس، فسأل رجلًا من الأعراب هو: سفيان الضمري فسأله عن قريش؟ وعن محمد وأصحابه ما علمه بهم؟ فقال الرجل: لما

دار حوار بينه وبين النبي ﷺ فقال له: لن أخبركم حتى تخبراني من أنتما؟ وكان أبو بكر والنبي ﷺ معًا في لقاء هذا الشيخ، فقال النبي ﷺ لن نخبرك حتى تخبرنا، فأخبرهم الرجل بأنه علم بأن قريشًا خرجت في يوم كذا وكذا تقصد بدرًا، فإن كان الذي أخبره صدق فإنهم، الآن في مكان كذا وكذا، وبأنه أخبر بأن محمدًا وأصحابه خرجوا في يوم كذا وكذا، فلو صدقه من أخبره لكانوا اليوم في مكان كذا وكذا، للمكان الذي كان فيه الفريقان.

وهنا مضى النبي ﷺ بعد أن عرف من الرجل، فلما سألهم: من أنتما؟ حتى كما وعداه، قال النبي ﷺ في تورية: نحن من ماء –أي: يقصد من ماء دافق- ولكن الرجل ظن أن ماء هذا ماء العراق أو غيره، من أي ماء؟ من ماء العراق؟.

ومضى النبي ﷺ وعاد إلى أصحابه، وهناك بعث عليًّا والزبير وسعد بن أبي وقاص يتحسسون على أماكن الماء حتى يعثروا على سقاة لقريش، لأنه ﷺ عرف بأمرهم، عرف بأمر قريش وأنهم قد جاءوا وأنهم على مقربة من المكان، والمكان الذي يمكن أن يتصيد فيه المسلمون من يدلهم على قريش منهم، هو أماكن الماء، لأن قريش معها الطعام والسلاح والرجال والمال، ولكن ليس معها الماء فهي باحثة عنه ضرورة لها.

الإمساك بسقاة قريش، ومشورة الحباب بن المنذر

لما ذهب الصحابة } إلى آبار بدر وإلى بئر حدده لهم النبي ﷺ ذهبوا إليه فأمسكوا ببعض السقاة، وبعض الرواة لقريش فجاءوا بهم إلى النبي ﷺ وإلى معسكر المسلمين، ووصل الرجال بالسقاة وكانا ساقيين، وقيل: ثلاثة، أخذ المسلمون يتعرفون من السقاة على أمر القافلة، ويسألون أين أبو سفيان؟ وهم إلى

هذا الأمر كانوا يرجون أن يكون السقاة لأبي سفيان، لكن السقاة قالوا: نحن سقاة لقريش، فأوجع الصحابة السقاة ضربًا، لأنهم ظنوا أنهم يتسترون على أبي سفيان، فكلما سألهم قالوا: نحن سقاة لقريش، فكانوا يشتدون في ضربهم حتى يقولوا ما كانوا يتمنونه من أنهم سقاة لأبي سفيان.

وهنا قضى النبي ﷺ صلاته، وقال لهم: ((إذا صدقوكم ضربتموهم، وإذا كذبوكم تركتموهم، إنهم سقاة لقريش)). ثم تلطف النبي ﷺ بالسقاة وسألهم عن قريش: ((أين هم))؟ قالوا: هم خلف هذا الكثيب الذي ترى أي مرتفع الرمال الذي أمامك، وسألهم ﷺ: ((كم عددهم))؟ قالوا: هم كثير، فلم يجيبوا عن عددهم، وهنا سألهم النبي ﷺ عن أمر تعرف به على عدد قريش فلما سألهم ﷺ قال: ((كم ينحرون في اليوم))؟ قالوا: ينحرون يومًا عشرًا ويومًا تسعًا؛ فقال النبي ﷺ: ((القوم بين التسعمائة والألف))، وكان هذا التحديد مطابقًا للواقع؛ فكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلًا، فهنا سألهم النبي ﷺ: عمن فيهم من رجالات قريش؟ فعدد السقاة رجال من صناديدها قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، وأبا البختري بن هشام، وعددوا كثيرين منهم أبو جهل وغيرهم، فقال النبي ﷺ لما التفت إلى أصحابه قائلًا: ((ها هي مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها)).

عرف النبي ﷺ عدد قريش، ومن فيها من الرجال، وتحدد المكان، وتحدد الزمان لهذا اللقاء الذي أرداه الله.

مشورة الحباب بن المنذر:

كان نزول المسلمين في أدنى ماء من بدر من ناحية المدينة أول ما صادف المسلمين، وهنا قال الحباب بن المنذر > يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ فقال النبيﷺ:

((بل هو الرأي والحرب والمكيدة)). فقال: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل، سر بالرجال حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنبني حوضًا ونغور أو نعور ما دونه من القُلب -ومعنى نغور أو نعور أي: نفسد باقي القُلب بإلقاء الحجارة أو التراب فيها. حتى لا يجد المشركون ماء يشربونه، ولذلك قال: فنشرب، ولا يشربون؛ فاستحسن النبي ﷺ هذا الأمر وانتقل المسلمون في الليل يفعلون ذلك الأمر، ينتقلون إلى أدنى ماء من قريش، وبنوا الحوض، وقاموا في هذا الليل يفعلون كل هذا.

اقترح سعد بن معاذ > أن يبنى عريش للنبي ﷺ يباشر منه أمر القيادة، وكان اقتراحًا وجد قبولًا من النبي ﷺ فبني عريش من جريد للنبي ﷺ أقام فيه يدعو الله، ويباشر أمر القيادة، وكان معه أبو بكر > .

مبيت المسلمين ليلة القتال، ومبيت المشركين ليلة القتال

أ. مبيت المسلمين ليلة القتال:

كان أمر المسلمين في هذه الليلة عملًا متواصلًا حتى انتهوا منه، فألقى الله عليهم النعاس، ثم بعث الله السماء ماءً غزيرًا على معسكر قريش، فمنعم من المسير حتى تمكن المسلمون من الوصول إلى أدنى ماء منهم، ولم يتمكنوا هم.

كذلك فإن الماء كان على المسلمين كما يصفه علي بن أبي طالب > كان طشًّا -أي: فوق الرذاذ-: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

حتى إن عليًّا ليقول: إنهم كانوا يستظلون، ويتقون هذا الرذاذ، وهذا المطر الخفيف بالحجف، وهي التروس التي تكون من الجلد بخاصة. فالصحابة { قضوا ليلتهم بعد هذا حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، فقاموا فصلوا مع النبي ﷺ الذي قضى ليله قائمًا يصلي لله ﷻ ويضرع إليه أن ينصره، وينصر أصحابه ويستغيث به سبحانه ﷻ وأن ينجزه ما وعد، وفي الصباح أعد النبي ﷺ عسكره، ورجاله وأعطاهم أوامره ماذا يفعلون، وماذا عليهم أن يلتزموا في هذا اللقاء الحاسم، الذي تحدد، وبعد أن بشرهم بنصر الله ﷻ ورغبهم في الجهاد، وبشرهم بمصرع ومصارع رجالات قريش، فحدد أماكن مصارعهم من الأرض، فقال: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، حتى يزيدهم إيمانًا وثقة بنصر الله ﷻ فما تعدى -كما قال الصحابة- رجل من المشركين مصرعه من الأرض الذي حدده النبي ﷺ.

ثم إنه ﷺ أمر المسلمين أن لا يقتلوا جماعة من أهل مكة من قريش، وقال: ((من لقي أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، فإنهم خرجوا مستكرهين، ومن لقي العباس عم النبي ﷺ فلا يقتله؛ فإنه خرج مستكرهًا، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله))، وعدد أناسًا كثيرين نهى النبي ﷺ عن أن يقتلوا.

وأيضًا. فإنه ﷺ لما انكشف الموقف وجاءت قريش تحاد الله ورسوله، فهنا كان للنبي ﷺ مع أصحابه شأن آخر، كان يصف الصفوف، ويأمرهم ألا يبدءوا بقتال، وألا يسلوا السيوف حتى يؤذنهم بذلك.

هنا تجد انضباطًا والتزامًا في معسكر المسلمين، قيادة واحدة راشدة تسير بأمر الله ﷻ وتحت هذه القيادة رجال آمنوا بالله ورسوله، والتزموا بأمر هذا الدين، ورضوا بما أراده الله ﷻ من أن يكونوا رجال هذا الموقف إن شاء الله.

هنا أخذ النبي ﷺ يصف الصفوف ليلقى بها قريش، وكان أسلوب الصف الذي هدى الله نبيه إليه هو الأسلوب الأمثل ليواجه به أسلوب ما اعتادت عليه العرب، وقريش في القتال، وهو أسلوب الكر والفر، وأسلوب الكر والفر هو الذي كان معروفًا عند العرب في جاهليتهم.

ولكن النبي ﷺ ولم يكن معه من الرجال مثل ما كان مع المشركين، ولا معه من العدة والخيل مثل ما كان معهم، ولذلك فقد تحتم عليه أن يباشر أسلوب الدفاع، وكان أمر الصف خير وسيلة لكي يقف المسلمون أمام هذا الجمع الحاشد من قريش في هذا اللقاء الحاسم.

ولذلك قال النبي ﷺ: ((لا تبدءوا بقتال فإذا أكثبوكم -أي: فإذا قربوا منكم- فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى آذنكم بالحرب وبالقتال)).

وهذا كان أسلوبًا جديدًا لم تعهده العرب، والنبي ﷺ في غزواته التي باشرها مع قريش بخاصة. كان -دائمًا. معه الأساليب المستحدثة التي تمليها ظروف المعركة. فهنا في بدر كان أسلوب الصف هو الأسلوب الأمثل ليقف به صامدًا أمام كر المشركين، وفي "أحد" كان وضع رماة على الجبل، وفي "الأحزاب" كان حفر الخندق. كان هذا الأسلوب الجديد الذي أمر به النبي ﷺ وأتمه الله بهذا الإحسان للمسلمين، كان هو الأسلوب الذي استعد به النبي ﷺ ليلقى قريشًا في هذا اللقاء. هذا الأسلوب له ميزات عظيمة في الدفاع، وفي الهجوم.

قضى المسلمون هذه الليلة في هذه الأمنة من الله ﷻ ولم يكن قائمًا يصلي في هذه الليلة إلا رسول الله ﷺ فالكل كان نائمًا، والنبي ﷺ قضى هذه الليلة ضارعًا إلى الله ﷻ أن يرزقه النصر، وأن ينجزه ما وعد، ولما أذن الفجر صلى المسلمون الفجر مع النبي ﷺ وبدأ القوم يستعدون لاستقبال صباح هذا اليوم المبارك.

فالنبي ﷺ أعد جنده، وأصدر أوامره إليهم بما يجب عليهم أن يتبعوه في مباشرة قتالهم، فأمرهم ألا يبدءوا بقتال حتى يؤذنهم، وإذا أكسب المشركون المسلمين، فما عليهم إلا أن ينضحوهم بالنبل، وأمرهم أن يستبقوا نبلهم حتى لا يكون هناك هدر فيه، وهذا الأمر الذي استقبل به المسلمون يومهم هذا يدل على الالتزام وعلى الانضباط العسكري الذي كان في صفوف المسلمين تحت هذه القيادة الواحدة قيادة النبي ﷺ.

ب. مبيت المشركين ليلة القتال:

أما المشركون فإن ليلهم كان ليل نكد على الرغم من كثرة عددهم وعدتهم، فإن الله ألقى في قلوبهم الخوف والهلع، وبخاصة لما علموا ممن أفلت من سقاتهم بأن المسلمين أخذوا بعض الرواة والسقاة منهم.

يحكي لنا حكيم بن حزام، وقد أسلم > وكان مع المشركين -ما يزال ليلتئذ- يقول: فلما علمنا بذلك وكنا نعد الشواء في خباء لنا، ذهب عنا الطعام، فما أصبحت لهم لذة، بل إن الخوف شملهم جميعًا، حتى إن منبهًا بن الحجاج ليقول: لم يبق الخوف لنا مبيتًا، لا بد أن نموت أو نميت، وفي رواية أخرى لم يبق الجوع لنا مبيتًا.

كيف؟ وكانت عندهم الجزائر قد نحورها عشر جزائر في هذه الليلة استعدادًا لاستئناف يوم للقتال، ولكن مع هذا ألقى الله فيهم الخوف والجوع والهلع.

ومشى حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة يقول له عما كان في هذه الليلة من أمرهم، فيقول له عتبة: لم أر مسيرًا مثل هذا المسير الذي سرناه، فكان اليأس والغم شاملًا عند هؤلاء الناس، وهذه الليلة التي قضيت في فزع وهلع منهم جاءها صباح نكد عليهم.

انتقلوا في الصباح من العقنقل -الكثيب الذي كانوا وراءه- إلى بطن الوادي استعدادًا للقاء المسلمين.

الاستعداد للمعركة، وصف الصفوف، وعتبة وبداية المعركة

لما رأى النبي ﷺ المشركين دعا عليهم، واستغاث بربه وقال: ((اللهم إن هذه قريش أقبلت تحادك، وتكذب رسولك، فاللهم أحنهم الغداة)) أي: أهلكهم هذا الصباح.

ثم إنه ﷺ أخذ يصف الرجال بقدح كان في يده التزامًا بأمر الله ﷻ الذي أوحاه إليه، وهداه إليه ﷺ ونزل في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

وهنا باشر النبي ﷺ صف رجاله، حتى إنه لم يسمح لسواد بن غزية -وكان بارزًا من الصف- فدفعه بقدح كان في يده -والقدح هو السهم الذي لم ينصل بدن السهم نفسه- فقال سواد للنبي ﷺ: أوجعتني يا رسول الله، فأقدني من نفسك فكشف النبي ﷺ عن بطنه الشريف فأكب سواد على بطن النبي ﷺ يقبله، فلما سأله النبي ﷺ عن هذا؟ قال: يا رسول الله، لقد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمس جلدي جلدك.

ثم إن قريشًا من جانبها بعثت عميرًا بن وهب الجمحي ليحزر المسلمين: أي ليقدر عددهم، فجال بفرسه حول معسكر المسلمين، ثم رجع وأخبرهم بأن المسلمين نحو من ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو يقلون قليلًا، ثم قال لهم: أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين؟ كأنه استقل هذا العدد، ثم أبعد في الوادي، ثم رجع فقال: لا كمين، ولكني "رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة، ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل

منهم حتى يقتل منكم فإن أصاب منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فرووا رأيكم".

فلما سمع حكيم هذا الكلام توجه إلى عتبة في محاولة أخيرة حتى يدعو إلى العودة والرجوع بالناس، فاستجاب عتبة لهذا الأمر، ومشى في الناس يدعو لذلك الأمر حتى إن النبي ﷺ قال: ((إن يكن في القوم خير، ففي صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا))، ولكن لم يأذن الله لهم بأن يرشدوا، وإنما تبعوا أمر أبي جهل الذي سعى سعيه لكي يتم هذا اللقاء الذي أراده الله ﷻ.

هنا في بداية الأمر انسل رجل من المشركين، وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق، وقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة < فضربه بسيفه فبتر ساقه، ولكن الرجل حاول أن يزحف ناحية الحوض، فأتبعه حمزة بضربات أجهزت عليه.

وهكذا كان هذا الخارج بلا هدف له قيمة في بداية المعركة مجرد استعراض، وبعدها كان حكيم قد وصل إلى أبي جهل ليعرض عليه ما اقترحه على عتبة الذي قال له: والله إني لا أخاف إلا ابن الحنظلية -يقصد أبا جهل- فإنه لا يشجر الناس غيره، فلما ذهب إليه، قال له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، حتى يرجع بالناس.

وهنا استشاط أبو جهل غضبًا وقال: انتفخ والله سَحره حين رأى محمد وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه.

وهنا بعث إلى عامر بن الحضرمي الذي قتل أخوه عمرو في نخلة، فقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف، وصرخ: واعمراه!! واعمراه!! فحميت الحرب حينئذ.

أما عتبة فإنه لما بلغه قول أبي جهل: انتفخ، والله سحره. قال: سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ ثم اندفع هذا الرجل الذي كان يمثل العقل الراجح في القوم، والذي قال عنه النبي ﷺ: ((إن يكن في القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر)) فاندفع غاضبًا ودعا أخاه شيبة، وابنه الوليد، وخرج يطلب المبارزة؛ فخرج من المسلمين شباب من الأنصار، ولكن الرجال أبوا إلا أن يقاتلهم ويبارزهم رجال من بني عمومتهم من المهاجرين، وهذا ما وجد رغبة عند النبي ﷺ كما قال ابن كثير: إن النبي ﷺ كره أن يكون في أول لقاء من المسلمين قتلى أو مصابين من الأنصار، فآثر أن يكون الخارجون من بني قرابته، بل من أوثق الناس صلة به عميه عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب، ثم ابن عمه علي بن أبي طالب، فأمرهم بالخروج للمبارزة.

بدأت الحرب بهذه المبارزة، وبارز عبيدة عتبة لأنهما كانا أسن القوم، وبارز حمزة شيبة، وعلي الوليد، لأن علي والوليد كانا شابين، هذا ما تكاد عليه الروايات؛ وإن كان البعض يقول: بأن شيبة قاتله عتبة، والبعض يقولون قولًا غير هذا.

ولكن على أية حال انتهى هذا اللقاء الأول من المبارزة بمقتل عتبة، وشيبة، والوليد، وجرح عبيدة بن الحارث في ساقه.

ولكن علي وحمزة كرا على عتبة أو على من كان من نصيب عبيدة في المبارزة فقتلاه، وأجهزا عليه، وهنا انتهت هذه المبارزة بهذا الفأل السيئ على المشركين. فها هم أربعة رجال منهم، ومن أشرافهم كانوا يمثلون بداية سيئة لهم.

ثم حمي الوطيس وبدا أن القتال على وشك الوقوع، بل قد وقع فعلًا، وكرت جموع المشركين على صفوف المسلمين الذين التزموا بالثبات الذي أمرهم به النبي ﷺ بأسلوب الصف الذي أعدهم به هذا الأسلوب الذي كان مفاجأة في أمر هذا القتال، وجعله الله سببًا في تحقيق النصر على المشركين، وهو أسلوب مناسب للدفاع، لأن المسلمين ما كان عليهم في هذا اللقاء إلا أن يلتزموا أسلوب الدفاع، فكان هو الأسلوب الأمثل لهذه المعركة.

ولما رأى النبي ﷺ ذلك اشتدت ضراعته لله ﷻ فتوجه إليه بخالص الدعاء: ((اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد)) حتى إن أبا بكر لما رأى النبي ﷺ يجتهد في الدعاء قال له: بعض مناشدتك ربك يا نبي الله، فإن الله منجز لك ما و عد، ثم خفق رسول الله ﷺ خفقة، ثم انتبه، وهو في العريش، وبشر أبا بكر بمدد الله ﷻ بالملائكة التي أرسلها الله ﷻ مددًا كريمًا من السماء- ليثبتوا المؤمنين، وليباشروا معهم أمر القتال والمعركة.

وقد كان أبا جهل قد استفتح بالدعاء فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح، والمصاب بسوء دعائه.

ومن ناحية أخرى فإن النبي ﷺ حينما بدأ الالتحام طلب من علي أن يناوله كفًّا من الحصباء، فأخذه، ورماه في وجوه القوم، فما من رجل إلا أصابت عينه من هذه الحصباء.

وقـال ﷺ : ((شـاهت الوجـوه)) وأمـر أصـحابه بالثبـات في القتـال، ولمـا باشـر المشركون كرهم على المسلمين، وثبت المسلمون مرة من بعد مرة، كان هذا الأمر دافعًـا إلى ثبـاتهم، وإلى تحقيـق النـصر، وإلى فـشل هـذه الكـرات الـتي باشـرها المـشركون بهـذا العـدد وهـذه العـدة الـتي جـاءوا بهـا، فقـد كانـت معهـم الخيـل، والكثرة من الرجال والكثـرة مـن الـسلاح أمـام هـذه الفئـة القليلـة العـدد، ولكنهـا الكثيرة بإيمانها، القوية بيقينها، الملتزمة بأمر رسولها ﷺ.

أفلح هذا الأسلوب الذي أمر به النبي ﷺ وهو -أسلوب الصف- الذي انكسرت على صلابته حدة هجوم المشركين، ولما فشلت جموعهم في أن تحقق نـصرًا علـى هذه الفئة القليلـة، هنـا أمـر الـنبي ﷺ أصـحابه أن يـشدوا علـى القـوم، فتبعـوهم وحقق الله لهم النصر المؤزر عليهم، وسقطت هذه الجموع، سقط منها من سقط ممن تبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون.

وهنا -في هذه حومة الوغى هذه- سقطت رءوس كان لها شأنها في المعركـة منـهم أبو جهل -لعنه الله- الذي قاد الناس بغيه وضلاله إلى هذا المصير المشئوم، ونـرى من قتل ذلك الرجل الذي كان له شأن كبير في مكة، وهو الذي قـاد هـذه الجمـوع كلها، قتلـه شـابان مـن الأنـصار همـا: معـاذ بـن عمـرو بـن الجمـوح، ومعـوذ بـن عفـراء، يقـول عبـد الـرحمن بـن عـوف > فيمـا يرويـه البخـاري: أنـه كـان في الصف، ووجد شابين عن يمينه، ويساره، يسألانه عن أبي جهل، فلما سـألهما: لماذا تسألان عنه؟ قالا: إنه كان يسب رسول الله، وأنهما قد عاهدا الله ألا يرجعا إلا بعد أن يقتلاه أو يقتلا دونه، فلما رأى عبد الرحمن بن عوف أبا جهـل وسـط قومه في مثل الحرجة كلهم أحاط بأبي جهل ليمنعوه، قالوا: أبو الحكم لا يخلص إليه، لأنه كان في عزوة من قومه بني مخزوم.

وهنا حاول هذان الشابان أن يتسللا إلى ذلك الفرعون، فتمكنا منه فكانا -معاذ بن عمرو بن الجموح- أول من ضرب أبا جهل فأطاح ساقه، يقول: فطاحت كما تطيح النواة تحت مرضخة النوى، ثم مر بأبي جهل -وهو عقير- معوز بن عفراء، فضربه حتى أثبته، وبقي به رمق، وهنا بعد انتهاء المعركة قال النبي ﷺ من ينظر لنا ما فعل أبو جهل، فقام عبد الله بن مسعود > مستجيبًا لأمر النبي ﷺ وذهب يبحث في القوم، حتى وجد أبا جهل في رمقه الأخير، وهنا صعد على صدره فقال له: لقد ارتقيت مرتقًا صعبًا يا رويعي الغنم، وسأله: لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله، وقال له: لقد أخزاك الله يا عدو الله. قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه -أي: أعار على رجل قتلتموه؟ وهنا أجهز ابن مسعود على أبي جهل.

فقد اشتركا هذان الشابان من الأنصار ثم عبد الله بن مسعود > وذهب ابن مسعود ليبلغ النبي ﷺ بأمر مقتل أبي جهل فسجد النبي ﷺ سجود شكر لله ﷻ أن قتل هذا الفرعون، فرعون هذه الأمة.

ورجل آخر كان له شأن هو الآخر في مكة هو أمية بن خلف، يحكي أيضًا أمر قتله عبد الرحمن بن عوف > يقول: كانت معي أدراع غنمها من سلب القوم، فرآه أمية بن خلف، وكان معه ابنه علي، وهذا بعد نهاية المعركة -لأن جمع الأدارع يدل على أن المعركة قد انتهت- فرآه أمية بن خلف فناداه حتى يكون أسره وأسر ولده، فطرح عبد الرحمن الأدرع التي كانت معه وأخذ بالرجلين أمية، وابنه، وذهب بهما إلى حيث يجمع الأسرى، وهنا رآهما بلال بن رباح، فقال: أمية بن خلف رأس الكفر لا نجوت إن نجا، فهب وصرخ في الأنصار، ولكن بعد أن حاول عبد الرحمن أن يمنع بلالًا أن يمس أسيريه، ولكن بلالًّا صرخ

في الأنصار، وقال: أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا، واستحث عليه الأنصار وشبابهم، فاجتمعوا على الرجلين فقتلوهما، وانتهوا من أمرهما.

هذا مقتل رجل آخر من رجالات قريش وغيرهم كثيرون من الرجالات الذين كان لهم شأن في مكة؛ ولكن قادهم هذا المصير المحتوم إلى هذه المعركة التي جاءوها بطرًا ورآء الناس، فكانت هذه عاقبتهم عاقبة السوء.

ومن الذين قتلوا أبو البختري ابن هشام، الذي كان النبي ﷺ أمرهم ألا يقتلوه، ولكن المجزر بن زياد لقي أبا البختري، فكف يده عنه، وأراد أن يستأثره، ولكنه أبى إلا أن يقاتل، وكف المجزر عنه، ولكنه لما أبى، وكان معه زميل له، وأراد أن لا يقتل زميله، ولكن المجزر قال له: إنما نهينا عن قتلك، فأبى أبو البختري هذا الأمر، وقاتل، وقتل، فحكى ذلك المجزر للنبي ﷺ وقال: إنه ما قتله إلا بعد أن قاتله وانتهت المعركة بهذا الأمر الذي انكشف فيه المشركون على الرغم مما كان معهم من العدد والعدة.

وكان نصر الله ﷻ لرسوله ﷺ لما أراده الله ﷻ من نصر هذا الدين أمام هذه الجموع التي خرجت بطرًا ورآء الناس، تحاد الله ورسوله، وكان مصيرها هذا المصير؛ لأن الله ﷻ أراد بهذا اللقاء في هذا اليوم أن يظهر الحق كما أراد، ويحق الحق، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون، كان هذا النصر العظيم الذي أحرزه المسلمون بفضل الله ﷻ وبفضل التزامهم بأمر رسول الله ﷺ وبما كان يباشره من إحكام أمر القيادة على هذا النحو الذي كان مثار إعجاب للمتخصصين في النواحي العسكرية.

شهود الملائكة للمعركة، قتلى المشركين، وأسراهم

فالنبي ﷺ لم يكن معزولًا عن المعركة، وإنما كان يجتهد في الدعاء، والضراعة لله ﷻ وكان أيضًا يباشر أمر القتال بنفسه الكريمة ﷺ كما يقول علي بن أبي طالب > أن النبي ﷺ كان يباشر القتال، وكان الصحابة يحتمون به، وأنه لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه ﷺ.

فالنبي ﷺ على الرغم من عظيم الدور والجهد الذي بذله ﷺ في هذه المعركة والإعداد لها بأمر الدعاء الذي كان يضرع فيه إلى الله ﷻ وكان بسببه النصر العظيم من الله ﷻ والذي نزل بأثر هذا الدعاء فضل الله ﷻ ومدده على المسلمين من شهود الملائكة الذين نزلوا في يوم بدر نصرًا ومددًا يباشرون القتال والأسرى مع المسلمين، فهذا الأمر مما اجتمعت عليه الروايات، وجاءت به آيات القرآن العظيم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] كذلك فإن الله ﷻ قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] أي: يتبع بعضهم بعضًا، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

هذه القضية -قضية شهود الملائكة- كانت أمرًا جاءت به الأخبار متواترة، وحكى هذا الأمر المسلمون، وحكاه -أيضًا- بعض المشركين الذين أسلموا بعد ذلك حتى إن ابن عباس > يقول عن رجل من غفار حكى له أنه شهد بدرًا، وكان من غفار من قبيلة كانت قريبة من الموقع، ويقول: كنت أنا وابن عم لي

على جبل قريب من ساحة المعركة، نشاهد أمر ما سيصير إليه الأمر، نشاهد المعركة وننتظر على من تكون الدبرة -يعني الهزيمة- فبينما نحن وقوف على الجبل إذ مرت سحابه فيها أصوات وفيها حمحمة الخيل، فأما ابن عمي فلم يطق سماع هذا الصوت فانكشف قناع قلبه فمات، وأما أنا فتماسكت، وهذا أمر حكاه رجل من غفار.

كذلك يحكي أبو أسيد مالك بن ربعية -وكان شهد بدرًا مع المسلمين- قال: بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى، وحدث رجل من المسلمين قال: إني لأتبع رجلًا من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري.

وتتوالى الروايات عن هذه الأحداث التي كانت لعمل الملائكة في هذا اليوم العظيم، ويعلل العلماء هذا الأمر ويقولون: إن جبريل # بريشة من جناحه قادر على أن يهلك ويبيد هؤلاء المشركين جميعهم، فلماذا كان هذا الجمع من الملائكة؟

هنا أجاب عن ذلك الشيخ تقي الدين السبكي فقال: سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية للأسباب، وسننها التي أجراها الله في عباده، وهو فاعل الجميع سبحانه.

انتهت المعركة على هذا النحو الذي أقر به الله عين نبيه محمد ﷺ بهذا النصر العظيم، على الرغم من أن الكثيرين من صحابة النبي ﷺ كانوا كارهين لهاذ

اللقاء، وكانوا يحرصون على أن تكون القافلة هي الغاية التي خرجوا لها وأحبوا أن تكون غير ذات الشوكة لهم، ولكن هكذا أراد الله ﷻ والله غالب على أمره.

وبعد أن انتهت المعركة، واطمأن قلب المسلمين، وقلب النبي ﷺ على هذا النصر العظيم، وأصبحت عاقبة الأمر خيرًا على المسلمين، وفر المشركون بجموعهم وعادوا في طريقهم ناجين بأنفسهم -هنا كان من أمر النبي ﷺ بعد أن حمد الله ﷻ على هذا النصر، فإنه أمر بأن يطرح قتلى المشركين في القُلب، وكان هذا من سنته وعادته ﷺ أنه كان يستر كل ميت يراه حتى ولو كان مشركًا، فهؤلاء المشركون ما تركهم النبي ﷺ هكذا، وإنما أمر بهم فطرحوا في القُليب وكان قليب من قلب بدر وضع فيه أربعة وعشرون من صناديد قريش هم: أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وكثيرون غيرهم. أما أمية بن خلف فإن المسلمين لما ذهبوا يجرونه كان قد انتفخ في درعه، وكان رجلًا بدينًا سمينًا عظيم الجثة، وكان اليوم حارًّا فانتفخ في درعه فلما ذهبوا ليجروه تزايل لحمه، وانفصلت بعض أعضائه، فتركه المسلمون حيث هو، وألقوا عليه الحجارة، والتراب وواروه في مكانه.

هذه سنة كريمة من سنن الإسلام الذي كرم الإنسان، وكان المسلمون شرفاء في معاركهم حتى في قتالهم حتى مع أعداهم حتى لما ستروا أجسادهم، وجثثهم بعد أن انتهى أمرهم، وكان هذا من سيما الإسلام والمسلمين.

بعد هذه المعركة، وهذا الانتصار العظيم، أقام النبي ﷺ بعرصة بدر أي: بفناء هذه المعركة، وميدانها أقام في بدر ثلاثة أيام حتى يستشعر نعمة الله ﷻ عليه بهذا النصر العظيم، وكانت هذه من سنته ﷺ أن يقيم بالعرصة بعد المعركة ثلاثة أيام، ثم إنه بعدها ﷺ لما عزم على المسير خرج إلى القُليب الذي ألقي فيه صناديد قريش وناداهم بأسمائهم: يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة،

وناداهم جميعًا، ونادى على أبي جهل وغيره من المشركين: ((هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا؟)).

وهنا قال عمر: يا رسول الله، أتكلم أناسًا قد جيفوا -أي: تحللوا في قبورهم؟ فقال النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا ينطقون)). هذه كانت نهاية هؤلاء الرجال الذين كانت لهم مكانتهم، وكانت لهم عزوتهم، وشأنهم في مكة. ها هي قليب واحد تجمع أجسادهم، وجثثهم بعضها فوق بعض؛ فقد وضع الكفر بأمرهم، وضيع الشرك حياتهم.

ثم بعد ذلك توجه النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة، ولكنه قدّم بشيرين أمامه هما: زيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحه؛ بعثهما حتى يبشرا أهل المدينة، ووصل يوم الأحد حين اشتد الضحى، وتوجه كل رجل منهم إلى ناحية من المدينة يبشر أهلها، فجاء عبد الله بن رواحة على راحلته، وجعل ينادي: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج، وأبو جهل، وزمعة ابن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو.

بشرى النصر في المدينة، ونبأ الفاجعة في مكة

أ. بشرى النصر في المدينة:

إن هذا النبأ في هذه الناحية وجد ارتيابًا في قلوب كثير من الناس أو بعض الناس، وبخاصة ممن لم يكن الإسلام قد تعمق في قلبه، وفزع لذلك المناكبون واليهود حينما سمعوا بذلك الأمر، وذلك النصر، حتى إن بعض الصحابة الكرام،

أمثال: عاصم بن عدي قال: قمت إلى عبد الله فنحوته، فقلت: أحقًا ما تقول يا ابن رواحة؟ فقال: إي الله، وغدًا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين، ثم اتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارًا، دارًا والصبية خلفه يشتدون فرحين، ويصيحون قتل أبا جهل الفاسق، وحتى انتهى بلاغ عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية.

أما زيد بن حارثه فإنه قدم على ناقة النبي ﷺ القصواء يبشر أهل السافلة، فلما جاء المصلى جاء على راحلته ينادي ويعدد قتلى المشركين والأسرى منهم، حتى إن كثيرين من الناس ارتابوا، وخاصة المنافقون، حتى إن بعضهم خلا بأبي لبابة بن عبد المنذر وقال: قد تفرق أصحابكم تفرق لا يجتمعون بعده أبدًا، وقد قتل علية أصحابه، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وقد جاء فالًّا -أي: هاربًا. فقال أبو لبابة: يكذب الله ﷻ قولك، وقالت اليهود: كذلك تروج شائعات الكذب ما جاء هؤلاء إلا فالًّا.

حتى قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي فقلت: يا أبي، أحقًّا ما تقول؟ فقال: إي والله يا بني ما أقول إلا الحق، عند ذلك قويت نفس أسامة. يقول: فرجعت إلى ذلك المنافق الذي أرجف بهذا القول فقلت: أنت المرجف برسول الله ﷺ وبالمسلمين، لنقدمنك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم فليضربن عنقك، فقال: يا أبا محمد، إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه.

ثم جيء بالأسرى -من بعد ذلك- وعليهم شقران مولى النبي ﷺ هذا أمر الناس في المدينة حينما جاء خبر النصر العظيم لأهلها.

ب. نبأ الفاجعة في مكة:

أما أهل مكة فإن الخبر المفزع قد جاءهم، وكان أول من وصلهم به هو الحيثمان بن عبد الله الخزاعي، جاء إلى مكة فسألوه: ما وراءك؟ فأخبرهم بالفاجعة،

وأخذ يعدد قتلى أشراف مكة حتى ظنوا به الجنون، حتى إن صفوان بن أمية كان قاعدًا في الحجر يستنكر ما جاء به الحيثمان، فقال مستهزئًا: سلوه عني، فقالوا له: وماذا صنع صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك قاعد في الحجر، ولقد رأيت أباه وأخاه عليًّا حينما قتلا.

ثم جاء كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فتلقاه عمه أبو لهب، فقال له: هلم إليّ يا ابن أخي فعندك لعمري الخبر، فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: أخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله ما ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالًا بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

وهنا تيقن أهل مكة من فادح المصاب، فأخذوا في النواح على قتلاهم هؤلاء القتلى الذين كان لهم شأن في هذا البلد -في مكة- كانوا من ساداتها، بل كانوا سادتها: أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وغيرهم كثيرون من صناديد هذا البلد الذي كان لهم شأن فيها، هذا غير من قتل من قتلى المشركين، لأنه قتل منهم سبعون، وكذلك أسر منهم سبعون.

هذه كانت نهاية الرحلة التي مناهم بها أبو جهل، وقال: إنها طعام بعد نحر الجزور، وشرب للخمر، وعزف للقيان.

تابع غزوة بدر وما بعدها من فداء الأسرى وغيرها من الأمور

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول	:	في ـريق العودة من المعركة	٢١٥
العنـــصر الثـــاني	:	الاختلاف في أمر الفيء	٢١٩
العنـــصر الثالـــث	:	وصيته ﷺ بالأسرى	٢٢١
العنـــصر الرابــــع	:	رد فعل قريش وفداؤهم للأسرى	٢٢٤
العنـــصر الخـــامس	:	نتائج النصر في بدر	٢٢٨
العنـــصر الـــسادس	:	موقف ابن سلول المنافق من بني قينقاع وخروجهم من المدينة	٢٣٣
العنـــصر الـــسابع	:	الإلحاح في العداء للمسلمين في مكة، وخروجه # لغزوة السويق	٢٣٥
العنـــصر الثـــامن	:	تحول قريش إلى ـريق العراق بالشام وملاحقتها بسرية القردة	٢٣٧

في طريق العودة من المعركة

أ. وفاة أبي عبيدة بن الحارث، وقتل النضر بن الحارث:

ها نحن مع رسول الله ﷺ في رحلة الإياب من هذا النصر العظيم، وهذا الظفر الذي كرم الله به هذه الأمة في هذا اليوم العظيم، اليوم الذي فرّق الله فيه بين الحق والباطل يوم الفرقان، وتوجه النبي ﷺ بعد أن أمر بما في المعسكر، فجمع وتوجه المسلمون مع رسول الله ﷺ صوب المدينة.

وعند الصفراء كانت المنية قد أدركت عبيدة بن الحارث متأثرًا بجراحه التي أصابته في مبارزته التي ابتدأت بها المعركة، فدفن بالصفراء.

وفيها أمر النبي ﷺ بضرب عنق رجل كانت له العداوة الواضحة للإسلام ولرسول الله ﷺ وللقرآن، هو النضر بن الحارث، وقد كان أشد قريشًا مبادأة للرسول ﷺ بالتكذيب والأذى، وكان صاحب أحاديث، ونظر في كتب الفرس، والنصارى، واليهود، وكان يكذب النبي ﷺ ويعارض ما يدعو به من القرآن الذي كان يتلوه على أهل مكة ﷺ، فكان يحدث بأساطيره، وأحاديثه معارضًا القرآن، وما يدعو إليه النبي ﷺ، ثم يقول: أينا أحسن حديثًا أنا أم محمد؟ وكان يقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين، ونزل فيه قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١] وهو الذي قال: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وكما اشترى مغنيتين كانتا تغنيان بالأغاني التي تصرف الناس عن دين الله، و عن القرآن الكريم، ونزل فيه قول الله ﷻ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

وكان هذا الرجل يقول: "إنما يعين محمدًا على ما يأتي به جبر غلام الأسود بن المطب، وعداس غلام شيبة، أو عتبة" ولذلك نزل في هذا الأمر قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] ونزل فيه أيضًا قول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

وكان النضر سببًا في أن يرجع رجل من سادات قريش هو أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية الذي كان يحسن القول في النبي ﷺ وكان يقول لقريش: دعوا محمدًا، ولا تعرضوا له، فجاءه النضر بن الحارث، فقال له: إنه بلغني أنك تحسن القول في محمد، وكيف ذلك وهو يسب الآلهة، ويزعم أن آباءنا في النار؟ ومن هنا تحول أبو أحيحة فأظهر العداوة لرسول الله ﷺ وذمه، وقويت بذلك أنفس المشركين بموقف أبي أحيحة هذا حين رجع عن موقفه المؤيد لرسول الله ﷺ متأثرًا بكلام النضر له.

وبعد ذلك أتاه النضر شاكرًا على ذلك بإعظام هذا الرجل في قومه، وكان النضر خطيب القوم، وكان ذهب إلى أهل الكتاب يأخذ منهم ما يجادل به النبي ﷺ.

هذا الرجل وقع في الأسر، وقد أسره المقداد بن عمرو، فأمر النبي ﷺ بهذا الرجل -شديد العداء للإسلام، شديد الإنكار للقرآن- أن يقتل، فضربت عنقه، وكان الذي تولى ذلك علي بن أبي طالب > وهنا قال المقداد بن عمرو: أسيري يا رسول الله، فقال ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله وفي رسوله

ما يقول، ثم قال النبي ﷺ: ((اللهم أغن المقداد من فضلك)) وقد توسل النضر بالمصعب بن عمير، لأنه من بني عبد الدار مثله.

فقال: يا مصعب، أنت أقرب مَن هاهنا لي وأمسهم رحمًا بي، فكلم صاحبك في أن يجعلني كرجل من أصحابه، فقال له: إنك كنت تقول ما تقول، وتفعل كذا وكذا، فقال يا مصعب: ليس هذا الحين حين عتاب، فلو أن قريشًا أسرتك لدافعت عنك، فقال المصعب: أنت صادق، ولكني لست مثلك، إن الإسلام قطع العهود بيننا وبينكم.

هذا الرجل كان -كما رأينا. بعدائه للإسلام استحق هذا المصير، واستحق أن يقتل صبرًا غير مدافعٍ عن نفسه، قتل هذه القتلة المهينة التي كان حريًّا به لموقفه من الإسلام، ومن القرآن، ومن رسول الله ﷺ، هذا، ولقد جاءت ابنته قتيلة إلى النبي ﷺ وأنشدته شعرًا جاء فيه:

أمحمد يا خير ضنئ كريمة ❖ من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ❖ منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من قتلت قرابة ❖ وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال رسول الله ﷺ: أما إني لو سمعت هذا قبل قتله لم أقلته؛ لأنه تأثر بشعرها ﷺ.

وليس معنى هذا أنه ندم ﷺ لأنه لا يقول إلا حقًّا، ولا يفعل إلا حقًّا، وما ينطق عن الهوى.

ولكن معنى ذلك أنه لو جاءت هذه، وشفعت عند النبي ﷺ رحيم القلب بهذا الشعر، لقبل شفاعتها، فإنه ﷺ كان يتأثر بالشعر تأثرًا عظيمًا حينما يسمعه.

وكان ﷺ على الرغم مما كان يناله من الأذى والتكذيب، فإنه كان يصفح ويعفو، وكانت هذه سمته ﷺ.

ب. قتل عقبة بن أبي معيط :

ورجل آخر كذلك كان مصيره هذا المصير، هو عقبة بن أبي معيط الذي كان من أشد الناس أذًى للنبي ﷺ، ففي مكان قريب من الصفراء يسمى "عرق الظبية" قُدم هذا الرجل ليتم فيه أمر الله ﷻ الذي أراده فيه، فأمر # عاصم بن ثابت بن الأقلح بأن يضرب عنقه، وكان هذا الرجل في مكة -كما قلنا. من أشد الناس عداءً، وعداوة للنبي ﷺ، فقد جاءه وهو ساجد عند البيت فوطئ بقدمه عنق النبي ﷺ وطئًا شديدًا، حتى إن النبي ﷺ قال: لقد كادت عيناه أن تندران، وجاء مرة بسلا شاة، والنبي ﷺ ساجد فوضعه بين كتفيه، وكان جارًا للنبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يقول: ((بئس الجوار جوار عقبة، وجوار أبي لهب)).

وهذا الرجل وقع في الأسر حينما جمح به فرسه، وأسره عبد الله بن سلمة، وكان هذا مصيره الذي لاقاه بأمر الله ﷻ، وكان # قد توعده يوم بدر، وقال: ((والله لأقتلنك))، فلما قال: علام أقتل يا معشر قريش من بين هؤلاء؟ قال النبي ﷺ: ((لعداوتك لله ولرسوله))، وكان هذا الرجل قد توعد النبي ﷺ في شعر لما هاجر إلى المدينة ﷺ فقال:

يا راكبًا ناقة القصواء هاجرنا ❖ عما قليل تراني راكب الفرس

أعل رمحي فيكم ثم أنهله ❖ والسيف يأخذ منكم كل ملتبس

هذان الرجلان اللذان قدما لهذا المصير الذي كان يستحقانه كان على هذا النحو الذي رأينا.

وعلى الرغم مما عرف عن النبي ﷺ من رقة القلب، إلا أنه كان أمام أمثال هؤلاء المعادين لدين الله ولرسوله ولقرآنه، ما كانت تأخذه هوادة في ذلك الأمر، وكان # لما نظر إلى تعامله مع الأسرى، وما أمر به أصحابه { كيف يعاملونهم؟ وكيف منّ على بعض الأسرى، وكيف كان يعض على الإحسان إليهم.

كل هذا نراه من شيمة الكرم والخلق الرفيع منه ﷺ، ولكنه # ما اشتد هنا إلا في موضع الشدة والحزم الذي كان لا بد أن يباشره النبي ﷺ وهو الذي ما ينطق عن الهوى، وما يفعل إلا ما يأمر الله ﷻ به ويرضاه.

الاختلاف في أمر الفيء

ثم إن هناك أمورًا كانت يجب أن تراعى بعد هذه المعركة وهي من توابعها:

أول هذه الأمور هو: أمر الفيء والنفل الذي منّ الله به على هؤلاء المؤمنين بعد أن منّ عليهم بنصره سبحانه، وكان هذا من الأمور التي ثار حولها الخلاف بين المسلمين في هذه المعركة، فقد اهتم جماعة من المسلمين بجمع ما في المعسكر من السَلَب والنفل والغنائم، فقد كان معروفًا أن من قتل قتيلًا فله سلبه، ومن أسر أسيرًا فهو له، أما هذه الأشياء التي جمعها بعض المسلمين ممن شغلوا بهذا الأمر، ظن هؤلاء أن ما جمعوه إنما هو لهم، ولم يكونوا كل من في المعسكر، ولا كل من باشر المعركة، فلقد كان هناك من تابع العدو يقتل ويأسر وينفي العدو عن ميدان المعركة.

وكان هناك أيضًا جماعة تولوا أمرًا كان في غاية الأهمية، وهو حراسة النبي ﷺ في عريشه الذي كان يدير منه المعركة حذر أن يكر العدو على العريش، فيصيبون النبي ﷺ بأذى، هكذا توجست جماعة من المسلمين الخوف على النبي ﷺ، وكان منهم سعد بن معاذ > .

هنا وجدنا الخلاف يدب بين هؤلاء وأولئك، فالذين جمعوا هذا السلب وهذا النفل قالوا: هو لنا قد كان رسول الله ﷺ نفل كل امرئ ما أصاب، وقال الذين

كانوا يقاتلون العدو ويتبعونه: لولا نحن ما أصبتموه، نحن شغلنا القوم عنكم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ مخافة أن يخالف إليه العدو، والله ما أنتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نقتل العدو إذ ولانا الله ومنحنا أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ كرة العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منا، وهكذا تعددت وجهات النظر حول هذا الأمر، ونزل قول الله ﷻ يفصل في القضية لقوله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وقد سأل أبو أمامة الباهلي > عبادة بن الصامت > عن الأنفال؟ فقال: نزلت فينا -معشر أصحاب بدر- حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من بين أيدينا، فجعله إلى الله ورسوله فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء -أي: على السواء- فكان في ذلك تقوى الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين، وهنا نرى بأن النبي ﷺ قسّم هناك النفَل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء، وتمت إرادة الله ﷻ وفصله في هذه القضية.

ثم إنه ﷺ ارتحل من هذا المكان بعد أن قسّم النفَل على السواء بين المسلمين متوجهًا إلى المدينة، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه، وقد علموا من البشيرين الذين وصلا إلى المدينة بهذه البشرى، وهذا الفضل العظيم من الله ﷻ، فعملوا على أن يلقوا النبي ﷺ بالروحاء، فلما جاءوا يهنئونه # قال سلمة بن سلامة بن وقش: وما الذي تهنئون به، فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعقرة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: ((يا بن أخي أولئك الملأ لو أنك رأيتهم لهبتهم)).

وهنا نرى إحساس رسول الله ﷺ بهذه النعمة، لأنه ورد أنه قال بعد ذلك منبهًا على ألا يزّهد الإنسان في نعمة من نعم الله ﷻ وهي نعمة النصر على أمثال هؤلاء الذين كانت لهم مكانة في مكة وكان لهم أثرهم في مقاومة الدعوة، وكان فضل الله عظيمًا في هلاك هؤلاء القوم.

هنا واصل النبي ﷺ مسيره إلى المدينة التي دخلها من ثنية الوداع، وكان دخوله ﷺ يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من رمضان قبل مجيء الأسارى بيوم.

وتصف كتب السيرة موقفًا للسيدة سودة بنت زمعة < حينما رأت سهيل بن عمرو لما جاء مجموعة يداه إلى عنقه، فلما رأته، وكانت من قبل في مناحة آل عفراء على عوف، ومعوذ ابني عفراء، اللذين استشهدا في بدر، قالت -وكان ذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب. ثم تقول سودة < : والله إني لعندهم إذ أوتينا فقيل هؤلاء الأسارى قد أوتي بها، قالت: فرحت إلى بيتي، ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية من الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قالت: فوالله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: يا أبا يزيد أعطيتم بأيديكم، ألا متم كرامًا؟ فوالله ما نبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: يا سودة أعلى الله وعلى رسوله تحرضين؟ قالت: قلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، أن قلت ما قتلت، واستغفرت من ذلك.

وصيته ﷺ بالأسرى

هنا كان أمر الأسارى من الأمور التي شغلت النبي ﷺ، فقد سبق أن أمر أصحابه بأن يستوصوا بالأسارى خيرًا، فرقهم في أصحابه ﷺ، وكان أبو عزيز بن عمير أخو المصعب بن عمير > كان في الأسارى، فقال أبو عزيز: أنه نزل في جماعة من الأنصار، وكان حين أقبلوا بي من بدر كانوا إذا قدموا غداءهم

وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية النبي ﷺ إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسها، هنا نجد إيثار الأنصار، وإكرامهم، لهؤلاء الأسارى.

انظر إلى هذه الآداب وهذه الأخلاق الكريمة التي باشر المسلمون تعاملهم مع الأسارى على هذا النحو، كأمر رسول الله ﷺ وما دمنا مع أبي عزيز هذا، فإنه لما رآه أخوه المصعب في يد آسره قال له: اشدد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعله أن تفتديه منك بما تريد، قال أبو عزيز: أهذه وساطتك بأخيك يا أخي قال له: إن هذا أخي دونك.

إنه ينظر إلى أخوة الإسلام ويقدمها على أخوة النسب والدم.

هنا كان هذا الأمر من الرسول ﷺ قبل أن يناقش مع أصحابه ويشاور أصحابه، ماذا يصنع معهم؟

إنها أمور ما عاهدها المسلمون قبل ذلك، أمر الفيء كما نرى، وكان فيه الخلاف كذلك؛ أمر الأسارى ماذا يفعلون معه؟

فهنا ظهرت الآراء من كبار الصحابة، فتكلم أبو بكر، وقال: يا رسول الله أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان استبقهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك، فيكون لك عضدًا.

قال الرسول ﷺ متوجهًا إلى ابن الخطاب: فما تقول يابن الخطاب؟

فقال عمر: يا رسول الله قد كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، لا أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علي من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه حتى يضرب عنقه حتى

ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم، وقادتهم فأضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى.

ثم كان هناك رأي للأنصار، وهو رأي عبد الله بن رواحة، قال: يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارًا حتى يكون في ذلك هلاكهم.

دخل رسول الله ﷺ بيتًا ليرى أي رأي يأخذ به، وقال الناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال بعضهم: يأخذ بقول عمر، وقال بعضهم يأخذ بقول عبد الله بن رواحة.

فخرج النبي ﷺ إليهم فقال: "إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم في الأنبياء قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثل عيسى بن مريم إذ قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] ومثلك يا عمر في الأنبياء مثل نوح إذا قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾" [يونس: ٨٨].

لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عاله، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق فقال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت النبي ﷺ فقال عبد الله: فما رأيتني في يوم أخاف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء.

هكذا رأينا النبي ﷺ يأخذ برأي الرأفة والرحمة الذي أشار به أبو بكر > وأرضاه، ولكن في اليوم التالي جاء عمر > إلى رسول الله ﷺ فوجده مع أبي

بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: ((إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب، لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة لشجرة كانت قريبة منه ﷺ)) ونزل قول الله ﷻ:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وهنا فصلت هذه الآية الحكم في أمر هؤلاء الأسرى، وهؤلاء الأسرى ظلوا في المدينة، تحدوهم هذه الرعاية التي وصى بها النبي ﷺ حتى تحركت مكة لكي تفدي أسراها.

رد فعل قريش وفداؤهم للأسرى

وكان أمر أهل مكة -بادئ ذي بَدء- لما جاءهم الخبر بمقتل من قتل منهم وأسر من أسر كان ذلك مصابًا عظيمًا على قلوبهم، فمكثوا ينوحون على قتلاهم مدة، ثم تواصوا فيما بينهم، وقالوا: لا تفعلوا، حتى لا يبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بكم، وكذلك تواصوا ألا يسرعوا في بذل الفداء للأسرى، وقالوا: لا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء، أي حتى لا يبالغ المسلمون في أمر الفداء، وكان هذا من تمام ما عذب الله أحياءهم في ذلك الوقت.

فإن البكاء والتعبير عن مكنون الفؤاد من الهم والأسى مما يخفف لوعة الأسى في الصدور، ولكنهم كبتوا ذلك الأمر في قلوبهم، إذا كان هذا من ناحية قتلاهم،

فإن أمرهم مع أسراهم فإنهم تواصوا على ألا يبادروا كما رأينا ولكنهم لم يطيقوا صبرًا على ما اتفقوا عليه، وانسل بعضهم واحدًا تلو الآخر يريدون فداء أسراهم، حتى إن أبا وداعة بن ضبيرة السهمي، وكان في أسارى القوم قال النبي ﷺ: إن له بمكة ابنًا كيسًا تاجرًا ذا مال، وكأنهم به قد جاء في طلب فداء أبيه، فلما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أساراكم، قال المطلب بن أبي وداعة: صدقتم لا تعجلوا، وكان هو أول من نقض هذا، فانسل من الليل وقدم المدينة، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وكان هذا أول أسير فدي من أسارى قريش، ثم بعثت قريش بعد ذلك في فداء أساراهم، وبعد ذلك قدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو، وكان سهيل من كبار الرجال الذين تم أسرهم، وكان النبي ﷺ حينما عاد من الطائف بعد أن ذهب إليها طلب أن يدخل مكة في جوار سهيل بن عمرو، بعث إليه وإلى الأخنس بن شريق، وبعث إلى المطعم بن عدي، فلم يجب إلا المطعم، هنا هذا الرجل أسير مع أسارى قريش، وقد جيء به كما رأينا وكما رأته السيدة سودة بنت زمعة مجموعة يداه إلى عنقه، هذا الرجل الذي لم يجب طلب النبي ﷺ حينما بعث إليه في وقت هذه الشدة التي كان يمر بها النبي ﷺ واستجاب لهذا الطلب المطعم بن عدي.

نجد هنا النبي ﷺ يقول: لو أن المطعم بن عدي حي لوهبت له هؤلاء النتنى، يقصد الأسارى.

هنا نجد أن النبي ﷺ كان يقول: لو أن المطعم حي، وطلب هؤلاء الأسارى لوهبهم له ﷺ وها هو رجل من الرجال الثلاثة هو سهيل، نراه حتى في عداد الأسرى على هذا النحو المهين، لو أنه قدم تلك اليد للنبي ﷺ لنفعته في ذلك اليوم الشديد الذي هو فيه.

ونجد أن عمر بن الخطاب > قال: يا رسول الله دعني أنزع ثنية سهيل، وكان أعلم الشفة العليا -أي مشقوق الشفة العليأ. فأراد عمر أن ينزع ثنيته حتى لا يقدر أن يتكلم، لأنه كان خطيبًا، حتى إذا ذهب يتكلم اندلع لسانه، ولكن النبي ﷺ قال: لا أمثل حتى لا يمثل بي، ولو كنت نبيًّا وعسى أن يقوم مقامًا تحمده له يا عمر، وقد حدث ذلك حقًّا وتحققت نبوءة ما قال به النبي ﷺ حينما قام ذلك الرجل بعد أن أسلم، وبعد أن بلغ أهل مكة نبأ وفاة النبي ﷺ، قام هذا الرجل ليشد من أزر المسلمين والإسلام في مكة بما قام يحفز الناس على الثبات على الدين، ويقول: إذا كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت، هذا الرجل جاء صديقه مكرز بن حفص ليقوم بفدائه.

كذلك كان من الأسارى العباس بن عبد المطلب وهو الذي عرض الأنصار أن يتنازلوا عن فدائه، ولكن النبي ﷺ أبى من ذلك، وأخذ من عمه الفداء، وألزمه بفداء ابني أخويه عقيل، وهنا نجد أن النبي ﷺ يقف موقفًا لا محاباة فيه مع عمه العباس > وأصر على أن يأخذ الفداء منه ومن ابني عمه وألزم عمه العباس بذلك.

وأيضًا كان من الأسارى أبو العاص بن الربيع زوج بنت النبي ﷺ زينب < وهي التي بعثت في فدائه مالًا كان فيه قلادة أعطتها أمها السيدة خديجة < لها، فلما رآها النبي ﷺ رق لها، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا لها قلادتها.

فهنا نرى الالتزام ونبذ المحاباة في التعامل حتى مع أمس الناس برسول الله ﷺ عمه وابني عمه وزوج بنته ﷺ.

لكنه # كان أخذ على أبي العاص بن الربيع أن يبعث زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ فوفى أبو العاص بذلك، ورجعت زينب، كما سنرى بعد ذلك.

وهنا على الرغم من تشدده ﷺ بأخذ الفداء من أمس الناس رحمًا به لأنهم أغنياء، إلا أننا نرى أنه # منّ على أناس من المشركين، ومنهم أبو عزة الشاعر، فكان هذا الرجل من أسارى قريش وقد شكا للنبي ﷺ فقره وعوزه فمنّ عليه النبي ﷺ على ألا يظاهر عليه بشعره أحدًا، وأخلى سبيله، ولكنه عاد فألّب بشعره على النبي ﷺ وعلى المسلمين، وكان من أبواق الدعاية في الجمع غزوة بدر، ولكنه وقع أسيرًا بعد أن خالف ما عاهد عليه النبي ﷺ، وكان جزاءه القتل في غزوة أحد.

وكان من الأسارى -كذلك- وهب بن عمير بن وهب الجمحي الذي حذر المسلمين قبل بداية المعركة، وكان هذا الرجل من شياطين العرب، وشياطين قريش شديد الإيذاء للرسول ﷺ وأصحابه بمكة، وكان جلس يومًا بعد الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب قريش ببدر، فقال عمير: والله لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة لركبت إلى محمد فأقتله، فإن ابني أسير عنده، فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال له: عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عليّ قال: سأفعل، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر بن الخطاب > في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، وما أكرمهم الله به إذ نظر إلى عمير قادمًا، وقد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا وحذرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله ﷺ فأخبره به فقال له # : أدخله عليّ فأقبل به عمر آخذًا بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله، فلما رآه النبي ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال أرسله يا عمر، ثم قال: ادن يا عمير فدنا

فقال له: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا، قال اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا فتحمّل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، والله أعلم.

نتائج النصر في بدر

نحن الآن نعيش في المدينة مع رسول الله ﷺ معاش أهلها ممن تلقوا هذا النبأ، نبأ الانتصار الذي كان له وقعه فرحًا دائمًا على قلوب المؤمنين وغمًّا مستطيرًا على قلوب المشركين واليهود الذين كانوا في المدينة يعايشون النبي ﷺ وهؤلاء الذين لم يقبلوا ولم يستسيغوا أمر هذا النصر العظيم كانت لهم ردود أفعال معادية للإسلام على المستوى الفردي والمستوى الجماعي فالمشركون الذين كانوا ما يزالون على شركهم من أهل المدينة أغمهم هذا النبأ، نبأ الانتصار، كذلك اليهود ونجد بأن اليهود أظهروا عداءهم للنبي ﷺ وكان ذلك واضحًا في يهود بني قينقاع وهؤلاء سنتناول أمرهم غيرهم من بعض اليهود الفرادى مثل كعب بن الأشرف وأبي عفك كان لهم رد فعلٍ في هذا الأمر.

فكعب بن الأشرف لما سمع بما برجال قريش وسمع هذا عند مجيء البشيرين زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وهما يعددان من قتل ومن أسر قال: لئن كان حقًّا ما يقول هذان الرجلان لبطن الأرض خير من ظهرها، ثم إنه لما تيقن له ذلك خرج حتى أتى مكة ونزل على عبد المطلب بن أبي وداعة وعمل على أن يحرض قريشًا وينعى من قُتل من رجالها فقال في شعرٍ:

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ❖ ولمثل بدر تستهل وتدمع

قتلت سراة الناس حول حياضهم ❖ لا تبعدوا إن الملوك تصرع

كم قد أصيب به من ابيض ماجد ❖ ذي بهجة يأوي إليه الضيع

ويسير في شعره حتى يقول:

نُبّئت أن الحارث بن هشامهم ❖ في الناس يبني الصالحات ويجمع

ليزور يثرب بالجموع وإنما ❖ يحمي على الحسب الكريم الأروع

هذا فيه تحريض على النبي ﷺ وفي هذا مخالفة لأمر الصحيفة التي تعاقد فيها أهل المدينة واليهود منهم على وجه الخصوص مع النبي ﷺ ألا يناصروا قريشًا وألا يعينوا عدوًّا على النبي ﷺ ولا على المسلمين وها هو كعبٌ يناقض ما اجتمعت عليه كلمة اليهود في هذه الصحيفة فهو هنا مخالف، ولما رجع إلى المدينة أخذ يشبب بنساء المسلمين، ويحرض على النبي ﷺ وممن نالهم بشعره بالأذى أم الفضل زوج العباس عم النبي ﷺ التي قال فيها شعرًا مقذعًا قال فيه:

أراحلٌ أنت لم تحلل بمنقبة ❖ وتارك أنت أم الفضل بالحرم

صفراء وازعة لو تُعصر انعصرت ❖ من ذي القوارير والحناء والكتم

إحدى بني عامر جُنّ الفؤاد بها ❖ ولو تشاء شفت كعبًا من السقم

إلى غير ذلك في أبيات خالف فيها وجاوز فيها الحد في الكلام والتشبيب بنساء المسلمين، وكان لا بد لكي يردع أمثال هؤلاء أن يدعوا النبي ﷺ لمن يقف هذا الإنسان عند حده، فدعا لذلك سعد بن معاذ الذي وجه محمد بن مسلمة ليقوم لقتل هذا الرجل الذي خالف واستحق أن يجازى هذا الجزاء فكان قتله على يد جماعة مسلمة خرجت لهذه المهمة هذا مثلٌ من الأمثلة الفردية التي ظهر منها العداء للنبي ﷺ.

غير هذا امرأة اسمها عصماء بنت مروان كانت أول من نالهم الأذى والجزاء الرادع من المسلمين فكان هذا في رمضان قبل خمس ليالٍ من هذا الشهر شهر رمضان الذي كانت فيه وقعة بدر هذه المرأة التي قالت شعرًا هي الأخرى تحرض فيه على النبي ﷺ وتقول:

أطعتم أتاوي من غيركم ❖ فلا من مراد ولا مزحة

ترجونه بعد قتل الرءوس ❖ كما يرجى مرق المنضج

والأتاوي: الغريب تقول أطعتم رجلًا غريبًا تقصد به النبي ﷺ، فانبرى لها رجل مسلم هو عمير بن عدي بن خَرشة من قومها من بني خطمة لما بلغه هذا القول، قال: اللهم إن لك علي نذرًا لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنها وكان النبي ﷺ ما يزال في بدر لم يرجع بعد فلما رجع رسول الله ﷺ من بدرٍ جاءها عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها فقتلها بسيفه وهي بين بنيها في فراشها فلما أصبح وخرج يصلي مع النبي ﷺ صلاة الصبح نظر إليه النبي ﷺ وقال له: أقتلت بنت مروان قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله وخشي عمير أن يكون قد افتات على النبي ﷺ بقتلها، ولكن النبي ﷺ قال قولًا علم منه عمير رضا رسول الله ﷺ بما فعل بهذه المرأة التي أعلنت بالعداء للنبي ﷺ وللإسلام وللمسلمين.

كذلك هذا الرجل اليهودي وهو أبو عفك الذي كان من الذين ظهر عداؤهم للإسلام واضحًا وكان شيخًا كبيرًا في السن ولكن ما زاده هذا إلا عتوًّا وعنادًا وإصرارًا للكفر وحبًّا للموت عليه والله أعلم.

هذا الرجل قال شعرًا يحرض فيه كذلك على الإسلام والمسلمين يقول :

قد عشت وما إن أرى ❖ من الناس دارًا ولا مجمع

أجم عقولًا وآتى إلى ❖ منيب سراعًا إذا ما دعا

فسلبهم أمرهم راكب ❖ حرامًا حلالًا لشتى معا

يعرّض بذلك باتباع المسلمين من أهل المدينة للنبي ﷺ، ولذلك انبرى له رجل مسلم هو سالم بن عمرو بن بني النجار وقال: علي نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، فترقب هذا الرجل المسلم فرصةً من هذا الرجل حتى قتله في ليلة صائفة فكان ذلك جزاء وفاقًا لذلك الرجل الذي عادى رسول الله والإسلام والمسلمين.

هنا نجد أنه على المستوى الفردي داخل المدينة هذه الأحوال التي كانت نتيجة لوقع نبأ انتصار النبي ﷺ والمسلمين في بدر وكان هناك أمرٌ جماعيٌّ هو ما قام به بنو قينقاع وهؤلاء كانوا أول يهود غدروا بعهدهم مع النبي ﷺ فلما علم بهم النبي ﷺ ونزل جبريل # يقول: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨] قال النبي ﷺ: "فأنا أخاف بني قينقاع" وحقيقة كان هؤلاء اليهود وكانوا أشجع يهود، وكانوا أول من غدر وخالف ما عاهدوا رسول الله ﷺ عليه في أمر الموادعة التي وادع فيها اليهود ليعيشوا في المدينة مع المسلمين، فذهب إليهم ووعظهم وقال لهم: احذروا معشر يهود أن ينزل بكم ما نزل بقريش، فقالوا: يا محمد تظن أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت رجالًا لا بصر لهم بالحرب، فإنك إذا لقيتنا سوف تعلم أنا نحن الناس.

كان هذا الكلام بعد أن وعظهم النبي ﷺ وذكرهم ونزل في هذا القرآن العظيم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٢- ١٣] وهنا لما علم النبي ﷺ هذا الأمر من أمرهم، نبذ إليهم على سواء.

وكان من الأمر الذي دفع إلى أن يخرج إليهم النبي ﷺ بعد نحو من شهر من غزوة بدر وكان ذلك في النصف من شوال من السنة الثانية للهجرة: أن امرأة من المسلمين جاءت إلى سوق بني قينقاع بجلب لها فباعته، ثم جلست إلى صائغ يهودي من بني قينقاع تشتري منه بعض الأشياء، فراودوها عن كشف وجهها حتى يكلموها، ولكنها أبت فعمد الصائغ إلى أن يطلب من رجل منهم أن يعقد طرف ثوبها إلى نطاقها فشكه بشوكة فجمع طرف ثوبها إلى نطاقها، فلما قامت المرأة انكشفت سوءتها فصرخت استجارت بمن يقف بجانبها من المسلمين، وهنا رآها شاب مسلم رأى ما حدث لهذه المرأة المسلمة، فضرب اليهودي بسيفه فقتله، فاجتمعت اليهود على هذا المسلم فقتلوه.

وهنا توجه النبي ﷺ إلى بني قينقاع وحاصرهم، وعمل على أن يقاتلهم فلما اشتد الحصار عليهم وألقى الله في قلوبهم الرعب، نزلوا على حكم النبي ﷺ فأمر بهم فربطوا وكانوا يكتفون كتافًا، واستعمل النبي ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السالمي.

موقف ابن سلول المنافق من بني قينقاع، وخروجهم من المدينة

فمر بهم عبد الله بن أبي بن سلول وقال: حلوهم. فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ والله لا يحلهم رجلٌ إلا ضربت عنقه، فتوجه عبد الله بن أبي بن سلول إلى النبي ﷺ وقال له: يا محمد أحسن في موالي، وكان بنو قينقاع من الذين حالفوا الخزرج، فإن الفئات الثلاثة من اليهود في المدينة بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة حالف بنو قينقاع الخزرج وحالف بنو النضير وبنو قريظة الأوس، هنا أعرض النبي ﷺ عن عبد الله بن أُبي بن سلول لما طلب منه ذلك فكرر عليه، وقال يا محمد: أحسن في موالي أربعمائة دارع وثلاثمائة دارع وأربعمائة حاسر منعوني من الأحمر والأسود وإني امرؤ أخشى الدوائر، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ فقال له: ويحك أرسلني فقال: لن أرسلك حتى تحسن في موالي فقال: هم لك على أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا على أن تكون أموالهم للمسلمين.

وقد كانت بنو قينقاع يعملون في الصياغة، فقد كانوا صاغة ولم يكونوا كبني النضير لهم أراضون يزرعونها، وكانوا أي بنو النضير مشهورين باستنباط أنواع جيدة من النخل، أما بنو قينقاع كما عرفنا لم يكن أمرهم في الزراعة وإنما كان في الصناعة، وقد تركوا آلات كثيرة وأسلحة كثيرة وآل ذلك كله للمسلمين.

وهنا رأينا كيف تشبث عبد الله بن أبي بن سلول في شفاعته لهم حتى وهبهم النبي ﷺ له لأنه كما عرفنا رجل لم يكن مؤمنًا كامل الإيمان وإنما رأس الكفر والنفاق في المدينة، وهذا ما جعله يرتاع لأمر بني قينقاع، ويتشبث حتى ينال الأمان لهم من النبي ﷺ.

وإذا كان عبد الله بن أبي بن سلول على هذا الأمر من التشبث في الدفاع عن هؤلاء الكفرة من اليهود، فإن موقفًا آخر لرجلٍ من الخزرج هو عبادة بن الصامت الذي كان له من حلف اليهود مثل ما كان لابن سلول، ولكنه رجلٌ مؤمن كامل الإيمان لم يكن موقفه منهم كموقف ابن سلول وإنما خلعهم وتبرأ إلى الله ﷻ منهم وإلى رسوله ﷺ وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، ونزلت آيات سورة المائدة تؤكد هذين الموقفين موقف الكفر والنفاق وموالاة أعداء الله وموقف الإيمان الصادق الذي ظهر من عبادة بن الصامت > يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢] وتمضي الآيات وتذكر أن الولاية الحقة لله ولرسوله وللمؤمنين يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[المائدة: ٥٥- ٥٧]

هكذا نزلت هذه الآيات تسجل موقف الكفر والموالاة لأعداء الله وموقف الإيمان الذي يجب على المؤمن أن يتخذه في موالاة الله ورسوله والمؤمنين، وهذا ما تعلق بأمر هؤلاء اليهود الذين آل أمرهم إلى أن يخرجوا من المدينة وقد خرجوا منها متوجهين إلى أذرعات بالشام. ويحدث الربيع بن صبرة عن أبيه قال: إني لبالفلجتين وهي من أودية العقيق بالمدينة مقبل من الشام إذ لقيت بني قينقاع يحملون الذرية والنساء فسألتهم فقالوا: أجلانا محمد وأخذ أموالنا، قلت: فأين

تريدون؟ قالوا: الشام ثم إنهم لما نزلوا بوادي القرى، أعانهم اليهود فيها لأنهم على ملة واحدة فحملوا من كان راجلًا منهم وقووهم على المسير فسار بنو قينقاع إلى أذرعات، فكانوا بها، فما كان أقل بقائهم فيها والله أعلم.

كان لهذه الأمور التي حدثت في المدينة من هذا الجزاء الذي نزل بأعداء الإسلام فرادى وجماعات كان له مرده على أحوال المشركين الذين كانوا ما زالوا على الكفر فيها ممن تركهم النبي ﷺ ولم يقهرهم على الدخول في هذا الدين، ولذلك سارع أمثال هؤلاء إلى إعلان الإسلام وأن يبطنوا الكفر في نفاق عاشوا به مع النبي ﷺ ومع المسلمين، هكذا أذل الله الشرك والمشركين واليهود في المدينة، وكان من أمر هذا كله أن أعلن عبد الله بن أبي بن سلول إسلامه ظاهرًا ونافق وكان رأس النفاق في المدينة.

الإلحاح في العداء للمسلمين في مكة، وخروجه ﷺ لغزوة السويق

أما الأمر في مكة فإن أهلها في هذه الفترة وبعد بدر قد آل أمرهم إلى أن تكون زعامتهم واحدة تحت قيادة أبي سفيان الذي كان توجهه عائدًا بالقافلة قبل بدر، لكأنه كان عودًا إلى تولي منصب القيادة في مكة، فعادت الحال كما كانت عليه من قبل بسيادة الرجل الواحد كأيام عبد المطلب وهاشم وقُصي بعد أن حصدت بدرٌ هذه الرءوس من الصناديد الذين كانوا على درجة تكاد تكون متساوية في الزعامة والمكانة في مكة، ولذلك كانوا كثيرًا ما تقع المخالفات بينهم، ننظر إلى أمرهم الآن وقد أصبح سيد الأمر في مكة هو أبو سفيان بن حرب، هذا الرجل أصبح الآن سيد مكة بلا منازع، وهنا ملاحظة وهو أن هذا الرجل يمثل فرع بني عبد شمس، بعد أن كانت سيادة مكة في هاشم ومن بعده أخيه المطلب وابنه عبد

المطلب ثم أبي طالب، هنا هذا الرجل توجهت الأنظار إليه في أن يقود أهل مكة في مرحلة الثأر من المسلمين، ولذلك نجد بأن أبا سفيان أخذ على نفسه عهدًا، ونذر ألا يمس رأسه دهن أو ماء غسل من جنابة حتى يغزو محمدًا والمسلمين، ولذلك عمل على أن يفي بهذا النذر ولكأن ما أصاب أهل مكة قد أصابه هو شخصيًّا وأن النذر عليه في أن يثأر لهم بهذا الذي نذره.

فخرج في مائتي راكبٍ من قريش حتى نزل نواحي المدينة عند جبلٍ يقال له: (ثيب) هو من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير، وأتى حُيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له فتوجه إلى سلام بن مِشكَم ففتح لهم، وقراهم واستضافهم وسقى أبا سفيان خمرًا وأخبرهم من أخبار النبي ﷺ والمسلمين ودلهم على بعض أحوالهم وفي هذا مخالفة كذلك لما عاهد عليه النبي ﷺ اليهود ولما عاهدوه عليه في الصحيفة، وهنا يمكن أن نستدل بأنه كان اتفاق سابق بين أبي سفيان وبين زعماء بني النضير، حيث أنه نزل عليهم مباشرة ولم ينزل على غيرهم، ولما كان بالسَحَر من هذه الليلة خرج فمرّ بالعريض وهو واد بالمدينة فوجد رجلًا من الأنصار مع أجير له في حرثه فقتلهما، وأحرق بيتين بالعريض، وحرَّق حرثًا، ثم إنه بعد ذلك رأى أنه قد بر بيمينه وأنها قد حلت فذهب عائدًا فارًّا راجعًا إلى مكة، وخاف هو ومن معه طلب المسلمين إياهم لأن النبي ﷺ لما علم بأمرهم خرج في أثرهم، ولذلك جعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون من أحمالهم فكانوا يلقون جرب السويق وهو طعام المسافر هو شعير وبرٌ يقلى ثم يطحن فيلتّ بماء أو سمن أو عسل طعامًا يسيرًا للمسافر، وكانت هذه الجرب عامة زادهم، فجعل المسلمون يمرون بها فيأخذونها ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة السويق لهذا الشأن. وكانت هذه الغزوة في شهر ذي الحجة من هذه السنة الثانية للهجرة.

تحول قريش إلى طريق العراق بالشام وملاحقتها بسرية القردة

أمور أخرى ترتبت على غزوة بدر والانتصار فيها في أحوال أهل مكة فإنهم خافوا طريقهم إلى الشام ولذلك تحدث صفوان بن أمية إلى أبي سفيان فيما آل إليه أمرهم بعد أن عوَر المسلمون عليهم طريق متجرهم إلى الشام فاقترح على أبي سفيان أن يتوجهوا في تجارتهم إلى طريق بعيدة عن المسلمين وعن المدينة فاقترحوا طريق العراق فقالوا: إن هذا الطريق لا يعرفونه فدلهم على من يقودهم فيه هو فرات بن حيان، استقر رأي أهل مكة على ذلك الأمر لكن كان في مكة في ذلك الوقت رجل هو نُعَيم بن مسعود الذي علم بذلك الأمر فحكاه لصديق له في المدينة وكان من المسلمين فذهب هذا الرجل المسلم إلى النبي ﷺ، وأخبره بما عزمت عليه قريش من تغيير طريقها إلى الشام بالمرور عن طريق العراق.

أعد النبي ﷺ سرية جعل قيادتها في زيد بن حارثة، فخرج زيدٌ ليعترض هذه القافلة التي خرج فيها أبو سفيان بن حرب، وكان معهم مالٌ كثير وتجارة كان أغلبها من الفضة فاعترضهم عند القَرَدة واستولى على هذه القافلة وعاد إلى النبي ﷺ والله أعلم.

كانت هذه السرية في جمادى الأولى في السنة الثالثة من الهجرة وأصاب المسلمون فيها مالًا كثيرًا، وكانت غنيمة كبيرة ذكرتنا بغنيمة نخلة، وقد كانت هذه أعظم منها في قيمتها إذ غنم المسلمون غنيمة كبيرة خمسها النبي ﷺ فبلغ خُمسها خمسة وعشرين ألفًا، وقسم الباقي على رجال السرية، وأسر فرات بن حيان فيمن أسر فعرضوا عليه الإسلام فأسلم وحسن إسلامه.

هذه تجربة قريش في محاولة الفرار أو سلوك طريقٍ آخر غير طريق الشام ولذلك نجد بأن حسان بن ثابت > يبكّتهم في ذلك الأمر ويقول لهم :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ❖ جلادٌ كأفواه المخاض الأوارك

بأيد رجالٍ هاجروا نحو ربهم ❖ وأنصاره حقًّا وأيدي الملائكِ

إذا سلكت للغور من بطن عالجٍ ❖ فقولا لها ليست الطريق هنالك

ها هي مكة أصبحت مهددة في كل طريق تذهب فيه بتجارتها عن طريق الشام حدث لها ما حدث وفي هذا الطريق حدث لها كذلك ما حدث وعلم النبي ﷺ بأمرهم وكان ما كان من أمر هذه السرية.

استعانة قريش بحلفائها نواحي نجد وطريق العراق على المسلمين، وخروجه # لذلك في غزوتي قرارة وذي أَمَر:

هنا نجد أمرًا جديدًا سيترتب بعد غزوة بدر لما رأت قريشٌ أن النبي ﷺ حالف أهل الطريق عليها الذين كانوا في طريقهم إلى الشام نواحي المدينة أو نواحي ساحل البحر الأحمر من قبائل جُهينة وبني ضمرة وبني مدلج وغيرهم، ولذلك لما كان فكر أهل مكة أن يتوجهوا إلى الشام عن طريق نجد ومنها إلى العراق ثم إلى الشام، أرادت أن تستغل قبائل هذه المناطق أو أهم قبائل فيها وهم بنو سُليم وغطَفان الذين كانوا حلفاء لقريش يستخدمونهم في تأمين متاجرهم إلى العراق، وقد وثق القرشيون ما بينهم وبين سُليم وغَطَفان وأغروهم بمحاربة النبي ﷺ الذي كان من سياسته الحكيمة في محاربة هذه القبائل، هو مبدأ المبادأة، فما إن كان يعلم بعزمهم على حربه أو حينما كان يسمع # بتجمع لهم يريدون أن ينتقصوا فيه من أطراف المدينة أو من أطراف أحواز المسلمين فإنه # كان يسرع ويبادر بالخروج إليهم ليريَهم قوة الإسلام والمسلمين، وقد أثمرت هذه السياسة

ثمرتها لما كان النبي ﷺ يخرج إليهم أو إلى قوم منهم كان يترتب على ذلك أن يلقي الله الرعب في قلوبهم فيفروا إلى رءوس الجبال أو إلى أماكن بعيدة فيعود النبي ﷺ غانمًا منتصرًا، قد كفاه الله وكفى المؤمنين شر القتال، بل إن هذه القبائل التي دخلت في معونة قريش على المسلمين، ما كان يصيبها إلا هذه الخسائر التي كانت تحيق بهم من غزو النبي ﷺ إلى بلادهم وإلى أراضيهم.

غزوة قَرارة الكُدْر:

ومن الغزوات التي خرج لها النبي ﷺ في هذا السبيل غزوة قَرارة الكُدْر وكانت إلى بني سُليم وغطفان في النصف من المحرم من السنة الثالثة للهجرة غاب فيها النبي ﷺ خمس عشرة ليلة.

وكان الذي بعثه على أمر هذه الغزوة ودعا لها المسلمين أنه # كان قد بلغه أن جمعًا من غطفان وسليم فسار إليهم # ، وأخذ عليهم الطريق حتى جاء فرأى آثار النَعم ومواردها ولم يجد في المجال أحدًا، فأرسل في أعلى الوادي نفرًا من أصحابه، واستقبلهم رسول الله ﷺ في بطن الوادي فوجد رعاءً فيهم غلام يقال له: يسار، فسألهم عن الناس فقال يسار: لا علم لي بهم، فانصرف النبي ﷺ بالناس عائدًا إلى المدينة، وقد ظفر بالنَعم وانحدر إلى المدينة، واقتسموا هذه الغنائم بصرار على ثلاثة أميال من المدينة، وكانت النَعم خمسمائة بعير خرج خمسه لرسول الله ﷺ وقسمت الأربعة أخماس على من خرج مع النبي ﷺ فكان نصيب كل رجلٍ بعيرين لأنهم كانوا مائتي رجل خرجوا مع النبي ﷺ. وقد كان يسار الذي كان من الرعاء في هذا المكان كان في سهم النبي ﷺ فأعتقه ذلك أنه # رآه يصلي.

غزوة غطَفان أو ذي أَمَر:

أيضًا غزوة أخرى هي غزوة غطفان أو ذي أَمَر وكانت في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة، حيث تجمع بنو ثعلبة ومحارب وهما حيان من غَطَفان يريدون الغارة على المدينة، فخرج إليهم النبي ﷺ في أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة عثمان بن عفان، فلما سمعت الأعراب بمسيره ﷺ رُعِبوا وفروا وسار المسلمون حتى وصلوا إلى ماء لهؤلاء القوم يسمى (ذا أمَر) فعسكروا به وبينما كان المسلمون على حالهم هذه أمطرت السماء مطرًا غزيرًا، فابتُلت ثياب النبي ﷺ فذهب إلى شجرة بمنأى عن المعسكر، ونشر عليها ثيابه وشُغل المسلمون بشئونهم.

وهنا رأى المشركون أن ينالوا من النبي ﷺ غرةً فأرسلوا رجلًا منهم شجاعًا يسمى (دُعْثور) فذهب هذا الرجل إلى حيث النبي ﷺ فما شعر به النبي ﷺ إلا وهو قائم على رأسه، السيف مشهورًا في يده، فقال: يا محمد من يمنعك مني فقال النبي ﷺ: الله، وهنا سقط السيف من يد الرجل، فأخذه النبي ﷺ ورفعه عليه، وقال له: من يمنعك مني فقال الرجل: لا أحد فكن خير آخذ، فعفى النبي ﷺ عنه فما كان من هذا الرجل إلا أن أسلم، وتعهد لرسول الله ﷺ ألا يكثر عليه جمعًا وعاد إلى قومه فأخبرهم الخبر، ودعاهم إلى الإسلام وقيل: إنه نزل في هذه الحادثة قول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١] هذا ما تعلق بأمر الجهاد والأحداث التي أعقبت غزوة بدر التي رأينا أن لها آثارًا عظيمة في قلوب المؤمنين وفي قلوب أعداء المؤمنين وأعداء الإسلام من يهود وأعراب لكن الله ﷻ نصر رسوله ودينه وأولياءه والله غالب على أمره.

غزوة أحد

عناصر الدرس

العنصر الأول	: أسباب غزوة أحد، وموقف الرسول ﷺ مما عزمت عليه قريش	٢٤٣
العنصر الثاني	: خروجه ﷺ في نحو ألف رجل، رجع ابن سلول بثلثهم	٢٤٦
العنصر الثالث	: الاستعداد للمعركة، واستثارة حماس الرجال بنيل سيفه # ونجاح الخطة وانكشاف المشركين وفرارهم، ومخالفة الكثير من الرماة	٢٤٨
العنصر الرابع	: أثر مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ وإدارة المعركة ساعة المحنة	٢٥٢
العنصر الخامس	: توجهه # إلى "أحد" يصعد فيه في جماعة من أصحابه	٢٥٧
العنصر السادس	: بسالة المؤمنين ساعة المحنة في القتال وفي الدفاع عنه # دور نساء المؤمنين في المعركة	٢٥٨
العنصر السابع	: أمثلة المشركات في المسلمين، والتأكد من مسير قريش صوب مكة	٢٦٠
العنصر الثامن	: شهداء أحد؛ دفنهم، والثناء عليهم، عودة النبي ﷺ إلى المدينة	٢٦٢

أسباب غزوة أحد، وموقف الرسول ﷺ مما عزمت عليه قريش

أ. قريش تخرج برجالها ونسائها في "أُحد" للثأر من المسلمين:

فنحن الآن مع غزوة من أهم الغزوات التي غزاها النبي ﷺ وهي غزوة أحد التي كانت على أصح الأقوال يوم السبت، للنصف من شوال من السنة الثالثة للهجرة، وكانت هذه الغزوة نتيجة لانتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر، فقد مضت هذه السنة الماضية منذ أن علمت قريشٌ بنبأ مقتل رجالها وأُسِرَ من أُسِرَ، وكانت هذه الهزيمة تمثل لطمةً قاسيةً على قريشٍ؛ ولذلك أخذت قريشٌ تعد العدة للانتقام، والثأر من المسلمين، حيث إن أشراف قريش مشوا إلى أبي سفيان، وطلبوا منه أن يحبس أرباح هذه القافلة التي نجا بها حتى تكون عدة لجيش يثأر لقريش مما نزل بها من المسلمين، فوافق أبو سفيان، وحبس هذا المال في دار الندوة، وأخذ يعد العدة لهذا الانتقام، وعملت قريشٌ على أن يجمعوا الجموع لقتال النبي ﷺ واستنفار حلفائهم من القبائل المنتشرة حول مكة من كنانة، وأهل تهامة وعبئوا القوى لهذا الاستنفار، وسعى صفوان بن أمية إلى أبي عزة الشاعر الذي كان بوقًا من أبواق الدعاية، ونذكر أنه مَنَّ عليه النبي ﷺ يوم الأسر في بدر على ألا يظاهر عليه أحدًا، فأبى الرجل في أول الأمر، ولكن ما زال صفوان به حتى وافق على أن يشارك بشعره وتحريضه على قتال النبي ﷺ والمسلمين، فنقض بذلك عهده، وما زالت قريش تجمع الجموع حتى أعدت جيشًا بلغ تعداده نحوًا من ثلاثة آلاف رجل منها، من حلفائها ومن أعراب كنانة وتهامة، وهنا اقترح بعضهم أن يخرجوا بالنساء لِيُحَمِّسْنَ الرجال على القتال، فكان من أسعى الناس في هذا صفوان بن أمية، ولكن بعضهم لم يرضَ بهذه الفكرة حتى لا ينال النسوةَ أذًى مما لا تحمد عقباه لو كانت الدائرة على

المشركين، ولكن كان أغلب الناس ممن لهم رأي في مكة مؤيدًا على أن تخرج النساء، بل إن بعض النسوة كان لهن إصرارٌ على الخروج، وكانت أحب النساء في هذا هند بنت عتبة التي قتل أبوها وأخوها وعمها في ساعة واحدة في بداية المعركة في بدر، وخرجت النسوة، وخرج الرجال في جمع عظيم على خلاف ما كانت الحال عليه عند الخروج في بدر، خرجوا أولًا للقافلة، وقد نجت فتفرقت الكلمة وتعدد الزعامات، أما هنا فإن الكلمة كانت واحدة تتطلب الثأر من المسلمين، والقيادة واحدة تمثلت في أبي سفيان الذي آلت إليه الزعامة في قريش والسيادة فيها بعد مقتل الرجالِ الكبارِ في مكة في بدر، خرج الجميع متجهين صوب المدينة وكان لديهم إصرار شديد؛ لأن العدد كان وافرًا؛ كذلك العدة مائتان من الخيل، وكذلك الرجال بسلاحهم معهم ثلاثة آلاف بعيرة لركوبهم وطعامهم ما كان يعوزهم شيء، فكل أسباب الانتصار كانت معهم، وبخاصة وحدة الكلمة، والإصرار على القتال وعلى الثأر، وعلى أيةِ حالٍ خرجَ هذا الجمع متجهًا إلى المدينة حيث وصلوا إلى ذي الحليفة بعد نحوٍ من عشرة أيام من خروجهم من مكة، وصادف ذلك يوم الخميس ثم تابعوا سيرهم حتى نزلوا ناحية أحد، وأطلقوا خيلهم وإبلهم في زروع المسلمين من أهل المدينة، وعلم النبي ﷺ بأمر هذا المسير من أول الأمر حين بعث إليه عمه العباس مع رجلٍ من غفار يذكر له ما عزمت عليه قريش.

ب. الرسول ﷺ يبلغه الخبر، ويستشير أصحابه في ذلك:

بلغ النبي # الخبرُ وهو في قباء، فقرأ الكتاب عليه أبي بن كعب فاستكتمه الخبر، وبعث أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة حتى يتعرفا على قريش، وعلى ما جاءت به، فنزل الرجلان، ورجعا للنبي ﷺ يخبرانه بهذا الأمر، كما أنه # بعث الحباب بن المنذر؛ ليقف له على أمر قريش بعد أن نزلت نواحي أحد، أصبح

الأمر واقعًا لا شك فيه، وعلم أهل المدينة بالخبر واستوعبوه، وأحسوا بالخطر، وباتت وجوه الأوس والخزرج في عدتهم ليلة الجمعة عليهم السلاح في المسجد بباب الرسول ﷺ حتى لا يناله أحد بأذى، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا وحتى لا يؤخذوا على حين غرة، وفي الصباح -صباح يوم الجمعة- وفي هذا اليوم العظيم أخبر النبي ﷺ أصحابه أنه رأى رؤيا في تلك الليلة، وأنه رأى بقرًا تذبح له وأنه أصاب سيفه ثلمًا، وأنه أدخل يده في درع حصينة فأول ذلك المدينة.

كان من عادته # في أمثال هذه المواقف وغيرها أن يشاور أصحابه؛ لأنهم الرجال الذين سوف يقاتل بهم عدو الله، فلما عرض عليهم الأمر وجمع وجوه المهاجرين والأنصار، وحضر معهم عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأي النبي ﷺ المقام في المدينة والتحصن بها فإن هم دخلوا عليهم قاتلوهم، وكان هذا رأي شيوخ المهاجرين والأنصار، كما أن هذا الرأي أيده عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين، كان هذا هو الرأي الذي أحبه النبي ﷺ ورغب فيه، ولكن الكثيرين من الأنصار بخاصة ولا سيما الشباب ممن لم يشهد بدرًا، قالوا: يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا وضعفنا، ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب فقال: والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم، وصلى رسول الله ﷺ الجمعة، ثم وعظ الناس وذكرهم، وحثهم على الثبات والصبر، ثم دخل بيته فلبس لأمته -أي عدة الحرب. وكان ذلك

على غير رغبة منه ﷺ ولكنه # استجاب لرأي الأغلبية من المسلمين الذين أحبوا الخروج.

هنا نلاحظ أمرًا وهو: أن الأنصار الذين عاهدوا النبي ﷺ في بيعة العقبة على أن يمنعوه داخل المدينة، هم الذين يصرون بل أكثرهم هم الذين أصروا على أن يخرجوا إلى عدوهم خارج المدينة، وهنا نلاحظ هذه الملاحظة الجديدة بعد أن خرجوا من عند أنفسهم واختاروا أن يقاتلوا مع النبي ﷺ في بدر على بعد نحوٍ من مائة وستين كيلو مترًا من المدينة، هذا تغيير حصل في حياة الأنصار، سنرى تطورًا له بعد ذلك من حبهم الخروج في غزوات النبي ﷺ وفي سراياه بعد ذلك.

خروجه ﷺ في نحو ألف رجل، رجع ابن سلول بثلثهم

خرج النبي ﷺ وقد لبث لأمته واستعد للحرب والمسير، وهنا أحس أولئك الذين أشاروا بالخروج بأنهم استكرهوا رسول الله ﷺ على أمر لا يحبه، فقالوا: استكرهناك يا رسول الله فإن أردت المقام فأقم، فقال النبي ﷺ في صرامة أمرٍ: ((ما كان لنبي لبث لأمته أن ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه))، هنا نلاحظ أنه # أعطى للمسلمين أسوةً بأنه لا تردد في الأمر، وأذَّنَ مؤذنُ رسولِ الله ﷺ بالخروج، فخرج في ألف من أصحابه، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ثم عقد الألوية، وأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وسار الجيش، وهنا اقترح بعد الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود؛ فأبى النبي ﷺ وقال: ((إنا لا نستعين بكافر على مشرك)) هكذا لأن القضية قضية الدين، ولما وصلوا إلى الشوط وهو مكان بين المدينة وأحد؛ انخذل عبد الله بن أبي سلول بنحو من ثلث

الجيش وقال: أطاع الصبيان وعصاني، علام نقتل أنفسنا أيها الناس؟ ورجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والشك، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام -والد جابر- فقال: يا قومي أذكركم الله، لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ما حضر. فقالوا: لا نعلم قتالًا ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. فلما استعصوا عليه قال: أبعدكم الله أعداء الله؛ فسيغني الله عنكم نبيه ﷺ وفي هؤلاء المنخذلين، نزل قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٦، ١٦٧]. ولما رجع ابن أبيّ وأصحابه؛ همت طائفتان من المسلمين من الأوس ومن الخزرج أن يرجعا كما رجع ابن سلول بمن معه، وهم بنو سلمة وبنو حارثة، ولكن الله ﷻ ثبتهما وعصمهما، وفي ذلك نزل قول الله ﷻ: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]. والأمر وصل إلى حدٍّ صعب؛ فقريش بعددها وعدتها نواحي أحد، والمسلمون بمن بقي مع النبي ﷺ نحوٌ من السبعمائة من الرجال متجهون ناحية العدو.

وفي مكان يسمى بـ"الشيخين" عسكر النبي ﷺ واستعرض الرجال معه، فَرَدَّ من لا يطيقُ الحرب من ناشئة المسلمين أمثال: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير... وغيرهم. وكان من هؤلاء الناشئة: رافع بن خديج، وكان راميًا فأجازه النبي ﷺ لذلك، ولما قيل له: إن سمرة بن جندب يصرع رافعًا، فقال النبي ﷺ: ((تصارعا)) فصرع سمرة رافعًا؛ فأجازه رسول الله ﷺ.

هنا نرى تسابق الشباب المسلم الصادق وحرصهم على الجهاد في سبيل الله ﷻ ونذكر في هذا المقام الذي أصر عليه الشباب في أن يشاركوا موقف عمير بن أبي وقاص -أخي سعد. الذي بكى لما رده النبي ﷺ في بدر، فأجازه ﷺ.

هذه التربية التي ربى عليها النبي ﷺ شباب المسلمين وناشئتهم رجال الإسلام الذين أعز الله بهم دينه.

الاستعداد للمعركة، واستثارة حماس الرجال بنيل سيفه # ونجاح الخطة، وانكشاف المشركين وفرارهم، ومخالفة الكثير من الرماة

أ. النبي # يصفّ الصفوف، ويوصي الرماة:

توجه النبي ﷺ مع من أجاز من الرجال من أصحابه حتى وصل # إلى الشعب من أُحد، فجعل ظهره وعسكره إلى الجبل، وقال: لا يقاتلن أحدٌ حتى آمره بالقتال، وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصف الصفوف، وبوأ كل فريق مكانه، وأمّر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير، وكان معلمًا بثياب بيض، وكانوا خمسين رجلًا وأوصاهم بقوله: ((انضحوا بالنبل عنا، لا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم)) وفي هذا نزل قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١]. وكان الموقع والتخطيط الذي سار عليه النبي ﷺ أنه نظَّمَ صفوفَ الرجال معه جاعلًا ظهورهم إلى جبل أحد، ووجوههم مستقبلة المدينة، ثم إن الرماة كانوا على

جبل يسمى جبل "عينين"، وهو جبلٌ صغير مقابل لجبل أحد لحماية ظهور المسلمين من التفافِ خيالة المشركين عليهم، وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش الذي كان يواجه أحدًا وظهره إلى المدينة، وأصبح الأمر على مشارف القتال والالتحام، وربما تدل بعض الروايات إلى أنه حدثت مبارزة بدأت بها المعركة كما كان في بدر.

ب. أبو عامر الفاسق يستعدي قريشًا على المسلمين:

وكانت قبل بداية المعركة هناك محاولة فاشلة لرجلٍ عدوٍ لله وللإسلام هو أبو عامر الفاسق الذي كان يسمى أبا عامر الراهب، كان هذا الرجل من الأوس وذهب إلى مكة في جماعة من أصحابه، واستعدى قريشًا على النبي ﷺ بعد أن خرج من المدينة مغاضبًا ومعاديًا لله ولرسوله، وأخذ يؤلب قريشًا على المسلمين، هذا الرجل مكث في مكة طويلًا لم يخرج معهم في بدر، وإنما خرج معهم في أحد، ووعد قريشًا بأن قومه من الأوس سوف ينضمون إليه حينما يدعوهم إلى ذلك، ويخرجوا من صفوف المسلمين، ولكنه لما بدأت المعركة حاول هذا الرجل أن يجرب ما وعد به قريشًا فنادى على قومه، وقال: يا معشر أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، فلما سمع ردهم عليه، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالًا شديدًا ورماهم بالحجارة.

ج. النبي ﷺ يبعث في المسلمين روح المنافسة:

أصبح الموقف حاسمًا، وهنا أخذ النبي ﷺ يحمس رجاله ويحثهم على الثبات، ورفع ﷺ سيفه، حتى يبعث فيهم روح المنافسة، وقال: ((من يأخذ هذا السيف)) فتبادر القوم لهذا التكريم، لكنه # قال: ((من يأخذ هذا السيف

بحقه)) فأحجم الكثيرون، ثم تقدم أبو دجانة > وهو سماك بن خرشة، فقال: يا رسول الله، وما حقه؟ قال: ((أن تضرب به العدو حتى ينحني)) قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فأخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: ((إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)).

د. قريش تصفّ الصفوف، ونساؤهم يحمسن الرجال:

ثم إن قريشًا عبأت جيشها وتصافوا للقتال، وكان معهم -كما عرفنا. مائة فارس، على الميمنة منهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وكان على المشاة صفوان بن أمية، وكان حامل لوائهم طلحة بن عثمان من بني عبد الدار. وقال أبو سفيان -من ناحيته- محمسًا أصحاب اللواء حتى يستثير حميتهم: يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل رايتهم إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فهموا به وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا غدًا، إذا التقينا سترى كيف نصنع، وهذا ما أراده أبو سفيان -والله أعلم.

ومن ناحية أخرى: فقد كان للنساء اللائي صحبن الرجال من قريش في هذه الغزوة دورٌ واضح في تحميس الرجال، حتى إنهن كن يضربن بالدفوف، ويتجولن بين الصفوف، ويحرضن على القتال ويقلن:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق ❖ أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وامق: أي غير كاره.

وهنا يدب الحماس في صفوف المشركين الذين قدموا هذه المسافة الطويلة ؛ ليثأروا لمن قتل منهم في بدر، ثم التحم الجيشان وحمي الوطيس، وتعانقت السيوف، وحملت فرسان المشركين على المسلمين مرات متتالية.

هـ. انكشاف المشركين وفرارهم، ومخالفة الرماة لأمر النبي # :

وكان لخطة النبي ﷺ التي أحكمها بتوفيق الله ﷻ أثر واضح في أن تنكسر حدةُ هذه الهجمات الشديدة العنيفة من فرسان المشركين، فكان للرماة دور واضح في ردهم على أعقباهم مرة من بعد مرة، فكانوا ينكصون على أعقابهم، ومما مكن المسلمين من أن يتابعوا القتال في ملاحقة المشركين الذين انكشفوا عن مواقعهم ؛ لأنهم كانوا يعتمدون على دور الفرسان اعتمادًا كبيرًا، ولكن لما لم يتمكن الفرسان من أن يفعلوا شيئًا، وبخاصة إذا كان فيهم مثل: خالد بن الوليد كان هذا مما يدل على أثر الخطة الحكيمة التي وضعها النبي ﷺ لمواجهة هذا الموقف الشديد، ولم تلبث الحال حتى تابع المسلمون المشركين يردونهم على أعقابهم يأخذونهم بالقتل والدفع أمامهم حتى انكشف الرجال، وولولت النساء.

ويصف الزبير بن العوام > هذا الموقف يقول: لقد رأيت نساء قريش وفيهم هند بنت عتبة مشمرات مسرعاتٍ ما دون أخذهن قليل ولا كثير، حتى ترك الرماة مواقفهم التي أمرهم النبي ﷺ أن يلزموها، فنزلوا فكانت الدائرة على المسلمين ؛ لأن خالدًا لما قال له صفوان بن أمية مستحثًّا له أن يفعل شيئًا فقال له: بأنه لا يجد مخرجًا من أثر الرماة، ولكن لما أبصر الرماة المسلمين وهم يكتسحون مواقع المشركين حاول بعض الرماة أن ينزل مخالفًا أمر النبي ﷺ الذي أمرهم به ألا ينزلوا حتى يبعث إليهم وألا يغادروا مكانهم، ولكنهم من عند أنفسهم آثروا

أن ينزلوا، فلما حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يذكرهم بأمر رسول الله ﷺ بالثبات في الموقع وألا ينزلوا بأن موقعهم في هذا الجبل له أثرٌ بالغ في حماية ظهور المسلمين، ولكنهم ما سمعوا له وقالوا: لقد انتهت المعركة ها أنت ترى رجال المسلمين يدفعون المشركين أمامهم فلم يستجب هؤلاء لهذا التحذير وهذا التذكير من أميرهم عبد الله بن جبير، فنزل الكثيرون منهم وبقي عبد الله بن جبير في نحو عشرة منهم، فلما رأى خالدٌ خلو الجبل تقريبًا من الرماة كرّ عليهم، فقتل من بقي منهم، ثم نزل يركب ظهور المسلمين الذين أخذهم فرسان المشركين على غرة، ما كانوا يدرون بما تم من نزول الرماة.

أثر مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ وإدارة المعركة ساعة المحنة

أ. نزول البلاء والمحنة بالمسلمين، وإشاعة مقتل النبي ﷺ:

هذا الموقف الذي حدث للمسلمين كان أثره واضحًا على تغير الحال، فبعد أن كان المسلمون في جانب القوة يدفعون المشركين دفعًا ويحصدون رءوسهم حصدًا، فإذا بالدائرة تنقلب على المسلمين نتيجة هذه المخالفة التي خالف بها هؤلاء الرماة الذين أرادوا الدنيا ولم يريدوا الآخرة، وهنا تنادى المشركون لينتهزوا هذه الفرصة السانحة حتى يثأروا من المسلمين، وتجمعت فلولُ قريشٍ لترجع لتكتسح هذا الموقف وهذا الموقع للمسلمين الذين عَرِيَ ظهرهم من الحماية بالقضاء على الحماة الذين نزلوا لطلب الغنيمة، ومن بقي منهم فوق الجبل، وهكذا وقع الاضطراب والخلل في صفوف المسلمين، وسار كل واحد منهم يلقي بما في يده من مغنم، ويحاول أن يعود إلى سيفه ليقاتل به، ولكن في غير نظام للمعركة؛ لأن النظام الذي كان قد أعده النبي ﷺ انفرط هذا العقد؛

لأن أساس النجاح والثبات كان في بقاء هذه القوة الصغيرة نسبيًّا خمسون راميًا ردوا مائتين من الفرسان، مع أن هذه الجماعة من الفرسان بالحساب العسكري كان يمكن أن تقضي وحدها على ألف ومائتين من الرجال؛ لأنا نعرف -كما ذكرنا. من قبل بأن الفارس الواحد يهزم ستة من المشاة، وهكذا اختلط الحابل بالنابل، ووقع الخلط في صفوف المسلمين، وحتى إن بعضهم قتل بعض المسلمين، كما قُتِلَ اليمانُ أبو حذيفة بن اليمان، قتله المسلمون خطًا، وهم لا يعرفونه، واعتذروا لحذيفة فقال: يغفر الله لكم، وأراد النبي ﷺ أن يعطيه ديةَ أبيه، فأبى وتصدق بها على المسلمين، فزاد ذلك من إعزاز النبي ﷺ له، وفي هذه الحال التي اختلط فيها الأمر على المسلمين شاعت شائعة أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ؛ ذلك أن رجلًا من المشركين اسمه عمرو بن قمئة قتل المصعب بن عمير < لما تصدى له فقال: قتلت محمدًا، وأعلن ذلك فصار الخلل أكثر في صفوف المسلمين.

كان لإعلان مقتل النبي ﷺ أثره البالغ في ذهول المسلمين عن أنفسهم حتى إنه طاشت أحلامهم وذهلوا، فمنهم من ولى هاربًا، ومنهم من انطلق صاعدًا في الجبل ملقيًا بسلاحه من هول الفاجعة، ثم لم يلبثوا أن فاءوا إلى الرسول ﷺ بعد أن أفاقوا من أثر هذه الصدمة الشديدة، وفي هؤلاء نزل قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ب. بطولات فذة للمسلمين رجالًا ونساءً في ظل الظروف الصعبة:

في هذا الموقف، وفي غضون هذه المعركة ظهرت بطولات فذة للمسلمين رجالًا ونساءً، فإذا ذكرنا أَبا دجانةَ الذي أخذ السيف من رسولِ الله ﷺ وعاهده على أن يقاتل به آخذًا السيف بحقه مندفعًا في صفوف المشركين، يقول هذا الشعر:

أنا الذي عاهدني خليلي ❖ ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول ❖ أضرب بسيف الله والرسول

ومعنى الكيول: آخر الصفوف في الحر. أي: أنه رجل مقدام. فجعل لا يلقى أحدًا من المشركين إلا قتله، ورأى > إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا، قال: فتصديت له فلما حملت عليه بالسيف ولْولَ فإذا هو امرأة، وهي هند بنت عتبة، قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة. كذلك فقد قاتل عليّ، والزبير، وطلحة بن عبيد الله، وأبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأبطال كثيرون غيرهم. كما قاتل حمزة بن عبد المطلب > عمُّ النبي ﷺ قتال الأبطال لا يمر به أحدٌ من المشركين إلا أطاح برأسه، ولا يقدر أحد أن يهوي إليه، هذا الأمر كان ساعة الجولة للمسلمين قبل أن تحدث الكارثة.

ج. استشهاد حمزة أسد الله وأسد رسوله:

حمزة > كان من الأبطال في أحد، كمن له رجلٌ حبشي خرج يطمع في عتقه بعد أن كان عبدًا لجبير بن مطعم الذي قُتِلَ عمه طعيمة بن عدي في بدر، فقال لوحشي: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت حر، هنا خرج هذا العبد طامعًا في عتقه بقتل هذا الرجل العظيم حمزة بن عبد المطلب، يقول: خرجت مع الناس وكنت رجلًا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في الناس كأنه الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ أريده، وأستتر منه بشجرة، أو بحجر ليدنو مني فلما دنا هززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثنته، أي: تحت سرته > حتى خرجت من بين رجليه،

وذهب لينوء نحوي فغلب وتركته وإياها حتى مات، ثم ذهبت إليه فأخذت حربتي ورجعت، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق.

د. أنس بن النضر من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه:

إذا كانت هذه الأمثلة من أمثلة الثبات والقتال قبل شائعة مقتل النبي ﷺ التي أعلنها المشركون، والتي كان لها الوقع السيئ في نفوس المشركين، فإنه بعد أن سمع بعض المسلمين بذلك الأمر؛ فإن ذلك أَثَّرَ في نفوس بعضهم فأصابهم الوهن الشديد لفداحة المصاب بأمر النبي ﷺ لكن أناسًا آخرين كانت لهم بسالة وإقدام وثبات على الحق، من أمثال هؤلاء: أنس بن النضر-عم أنس بن مالك } فقد قدم على جماعة من المسلمين ممن أذهلتهم هذه الشائعة فألقوا بسلاحهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال: يا قومي إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فَقَاتِلُوا على ما قَاتَلَ عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -يعني المشركين- ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استشهد > فوجد به بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته، وفي هذا وأمثاله نزل قول الله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هـ. إحاطة أمر نجاته # بالسرية، وأثر ذلك:

كان من فضل الله ﷻ على المسلمين أنه لم تطل بهم فترة الإحساس بهذه المحنة - محنة سماعهم بنبأ وفاة النبي ﷺ- فلم يلبثوا حتى رأى النبي ﷺ رجلٌ من المسلمين وبشر بحياته ﷺ فكان أول من عرف أن رسول الله ﷺ حيٌّ هو كعب بن مالك الذي رأى عيني رسول الله ﷺ تزهران من تحت المِغْفَر، فنادى يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إليه الرسول # أن أنصت، وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول ﷺ حتى لا يحاول المشركون الكر على المسلمين؛ لأنهم طمعوا في وفاة النبي ﷺ والله أعلم.

وفي هذا حكمة بالغة تعلم المسلمين أهمية الأخذ بالأسباب على أية حال، فلقد تدافع المسلمون ممن عرف بحياة النبي ﷺ مقبلين، وقد قويت عزائمهم بعد الخور الذي نالها، وتجمعوا بعد تفرق، ثم إن النبي ﷺ توجه نحو شعاب أحد حتى ينأى بعيدًا عن المشركين، وقد لحق به المسلمون حتى صعد في أحد هذه الشعاب، ثم تمكن المسلمون من صد المشركين عنه.

و. عدم نزول الملائكة للقتال، ونزول النعاس أمنة للمسلمين:

ثبت أن الله ﷻ بعث جبريل وميكائيل من الملائكة؛ ليقاتلا دفاعًا عنه ﷺ تحقيقًا لوعده ﷻ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: من الآية٦٧] على أن الملائكة لم تقاتل في أحد؛ لأن قتال الملائكة في هذه الغزوة كما وعد الله ﷻ كان مشروطًا على أمورٍ منها هذه الشروط التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]

ولكن لم يحدث الصبر في هذا الموقف، ولقد أصاب المسلمين غمٌّ بما أصاب النبي ﷺ ولما أصابهم؛ ولذلك كان من رحمة الله ﷻ أن أنزل عليهم النعاس، أمنةً منه على المسلمين في مواقف القتال، ونزلت الآية تقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. هذه الطائفة التي أهمتها أنفسها دون أن تفكر في مصاب المسلمين ومصير الإسلام هم المنافقون -والعياذ بالله- وهنا كانت هذه الأمنة من النعاس دافعًا لاسترداد القوة، والاستعداد لما بعد ذلك من المراحل التي كانت تحتاجها ظروف الموقف.

توجهه ﷺ إلى "أحد" يصعد فيه في جماعة من أصحابه

أراد النبي ﷺ أن يصعد في أحد ولم يستطع لكثرة ما ناله من نزف من دمه الزكي ﷺ فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، ثم نهض به حتى استوى عليها، فقال النبي ﷺ حينئذ أوجب طلحة، ثم بصر النبي ﷺ بجماعة من المشركين على ظهر الجبل، فقال: "لا ينبغي لهم أن يعلونا" وأرسل إليهم جماعة فيهم عمر بن الخطاب < فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل، وهذا يدل على أن المسلمين على الرغم مما أصابهم من هزيمة لم تكن في الحسبان، فإنهم كانوا ما يزالون في قوة وإصرار على أن يدافعوا عن عقيدتهم ببسالة ورجولة.

وقد نزل بالنبي ﷺ جراحات، وإن بعض المشركين كانوا قد تعاقدوا وتعاهدوا فيما بينهم على أن يقتلوا النبي ﷺ منهم: عبد الله بن شهاب الزهري، وعتبة بن أبي وقاص أخو سعد، وابن قمئة وأبيٌّ بن خلف، وعبد الله بن حميد بن زهير،

ونال الرسول ﷺ من كل واحدٍ منهم أذًى، فقد رماه عتبة بن أبي وقاص بأحجار كسرت رباعيته السفلى اليمنى ﷺ كما أن شهاب أصابه في جبهته، وابن قمئة جرح وجنتي النبي ﷺ حتى غيبت حلقتا المغفر فيهما، وعلاه بالسيف فلم يؤتِ شيئًا، وسقط النبي ﷺ على ركبته فجحشت وأصابها جراح، أما أبي بن خلف فإنه أقبل بحربته يريد قتل النبي ﷺ ويقول: لأقتلنك بها يا محمد، فقال رسول الله ﷺ: "بل أنا قاتلك إن شاء الله".

وقد حاول بعض المسلمين أن يتصدى لأبي بن خلف، ولكن النبي ﷺ أقبل في شجاعة وإصرار، فأخذ الحربة من الحارث بن الصمة، وطعن بها أبيًّا طعنة في عنقه فنزل يتدأدأ عن فرسه مرارًا، كانت هذه الطعنة سببًا في وفاة هذا الكافر عائدًا إلى مكة قبل أن يصل إليها في سرف قرب التنعيم.

بسالة المؤمنين ساعة المحنة في القتال، وفي الدفاع عنه # دور نساء المؤمنين في المعركة

أ. بسالة المؤمنين ساعة المحنة:

هذا الموقف العصيب برزت فيه بطولات نادرة من صحابة النبي ﷺ الذين أبدوا شجاعة وثباتًا وإصرارًا في الدفاع عن النبي ﷺ وكان من أبرز هؤلاء طلحة بن عبيد الله الذي كان الصديق > يقول: إذا ذكر يوم أحد ذاك يوم كله لطلحة.

وقد روى البيهقي بسنده عن جابر أن المشركين لما رهقوا رسول الله ﷺ وهو صاعد في الجبل كان معه جماعة من الأنصار، ومعه أبو طلحة، فقال رسول الله ﷺ: ((ألا رجلٌ لهؤلاء؟)) فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: ((كما أنت يا طلحة)) فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فأذن له النبي ﷺ فقاتلهم حتى قتل فأذن له النبي ﷺ فلحق النبي المشركون، وما زال يقول # : ((ألا رجل لهؤلاء)) وطلحة يعرض نفسه، فيقول: أنا. فيدخره النبي ﷺ

ويتقدم أحد الأنصار فيقاتلهم حتى يقتل، حتى قتلوا جميعًا، ثم قتلهم طلحة قتالًا مثل قتال جميع من كانوا قبله وأصيبت أنامله، فقال: "حث" وهي كلمة تقال عند الألم، فقال رسول الله ﷺ: ((لو قلت: بسم الله؛ لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء)) ومنهم كذلك: سعدٌ بن أبي وقاص < الذي نثر له رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، وقال له: ((ارم فداك أبي وأمي)).

وقد ثبت في (صحيح البخاري) أن رسول الله ﷺ لم يجمع أبويه لأحد في التفدية إلا له < .

كذلك فإن أبا طلحة الأنصاري كان من أولئك الذين ثبتوا مع النبي ﷺ وكان رجلًا راميًا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه جعبته، فيقول النبي ﷺ انثرها لأبي طلحة، ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله: لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: إني جلدٌ يا رسول الله فوجهني في حوائجك، ومُرْنِي بِمَا شئتَ.

كان من هؤلاء النفر: أبو دجانة الذي ترّس بنفسه على رسول الله ﷺ فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح، كذلك كان عليٌّ < ممن ثبت مع الرسول ﷺ ودافع ونافح عنه.

ب. بلاء عظيم لنسيبة بنت كعب وغيرها من المسلمات:

غير هذه المواقف التي هي جديرة بالرجال العظام نجد مثلًا واضحًا من أمثلة نساء المؤمنين: المؤمنة الصادقة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية، التي كان لها دور عظيم تحكيه بأنها كانت في أول النهار والريح والدولة للمسلمين كانت تقوم كغيرها من النسوة المؤمنة كعائشة < وأم أنس بن مالك < كذلك،

وغيرهن كثير من نساء المؤمنين كان لهن دور في إسقاء الجرحى ومداواتهم والقيام بما ينفع، ويصلح شأن المسلمين مما يمكن أن تقوم به النسوة منها إعداد الطعام وغير ذلك، ولكن لما تحوَّلَ الأمرُ إلى ما صار إليه؛ نجد هذه المؤمنة نسيبة بنت كعب تترك هذا وتحمل سلاحها، وتهرع إلى رسول الله ﷺ تدافع عنه حتى إنه # ذكر دورها، فقال: ((ما التفت يوم أحدٍ يمينًا ولا شمالًا إلا وأراها تقاتل دوني)) ثم إنها انحازت إلى رسول الله ﷺ في وقت أقبل فيه ابن قمئة يريد قتل النبي ﷺ فتصدت له بعد أن اعترض مصعب لهذا الكافر فأصيب وقتل، وهذه المرأة أيضًا قامت لتدافع عن النبي ﷺ فأصابها هذا الكافر بضربة على عاتقها تركت فيها جرحًا غائرًا ظل معها بقية حياتها، وكانت < قد غشي عليها من كثرة ما نزفت من جراحاتها، فلما أفاقت قالت: أين رسول الله ﷺ؟ وما صنع المشركون معه؟ فقالوا لها: هو بخير إن شاء الله.

هذه المرأة المؤمنة الصادقة التي كان لها دور في بيعة العقبة، وفي بيعة الرضوان والثبات في أحد ليس غريبًا عليها أن تكون بهذا الموقف المشرف لنساء المسلمين وقدوة حسنة لهن عبر الأيام والدهور، هذا الدور المشرف الكريم لنساء المسلمين في القتال والدفاع والدور العظيم في مواساة الجرحى كنّ يقمن بهذا كله في احتشام والتزام يليق بالمرأة المسلمة.

مثلة المشركات في المسلمين، والتأكد من مسير قريش صوب مكة

أ. المشركات يُمثّلن بقتلى المسلمين:

على النقيض نجد نساءَ المشركين يَقُمْنَ بعد أن أصبحت الدولة للمشركين إذا بهنّ يقمن بأعمال لا تتفق مع الأصول الإنسانية، حينما أقبلن يمثلن بهؤلاء الرجال العظام، فيجدعن الأنوف، ويقطعن الآذان، ويبقرن البطون في بشاعةٍ لا يمكن

أن تتصور من نسوة، ولكن ما كانت تعتمل في قلوبهن من عوامل الغيظ والحرد الذي أقبلن به يردن الانتقام من المسلمين، لم يكن مستبعدًا أن يصدر منهن مثل ذلك، كان من المستغرب من هؤلاء النسوة وقد فعلن هذا أنهن اتخذن من هذه الأنوف التي سجدت لله ﷻ وتلك الآذان صنعن منها أقراطًا، وعقائد وخلاخيل، ومعاصم لهن.

فلما رأى النبي ﷺ ما صنع المشركون بالقتلى المسلمين، ويلتمس عمه حمزة فوجده على مثل تلك الحال التي مُثِّلَ به فيها؛ قال: ((لن أصاب بمثلك أبدًا، وما وقفت موقفًا قط أغيظ عليّ من هذا))، ثم قال ﷺ: ((لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم مكانك)) ولما رأى المسلمون هذه المثلة في قتلاهم، وحُزْنَ النبي ﷺ البالغ على عمه حمزة، قالوا: لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر؛ لنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحدٌ من العرب، ولكن نزل قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فهذه المثلة التي قامت بها المشركات في المسلمين لم ينج منها إلا حنظلة غسيل الملائكة < لأن أباه كان في صفوف المشركين، وطلب ألا يمثل بابنه فنجا حنظلة < من المثلة لدور أبيه مع المشركين.

ب. أبو سفيان يتساءل، ويتوعد المسلمين باللقاء في العام القادم:

وهنا بعد ذلك الأمر وجدنا بأن المشركين لما وجدوا هذا الإصرار من المؤمنين انتهت عزائمهم على متابعة القتال وقنعوا بما حققوا، وهنا وقف أبو سفيان ينادي ويقول: أفي القوم محمد؟ فقال النبي ﷺ: ((لا تجيبوه)) فنادى أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ والنبي ﷺ يقول: ((لا تجيبوه)) فقال أبو

سفيان: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذي عددت لأحياء، وقد بقي لك ما يسوءك. فقال أبو سفيان: أعل هبل، أي: أعل دينك، فقال ﷺ: ((ألا تجيبوه))، فقالوا: ماذا نقول يا رسول الله؟ فقال: ((قولوا: الله أعلى وأجل)) فأجابوه بهذا، ثم قال: الحرب سجال يوم بيوم بدر، فقال عمرُ مجيبًا له بأمر النبي ﷺ: ((لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار)) فقال أبو سفيان: إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسوءني، ثم قال: موعدكم بدر العام المقبل، فقال النبي ﷺ: ((قولوا نعم، هو بيننا وبينكم موعد)).

هنا أراد النبي ﷺ أن يتعرف على وجهة المشركين، أهم يقصدون مكة عائدين بعد أن حققوا هذا الذي ظنوه نصرًا على المسلمين أم أنهم يريدون أمرًا آخر، فبعث عليًّا > وأمره أن يخرج في آثارهم حتى يتعرف ما يصنعون وما يريدون، وقال # : ((إن ركبوا الإبل، وجنبوا الخيل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فإنهم يريدون المدينة)) وأقسم لو أنهم قصدوا المدينة ليدخلنها عليهم وليناجزنهم فيها، فعاد عليٌّ ليخبر النبي ﷺ أن المشركين ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، وأنهم قاصدون لمكة.

شهداء أحد؛ دفنهم، والثناء عليهم، عودة النبي ﷺ إلى المدينة

أ. حمد الله ﷻ على ما كان، ودفن شهداء المسلمين:

هنا بعد أن انكشف الموقف، وبعد هذا المصاب الذي أَلَمَّ بالمسلمين ما كان للنبي ﷺ إلا أن يتوجه شاكرًا لله ﷻ مثنيًا عليه بما هو أهله فقال لأصحابه: ((اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا

قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ، وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ)). رواه الإمام أحمد.

ثم إنه ﷺ لما ناله من الإجهاد والتعب صلى الظهر قاعدًا لكثرة ما نزف من دمه، ولكثرة ما ناله من الإرهاق خلال هذه المعركة التي كانت نهايتها على هذه الحال التي لم تكن متوقعة، والتي كانت بدايتها تدل على نصر الله ﷻ للمؤمنين؛ لولا هذه المخالفة التي خالف بها الرماة أمر النبي ﷺ لهم فكانت الدائرة على المسلمين.

وكان من نتيجة هذه المعركة بعد أن تحولت الحال: استشهاد سبعين من خيار المسلمين كان منهم: حمزة > والمصعب بن عمير > في رجال، كان لهم دور عظيم في نشر الإسلام في المدينة، وإعلاء كلمة الله ﷻ كان كذلك من هؤلاء الشهداء حنظلة بن أبي عامر الذي خرج ملبيًا النداء بعد أن كان قد دخل بعروسٍ له خرج جنبًا، ولما رأى النبي ﷺ أن حنظلة قد غسل سأل فعرف ذلك من امرأته، وكانت بنت عبد الله بن أبي بن سلول فعرف بأن الملائكة غسلت حنظلة > .

ومن أمثلة الذين ثبتوا أنس بن النضر عم أنس بن مالك > الذي نالته الجراحات الكثيرة حتى إنه لم تعرفه إلا أخته ببنانِهِ > وقد قام النبي ﷺ بعد هذا بدفن الشهداء، ووقف مشرفًا عليهم يوم أحد، وقال: ((أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه يوم القيامة يدمي جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح مسك، وانظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر، فكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد)) هنا موقفٌ يدل على ثبات الإيمان عند عمةِ النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب التي أقبلت لتعرف أمر أخيها حمزة > وهنا أمر النبي ﷺ ابنها الزبير بن العوام أن يردها، ولكنها أصرت أن ترى أخاها، وكان أمر النبي ﷺ رفقًا بها حتى لا ترى ما صنع بأخيها، ولكنها وقفت على أخيها لما أرادت أن تقف مظهرة الثبات والرضا بأمر الله، فوقفت على حمزة > وقد مثل به وصنع به ما صنع، فاسترجعت، وحمدت الله ﷻ على هذا المصاب، هذا هو الشأن العظيم الذي ربى به الإسلام هذه الأمثلة الطيبة المباركة الأسوة الحسنة لنا في ما بقي من عمر الزمان -إن شاء الله.

أمر النبي ﷺ أن يدفن القتلى في مكان المعركة حتى لا يغادروها جاءوا إلى هذا المكان، استجابة لأمر الله، وأمر رسوله ﷺ فأمر النبي ﷺ أن يبقوا في هذا المكان، بل إنه أمر من ذهب إلى المدينة بمن قتل من ذويهم أن يرجع بهم حتى يدفنوا في مكان الشرف الذي جعله الله لهم في صعيد أحد } .

ب. عودة النبي ﷺ إلى المدينة، والسؤال عن سلامته:

بعد هذا كله توجه النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة، وقد رضي بقضاء الله ﷻ وهنا نجد أن أهل المدينة لما سمعوا بهذا الأمر نالهم الأسى والحزن على من فقدوا من أحبائهم وبكوا بكاءً مباحًا عليهم لا نواح فيه، ونرى حمنة بنت جحش التي قتل

أبوها عبد الله، وخالها حمزة بن عبد المطلب، وزوجها المصعب بن عمير، فلما نعي لها أخوها استرجعت واستغفرت له، ثم لما نعي لها خالها حمزة كذلك استرجعت واستغفرت له، ثم لما نعي لها زوجها المصعب بن عمير > صاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: ((إن زوج المرأة منها لبمكان)) لما رأى من تثبتها عند سماعها بنبأ مقتل أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

هنا نرى بأن البكاء كان شائعًا في بيوت الأنصار على قتلاهم، ولكن النبي ﷺ قال لما سمع بكاء الأنصار على ذويهم: ((ولكن حمزة لا بواكي له)) فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بني الأشهل أمر نساءهم أن يبكين على عم النبي ﷺ وبلغ ذلك النبي ﷺ بهذه المواساة الرقيقة، فخرج وهو على باب المسجد وقد رآهن يبكين على حمزة قال لهن: ((ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن)) ونهى يومئذ ﷺ عن النواح، أمرٌ من الثبات والرضا بأمر الله وقدره حتى وإن أصاب الإنسان ومسه في ذويه من القتل.

ونجد مثلًا آخر عظيمًا وهو: المرأة الدينارية التي مر بها المسلمون عائدين، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ في هذه الموقعة فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ تسأل عن رسول الله أولًا سؤالًا يدل على مدى الحب في قلوب المسلمين لرسول الله ﷺ فقال المسلمون لها: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأت، قالت: كل مصيبة بعدك جللٌ يا رسول الله.

أصبح المسلمون في بيوتهم عائدين إليها، فلما انتهى النبي ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: ((اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني

اليوم)) وكذلك ناولها علي سيفه قائلًا: ((وهذا أيضًا اغسلي عنه فوالله لقد صدقني اليوم)) فقال ﷺ: ((لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيث، وأبو دجانة)) هنا رضًا بقضاء الله ﷻ كان هذا العود الحميد للنبي ﷺ والمسلمين -والله أعلم.

إن الإنسان ليعجب مما قام به النبي ﷺ في أول المعركة حينما خطط لها التخطيط السليم، وحينما رضي بقضاء الله فلم يعنف أحدًا، ورضي بما نزل بالمسلمين، وها نحن قد رأينا ثناءه على الله، وكأنه ثناء على كسب، وعلى نصر -وهو نصر والحمد لله- نصرٌ للمسلمين على أنفسهم، هذا اليوم العظيم يوم أحد كانت هذه المشاهد العظيمة النادرة، قد عمت في هذا اليوم المبارك.

غزوة حمراء الأسد وغيرها من السرايا، وغزوة بني النضير

عناصر الدرس

العنصر الأول	: غزوة حمراء الأسد	٢٦٩
العنصر الثاني	: سرية أبي سلمة	٢٧٤
العنصر الثالث	: سرية عزنة	٢٧٦
العنصر الرابع	: يوم الرجيع	٢٧٧
العنصر الخامس	: حادثة بئر معونة	٢٨١
العنصر السادس	: غزوة بني النضير، وسببها، حصار بني النضير، وإباؤهم الخروج	٢٨٦
العنصر السابع	: خروج بني النضير، ومسيرهم إلى خيبر	٢٩١
العنصر الثامن	: نكوص أبي سفيان عن موعده	٢٩٦

غـــــزوة حمــــــراء الأســــــد

أ. خروج المسلمين بجراحاتهم في اليوم التالي لأحد؛ إظهارًا لقوتهم:

خرج رسول الله ﷺ متعقبًا قريشًا في اليوم التالي لغزوة أُحد، وذلك يوم الأحد الموافق السادس عشر من شوال، فوصل إلى "حمراء الأسد" وهي على نحوٍ من ثمانية أميال من المدينة.

وخرج النبي ﷺ في أثر العدو حتى يشعر أهل المدينة ممن كان مشركًا أخفى شركه في قلبه، واليهود كذلك حتى يعلمهم بأن المسلمين ما زالوا في ثبات وقوة.

وأمر ألا يخرج إلا من كان معهم بالأمس، حتى لا يعطي فرصة لمن عاد راجعًا مع عبد الله بن أبي بن سلول، حتى لا يكون الشرف إلا لمن ثبت بالأمس، فخرج النبي ﷺ بأولئك الأبطال من أصحابه } على جراحاتهم ماضين يتعقبون العدو، ولم يكن النبي ﷺ إلا واحدًا منهم قد أصابه ما أصابه من الجراح ﷺ بل إن أخوين شهدا هذا المعركة، وقد أثبتتهم الجراح، ومع هذا لم يرضيا بأن يبقيا في المدينة وإنما خرجا يتحاملان على جراحاتهما في هذه الغزوة التي نادى بها منادي النبي ﷺ وكان أحدهما أكثر جراحًا من أخيه فكان أخوه يحمله ويسير به نوبة، ويسير الاثنان معًا متحاملين على جراحاتهما؛ استجابة لأمر النبي ﷺ وحرصًا على نيل الشرف معه -الشرف الذي لحق بأحد.

وهنا لم يأذن النبي ﷺ لأحدٍ ممن تقاعس بالأمس، اللهم أنه حينما جاءه عبد الله بن جابر > وقال: يا رسول الله، والله ما منعني أن أخرج بالأمس إلا أن أبي أمرني أن أبقى مع أخواتي؛ لأنه قال: لا نخرج معًا، ونترك هؤلاء النسوة فآثرته

بالخروج معك، وقد أكرمه الله بالشهادة، وهذا الرجل الوحيد الذي أذن له النبي ﷺ بالخروج في هذه الغزوة -غزوة حمراء الأسد.

ب. استعمال عبد الله بن أم مكتوم على المدينة، وملاقاة معبد بن أبي معبد:

وقد استعمل النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم كما استعمله عند خروجه لأحد، وقد لقي النبي ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة كلها مسلمهم ومشركهم عيبة نصحٍ رسول ﷺ أي معه، كانوا يخبرونه بأمر قريش ويفرحون لفرحه، ويحزنون لما ينزل به من أسىً أو مصاب فقال معبد للنبي ﷺ وكان الرجل ما يزال مشركًا: "يا محمد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافك فيهم، ثم لما خرج النبي ﷺ تابع معبد المسير حتى لقي أبا سفيان، ومن معه بالروحاء، وجدهم وقد أجمعوا أو لعلهم راجعوا أنفسهم أن يرجعوا، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقية فلنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبدًا، قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال له: لقد خرج محمد في أصحابه الذين لم يخرجوا معه بالأمس، خرجوا في جمع لم أره مثله قط يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فقال أبو سفيان: ويحك ما تقول؟ قال: والله إني أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن هذا، وكان في هذا صنيع خير قام به معبد الخزاعي، وكان في كلامه ما حفز أبا سفيان ومن معه على أن يمضوا في طريقهم إلى مكة.

وقد مر بأبي سفيان والمشركين ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: هل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل

لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: ((حسبنا الله ونعم الوكيل))، وفي هذا نزل قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٤]. وهنا قال صفوان بن أمية بن خلف ناصحًا أبا سفيان: ألا يعاود الكرة فيرجع إلى المدينة بعد أن كانوا قد تعاقدوا على أن يرجعوا، ولكن لما بلغهم قول معبد رجعوا عن هذا القرار، فقال صفوان: لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا، يعني: اشتد غيظهم وحنقهم، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا. فرجعوا لذلك، وقال النبي ﷺ حينما بلغه ذلك وهو بحمراء الأسد: ((إنهم هموا بالرجعة، والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب)).

ثم إنه # أقام في حمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم عاد ﷺ إلى المدينة التي وصلها يوم الجمعة.

ج. مواجهة الحرب النفسية في المدينة:

وفي المدينة كان على المسلمين أن يتصدوا لقالات السوء التي أشاعها اليهود والمنافقون الذين أرجفوا في المدينة بكل ما ينال المسلمين، حتى إن اليهود قالوا: إنما محمدٌ طالب ملك، ولو كان نبيًّا ما وقع له ما وقع.

كذلك، فإن المنافقين أرجفوا في المدينة، وقالوا الكلام الكثير الذي يدل على ما كان يعتمل في قلوبهم من النفاق والكفر والعداء للإسلام.

وحكى القرآن العظيم كثيرًا مما قاله المنافقون، ورد عليهم الرد الذي يفحمهم، وتشهد لهذا كله آيات سورة آل عمران التي تناولت هذه الغزوة الهامة من غزوات النبي ﷺ.

فالمنافقون قالوا كثيرًا في إخوانهم أنهم لو أطاعوهم ما قتلوا، فنزل قول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

كما نزل فيهم قول الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وهكذا كان على المسلمين أن يلاقوا حربًا نفسية من أولئك الذين ملأ الكفر قلوبهم من أهل الكتاب، ومن المنافقين من أهل المدينة، الذين وجدوا في هذه النتيجة التي انتهت إليها غزوة أحد ما يشفي صدورهم، وتنطق به ألسنتهم مما أفعمت قلوبهم به من السوء تجاه المسلمين.

هذه الغزوة، وما ترتب عليها من هذه الأحداث كلها، وما سرى في المدينة كانت محنة وابتلاء للمسلمين، كان عليهم أن يثبتوا أمامه، وأن يتشبثوا بإيمانهم.

د. تقييم غزوة أحد تاريخيًّا:

وهذه الغزوة حينما نقومها التقويم الحقيقي لها نرى: أنها كانت نصرًا من عند الله للمسلمين، فحينما نستعرض أمرها من أوله نرى: بأن النبي ﷺ ثبت حينما علم بالأمر، وخرج للقاء عدوه على الرغم من أن هذا الأمر لم يكن على رغبة منه، وخرج # إلى مكانٍ لم يحدده بنفسه، ولم يضع الخطة له من قبل، وإنما كان

نزول قريش أمرًا دفع المسلمين إلى أن يأخذوا أمرهم في هذا المجال، هذا الميدان الذي تحتم عليهم أن يقاتلوا فيه.

ولذلك بسرعة وبتوفيق من الله ﷻ كان هذا التخطيط الذي وضعه النبي ﷺ لهذه المعركة ولإدارتها من أول الأمر، وفي سرعة، وفي توفيق من الله ﷻ، وكان النصر من عند الله ﷻ -كما عرفنا.

فلما حصل ما حصل من المخالفة التي كانت من فئة قليلة من الجند -خمسون راميًأ. نزلوا من موقعهم الذي حدده لهم النبي ﷺ مخالفين بذلك فكانت النكبة، وكان البلاء والابتلاء.

وهنا نجد براعة القيادة من النبي ﷺ الذي أدار هذه المعركة في هذا الوقت العصيب بما مكن من أن يفيء إليه الفارون، وأن يثوب إليه الذين رجعوا إلى النبي ﷺ حتى أتم الله ﷻ نعمة النجاة من هذه المحنة التي ألمت بالمسلمين.

فإذا كانت الخطة وضعت والمسلمون في عافية فإن جمع النبي ﷺ للمسلمين وإدارتهم لأمر المعركة ولأمر ما يتفادى به خطورة الموقف حينما انفرط عقد المسلمين- يدل على الثبات، وعلى رجاحة الرأي، وعلى السداد في الأمر، وكل ذلك من توفيق الله ﷻ لرسوله ﷺ.

ثم إنه # لما انتهت المعركة، وعاد المسلمون إلى المدينة، وباتوا هذا المبيت على جراحاتهم، فإنه # ما ترك أمر الجهاد حتى تلتئم الجراح، وإنما نادى منادي رسول الله ﷺ بعد ليلة كان المسلمون فيها على حراسة تامة للمدينة وللنبي ﷺ من أن يرجع المشركون فيباغتوا أهل المدينة؛ لأنهم يعلمون ما نزل بهم من الجراح، ومع هذا فإنه # خرج لحمراء ألأسد - كما عرفنا.

وكان في هذا الخروج دليل قوي على الثبات، وعلى حسن الاستجابة للرسولﷺ على الرغم مما أصابه من القرح.

وكانت الحكمة بالغة ألا يستعين النبي ﷺ بأحد من الناس ممن لم يخرج بالأمس، وبخاصة من أولئك المنافقين الذين حاول بعضهم أن يتوارى ويداري على نفاقه وكفره بأن يساعد في الخروج، ولكن النبي ﷺ كان أمره صارمًا في أن لا يخرج متعقبًا للعدو إلا من كان موجودًا معه بالأمس، حتى يكون لهم شرف المتابعة، وشرف تحقيق النصر العظيم من الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٢- ١٧٤].

غير هؤلاء الأعداء -داخل المدينة- من اليهود والمنافقين كان الأعراب من حول المدينة، وممن بعد منهم يسعون إلى انتهاز هذه الفرصة التي نزلت بالمسلمين، والتي ظنوا أنها نالت منهم، وأضعفتهم وأضعفت من شوكتهم.

ولكن النبي ﷺ ما كان يصله الخبر عن أي تجمع يقصد المسلمين بالعداء والحرب، فإنه كان يبادر بوأد هذه المحاولات في مهدها قبل أن يستشري خطرها.

سرية أبي سلمة

ومن هذا ما علمه النبي ﷺ من أمر طليحة الأسدي، وأخيه سلمة، أنهما يسيران في الناس يجمعان لحربه # وقد علم النبي ﷺ ذلك في المدينة، حيث قدم رجلٌ من طيئ زائرًا قرابة له في المدينة، فأخبره بهذا الخبر، فدعا النبي ﷺ أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد ليخرج في مائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار في سرية

إلى قطن، وهي ماء بنجد لبني أسد، وقال لأبي سلمة -لما أمره أن يسير إليهم-: ((فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليكم جموعهم)) وأوصاه بتقوى الله ﷻ وبمن معه من المسلمين خيرًا، فخرج في تلك السرية، ومعه الرجل الطائي دليلًا، فأغز في السير، ونكب بهم عن سنن الطريق -نوع من الاحتياط- وسار بهم ليلًا ونهارًا، فسبقوا الأخبار وانتهوا إلى ذي قطن ماء بني أسد، الذي كان عليه جمعهم، فأغاروا عليهم وأغاروا على صرح لهم فضموه، وأخذوا رعاءً لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم، فجاءوا جمعهم فأخبروهم الخبر، وحذروهم جمع أبي سلمة، فتفرق الجمع في كل وجه، وورد أبو سلمة الماء، فوجد الجمع قد تفرق، فعسكر وفرق أصحابه في طلب النعم والشاء، فجمعهم ثلاث فرق: فرقة أقامت معه، وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى، وأوعز إليهما أن لا يمعنوا في الطلب، حتى لا يؤخذوا على غرة في كمائن من العدو، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا، وأمرهم ألا يفترقوا، واستعمل على كل فرقة أميرًا عليهم، فآبوا إليه جميعًا سالمين قد أصابوا إبلًا وشاءً، ولم يلقوا أحدًا من هؤلاء الأعداء، وانحدر أبو سلمة بعد ذلك راجعًا إلى المدينة ورجع معه الرجل الطائي الذي كان سببًا في العلم بهذا الأمر، وكان له دور كما عرفنا في الطريق في الدلالة على الطريق.

وقسم أبو سلمة الغنائم، وأخرج صفي رسول الله ﷺ وأخرج الخمس وأعطى الطائي الدليل رضاءً له من الغنم ثم قسم ما بقي بين أصحابه، وعاد أبو سلمة < إلى المدينة، بعد أن لقن بأمر الله هذين العدوين درسًا بأن المسلمين منتبهون لكل من ينالهم بأذى، وأنهم يبادرون إياه بكل ما يسوءه ويرده إن شاء الله.

سـريـة عرنـة

ثم رجلٌ آخر كان نواحي عرنة -قريبًا من عرفات- هو سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي، الذي خرج يجمع الناس لحرب النبي ﷺ وقد جمع الجموع.

ثم إنه ﷺ لما علم بأمره بعث عبد الله بن أنيس ليقتله، حتى يقضي على هذه الحركة في مهدها، فخرج عبد الله بن أنيس، واستأذن النبي ﷺ وأخذ سيفه، وقال خرج يعتزي لخزاعة -أي ينتسب إليها. وقال: حتى إذا كنت ببطن عرنة لقيته يمشي -أي: لقي سفيان يمشي وراءه الأحابيش وما انضوى إليه- فعرفه بنعت النبي ﷺ له، حيث إنه # كان قد وصفه له، وقال عبد الله أنيس لهذا الرجل بأنه سمع بجمعه لمحمدٍ فجاء ليكون معه، فقال: أجل، إني لأجمع له، يقول: فمشيت معه وحدثته حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه، فلما هدأ الناس، وناموا، يقول: اغتررته فقتلته، ثم عاد > ، وخرج الطلب من الناس -رهط سفيان- يطلبون عبد الله بن أنيس، ولكنهم لم يقدروا عليه، لأنه # توارى منهم في غارٍ، وكان # يغز في السير، بعد ذلك يسير الليل ويتوارى بالنهار، حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بعد ثمانية عشر يومًا قضاها في أداء هذه المهمة التي أداها بنجاح والحمد لله.

هكذا نرى مثلين من الأمثلة التي طمع الأعراب -حتى من بعدوا عن المدينة- في أن ينالوا هذه الفرصة التي نزلت بالمسلمين، ولكن النبي ﷺ كان كما رأينا يحبط بأمر الله كل هذه الحركات في مكانها، وفي وقتها الأول.

يـــــــوم الرجيـــــــع

حدثٌ هامٌ كان تابعًا من توابع هذه الأحداث، هو بعث الرجيع، وما حدث له من المصاب، فإن رهط سفيان بن نبيح الهذلي جاءوا إلى جماعة من عضل، والقارة ويجمعهم نسب يريدون أن يثأروا لمقتل شيخهم سفيان بن نبيح الهذلي، وأوعزوا إليهم أن يطلبوا من المسلمين من يقرئهم القرآن ويعلمهم أمر الدين؛ خديعة بهم، ولذلك وافق هؤلاء القوم على أن يقوموا بهذه المهمة، وهذا الأمر الذي اتفق عليه الطرفان، وهو في حقيقة أمره خديعة أرادوا من ورائها أن يثأروا لمقتل شيخهم سفيان بن نبيح، وأن يصيبوا من المسلمين من يشفي غليل صدر قريش، وثأرهم من المسلمين.

هذا الأمر الذي قامت به عضل والقارة خدمة تتناسب مع ما جبلوا عليه من المكر والخديعة والأخلاق التي لا تمت إلى العروبة، كانت تعرف بسرية الرجيع، والرجيع ماء لهزيل كانت عنده هذه الحادثة التي نزلت بجماعة من المسلمين بعثهم النبي ﷺ مع هؤلاء النفر الذين قدموا إلى المدينة، يطلبون منه ﷺ أن يبعث إليهم قراءً ومعلمين يعلمونهم الإسلام ويقرءونهم القرآن، وذكروا له # بأن فيهم إسلامًا فبعث معهم النبي ﷺ نفرًا ستة من خيرة الصحابة والقراء { ، كان منهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيدٌ بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وقد أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد، فخرجوا جميعًا مع القوم.

هذا هو السبب الذي يذكره ابن سعد والواقدي وابن إسحاق، وإن كان قد جاء في البخاري أن النبي ﷺ بعث عشرةً من أصحابه ليعلموا له أمر قريشٍ، فلما وصلوا إلى هذا الماء أغارت عليهم هذيل.

هنا -على أية حال- فإنه ربما كان ما ذكره الواقدي وابن إسحاق أصح في هذا الأمر، وأن خروج هذا النفر من القراء إنما كان استجابة منه ﷺ لهؤلاء الناس الذين جاءوا يطلبون ما طلبوا، فخرجوا، ولما ساروا حتى إذا كانوا بالرجيع -وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز- استصرخ عليهم القوم هذيلًا، وغدروا بهم، ولم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال، وقد غشوهم، وبأيديهم السيوف وأحاط بهم مائة من الرماة، فأخذ المسلمون سيوفهم ليقاتلوهم، ولكنهم أمنوهم وأخبروهم أنهم لا أرب لهم في قتلهم، وإنما يريدون أن يصيبوا بهم فداء من أهل مكة.

فأما مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وعاصم بن ثابت، وخالد بن البكير، فإنهم أبوا أن يقبلوا منهم قولهم ذلك، وقالوا: والله لا قبلنا لمشرك عهدًا أبدًا، وقاتلوا حتى قتل ثلاثتهم رضوان الله عليهم ورحمته.

وكان عاصم بن ثابت قد قتل يوم أحد فتيين من بني عبد الدار أخوين، أمهما سلافة بنت سعد التي نذرت أن الله لو أمكنها من رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، فلما قتلت بنو هذيلٍ عاصمًا أرادوا أخذ رأسه؛ لأنهم يعرفون لما، فلما حاولوا أن يأخذوا رأس عاصم ليبيعوه من سلافة منعه الله منهم بالدبر -وهي الزنابير والنحل- فحمت عاصمًا < ، ومنعته منهم، فقالت بنو هذيل: نتركه حتى يذهب الدبر بالليل، فإذا جاء الليل أخذناه، فلما انتظروا إلى الليل أرسل الله ﷻ سيلًا يقولون: لم يُرَ مثله، فحمل السيل عاصمًا، فلم يصلوا إلى جثته، ولا إلى رأسه، وكان عاصمٌ قد نذر لله ألا يمس مشركًا أبدًا، وألا يمسه مشرك فأبرَّ الله ﷻ قسمه، ولم يروه، ولا وصلوا إلى شيء منه، ولا عرفوا له مكانًا، ولا مسقطًا.

أما زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق فإنهم لانوا، وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، وخرجوا بهم إلى مكة، فلما ساروا بمر الظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه، وأراد أن يناجز القوم، واستأخر عنهم، فلما رأوا ذلك منه، رموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره > بمر الظهران.

ثم إنهم حملوا خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، فباعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا أبو حجير بن أبي إيهاب التميمي حليف بني نوفل حتى يقتله بلحارث بن عامر خال أبي إيهاب، واشترى زيدًا بن الدثنة صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر، فإن أمر زيدٍ تم على سرعة، فقد بعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له: نسطاس إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب عند القتل لزيد، وهنا قال أبو سفيان لزيدٍ حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا -الآن- في مكانك نضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه، وإني جالس في أهلي، قال أبو سفيان: والله ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا، ثم قتله نسطاس في التنعيم، هذا هو أمر زيد بن الدثنة.

أما أمر خبيب فإنه تحدث عنه ماويّة مولاة حجير بن أبي إيهاب، وكانت قد أسلمت تقول: كان خبيبٌ عندي، حبس في بيتي، ولقد اطلعت عليه يومًا، وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما أعلم في أرض الله عنبًا يؤكل.

كذلك تمضي فتذكر أنه حين حضره القتل قال: ابعثي ابعثي إليَّ بحديدة أتطهر بها للقتل؛ حتى يستحد -أي: يحلق عانته- قالت: فأعطيت غلامًا من الحي الموسى

فقلت: ادخل بها على هذا الرجل. قالت: فوالله ما هو إلا أن ولّى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت؟! أصاب والله الرجل ثأره؛ يقتل هذا الغلام، فيكون رجل برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليَّ؟! ثم خلا سبيله.

وهنا يستطرد ابن إسحاق في كلامه ويقول: إنه لما خرجوا بخبيب حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه، قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين، أتمهما، وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة، وكان خبيب بن عدي على هذا أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

قال ابن إسحاق: ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه دعا عليهم، وقال أولًا: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ﷺ فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا، ثم إنهم قتلوه -رحمه الله-.

وكان معاوية بن أبي سفيان > حضر هذا اليوم -فيمن حضر- مع أبي سفيان، يقول: فلقد رأيت أبا سفيان يلقيني إلى الأرض فرقًا من دعوة خبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه هذا، ولقد علم النبي ﷺ بأمر هؤلاء الرجال، الذين أصابهم في ذات الله ما أصابهم علم ذلك بالوحي من الله ﷻ.

ولما علم المنافقون بأمر هذه السرية، وما تم لها قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين، وما أصاب أولئك من الخير

الذي أصابهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

هؤلاء الذين خرجوا يؤدون هذه رسالة الإسلام؛ وإن كانوا قد مكر بهم، وخدعوا فإنهم خرجوا في ذات الله، إنما أرادوا أن ينشروا الدين، وأن يعلموا الإسلام للناس كما تعلّموه وعلِموه، وأن يكون سببًا في هداية الخلق، كما هداهم الله ﷻ، كانت هذه السرية سرية الرجيع في صفر من السنة الثالثة للهجرة في أعقاب أحدٍ كما عرفنا.

حادثة بئر معونة

في نفسه الشهر كانت حادثة أصحاب بئر معونة أو سرية القراء، ومعونة اسمٌ لموضع من بلاد هذيلٍ بين مكة وعسفان، حيث وفد على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وهو من رءوس بني عامر، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: ((إني أخشى عليهم أهل نجد))، فقال أبو براء: أنا لهم جار، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرٍ في سبعين رجلًا من خيار المسلمين، وكانوا يعرفون بالقراء، وهم جماعة من المسلمين، كانوا حفظة للقرآن كانوا يحتطبون بالنهار، ويتدارسون القرآن في الليل، ويصلون ويطعمون أهل الصفة، ويأتون بالماء، فيجعلونه على أبواب حجر النبي ﷺ وكانوا إذا دعوا إلى الجهاد لبوا سراعًا؛ شبابٌ ورجالٌ

وقفوا حياتهم لله جهادًا وعملًا خالصًا، وسعيًا للخير، وفيه هؤلاء الجماعة، ذكر الكتاب أنهم كانوا أربعين رجلًا، وقيل: كانوا سبعين رجلًا، وقيل: كانوا أربعين، والصحيح أنهم كانوا سبعين، وكان منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان خال أنس بن مالك > ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب كان معهم من النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما آتاه حرام بن ملحان لم ينظر في الكتاب وأوعز إلى رجل فطعنه بالرمح من خلفه فقال حرام لما طعن بالرمح: فزت ورب الكعبة.

ثم إن عامر بن الطفيل استصرخ على المسلمين بني عامر، فأبت بنو عامرٍ أن يجيبوه، وقالوا: لن نخفر ذمة أبي براء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ قبائل من بني سليم: رعلًا، وذكوان، وعصية، فأجابوه، فخرجوا حتى غشوا الناس فأحاطوا بهم في رحالهم، فقال لهم المسلمون: والله ما إياكم أردنا، وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فأبوا عليهم فقاتلوهم حتى قتلوا الجميع، قتلوهم عن آخرهم، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث بين القتلى -أي: حمل وبه رمقٌ كأنه قتيل من القتلى- فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا.

كذلك كان ممن لم يكن مع القوم، عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة، فإنهما كانا في صرح القوم وقيل: كانا يطلبان ضالة لهما.

هنا لم يعرف عمرو بن أمية، والمنذر بأمر أصحابهما إلا برؤيتهما الطير تحوم حول العسكر، فقال: والله إن لهذا الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمر: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر بن محمد: فإني والله لا أرغب

بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجال، فقاتل عنه حتى قتل > شهيدًا، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جزَّ ناصيته، وأعتقه منًّا عليه لقاء رقبة كانت على أمه فيما زعم، فخرج عمرو قاصدًا المدينة، فلقي رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من الرسول ﷺ وهو لا يعلم به، فأمنهما حتى ناما، فقتلهما، وهو يرى أنه أصاب بهذا ثأرًا من بني عامر، لما قتلوا المسلمين.

فلما قدم عمرو، وأخبر النبي ﷺ بأمره، قال # : لقد قتلت قتيلين؛ لآدينهما، ثم قال: هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا، فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليه ذلك، وذهب ابنه ربيعة إلى ابن عامر بن الطفيل، فطعنه انتقامًا منه على فعلته هذه، فجرح في فخذه، ولكنه لم يمت.

هذا أمر هاتين السريتين اللتين كان الغدر واضحًا فيهما بالمسلمين، وكان وصول خبر سرية الرجيع وبئر معونة معًا في وقت واحد، فحزن النبي ﷺ والمسلمون حزنًا شديدًا عليهم، ولم يخفف عنهم منه إلا أنهم شهداء عند ربهم يرزقون.

ولقد بلغ من حزن النبي ﷺ أنه مكث شهرًا يدعو في صلاة الصبح على رعل وذكوان وعصية الذين غدروا بالقراء.

وروى البخاري أن النبي ﷺ لما نعي القراء له قال: ((إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم، فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيت عنا)) فأخبرهم عنهم فأنزل الله ﷻ فيهم قرآنا نسخ - كما يذكر أنس.

والنص الذي ذكر في الصحيح: ((أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، ورضينا عنه)) وهذا مما نسخ من القرآن.

على أن النبي ﷺ كان له شأن مع أمثال هؤلاء الغدرة الخونة، فإنه # أعد للحيان الجزاء الذي يليق بهم، فإنه خرج # في مائتي رجل معهم عشرون فرسًا بعد أن استخلف على المدينة عبد الله بن أم كتوم، وأسرع السير حتى انتهى إلى بلادهم.

فلما سمعت بهم لحيان هربوا في رءوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومًا أو يومين، وبعث السرايا في كل ناحية حتى يشعرهم بطلبه إياهم، ولكنهم لم يقدروا على أحد منهم، ثم خرج # حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع بهم قريش، فيذعرهم ذلك فأتوا قراع الغميم.

ثم رجعوا ولم يلقوا أحدًا، وانصرف النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة من هذه الغزوة التي قصد بها أن يؤدب الغدرة بأصحاب الرجيع.

على أنه كان للكلمة وللشعر دور في تمجيد هؤلاء الذين غدر بهم الفجرة، فلقد قال حسان في بكاء أصحاب الرجيع:

صلى الإله على الذين تتابعوا ❖ يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا

في شعر طويل، عدد فيه مآثر هؤلاء الرجال الذين خرجوا في سبيل الله يبلغون أمانة الله.

كما أنه نال لحيان بالهجاء المقذع حينما قال:

إن سرك الغدر صرفًا لا مزاج له ❖ فأتي الرجيع فسل عن دار لحيان

قومٌ تواصوا بأكل الجار بينهم ❖ فالكلب والقرد والإنسان مثلان

ثم في قصيدة أخرى، يقول فيهم وفي هذيل:

لعمري لقد شانت هذيل بن مدرك ❖ أحاديث كانت في خبيب وعاصم
فضيلة ليس الوفاء يهمهم ❖ وإن ظلموا لم يدفعوا كف ظالم
محلهم دار البوار ورأيهم ❖ إذا نابهم أمر كرأي البهائم

ولا يخفى ما في التناول بالشعر والهجاء لأمثال هؤلاء ما ينالهم، وينال مكانتهم بين العرب.

وهنا يمكن أن يقال: كيف يخدع النبي ﷺ من أمثال هؤلاء الذين جاءوا يطلبون القراء يعلموهم؟ وفي شهر واحد يتم هذا مع أصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، وهو شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة؟

ولكن يرد على هذا بأن النبي ﷺ قد أجاب عضل والقارة بما جاءوا يطلبونه من القراء الذين يعلمونهم.

كما أنه # بعث أصحاب بئر معونة على كثرة عددهم؛ لأنه كان يعلم أنهم في جوار رجلٍ له مكانته بين قومه، وهو أبو براء.

ولكن حصل ما حصل لهؤلاء وأولئك من غدر لحيان بأصحاب الرجيع، وغدر عامر بن الطفيل بأصحاب بئر معونة، ولكن مهما كانت الحال، فإنه يجب على المؤمن أن يبلغ دعوة ربه، وأن يقوم بواجب التعليم والدعوة لهذا الدين العظيم مهما كانت النتائج، ومهما كانت العواقب؛ لأن المؤمن إنما هو في سبيل الله كل أمره.

وإن إيفاد هاتين السريتين اللتين لم تخرجا لقتال، وإنما خرجتا للدعوة، ولتعليم الناس دين الله ﷻ، كان أمرهما حلقة من حلقات الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى هذا الدين، والسهر على نشره بشتى الوسائل.

ومهما كانت الحال، فإن غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء، أو أن يبلغوا أمانة هذا الدين العظيم، فلهم الحسنى في الحالين.

غزوة بني النضير، وسببها، حصار بني النضير، وإباؤهم الخروج

أ. سبب غزوة بني النضير:

غزوة بني النضير خرج لها النبي ﷺ في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، ذلك أنه # خرج إليهم يبغي إشراكهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وهما من بني عامر، وكان بنو عامر حلفاء لبني النضير، وكان الحلف يلزمهم بأن يشاركوا في هذه الدية.

ولما وصل النبي ﷺ إلى بني النضير في جمعٍ من صحابته -رضوان الله عليهم- فيهم أبو بكر وعمر، وبعض الأنصار، وعرض عليهم الأمر، رحبوا في بداية الأمر، وأجلسوا النبي ﷺ وأشعروه أنهم سوف يودونهم.

ولكنهم قالوا -فيما تآمروا فيه بينهم- بسعي من حيي بن أخطب كبيرهم، قالوا: إنكم لن تجدوا الرجل -يقصدون النبي ﷺ- على مثل هذه الحال التي هو عليها، ودبروا لمقتل النبي ﷺ وقالوا: من رجلٌ يصعد إلى سطح الدار التي يجلس إلى جدارها، فيلقي عليه حجرًا فنستريح منه، فانتدب لذلك واحدٌ منهم هو عمرو بن جحاش الذي التزم بذلك.

وبينما هم يدبرون ذلك الأمر؛ إذ بالنبي ﷺ يأتيه الوحي من السماء يخبره بما عزمت عليه يهود بني النضير، فقام النبي ﷺ عائدا إلى المدينة لم يعرج على شيء، وقد ظن الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي ﷺ خرج لبعض حاجاته، وأنه سوف يعود.

ولكنه لما طال مقامهم جاء من يخبرهم بأن النبي ﷺ دخل المدينة، وأن الذي أخبرهم بهذا رآه ﷺ وهو يدخلها، فرجع المسلمون إلى المدينة، حتى يعلموا أمر النبي ﷺ فعلم منهم بما دبرته اليهود.

ثم إنه # دعا محمد بن مسلمة الأوسي، وأمره أن يذهب إلى بني النضير، بأمر النبي ﷺ أن يخرجوا من بلده، لهذا الجرم الذي عزموا عليه، وهنا قال حيي بن أخطب لمحمد بن مسلمة: ما كنا نتوقع أن يأتينا بهذا الأمر رجل من الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاء الأوس مع بني قريظة، لأن القبائل الثلاثة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ كانت بنو قينقاع حلفاء للخزرج، أما بنو النضير وبنو قريظة كانوا حلفاء للأوس.

ولكن محمد بن مسلمة قال لهم: لقد تغيرت القلوب بعد الإسلام، أي: لم يعد بيننا ود لكم كما كان من قبل في أيام الجاهلية، لما لما أصبح لكم من العداء للنبي ﷺ وللإسلام.

وهنا عرف بنو النضير بجرمهم الذي أصر عليه حيي بن أخطب، وكان سلام بن مشكم غير موافق على ذلك، تشاوروا فيما بينهم ورأوا أنه لا مجال أمامهم إلا أن يستجيبوا لأمر النبي ﷺ فمكثوا أيامًا يتجهزون، وأرسلوا إلى ظهر لهم بذي الجدر، وهو مسرح على مسافة قريبة من المدينة بناحية قباء، كما أنهم تكاروا من أناس من أشجع إبلًا، واستدعوا.

وهنا نجد أمرًا من عبد الله بن أبي ابن سلول؛ إذ أرسل إليهم من يحضهم على ألا يستجيبوا لأمر النبي ﷺ ولم يكن ابن سلول وحده هو الذي طلب منهم ذلك، وكان معه وديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس؛ جماعة من المنافقين بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم.

وكان من كلام عبد الله بن أبي سلول: إن معي ألفين من قومي، ومن غير العرب يدخلون معكم حصونكم، فيموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وأطمعهم في نصر إخوانهم من بني قريظة، وقال: وتمدكم قريظة، فإنهم لن يخذلوكم، ويمدكم حلفاؤكم من غطفان، كما أرسل كذلك ابن أُبي إلى كعب بن أسد القرظي يسأله أن يقف مع إخوانه من بني النضير فأبى، ولم يرضَ نقض العهد مع النبي ﷺ.

فيئس عبد الله بن أُبي بن أبي سلول من قريظة، وهنا أمام هذه الوعود التي وعد بها ابن سلول بخاصة نجدُ بأن حيي بن أخطب تشدد، وتقوى بهذه الوعود الكاذبة، والتي لم يحدث منها شيء، تشدد بن أخطب ورفض الاستجابة بعد أن كانوا استعدوا للخروج، ولطمعه في ما وعد به ابن سلول، استعد بإعداد الحصون، وتهيأ لحصار المسلمين، فعندهم الطعام، والماء، والسلاح، والحجارة؛ كل ذلك تجهزوا به لما هو متوقع من حصار النبي ﷺ لهم.

هنا نلاحظ أمرًا غريبًا، وهو أن عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج، وبنو النضير لم يكونوا حلفاءه، وإنما كان حلفاؤه بني قينقاع، الذين وقف بجانبهم، وكان من شفاعته لهم عند النبي ﷺ أنهم خرجوا بسماحة من النبي ﷺ فلم يأخذهم بجريرة أمرهم، فقال له: هم لك على أن يخرجوا، فخرجوا سالمين.

أما بنو النضير فلم يكونوا حلفاء عبد الله بن سلول، وإنما كانوا أعداءه بالأمس، إنما هم في الحقيقة حلفاء الأوس، فوقوف عبد الله بن أبي ابن سلول معهم أمر يعتبر غريبًا، ولكن لا يستغرب أمر ما دام الكفر يجمع بين هؤلاء وأولئك، فإذا كان الحلف قد جمع بينه وبين بني قينقاع فوقف بجانبهم، فإن الكفر يجمع - الآن- بين ابن سلول وبين اليهود، ولذلك نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١٢].

هكذا كان رد القرآن على هذا الوعد الكاذب الذي ما دفع ابن سلول إليه إلا اجتماعهم على الكفر جميعًا المنافقون واليهود.

على أية حال فإن حيي بن أخطب أخذ في الاستعداد طمعًا في إنجاز ابن سلول وعده، فعدل عن الخروج، ولما عرض عليهم سلام بن مشكم ألا يفعلوا، وأن يقبلوا ما عرضه عليهم النبي ﷺ من الخروج في أمان منه، وحذرهم المخالفة، حتى لا تصاب أموالهم وأنفسهم، وإنما هم في الناس بأموالهم، كذلك حذرهم الإباء من رأيه؛ لأنه لو سار إليهم محمدٌ # فلن يكون لهم إلا ما يكون كرههم له أشد من الشروط.

لكن ابن أخطب أبى من رأي سلام بن مشكم اعتمادًا -كما قلنا. على وعود ابن سلول، وأرسل ابن أخطب إلى النبي # -مما يدل على تمام ثقته بوعد ابن سلول- بخطاب له مع أخيه جدي، فقال له: "إنا لن نبرح دارنا وأموالنا، فاصنع ما بدا لك"؛ ثم أمره أن يخبر ابن سلول بذلك حتى يستحثه لإنجاز وعده لهم.

ب. حصار بني النضير، وإباؤهم الخروج:

ولكن النبي ﷺ لما علم بأمرهم كبر، وكبر المسلمون لتكبيره، وقال #: حاربت يهود.

ولما ذهب جدي إلى ابن سلول حتى يخبره بما تم مع النبي ﷺ من إخباره، رأى عبد الله بن أبي ابن سلول يسرع للخروج، فخرج جدي مسرعًا، وقد يئس من ابن سلول يخبر أخاه بما تم أمر المسلمين عليه، وأنهم مستعدون للخروج لبني النضير، وهنا علم حيي بن أخطب خطأ ما كان عليه.

ولكن قام بنو النضير على حصونهم معهم النبل، والحجارة، وكانوا وحدهم هكذا، وجعلوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة، حتى أظلموا، وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا، ولقد اشتد حصاره # لهم، كما اشتدوا هم في المقاومة، والتجلد.

ومن ثم أمر النبي ﷺ بأمرٍ لعله أن يصيب من ثباتهم وتجلدهم، فأمر بالنخل فقطعت وحرقت كيدًا لهم، واستعمل على قطع النخل رجلين من أصحابه: أبا ليلى المازني، وعبد الله بن سلام.

وكانت العجوة أحرق لقلوب اليهود، وقد صاحت النساء وشققن جيوبهن لهذا الخراب، والدمار، الذي حل بهم، وأرسل ابن أخطب إليه # : إنك كنت تنهى عن الفساد، فلم تقطع النخل؟ وهنا كان المسلمون الذين يقومون بتنفيذ أمر النبي ﷺ قد وقع في قلوبهم شيء من هذا، ولكن نزلت آية سورة الحشر التي هي سورة بنو النضير يقول الله ﷻ فيها: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥].

أي: إن هذا الأمر الذي تقومون به إنما هو أمر من عند الله ﷻ، تقومون به كيدًا لهؤلاء الكافرين الذين هموا بما لم ينالوا.

وأخيرًا: رضي بنو النضير أن يخرجوا على أن يعطوا النبي ﷺ ما سألهم إياه، وقالوا: نعطيك الذي سألت، ونخرج من بلادك، فقال # : لا أقبله اليوم، أي: أن الأمر الذي وافق عليه قبل ذلك -قبل أن يتمنعوا ويرفضوا أمره ﷺ الأول- لم يعد له مجالٌ الآن، ولذلك قال لهم: لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها، ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة، أي: إلا السلاح. فقال سلام بن مشكم لحيي: اقبل قبل أن تقبل شرًّا من هذا. فقال حييٌ: وما هو شرٌّ من هذا؟ قال:

سبي الذرية، وقتل المقاتلة، مع الأموال. ولذلك مكث حييٌّ يومًا أو يومين يفكر في الأمر، وأخيرًا: استقر الرأي عند بني النضير، وخضع ابن أخطب لأمر النبي ﷺ فاستعدوا للخروج من المدينة على ما شرط عليهم النبي ﷺ.

ولقد كان بنو النضير حينما استعدوا للخروج يخربون بيوتهم، وهذا ما ذكرته الآية من أنهم: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ٣].

خروج بني النضير، ومسيرهم إلى خيبر

خرجت بنو النضير، وقد حملوا النساء والذرية، وما استقلت به الإبل من الأمتعة، وأظهروا تجلدًا عظيمًا.

ويصف الواقدي -وغيره- طريق خروجهم من المدينة بأنهم خرجوا من ديارهم، ومروا على المصلى، ثم شقوا سوق المدينة، والنساء في الهوادج عليهن الديباج، والحرير، وقطف الخز الأخضر والأحمر، وحلي الذهب، والفضة، والمعصفر، يظهرون ذلك تجلدًا، حتى إن أبا رابع سلام بن أبي الحقيق قال: إن تكن النخل قد تركناها، فإنا نقدم على نخل بخيبر، وكانت معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم تجلدا، وصف الناس لهم فجعلوا يمرون قطارًا في أثر قطار، وحملتهم ستمائة بعير حتى خرجوا من المدينة في موكب كأنه احتفال بالخروج.

على أن المنافقين من المدينة حزنوا حزنًا شديدًا لخروج بني النضير ثاني القبائل من اليهود، خرجت بنو قينقاع بعد بدر وها هم بنو النضير يخرجون من بعد أُحد.

ولكأن ما ينزله ﷻ بقريش من الهزيمة والنصر عليهم كان يعقبه نصر من الله ﷻ للمسلمين على اليهود -كفار المدينة- الذين كانوا أهل كتاب، ولم يكونوا على غير علم كما كانت قريش.

هنا سار الركب باليهود، فكان من أشرافهم الذين نزلوا خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، ونزلها جمعٌ كثير منهم، فلما نزلوا خيبر دان لهم أهلها، على أن بعضهم مضى إلى الشام.

ولكن كان الذين وصلوا إلى خيبر كانوا يعدون لعدة من المقاومة ضد الإسلام والمسلمين عن مكانٍ قريبٍ من المدينة، وهو خيبر فلم يغادروا إلى الشام.

ونحن إذا نظرنا إلى أمر بني النضير لوجدنا أنهم كانوا أكثر عداء للإسلام، فإن حيي بن أخطب وأخاه أبا ياسر لما نزل النبي ﷺ بقباء، وذهب هذا الرجل ليتعرف على النبي ﷺ نذكر بأنه لما عاد آخر النهار -كما تصف ذلك السيدة صفية بنت حيي بن أخطب. بأن أباها وعمها عادا آخر النهار كسلانين هابطين لألم ما عرفا من نبوته ﷺ ولما سأل أبو ياسر أخاه حيي بن أخطب: أهو هو؟ يقصد النبي ﷺ أهو النبي الذي نجد صفته في التوراة؟ قال: نعم. والذي أنزل التوراة على موسى إنه هو. فقال له: فما في نفسك منه بعد أن قلت هذا؟ قال: عداوته ما بقيت.

كان هذا الأمر الذي اضطرم به قلب حيي بن أخطب من نار العداوة للنبي ﷺ من يوم أن نزل النبي ﷺ إلى قباء قبل أن يصل إلى المدينة.

إذًا: فهؤلاء الناس كان عداؤهم للإسلام أشد من أقرانهم من اليهود، وإن جمعهم جميعًا العداء للإسلام والمسلمين وللرسول ﷺ.

كما أن حيي بن أخطب تألم كذلك لما نزل بالمشركين يوم بدر، -وأيضًا. فإنه ربما حاول أن يستجيب لقريشٍ لما بعثت لهم بعد بدرٍ تستحثهم على أن يقاتلوا المسلمين، بعد أن لم تجْدِ نفعًا تهديداتهم للمنافقين من أهل المدينة أن يتصدوا للمسلمين.

هكذا كانت الحال مع هؤلاء اليهود الذين كانوا ثاني قبيلة منهم تخرج من المدينة.

وهنا نرى أن النبي ﷺ لم يأخذ اليهود جميعهم بجرم بعضهم؛ لأنه # كما نصت الصحيفة بأن الذي يقوم بالجرم إنما يؤاخذ وحده بجرمه، ولذلك فإنه # أبقى بني النضير وبني قريظة بعد أن أخرج بني قينقاع، ولم يأخذ الجميع بجرمهم.

كذلك فإنه # أخرج بني النضير ولم يأخذ بني قريظة بجرمهم.

وهذا من التزام النبي ﷺ بأمر الصحيفة، وأنه # لا يأخذ أحدًا بجرم غيره ﷺ.

هنا هذه الأموال التي خلفها بنو النضير جعلها الله ﷻ لنبيه خاصة، فنزل قول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الحشر: ٦].

هذا الفيء الذي أفاء على رسوله ﷺ جعله الله ﷻ لرسوله خاصة؛ لأن المسلمين -كما قالت الآية- ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾، أي: ما حركتم خيلًا ولا سعيتم، وإنما هذا الأمر جاء بقليل من الجهد.

على أية حال، فإن الله جعل لرسوله ﷺ ذلك الفيء الذي أفاء عليه من أموال بني النضير، فكانت أموالهم له #، فقبض هذه الأموال، والحلقة، ووجد خمسين درعًا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا سلاح كثير كان من العدة التي تركها اليهود، ولم يسمح لهم أن يحملوها تجريدًا لهم من السلاح.

هذه الأموال التي جعلها الله للنبي ﷺ قسمها النبي ﷺ بين المهاجرين الأولين دون الأنصار، لكنه أعطى سهل بن حنيث، وأبا دجانة، وقيل: والحارث بن الصمة لفقرهم، ولم يجعل للأنصار شيئًا من هذه الأموال؛ لأن الأنصار كانوا قد وسعوا المهاجرين الأولين في أموالهم، وزروعهم.

وهنا أراد النبي ﷺ بهذا الفيء أن يرفع عن الأنصار كلفة الأموال التي جعلوها لإخوانهم المهاجرين، ولقد قال عمر بن الخطاب > : يا رسول الله: ألا تخمس ما أصبت؟ فقال ﷺ: لا أجعل شيئًا جعله الله تعالى لي دون المؤمنين كهيئة ما وقع فيه السهمان يقصد قوله ﷻ: ﴿ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ [الحشر: ٧].

وكانت بنو النضير وأموالهم من صفايا رسول الله ﷺ جعلها حبسًا لنوائبه، وكان يزرع تحت النخل، وكان يدخر منها قوت أهله من الشعير والتمر لأزواجه وبني عبد المطلب، وما فضل من ذلك جعله في القراع والسلاح لصالح المسلمين.

ثم إنه ﷺ لما تحول من بني عمر بن عوف من قباء إلى المدينة، وتحول المهاجرون معه تنافس الأنصار في إخوانهم المهاجرين يبغون أن ينزلوا عندهم، فلما نزل المهاجرون الأولون على إخوانهم الأنصار اقترعوا فيهم بالسهمان، فما نزل أحد من المهاجرين على أحد إلا بقرعة بسهم، وكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم.

فلما غنم رسول الله ﷺ أموال بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ادعُ لي قومك. فلما جاء الأنصار، لأن ثابت بن قيس قال: يا رسول الله، الخزرج؟ قال رسول الله ﷺ: الأنصار كلها.

وفي هذا حكمة من أن الأنصار كلهم أصبحوا إخوة، ثم إنه لما جاء الأوس والخزرج تكلم رسول الله ﷺ فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر

الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم، ثم قال موجهًا الكلام للأنصار: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم، وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وحدهم، وخرجوا من دوركم.

فتكلم سعدُ بن عبادة، وسعد بن معاذ، وهما سيدا الأوس والخزرج { فقالا: يا رسول الله. بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا -كما كانوا..

ونادت الأنصار } رضينا وسلمنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار.

فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه وأعطى المهاجرين، ولم يعط الأنصار، اللهم إلا ما ذكرنا من أمر سهلٍ من حنيث وأبي دجانة، وكذلك الحارث بن الصمة < .

ولقد كان لهذا الموقف العظيم من الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين ما نزل فيهم من قول الله ﷻ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ هذه الأموال الذي جعلها الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه جعلها: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم ذكر الأنصار بما هم أهل له، فقال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

هذه الآيات من هذه السورة الكريمة -سورة الحشر- التي نزلت في أمر بني النضير، وما كان منهم، وما كان من أمر الله فيهم، وهي السورة التي سماها ابن عباس سورة بني النضير، لما حوته من الآيات التي ذكرت أمر هذه الغزوة، وهذا الأمر الذي كان من أمر بني النضير كان نصرًا من الله ﷻ لرسوله، وللمؤمنين الذين أبدوا من أول أمرهم سماحة في أن يقيم بينهم اليهود، وكما نصت نصوص الصحيفة التي كانت بين النبي ﷺ وبينهم؛ إلا أنهم لم يلتزموا بها، ولقد رأينا ودهم للمشركين، مع أنه جاء في نصوص الصحيفة التي كانت بينهم وبين النبي ﷺ: أنه لا موادة لقريشٍ، ولا من ودها، وإنما هم عدوٌّ لأهل المدينة جميعًا، يجب أن يقفوا جميعًا موقف رجل واحد.

ولقد كان في هذا ما جعل به النبي ﷺ حقًا لليهود في أن يقيموا معه في المدينة، على الرغم من أنهم ليسوا من العرب، وليسوا من المسلمين، وإنما الفرق بيننا وبينهم واضح، ومع هذا فإن النبي ﷺ جعل لهم هذا بفضل من الله ﷻ، وبمنٍّ منه ﷺ لم يخرجهم من بداية الأمر من المدينة، وإنما جعل لهم ذلك، ولكنهم -كما رأينا- خالفوا مخالفة بني قينقاع وتعدوا بالألفاظ التي لا تليق بمخاطبة النبي ﷺ فكان جزاؤهم أن أخرجوا.

كذلك فإن بني النضير كانوا يسعون إلى أمر عظيم -وهو محاولة قتل النبي ﷺ.

إذا كان بنو قينقاع قتلوا رجلًا من المسلمين، فإن هؤلاء حاولوا قتل النبي ﷺ فكان لهم هذا الجزاء الذي أعده الله لهم، وختم حياتهم ومقامهم بالمدينة.

نكوص أبي سفيان عن موعده

نحن هنا -بعد أن تكلمنا عن بني النضير- وما حصل لهم وكانت غزوة من غزواته ﷺ وجهادًا ضد أعداء هذه الدعوة، سواء أكانوا من المشركين أم من اليهود، وهذا الجهاد الذي كان في السنة الرابعة، كان بعده جهادٌ آخر، وغزوة كانت موعدًا بين المسلمين التزموا به لأبي سفيان الذي نادى بعد أن ظنّ أنه حقق انتصارًا على المسلمين بأن موعدهم بدرٌ من العام القابل، فقبل النبي ﷺ هذا الأمر، وأعد له عدته، والتزم بالموعد، وبالمكان، ولذلك خرج النبي ﷺ في غزوة بدر الموعد كما طلب أبو سفيان، وكانت لهلال ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة. وإن كان بعضهم يقول: إنها كانت في شعبان، ولكن الأكثر على أنها كانت في ذي القعدة، ولقد أعد النبي ﷺ للأمر عدته، حتى إنه # قال: ((والذي نفسي بيده لأخرجن، وإن لم يخرج معي أحد)) فنصر الله المسلمين بذلك، وأذهب عنهم الرعب، واستخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وسار في المسلمين -وهم ألفٌ وخمسمائة- وكانت الخيل عشرة أفراس، كما أنهم خرجوا ببضائع لهم، وتجارات، وكانت بدرٌ مجتمعًا يجتمع فيه العرب كل عامٍ، وكانت تقام لهم سوقٌ فيه لهلال ذي القعدة إلى ثمانٍ منه، ثم تخلو منه ويتفرق الناس إلى بلادهم.

فانتهى النبي ﷺ وأصحابه إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة، وقامت السوق صبيحة الهلال، فأقام المسلمون ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات فربحوا للدرهم درهمًا وانصرفوا؛ لأن أبا سفيان الذي طلب الموعد، وتحدى به، وأراد أن يكون له وقعةٌ في المسلمين في مكان بدر الذي قتل فيه من قتل من أشراف مكة، وكان هذا الأمر منه تحديدًا للمكان، وللموعد.

ومع هذا نجد أن أبا سفيان كان له أمرٌ آخر حينما حل الموعد، فإنه لما دنا الموعد كره الخروج، لأنه ربما داخله شيء في نفسه من أن المسلمين ربما يحققون عليه نصرًا في هذا الموعد الذي اجترأ على تحديد موعده ومكانه.

ولذلك قال محاولًا أن يثني المسلمين عن هذا الأمر -فكان بمكة رجلٌ له دورٌ في نقل الشائعات هو نعيم بن مسعود الأشجعي- قال له أبو سفيان: "إني قد واعدت محمدًا وأصحابه أن نلتقي ببدر، وقد جاء ذلك الوقت، وهذا عام جدب -يتعلل أبو سفيان بهذا الأمر- وإنما يصلحنا عام خصب، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج فيجترأ علينا".

وهذا الأمر قاله أبو سفيان لأهل مكة حينما أوعز إليهم أنه لن يصلحهم إلا عام خصبٍ ترعى فيه الإبل والخيل ويشربون فيه اللبن، وجعل أبو سفيان لنعيمٍ بن مسعود عشرين فريضة -أي: عشرين ناقة- يضمنها له سهيل بن عمرو على أن يقدم المدينة فيخذل محمدًا وأصحابه -كما قال- فرضي نعيمٌ بهذا الأمر، وخرج مسرعًا إلى المدينة ليخبر المسلمين بجمع أبي سفيان الذي أراد أن يوهن المسلمين به، وأن معه من العدة والسلاح الشيء الكثير، فقال رسول الله ﷺ لما سمع هذه القالة، وهذه الشائعة الكاذبة: ((والذي نفسي بيده لأخرجن، وإن لم يخرج معي أحد)) فنصر الله المسلمين، وأذهب عنهم الرعب.

أما أبو سفيان ومن معه من المشركين، فإنهم خرجوا على غير عزم من أبي سفيان لمواصلة السير معتمدًا على أثر هذه الشائعة التي توقع أن تأتي بثمرةٍ في إرهاب المسلمين في المدينة، ولذلك فإنه خرج من مكة حتى وصل إلى مر الظهران، ونزل بمياه مجنة على بعد أربعين كيلو مترًا تقريبًا من مكة، ثم عاد بهم، ولم يكمل الطريق -كما رأينا من قبل- أن تعلّته لهم بعدم مواصلة السير أن العام عام جدب، وأنه لهذا يؤثر أن يرجع بهم إلى مكة.

على أية حال، فإن أبا سفيان ومن معه رجعوا من غير أن يواصلوا المسير لموعدهم الذي واعدوا به المسلمين.

ورجع النبي ﷺ إلى المدينة، وقد أيده الله بالنصر؛ لأن أبا سفيان لم يأتِ للموعد، وخالف فيه.

ورجع النبي ﷺ والمسلمون معه، وقد أظهر الله عز الإسلام، وقوته ورهبته لأعداء الإسلام الذين ثبت بالواقع العملي، تقاعس قريشٍ عن لقاء المسلمين، مع أنهم كانوا يمنون أنفسهم أن ينزلوا بالمسلمين هزيمة في بدر -كما أنزلوها في أحد..

وكان هذا أمل أبي سفيان لعله لما رأى ما نزل بالمسلمين في أحد طمع في ذلك الذي غر به نفسه، ولكن كان الأمر على ما آل إليه.

غزوة الأحزاب (الخندق)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	سبب الغزوة	٣٠٣
العنصر الثاني	:	علمه ﷺ بأمرهم، وعمله	٣٠٦
العنصر الثالث	:	مساحة الخندق وموقعه وعمل المسلمين الشاق لحفره	٣٠٧
العنصر الرابع	:	مفاجأة المشركين بالخندق، ومحاولات لاقتحام الخندق	٣١٤
العنصر الخامس	:	موقف بني قريظة، والتحرّي عن موقفهم	٣١٧
العنصر السادس	:	مفاوضة الصلح مع غطفان، وإسلام نعيم بن مسعود	٣١٩
العنصر السابع	:	جنود الله تنزل للمشركين، ومجيء حذيفة	٣٢٣
العنصر الثامن	:	انصراف الأحزاب	٣٢٥

سبب الغزوة

غزوة من أهم الغزوات التي غزاها النبي ﷺ وقد عرفت كذلك باسم "غزوة الخندق".

وهذان الاسمان التصقا بهذه الغزوة فسميت "الأحزاب" لمناسبة هذه الجموع التي اجتمعت على الكيد للإسلام وحرب المسلمين، وحرب النبي ﷺ في غزوة كانوا يريدون منها ما لم يمكنهم الله منه، وهو استئصال الإسلام، واستئصال شأفة المسلمين بهذه الجموع التي عملوا على أن يجمعوها من قريشٍ واليهود والأعراب.

وكلهم كانوا موتورين من المسلمين: قريشٌ زعيمة الشرك التي كان لها مع النبي ﷺ معارك في "بدر" و"أحد" وغير ذلك من الخرجات التي كان يخرجها النبي ﷺ في غزواته أو السرايا التي كان يبعثها تتهدد قريشاً في طريق تجارتها، حتى -وإن بعدت هذه الأماكن عن طريق المدينة- كما رأينا في "سرية القردة" التي خرج لها زيد بن حارثة رضي > .

كذلك اليهود الذين ما ردوا على تفضل النبي ﷺ عليهم بالمقام في المدينة على أساس أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وكان عليهم -كذلك- أن يعوا بأن المسلمين لهم عدو واحدٌ -الآن- وهم قريش، ولكن اليهود لم يردوا على هذا المنِّ من النبي ﷺ بالمقام في المدينة -كما سابق عهدهم بها في أموالهم، ودورهم، وحصونهم- ومع هذا رأينا ما فعل بنو قيقناع، وبنو النضير، الذين كان من جراء ما فعلوا أن أخرجهم النبي ﷺ ممتناً عليهم بأن لم يستأصل شأفتهم على جرم ما فعلوه، وبخاصة بنو النضير الذين كانوا يعتزمون على قتل النبي ﷺ والله مانعٌ نبيه ورسوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولكن هكذا سولت لهم أنفسهم، وهم على قريب من أحداث هذه الغزوة - غزوة "الأحزاب"- خرجوا من المدينة -كما عرفنا. بعد "أحد" في أوائل السنة الرابعة.

ورأينا منهم من توجه إلى الشام، ومنهم وكانوا الأغلب فيهم والأكثر أثراً والأشد بأساً وعداوة منهم ذهبوا إلى "خيبر"؛ حتى يكونوا على مقربة من المدينة يدبرون المؤامرات ويعدون العدة للكيد للإسلام والمسلمين.

وكان بنو النضير أسعى الناس في هذا الأمر، وكان أسعى من فيهم لهذا حيي بن أخطب الذي قال أول يوم رأى فيه النبي ﷺ وعرف بأنه رسول الله ﷺ: حقاً كما جاءت بأوصافه التوراة وكتبهم، وعهود أنبيائهم، نجد بأنه يقول -بعد أن قرر بكل هذا لما سأله أخوه أبو ياسر-: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته ما بقيت.

سعى هذا الرجل في جمعٍ من رؤوس يهود بني النضير الذين أقاموا في "خيبر" استعداداً لمثل هذا اليوم، ولقد خرجوا لما أعدوا أمرهم إلى "مكة" حتى يستحثوا قريشاً على قتال النبي ﷺ، وبخاصة بعد أن عرفوا بأن قريشاً لم تف بعهدها في لقاء "بدر الموعد"، ولعلهم كانوا ينتظرون أن ينزل بالمسلمين من قريشٍ ما نزل بهم في أحد.

ولكن الله ﷻ نصر الإسلام، ونكص أبو سفيان وقريشٌ على أعقابهم، فلم يأتوا، وهنا ذهب هؤلاء اليهود ليعينوا قريشاً على أن تحقق ما تريد من القضاء على المسلمين في جمعٍ عظيم، منوا قريشاً أنهم يعدون له.

فهنا رأت قريش أن تجيبهم؛ لأن في مصلحتها أن تجتمع هذه الأحزاب المعادية للإسلام، سواء أكانوا من اليهود أو من الأعراب.

وهنا قال أبو سفيان: يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟ فنحن -عُمَّار البيت- ننحر الكوم، أي: الإبل السمان، ونسقي الحجيج، ونعبد الأصنام، فقالت يهود: اللهم أنتم أولى بالحق منه، إنكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه، لأنه فرَّق الجماعة، وفرَّق بين الناس، فأنزل الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥١- ٥٢].

هنا استبشرت قريشٌ بهذا التأييد الذي ظنوه تأييداً دينياً، ولكأنه وحي نزل يؤكد مكانتهم من دينهم.

ولما أجابت قريشٌ لليهود ما تواعدوا عليه، هنا خرجت اليهود بعد ذلك بعد أن منّوا قريشاً بأنهم سوف يجمعون الأعراب من غطفان وغيرهم، ولذلك خرجت اليهود إلى غطفان، فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ وأغروا غطفان بأنهم تحالفوا مع قريش على حرب المسلمين، فعرضوا على غطفان أن يكون لهم نصف تمر خيبر، إذا هم اشتركوا معهم في الحرب، وكان وافد اليهود إلى غطفان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فأجابه عينية بن حصن الفزاري إلى ذلك.

كما أن المشركين من جانبهم بعثوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب.

فنزلوا بمَرِّ الظهران، فجاءتهم القبائل التي أجابتهم من بني سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وأشجع بقيادة مسعر بن رخيلة.

وسارت قريشٌ فيمن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة.

فصاروا في جمع عظيم، وهم الذين سماهم الله ﷻ "الأحزاب"، وكانت عدة الجميع نحواً من عشرة آلاف؛ أجمعوا على المسير صوب "المدينة".

علمه ﷺ بأمرهم، وعمله

هنا كانت عين النبي "خُزَاعة" التي كانت تنبئه بأحوال "قريش"، وما تهدف إليه من الكيد للإسلام، كانت قد استعدت لتخبر النبي ﷺ فلما تهيأت "قريش" للخروج أسرعت "خُزَاعة" بأن أرسلت إلى النبي ﷺ تخبره بهذا الأمر حتى يأخذ للأمر عدته، لعلم "خُزَاعة" بخطورة الأمر فإنهم أسرعوا بالخبر إليه ﷺ حتى إن ركبهم وصل في أربعة أيام، -كما تذكر الكتب بعض الكتب. فأخبروا النبي ﷺ بخبر عدوه.

فجمع النبي ﷺ أصحابه، وشاورهم في الأمر -بعد أن أخبرهم هذا الخبر- وكان الإجماع -من غير شكٍّ- أمام هذا الجمع الكبير أن يكونوا في "المدينة"، ولكن أنَّى للمدينة في تصديها لهذا الجمع الكبير؟

ولذلك كانت هناك فكرة أشار بها سلمان الفارسي، فقال: يا رسول الله، إنا كنا إذا حوصرنا في بلادنا خندقناً -أي: حفرنا خندقاً.

وكانت جهات "المدينة" كلها تكاد تكون متشابكة: الحرتان من نواحيهما، وحيطان النخل والبيوت المتلاصقة كل ذلك كان يمثل عقبة تمنع مسير الجيش واقتحامه، اللهم عدا المنطقة الشمالية التي كانت عارية من نواحي المدينة، ولذلك اختير هذا المكان ليحفر فيه الخندق حتى تكتمل دائرة حماية "المدينة".

ولأن الوقت كانت فيه نوع من الفسحة، فإن النبي ﷺ خرج في عدة من المهاجرين والأنصار فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل جبل سلع خلف ظهره، ويخندق من المزاد إلى ذباب إلى راتج، فعمل -يومئذ- في

الخندق، وندب الناس وخبرهم بدنو عدوهم، وعسكرهم في سفح سلع، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو ويتعجلون.

واستعاروا من بني قريظة -آخر قبائل اليهود مقاماً بالمدينة- آلات كثيرة من: مَساحِي، وكرازين، ومكاتل للحفر، ووكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه، فكان المهاجرون يحفرون من ناحية الشرق من راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل أبي عبيدة في الغرب، كان الخندق على هذا يربط بين طرفي حرة واقم، وحرة الوبرة وهي -كما عرفنا المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل، وتحيطها الحرات التي يصعب على الإبل والمشاة السير فيها، ولهذا كانت تعتبر هذه الحرات موانع طبيعية أمام هذه الجموع القادمة.

مساحة الخندق وموقعه عمل المسلمين الشاق لحفره

وقد شرع المسلمون في حفر الخندق، وكان طوله نحو من خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة.

وقد قسم العمل على المسلمين، فكان نصيبُ كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، وهنا كان من ينتهي من حصته كان يساعد إخوانه حتى يتم العمل في عجالة قبل أن يأتي الأحزاب، ولقد تراوحت مدة الحفر ما بين ست أيام وأربعة وعشرين يوماً - على خلاف فيما ذكره الرواة، وكتّاب السيرة.

ولقد كان المسلمون يقومون بهذا العمل في أوان شتاء وبرد، ومع هذا لم يمنعهم ذلك مع قلة طعامهم الذي كان قليلاً من الشعير يخلط بدهن متغيِّر الرائحة،

فكانوا يأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه، ولم يكن أمامهم، وهم في هذه الحال إلا أن يثبتوا صلابة أمام هذا العمل العظيم.

وقد شارك المسلمون جميعهم في الحفر، الصادقون في الدين، لا فرق بين غني وفقير، وأسوتهم -في ذلك كله- رسول الله ﷺ الذي كان يحمل التراب حتى وارى التراب جلده الشريف، وكان يحمل التراب ويضرب بالمعول، ويقوم بالأعمال الكثيرة وما ترفع عن أي شيء من هذا، وكان هذا دأبه ﷺ الذي عهدناه معه، في "بدر" و"أُحد" -حينما كان يشارك أصحابه في شديد الأمر من العمل- وهنا يذكر أنسٌ بن مالك رضي > بأنه ﷺ حفر بيده الشريفة، وحمل التراب على ظهره حتى إن الغبار علا ظهره، وعكنه ﷺ.

كما تصف أم سلمة رضي > تقول: ما نسيت يوم الخندق، وهو يعاطيهم اللبن، وقد اغبر شعره، كذلك كان أبو بكر وعمر } ينقلان التراب في ثيابهما إذا لم يجدا مكاتل من العجلة، وكانا لا يفترقان في عمل ولا مسير ولا منزل كما أن وجوده # بين المسلمين كان يحفزهم على الصبر والثبات.

فلقد ذكر أنس بن مالك رضي > يقول جاءنا النبي ﷺ ونحن نحفرُ في غداة باردة وقد ألم بهم الجوع والتعب، فكان يبعث # في نفوسهم النشاط برجزٍ كانوا يقولونه:

نحن الذين بايعوا محمدا ❖ على الجهاد ما بقينا أبداً

ثم كانوا يرتجزون بشعرٍ لعبد الله بن رواحة، يقولون:

والله لولا الله ما اهتدينا ❖ ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ❖ وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى بغوا علينا ❖ إذا أرادوا فتنة أبينا

وكان النبي ﷺ يردد معهم الكلمات الأخيرة من كل بيت من هذا الشعر، فحينما كانوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً ❖ على الجهاد ما بقينا أبداً

إذا به # يقول معهم، ويردد أبدًا ويطيل بها الكلام، والصوت كذلك، حينما كانوا يقولون:

إذا أرادوا فتنة أبينا

كان يقول هذه الكلمة -يرددهأ. بعدهم: أبينا، ويطيلها ﷺ يرفع بها صوته.

ويذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ كان يشتد في العمل، ويجتهد فيه، يضربُ مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرةً يحمل التراب في المكتل، حتى بلغ منه التعبُ يوماً مبلغاً، فجلس ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر فنام، فقام أبو بكر، وعمر } على رأسه ينحيان الناس عنه أن يمروا به، فينبهوه لما كانوا يرونه فيه من التعب، ولكنه لما استيقظ ووثب فقال: أفلا أفزعتموني؟ وأخذ الكرزن يضرب به، ويقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ❖ فاغفر للأنصار والمهاجرة

اللهم العن عضلاً والقارة ❖ فهم كلفوني أنقل الحجارة

كذلك عمد المسلمون في الخندق حتى أحكموه، وكان النبي ﷺ يعقب بين عائشة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، فتكون عنده عائشة أياماً، ثم تكون أم سلمة، ثم تكون زينب، هكذا فهؤلاء الثلاث هنّ اللائي حضرن معه الخندق.

أما سائر نسائه كنّ في أطم بني حارثة، وكان حصيناً، كان النبي ﷺ كما رأينا. يقوم بالعمل لا يترفع عنه، وإنما كان يضرب المثل والأسوة الحسنة للمسلمين الذين كانوا معه، وللمسلمين جميعاً الذين جاءوا من بعده.

وكان المسلمون حينما يعتريهم أمرٌ صعبٌ في حفر الخندق كانوا يلجئون إليه ﷺ، فلقد روى الإمام أحمد والشيخان وغيرهم، عن جابر بن عبد الله: "أن المسلمين عرض لهم في بعض الخندق صخرة، -وفي لفظ "كدية"- عظيمة شديدة بيضاء مدورة، لا تأخذ فيها المعاول، فكسرت حديدهم، وشقت عليهم، ويقال: إنها عرضت لسلمان صاحب الفكرة، ولما شكوا لرسول الله ﷺ ذلك، وكان في قبة تركية ضربت له نزل # ثم قام ورئي وبطنه # معصوب بحجرٍ من الجوع يشد به صلبه- فدعا # بإناء من ماء، فتفل فيه، ثم دعا بما -شاء الله- أن يدعو به، ثم أمر بأن ينضح من ذلك الماء عليها، فيقول من حضر ذلك: والذي بعثه بالحق، إنها عادت كالكثيب المهيل ما ترد فأسا ولا مسحاة، ولقد أخذ النبي ﷺ المعول من سلمان وقال: ((بسم الله)) وضرب ضربة فكسر ثلثها، وبرقت بارقة فخرج نورٌ من قبل اليمن فأضاء ما بين لابتي المدينة، حتى كأن مصباحاً أضاء في جوف ليل مظلم، فكبر ﷺ وقال: ((أعطيت مفاتيح اليمن، أني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)) ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخر، وبرق منها برقةٌ فخرج نورٌ من قبل الروم نواحي الشام، فأضاء ما بين لابتي المدينة، فكبر الرسول ﷺ وقال: ((أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني الساعة)) ثم ضرب الثالثة ،فقطع ما بقي من الحجر، وبرقت برقة من جهة فارس، أضاءت -كذلك- ما بين لابتي المدينة، فكبّر رسول الله ﷺ وقال: ((أعطيت مفاتيح فارس، والله أني لأبصر قصور الحيرة، ومدائن كسرى من مكاني هذا، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا بالنصر))، فسر المسلمون بهذه البشرى والنبوءة من النبي ﷺ.

يبشر النبي ﷺ بالفتوح نواحي الدنيا، وفي بلادٍ عتا حكامها، وهو في هذا الموقف الذي يتهدد المسلمين بهذا الخطر العظيم، ولكن المؤمنين كانوا يأخذون كلام النبي ﷺ

ثقة بما يقول، تطمئن بذلك قلوبهم، حتى وإن استهزأ المنافقون بكلامه ﷺ ولقد قال رسول الله ﷺ في هذا الموقف: هذه فتوحٌ يفتحها الله تعالى بعدي يا سلمان، لتفتحن الشام، وتظهرون على الشام، فلا ينازعكم أحد، وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى، فلا يكون كسرى بعده، فقال سلمان: فكل هذا رأيت.

وقال أبو هريرة فيما رواه أبو إسحاق -حين فتحت هذه الأمصار زمان عمر وزمان عثمان ومن بعده-: افتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس أبا هريرة بيده ما فتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمداً مفاتيحها قبل ذلك.

فقال المنافقون: يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

في هذا الموقف كانت آياتٌ يثبت الله بها قلوب المؤمنين، ويظهر فيها أمره ﷺ، وأنه كان يشارك المسلمين في العمل والجهد، مهما كان شاقاً، بل كان # - كعهدنا به- يقوم بأصعب الأعمال -كما رأينا.

وهنا نشير إلى أن النبي ﷺ ترك للغلمان دوراً في المساهمة في أعمال الحفر، ولكن لما اشتد الأمر، وأصبح المشركون على مقربة من المدينة، فإنه # أمر من لم يبلغ مبلغ القتال أن يرجع إلى أهله في الآطام مع الدراري، والنساء.

ولقد أجاز النبي ﷺ يوم الخندق عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأبا سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وكانوا أبناء خمس عشرة سنة.

هنا نرى تنافس المسلمين في هذا العمل الجاد في سبيل الله، حتى الصبية الذين لم يكن لهم بأس للقتال كانوا يشاركون بهمة في سبيل الله.

أما المنافقون الذين كانوا يستهزئون بكلام النبي ﷺ، فلقد أبطؤوا في العمل، وكانوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم لواذاً، ويتعللون بالعلل الواهية حتى لا يكون لهم دور في هذا العمل العظيم الذي سوف يحمي المدينة كلها، وهم من سكانها، ومع هذا فكانوا يتسللون من الموقع، وكان كثيرٌ منهم يعتذرون بأعذار واهية، وكان # يأذن لهم؛ لأنه كان يعلم أنهم ليس فيهم خير يُرجى في أمثال هذه الشدائد.

وكان الرجل من المسلمين إذا عرض له أمرٌ من حاجة لابد له من أن يقضيها، كان يذكر ذلك للنبي ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته، وكان النبي ﷺ لعلمه بصدق المؤمنين، فإنه كان يأذن، فإذا قضى الرجل حاجته رجع إلى ما كان عليه من عمله رغبة في الخير، واحتساباً في الأجر.

ولذلك أنزل الله ﷻ يفصلُ بين هؤلاء وأولئك في هذه الآيات من سورة النور: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

كذلك فإنه أنزل في حقِّ المنافقين: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]

وتلك الحال: فإن النبي ﷺ ما كان يستأثر نفسه بمزية من دون أصحابه، فلما رأى جابر بن عبد الله ما بالنبي ﷺ من الجهد والجوع والنصب، فإنه استأذن، وذهب إلى امرأته، وقال لها ما رآه من النبي ﷺ: إني رأيت رسول الله ﷺ خمصاً -أي: جائعاً. فهل عندك شيء؟ قالت: عندي صاع من شعير، وعناق -

أي: عنز- فأخرجت إناء فيه صاع من شعير، وذبحت العناق، وطحنت الشعير، وأعدت طعاماً، وقالت: يأتي رسول الله ﷺ ورجلان معه، فلما ذهب جابر فأسر إلى النبي ﷺ، بذلك نادى النبي ﷺ في الناس: هلمّ إلى طعامٍ عند جابر، فاسترجع جابر لما سمع ذلك: أيأتي الجيش كله ليأكل من هذا الطعام اليسير؟ وأسرع إلى امرأته يخبرها الخبر، فقالت له: بك، وبك، تنزل به في الكلام؟ أتريد أن تفضحنا عند رسول الله ﷺ؟ فلما عرفت منه أنه ذكر له الطعام، وقدره، قالت: الله ورسوله أعلم، وكان النبي ﷺ أمره: ألا يصنعوا الطعام ويتموه حتى يأتيه، ودخل النبي ﷺ إلى بيت جابر، وبهذا الطعام اليسير، وبهذا الجمع من الجيش الذي كان يقرب من الألف، فأطعمهم عشرة عشرة، وما نقص الطعام، وكان ذلك ببركة الله ﷻ التي جعلها في يد النبي ﷺ.

كما أنه # رأى ابنة بشير بن سعد ومعها تمرٌ في طرف ثوبها، فناداها، فناداها رسول الله ﷺ وسألها: عمَّ بيديها؟ قالت: تمرٌ بعثت به أمي لأبي وخالي عبد الله بن رواحة. فأخذ النبي ﷺ التمر منها في كفه فما ملأها، ثم بسط ثوباً فنشره عليه، ثم أمر منادياً ينادي أهل الخندق: أن هلمّ إلى الغداء، فاجتمعوا، وأكلوا منه، وجعل التمر يزيد كلما أعطى منه النبي ﷺ.

هذا إلى كثيرٍ من الآيات التي كان يراها المسلمون من معجزاتٍ كانت تزيدهم ثباتاً وإيماناً بنبيهم ﷺ.

وبعد فترة تراوحت -كما قلنا بين الستة أيام، وما بين ما جاوز العشرين يوماً. انتهى المسلمون من حفر الخندق.

ولعلّ الفترة القصيرة أكثرُ مناسبة، لأن المسافة بين "مكة" وبين "المدينة" لا تأخذ أكثر من نحو من ستة أيام، فلو طالت فترة الحفر على الروايات التي تزيد بها على العشرين يوماً، بل إن بعضهم يقول: إن الحفر ظل شهراً فإن معنى هذا أن المشركين سوف يردون إلى "المدينة" قبل أن ينتهي العمل في الخندق، ونعرف بأنهم

لما جاءوا وجدوا هذا العمل العسكري الذي أعده النبي ﷺ والمسلمون لهم، وكان قد تم إنجاز هذا العمل.

فلعل "خُزاعة" أخبرت النبي ﷺ من قبل أن يجتمع شمل الأحزاب إذا كانت الفترة قد طالت عن ستة أيام.

على كل حال: فإنه بعد الانتهاء من حفر الخندق والاستعداد للأمر، فإن النبي ﷺ أخذ للأمر عدته، ونزل أمام سلع فجعله خلف ظهره، والخندق أمامه، وكان عسكره ﷺ فيما هنالك، وضربت له قبةٌ من أدمٍ كانت على المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل -جبل الأحزاب. وكان المسلمون نحواً من ثلاثة آلاف.

ويقول بعضهم: إنهم كانوا أقل من هذا، وهذا وهم.

وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة، واستعد المسلمون لهذا اللقاء، بعد أن أحكمت حلقة الدفاع عن المدينة -كما رأينا. كما أنه # إتماماً للعمل، جعل شعاراً للمسلمين "حم لا ينصرون" أو "هم لا ينصرون" كما في بعض الكتب.

مفاجأة المشركين بالخندق، ومحاولات لاقتحام الخندق

أ. مفاجأة المشركين بالخندق:

أقبلت قريشٌ حتى نزلت بمجمع الأسيال فيمن جاء معها وما انضوى إليها من كنانة، وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، فسرحت قريشٌ ركابها في وادي العقيق، كما سرحت غطفان إبلها إلى الغابة.

وكان أمر المؤمنين لما رأوا هذه الجموع الغفيرة من هذه الأحزاب التي اجتمعت كلمتها على العداء للإسلام والمسلمين، فإنهم لما رأوا ذلك، ما قالوا إلا ما ذكره القرآن: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

هنا أمرٌ: لما جاءت قريشٌ وجموعها -لما رأوا الخندق- دهشوا وعجبوا، لأن العرب لم يكن لهم عهد بهذا النوع من الدفاع، وقالوا: هذه خدعة لم تعرفها العرب.

ونحن نرى بأن النبي ﷺ في غزواته مع قريش في بدر وأحد والأحزاب -هنا- كان يفاجئ بالجديد من التخطيط الذي يمكن أن يؤدي إلى نجاح المؤمنين والمسلمين في معركتهم ضد قريش، فنذكر أمر الصف في "بدر"، وأمر الرماة على الجبل -جبل الرماة- الذي عوق قوة الخيل عند المشركين، وهنا نجد بأن النبي ﷺ بمشورة سلمان كان أمر الخندق من الأمور التي جعلها الله سبباً في رد هذا الخطر الذي كان ماثلاً أمام المسلمين، والذي كان يمكن لولا فضل الله ﷻ أن يكون له خطرٌ كبير على المسلمين في "المدينة".

هنا أخذ المشركون أمام هذا الأمر لا يجدون سبيلاً إلا الرمي بالنبل، ومحاولة اقتحام الخندق، ولكن كان يصمد لهم المسلمون صموداً ردهم على أعقابهم، بل إن من حاول منهم أن يقتحم الخندق كان: إما أن يقتل، وإما أن يرتد على عقبه.

ولعله كان من الخطة أن يترك مكانٌ يمكن أن يسمح لفرادى من فرسان المشركين، أن يعبروه، ولكنه لا يسمح للجموع أن تقتحم "الخندق"؛ ولذلك كنا نجد بعض المحاولات من المشركين في العبور من هذه المناطق التي كانت ضيقة بعض الشيء،

أو كانت غير عميقة بعض الشيء كما يذكر المهتمين بالأمور العسكرية، ولعل هذا كان نوعاً من الاصطياد لأمثال هؤلاء.

ب. محاولة اقتحام الخندق:

فلمّا لم يجد المشركون سبيلاً إلى أن يقتحموا الخندق بجموعهم -كما رأينا. كان يقتحم بعضهم الخندق من هذه المناطق الضيقة.

وكان ممن اقتحم الخندق:

منهم: عمرو بن عبد ود، الذي كان قد شارك في غزوة بدر، ونالته جراحات كثيرة فيها، ولم يحضر "أُحداً"، حتى يشفى صدره المسلمين -كما كان يعزم- فلما جاءت الأحزاب خرج.

وكان رجلاً كبيرًا في السن، ولكنه كان ذا بأسٍ، وقوة، وعناد، وإصرار في الكفر لما جاوز الخندق نادى: من يبارز؟ خرج له عليّ بن أبي طالب > بعد أن أذن له النبي ﷺ.

وتنازل الرجلان وقد استهزأ أو استقل عمرو بعليٍّ في بداية الأمر، لكنه لما رأى إصرار علي نزل عن فرسه، فبارزه، وانتهى الأمر بأن نصر الله علياً عليه، لأنه لمّ علا عليّاً بالسيف فتلقاه بالدرقة، وكانت فرصة أن يعاجله عليّ بضربة قضت عليه، فكبّر المسلمون، وعلم النبي ﷺ أن عليّاً قتل هذا الرجل.

لم يكن عمرو وحده هو الذي عبر الخندق، وإنما عبر كذلك جماعة من المشركين.

ومنهم: عكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب بن مرداس، لكن عاد هؤلاء لما قتل عمرو بن عبد ود.

ومنهم كذلك: نوفل بن عبد الله بن المغيرة؛ فقد أقبل على فرس له بعد أن غربت الشمس، يريد أن يجتاز الخندق، فهوى هو وفرسه فيه فصُرِع، وقيل: بل نزل إليه علي كذلك فقتله. وقيل: قتله الزبير بن العوام.

على أية حال: فإن هذا الأمر يدلنا على أن المشركين كانوا في تحرّق وشوق إلى أن يستعرضوا قدراتهم، وبطولاتهم، لكن حال بينهم وبين المسلمين هذا الخندق الذي جعله الله سبباً في درء هذا الخطر، ودفع هذا البلاء عن المسلمين.

سعد بن معاذ: ولقد طال الحصار -حصار المشركين والأحزاب للمسلمين- والخندق حائل بينهم وبين المسلمين بإذن الله، ولم يكن بينهم إلا الترامي بالنبال، ولقد أصاب سعداً بن معاذ -رضي عنه- سهم في أكُحله، فأنفجر -وهو عرق من العروق الهامة في جسم الإنسان- وحُمِل سعد إلى المسجد حتى يُداوى من هذا الجرح الذي يمكن أن يودى بحياته، أصابه مشرك اسمه "ابن العرقة".

هنا طال الحصار -كما عرفنا. وكان النبي ﷺ يحرص على أن يكون الخندق تحت عيون المسلمين، وبخاصة تلك الثغرة التي ربما تعمّد المسلمون عملها، حتى تستدرج منهم من تستدرج.

موقف بني قريظة، والتحرّي عن موقفهم

أ. موقف بني قريظة:

وفي هذا المقام لما قال أبو سفيان لحيي بن أخطب: بأن المقام طال بهم، وأنه لا حرب، وأمامهم هذه الخدعة التي ما عرفتها العرب، والتي جعلت آمالهم تتكسر عندها، هنا لما تشاور أبو سفيان مع حيي ابن أخطب؛ فكّر حيي في أن يُدخل

يهود "بني قريظة" مع الأحزاب في هذا القصد، فسعى إليهم، ولما توجه إلى دور "بني قريظة"، واستأذن على كعب بن أسد حتى يدخله مع الناس، ولكن كعباً أبى في أول الأمر في أن يجيب حُيياً إلى هذا الطلب، واستمسك بعهده مع النبي ﷺ، وبخاصة أنه رأى ما حدث لـ: "بني قينقاع"، و"بني النضير"، ولكن حُيياً ما زال به يغريه حتى استجاب هذا الرجل، ونقض عهد بني قريظة مع النبي ﷺ.

وهنا عظم الخطب والخطر على المسلمين؛ لأن منازل "بني قريظة" كانت داخلة في حلقة الدفاع عن المسلمين وعن المدينة، ولكن كان هذا ما حدث.

ب. التحري عن موقفهم:

وسرى الخبر، وعلم النبي ﷺ بهذا الأمر، ولكنه أراد أن يتثبت، فبعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وخوات بن جبير -في جماعة- وطلب منهم أن يتعرفوا له أمر "بني قريظة"، وأمرهم: أن لا يصرّحوا إذا كان الخبر حقيقة حتى لا يفت ذلك في أعضاد الناس، أما إذا كان الخبر غير حقيقيّ فأمرهم أن يعلنوه حتى يستبشر الناس، وحتى يطمئنوا فذهب الجماعة إلى حيث "بنو قريظة"، وسألوهم عن أمر العهد مع الرسول ﷺ ولكنهم أبدوا استهزاءً وأبدوا وقاحة في كلامهم، وخطابهم، مما أشعر المسلمين بأن الخيانة منهم قد وقعت.

كان من ردّ هؤلاء على الوفد الذي بعثه النبي ﷺ يستجلي حقيقة الأمر: أنهم صرّحوا في استهزاء بأنه لا عهد بينهم وبين محمد ﷺ، ولقد نالوا من رسول الله ﷺ لما ذكر لهم سعدٌ ما أمرهم بعهد رسول الله قالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد، فتشاتم القوم وشاتمهم سعد بن معاذ، ولكن قال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، وعاد الرجال إلى النبي ﷺ، وأخبروه في تورية، بأن هؤلاء قد نقضوا عهدهم، وقالوا له: عضل والقارة -أي: أنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع- كما عرفنا.

فقال النبي ﷺ وهذا دأبه دائماً عند الشدائد يستقبلها بكل ثبات وإيمان وثقة في الله ﷻ، فقال: الله أكبر!! أبشروا يا معشر المسلمين، هنا نجم النفاق واضحاً، وظهر نفاق المنافقين على أكثر ما كان عليه، وعظم الخطب على المسلمين، ورأوا أنهم قد أوتوا من جميع النواحي، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون والناس كل ظن، حتى قال بعض المنافقين: إن محمداً كان يعدنا أن نأكل كنوز كسرى، وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وحده، وكان منهم التسلل الذي كثر منهم حتى إنهم تنادوا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣]

هنا يتنادون بالاسم القديم الذي لم يكن في الإسلام، والذي لم يكن يحب النبي ﷺ أن تُسمَّى به المدينة، بعد أن سماها "المدينة"، و"طابة"، وغير ذلك من الأسماء الإسلامية التي علقت بهذه المدينة الكريمة.

وهنا إذاً: فإن تناديهم بهذا الاسم يدل على بعث أمور الجاهلية التي كانت قبل الإسلام في نفوسهم، ولكأنه رمز بينهم.

مفاوضة الصلح مع غطفان، وإسلام نعيم بن مسعود

أ. مفاوضة الصلح مع غطفان:

هنا لما اشتد الخطبُ على المسلمين رأى النبي ﷺ رأياً لعل أن يكسر حدة هذه الجموع، ولذلك فإنه # همّ، ورأى أن يخرج الأعراب وبخاصة غطفان التي كانت شديدة البأس، كثيرة العدد في الأحزاب فدعا شيخيها: عيينة بن حصن، والحارث بن عوف المري، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما

عنه وعن أصحابه، وجرى بينه # وبينهما الصلح على هذا حتى كتبوا الكتاب.

ولكن لم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلح اللهم إلا المفاوضة والمراودة في هذا الأمر؛ لأن أصحاب الأمر والثمار بعد ذلك هم أهل "المدينة"، وإن كانوا لن يرجعوا عن أمر أمضاه النبي ﷺ، ولكنا كما نعرف بأنه # ما كان يبرم أمراً من الأمور الخطيرة إلا بعد أن يأخذ فيه المشورة؛ ولذلك دعا سعداً بن معاذ وسعداً بن عبادة -سيدي الأوس والخزرج. وعرض عليهما ما فاوض عليه هذين الرجلين، وهنا فطن الرجلان لهذا الأمر، وهذا العمل؛ فقالا: يا رسول الله أمرٌ أمرك الله به فلا نتأخر، ولا نتقدم عنه، وما علينا إلا أن نلتزم به، أو أمرٌ تحب أن نصنعه فنصنعه، لأنك تحب ذلك، أو أنك تفعل ذلك من أجلنا، تفعله لنا، قال النبي ﷺ: بل أفعل هذا من أجلكم ولكم، فإني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

وهنا ظهر الإيمان واضحاً عند هذين الرجلين اللذين كانا يتكلمان بلسان الأنصار جميعاً، قالا: يا رسول الله! لقد كنا نحن وهؤلاء -أي: المشركون- لا نعرف الله، ولا نعبده، وكنا معهم على الشرك، وكانوا لا يطمعون في تمرة من تمر المدينة إلا قرىً -أي: ضيافة- أو بيعاً، أفبعد أن أكرمنا الله بك، وأعزّنا بالإسلام، وعبدنا الله، وعرفناه، نعطيهم أموالنا؟ لا، والله ما نعطيهم إلا السيف، والله يحكم بيننا وبينهم.

وهنا رضي النبي ﷺ بذلك الأمر، وحمد الله أن كان هذا رأي السعدين.

يذهب بعض الكتاب إلى أن النبي ﷺ أراد أن يستحث الأنصار على أن يأخذوا هذا الرأي، ولكنه ﷺ كان من الواضح عنده أن قصده كان القصد الأول، وهو: أن يخرج غطفان من دائرة الصراع والتحزب على المسلمين.

ب. إسلام نعيم بن مسعود:

ولما كان هذا الأمر على ذلك النحو كان على المسلمين أن يثبتوا ثباتاً يتناسب مع إيمانهم، ومع قوة عزائمهم بهذا الدين العظيم، وأمامنا هذه الصورة المشرفة التي كان عليها سعدٌ بن معاذ، وسعد بن عبادة { .

في هذه الحال التي صار عليها الأمر -بعد أن لم تتم هذه المصالحة- كان فضل الله ﷻ ونعمته على المسلمين، إذ أنه جاء رجلٌ من صفوف الأحزاب، ومن غطفان هو نعيم بن مسعود الأشجعي، ونحن نذكره أنه هو الذي استعمله أبو سفيان -من قبل عند بدر الموعد حتى يخذل المسلمين- ويقول لهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

كان من فضل الله ﷻ أن يخرج من صفوف المشركين ذلك الرجل الذي قذف الله في قلبه الإيمان والإسلام في هذه المحنة، وإبانها، فجاء متستراً يعرض إسلامه على النبي ﷺ، ويشهد شهادة التوحيد، ويسأل النبي ﷺ أن يوجهه إلى عمل يقوم به في صفوف الأحزاب، فسر النبي ﷺ بإسلامه، وقال: إنما أنت رجل واحدٌ، فخذّل عنا بما استطعت.

وهنا خرج نعيم بن مسعود يباشر براعته في أمثال هذه المواقف، وفي السعي بين الناس، كما سعى من قبل بين المسلمين وبين قريش لما استعمله أبو سفيان، فإنه خرج إلى بني قريظة الذين كان له ودٌ معهم، فلما ذهب إليهم، ودخل عندهم، وأبدى لهم نصحاً، وقال: تعرفون ودّي لكم؛ ثم إنه تحدث معهم عن أمرهم الذي فعلوا، ولكأنه قبح ذلك الأمر لهم، وحذرهم منه، وقال: أنتم لستم كقريش، وغطفان، والأحزاب، فإن هؤلاء أصحاب فرصة، إذا وجدوها

انتهزوها، وإن لم يجدوها عادوا إلى بلادهم وتركوكم مع الرجل، فأنتم تساكنونه في بلده، فماذا يكون الأمر بعد أن يرجع الأحزاب وقريش إلى بلادهم ويتركونكم؟ إذا لم يحاربوه، فقالوا له: بماذا تشير علينا؟ فعرض عليهم ألا يدخلوا القتال حتى يأخذوا رهناً من قريشٍ، ومن الأحزاب، وقال لهم: حتى تضمنوا بهؤلاء الرهن أن سوف يقاتلون معكم، حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه.

وهنا خرج من عندهم بعد أن قالوا له: قد أشرت بالرأي، فذهب من فوره إلى أبي سفيان، وقال له: إن "بني قريظة" ندموا على ما فعلوا مع محمد، وعزموا على أن يكفروا عن خطئهم معه، بأن يأتوه برجال منكم حتى يضرب أعناقهم فيكفروا بذلك عن خطأهم الذي فعلوا، وإذا بعثوا لكم على رهن منكم، فلا تعطوهم، فإنهم سوف يذهبون بهم إلى محمد ليقتلهم.

وهنا لما أخذ الشك في قلب أبي سفيان من هذا الأمر؛ لأنه من قبل ذلك عرفه بوده لقريش وصلته بهم، هنا أخذ أبو سفيان هذا الكلام مأخذ الجد، وبعث إلى "بني قريظة" يقول لهم: لقد هلك الخف والحافر -يعني: الإبل والخيل، وأصبحنا بغير دار مقام، وأصابنا من البرد والشتاء ما أصابنا ولم نفعل شيئاً، وهنا عرض عليهم أن يخرجوا للقتال معهم حتى يتمكن الأحزاب من إنزال الهزيمة بالمسلمين إذا دخلت معهم بنو قريظة، ولما عرض عليهم ذلك قالوا له: إن أمرنا ليس كأمركم، وإنا لن نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً منكم نضمن بهم أنكم ستواصلون القتال حتى تنتهوا من محمد وأصحابه.

ولكن لما رجع القوم إلى أبي سفيان، وكان منهم عكرمة عرفوا بأن ما ذكره لهم نعيم بن مسعود عن اليهود إنما هو حقيقة، وقالوا: لقد صدقكم نعيم، وهكذا

قال اليهود، لم يجبهم هذا الوفد إلى ما طلبوا من إعطاء الرهن لهم، قالوا: لقد صدقكم نعيم.

كذلك فإن نعيم ذهب إلى قومه غطفان، ومن غير شك: فإن نصحه لهم لا شك فيه، وقال لهم ما قاله لقريش، ولليهود، وأن اليهود لن يقاتلوا حتى يأخذوا الرهن.

وهكذا وقعت الفتنة بين الأحزاب جميعهم، فلم تعد الثقة قائمة بينهم، وكان آخر قبيلٍ دخل في هذه المعركة، وهذا الجمع، وهم اليهود أول الخارجين منها، وأول المتوقفين فيها، ولكن بعد أي شيء؟ بعد أن نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، وأصبحوا -الآن- أمام الجزاء الذي سوف ينتظرهم.

جنود الله تنزل للمشركين، ومجيء حذيفة

ولما يئست قريش من أمر "بني قريظة"، ووقعت الفتنة بينهم جميعاً كان هذا من الأمور التي أدت إلى تراخي عزائم هؤلاء الناس، وكذلك فإن رحمة الله بالمؤمنين والجنود التي لا يعلمها إلا الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ولذلك بعد كل هذا الثبات كله من المؤمنين إبان هذه المحنة التي طالت عليهم هذه الفترة، فإن الله ﷻ بعث جنوده تفعل أفاعيلها بالمشركين، وبالأحزاب، وبذلك بعث الله عليهم الريح التي أطاحت بخيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، كما أن الوقت كان شديد البرد لم يطق هؤلاء أن يستمروا في حصارهم، وفي الوقوف أمام الخندق عاجزين عن اقتحامه، وقد خاست "بنو النضير" معهم بأمرها، ورجعت عما اتفقت معهم عليه في دخولها معهم، هنا ما كان أمام أبي سفيان إلا أن يخطط أو أن يعزم على الرجعة، والعودة.

ولذلك فإن النبي ﷺ في ليلة كانت شديدة البرد، شديدة الريح، عاصفة بالقوم المشركين، فإن النبي ﷺ أراد أن يعرف ما عليه حال المشركين، ولذلك فإنه طلب من يخرج إليهم يتعرف له أمرهم، فنادى في الناس: ((من رجلٌ يذهب فينزل في القوم فيعرف لنا أخبارهم أضمن له الرجعة، يكون رفيقي في الجنة؟)) ومع هذا الإغراء في الجزاء، فإن أحداً لم يقم ليقوم بهذه المهمة.

كرر النبي ﷺ هذا العرض حتى يقوم أحد، ولكن من شدة البأس، والخوف، والفزع، والبرد فإن أحداً لم يجب لهذا، وفي مرور النبي ﷺ رأى رجلاً محتمياً بردائه فقال: من؟ قال: حذيفة. قال: قم. فلم يسع حذيفة إلا أن يقول: قم، فانزل، فاذهب، فانزل في الناس، وتعرف أمرهم، ولا تحدث شيئاً حتى ترجع.

وهنا خرج حذيفة لهذا الأمر، وحفظه الله ﷻ، فألقى في قلبه إيماناً، وثباتاً، وإقبالاً على الأمر، وأضفى على جسده دفئاً على الرغم مما كان من شدة البرد الذي كان ينال الناس، بل كان يناله قبل أن يقوم، يقول: ذهبت فنزلت في القوم، فإذا جنود الله تفعل بهم أفاعيلها، تقلب قدورهم، وتطيح بخيامهم، وتطفئ نيرانهم، وسمعت أبا سفيان يقول: أيها الناس لقد أصبحنا بغير دار مقام، وقد أخلفتنا بنو قريظة، ولا آمن أن يكون بيننا بعض رجال محمد، فلينظر كل رجل منكم من جليسه، وهنا يبادر حذيفة بنور الإيمان، فيأخذ بيد الرجل، فيقول: من الرجل؟ فلكأنه من قريش، ويسأل، ويطمئن، ويستجيب لأمر أبي سفيان، ولكنه بادر حتى لا يبادر الرجل بسؤاله، هذه فطانة من هذا الصحابي الجليل، يقول حذيفة: ولقد رأيت أبا سفيان يقول للناس بعد أن قال لهم ذلك: أما إني مرتحلٌ، وعائدٌ إلى مكة، وأمرهم بالرجوع لبلدهم.

ويقول: فنهض على بعيره، وهو على ثلاث. معقول اليد -أي: البعير- ويقول حذيفة ما أطلق عقاله حتى نهض به، ويقول: والله لقد أمكنني أن أصوب نحوه

سهماً، فأقتله ولكني تذكرت كلام النبي ﷺ، لا تحدث فيهم أمراً، فكففت عن هذا.

ثم عاد حذيفة يذكر للنبي ﷺ أمر هؤلاء المشركين، فوجد النبي ﷺ قائماً يصلي، فلما جاء حذيفة أدخله النبي ﷺ، في رداء كان يصلي فيه، مرطٍ كان لإحدى نسائه -رضوان الله عليهن-، فنام حذيفة حتى صلى النبي ﷺ.

انصراف الأحزاب

وعلم النبي ﷺ بأمر قريشٍ، وما عزمت عليه، وهنا لما رجعت قريشٌ إلى مكة انفرط عقد الأحزاب، كما اجتمعوا بسعي هذا اليهودي حيي بن أخطب، وأقرانه فإن الله ﷻ قد بدد أمرهم بفضله ونعمته على المسلمين.

ملاحظة:

النبي ﷺ في أمور الحرب، والمعركة -دائماً- يأخذ في الأسباب التي تجعله يقف على الأمر، أَخْذَ القائد الذي يعتمد -بعد الله على العيون- وعلى الأخبار التي تأتيه، ولا ينتظر وحياً مع أن الوحي لا ينقطع عنه، ولكن حتى يعطينا الأسوة في هذا الأمر، وحتى لا يكون للمسلمين عذر -بعد ذلك- في قيادة معاركهم بعد النبي ﷺ.

وهنا يعمل على أن يذهب حذيفة، ليتعرف على أمر القوم، وهم على مقربة منه، كذلك يعمل على أن يذهب سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ليتعرفا أمر "بني قريظة"، يأخذ بالأسباب، حتى يكون ذلك أسوة طيبة لنا في أن نأخذ بالأسباب، أولاً، ثم نعتمد على الله ﷻ في أن يتم العمل وينجزه بفضله سبحانه وتعالى.

بعد ذلك رجع المسلمون إلى "المدينة"، وقد نجاهم الله ﷻ من هذه المحنة التي ألمت بهم، والتي اجتمع لها أعداء الإسلام كلهم في وقت واحد ومكان واحد عشرة آلاف من الحانقين على هذا الدين العظيم من المشركين واليهود: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢] ومن الأعراب الأشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، هؤلاء جميعهم جاءوا يقصدون أن يستأصلوا شأفة المسلمين، وما كفاهم هذا العدد، وما كفتهم هذه العدة وما كفاهم هذا الجمع من كل فريق من يمثله، ولكن أرادوا أن يدخلوا من بقي من يهود المدينة من بني قريظة في هذا الحلف، ولكن الله ﷻ خيب آمالهم جميعاً وردهم على أعقابهم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ورجع النبي ﷺ إلى المدينة رجوع الظافرين الواثقين بفضل الله ﷻ بعد أن أدوا كل ما عليهم من الجهد، والتوكل على الله، والأخذ في الأسباب وبالأسباب، ولما عاد هذا العود، بعد أن ثبت في هذا الموقف العظيم إيمان المؤمنين الصادقين، ونفاق المنافقين الكاذبين، لأن هذه المحنة، وهذه الشدة لا يثبت أمامها، إلا كل ذي قلب مؤمن سليم، ولذلك فإنه مع سريان الأمور على الخير، وعلى الأمان، وعلى الكسب، والنصر، لا يعرف المؤمن من المنافق.

أما في مواطن البأس، والشدة فإنه يمتحن الناس ويظهر المؤمن من المنافق، ويميز الله الخبيث من الطيب.

لقد رأينا في "أُحد" رجع المنافقون، ولكن كان دورهم بعد أن نزل بمن نزل من إخوانهم ما نزل من البأس والضر والقتل والجراح فلاموهم على هذا، وظهر نفاقهم، وهنا لما شاركوا، وكان لابد أن يشاركوا، لأن "المدينة" كلها هدف،

وهم الآن في "المدينة"، فلما تعرض الجميع لهذا الخطر وعاشوا ساعاته، ولحظاته كلها، نجم نفاق المنافقين، وظهر كفر الكافرين، -وكما رأينا- في هذه التعبيرات التي نطقوا بها، والتي حكاها القرآن العظيم.

هذه الغزوة التي جمع الحقد فيها هذه الجموع كلها على المسلمين، نزلت بها سورة سميت باسمها "سورة الأحزاب".

وعهدنا بالقرآن العظيم- أنه سجل أحداث غزوات النبي ﷺ فيما نزل من القرآن: فها هي "سورة الأنفال" لغزوة "بدر"، وآيات "سورة آل عمران" منها في غزوة "أُحد"، وهنا غزوة "الأحزاب" هذه السورة، ومن قبل كانت غزوة بني النضير نزلت فيها "سورة الحشر"، التي سماها بن عباس "سورة بني النضير"، هذه السورة التي سجّل الله ﷻ في آياتها نعمته وفضله وما حدث للمسلمين، وما كانت عليه حالهم من الخوف والاضطراب، وما كان في هذه الغزوة، وفي محنتها من ثبات المؤمنين على إيمانهم، وظهور النفاق من المنافقين الذين لم يتحملوا بأس هذه المواقف.

هذه السورة تعرض في آياتها لهذه الغزوة العظيمة التي بشر النبي ﷺ، وكان هذا من آيات نبوته ﷺ حينما أخبر أصحابه بأنهم لن يغزوا -بعد ذلك- وإنما أنتم الذين تغزونهم، وقد حدث بالله بالفعل أن هذه كانت آخر المحاولات التي حاولتها قريش في غزو المسلمين، ولم يكن معقول أن تخرج قريش في جمع يجمع أعداء الإسلام كلهم في صعيد واحد، وفي طريق واحد، وفي مكان واحد يحاصرون المسلمين ويشتدون في أن يبلغوا ما أرادوا، ولكن حال الله بينهم وبين ما أرادوا: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥٤].

هذه السورة العظيمة التي تنطق آياتها بهذه النعمة وتقررها على المؤمنين يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٩- ١١].

هذا الوصف ليس وصف شاعر ولا كاتب، إنما هو الأمر الذي ذكره الله ﷻ الذي يعلم خفايا النفوس، وبواطن القلوب، وتعبر هذه الكلمات من الآية: ﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

هنا يظهر الإيمان قوياً، والنفاق ينجم؛ لأن المنافقين، ولكأنهم أحسوا بأن نهاية الإسلام والمسلمين في هذه الساعة أمام هذه الجموع، ولذلك قالوا ما قالوا: ﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ ﴾ [الأحزاب: ١٣] ينادون وبكل جرأة بهذا الاسم الذي يعلمون أن النبي ﷺ كان يكره أن تُسمى "المدينة" به: ﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

هنا هؤلاء المنافقون ترد عليهم الآيات وتقول: ﴿ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ﴾ [الأحزاب: ١٤] أي: "المدينة": ﴿ ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾ [الأحزاب: ١٤] أي: الردة، أي: لأعطوها راضين، أي: لو أن الأحزاب دخلوا "المدينة" عليكم، وسألوا هؤلاء الردّة عن الدين، لما لبثوا، ولا تلبثوا بها، إلا يسيراً.

وتمضي الآيات لتذكر هؤلاء المنافقين وأمرهم: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٨- ١٩].

هنا يقول الله ﷻ محرضاً المؤمنين على الثبات وعلى التأسي برسول الله ﷺ في مواقف البأس ومواطن الشدة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ويذكر أمر المؤمنين لما ذكر أمر الكافرين المنافقين الذين نجم نفاقهم في هذه الغزوة يذكر الله ﷻ أمر المؤمنين الصادقين: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ثم يذكر الله ﷻ أمثلة صادقة الإيمان بقوله ﷻ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

ثم تذكر الآيات نصر الله على هؤلاء المشركين، وهؤلاء الأحزاب الذين تجمعوا على المؤمنين، بأنه هو الذي ردّهم برحمته وبنعمته: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]

سبحانه هو الذي نصر المؤمنين على قلة عددهم، وقلة عدتهم، وعلى الرغم مما حدث من غدر اليهود -يهود بني قريظة- بالمسلمين ونقضهم العهد معهم، فإن الله ﷻ تولى أمر المؤمنين أولاً وآخراً، واكتنفهم برحمته وتغشاهم بفضله، ورزقهم نصراً لم يكن لهم إلا بفضل الله ﷻ عليهم.

أما بقية الأعداء آخر من دخل في المعركة، وأحدث هذا الفزع في قلوب الناس، وهم يهود "بني قريظة"؛ فإن الله قد أعدَّ لهم جزاءً وفاقاً لما قاموا به من الغدر، ولذلك جاء جبريل # في صلاة الظهر من الغدِ وقال للنبي ﷺ: ((وضعتم سلاحكم؟)) قال: نعم. قال: ((فإن الملائكة لم تضع سلاحها))، وأمره بالمسير إلى "بني قريظة" والله أعلم.

غزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق

عناصر الدرس

العنصر الأول :	سبب غزوة بني قريظة، واستعداد المسلمين لها	٣٣٣
العنصر الثاني :	موقف النبي ﷺ من بني قريظة	٣٣٥
العنصر الثالث :	إسلام بعض بني قريظة، ووفاء بعضهم بعهده	٣٣٦
العنصر الرابع :	الجزاء الذي نزل ببني قريظة، و طلب تحكيم سعد بن معاذ فيهم	٣٣٧
العنصر الخامس :	نتيجة يوم بني قريظة، وتطهير المدينة من آخر جماعات اليهود، وخلوصها للإسلام	٣٤٠
العنصر السادس :	سبب غزوة بني المصطلق، ومباغتة المسلمين للأعداء، ومميزات هذه الغزوة	٣٤٥
العنصر السابع :	تقسيم سبيهم، وزواج النبي ﷺ من بنت شيخهم، وأثر ذلك	٣٥٢
العنصر الثامن :	كثرة المنافقين في غزوة بني المصطلق، وسعيهم في الفتنة	٣٥٣
العنصر التاسع :	حكمة النبي ﷺ في معالجة الفتنة	٣٥٤

سبب غزوة بني قريظة، واستعداد المسلمين لها

كان لا بد من عقاب ينزل بهؤلاء الغدرة الذين خانوا وقت الشدة وهم بنو قريظة، وهو ما حدث فعندما اطمأن النبي ﷺ بأن قريشًا قد رجعت بعد أن أخبر بذلك حذيفة بن اليمان وكان ذلك من الليل، أصبح النبي ﷺ وعاد إلى المدينة، ثم إنه ﷺ خلع لباس الحرب واغتسل، ولما جاء وقت الظهر جاء جبريل # وقال: وضعتم سلاحكم؟ فإن الملائكة لم تضع سلاحها، وإن الله ﷻ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وإني عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم، ولذلك نادى النبي ﷺ بلالًا وأمره أن يؤذن في الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكان اللواء لواء غزوة الأحزاب ما يزال معقودًا كحاله، فدفعه النبي ﷺ إلى علي وخرج آمرًا الناس: ((فإنه من كان سامعًا مطيعًا لا يصلين العصر إلا في بني قريظة)). حتى يحث الناس على المسير والإسراع إليهم.

وخرج النبي ﷺ فيمن معه من الرجال حتى نزل بدور بني قريظة، وتتابع الناس من بعده ﷺ منهم من لم يصل العصر حتى بعد أن فات وقته إلا في بني قريظة، التزامًا بأمر النبي ﷺ ومنهم من صلّاه قبل أن يَصِل حينما شعر بأن الوقت سوف يخرج بالعصر.

وإنما تأولوا وعرفوا بأن النبي ﷺ لم يرد منهم إلا أن يسرعوا، ومن ثم فإنه # لم يعنف أحدًا منهم ممن صلى العصر في وقته، وممن أخره حتى صلاه في بني قريظة، وعلى أية حال وصل -جمع المسلمين، وحاصر النبي ﷺ بني قريظة، بدأ الحصار لهذه القبيلة التي كان من أمرها ما كان، ووصل علي إلى دور بني قريظة سابقًا النبي ﷺ وسمع منهم مقالة قبيحة في رسول الله ﷺ فرجع حتى

لقيه # بالطريق وقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابث، قال: "لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى"، قال: نعم، يا رسول الله، قال: "لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا".

ثم إنه # لما دنا منهم قال: يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ ثم إنه # نزل على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أموالهم، وتلاحق الناس برسول الله ﷺ وبدأ الحصار لهؤلاء الذين غدروا نحوًا من خمسة وعشرين يومًا، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، ولقد كان حيي بن أخطب قد دخل مع بني قريظة في حصنهم؛ لأنه كان قد واعد كعب بن أسد أنه سيكون معه ينال ما يناله لو أن الأحزاب رجعوا من غير أن يقاتلوا محمدًا # وهنا لما اشتد الحصار على بني قريظة ورأوا أنه لا مجال للنجاة قال كعب بن أسد -الذي كان صاحب رأيهم-: إن محمدًا لن ينصرف حتى ينجازكم، ولقد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثًا فخذوا أيها شئتم.

فلما سألوه وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، ولقد كان في هذا النصح الذي بدأ به كعب بن أسد النجاة والخير لهم لو أنهم هداهم ربهم إلى هذا، ولو أنهم تذكروا وصية بن الهيبان ذلكم الحبر الذي أقام بينهم قبل مجيء النبي ﷺ بل ربما قبل بعثته، جاء من الشام ليقيم معهم ويشعرهم أنه لم يقم في هذه البلاد القفر الجدباء ويترك لها بلاد الشام الوارفة الظلال والجنات والأنهار يقول لهم: ما دفعني إلى أن أترك الشام وآتي إلى هنا إلا أني جئت أتوكف خروج آخر الأنبياء بعثًا، ولما لم يدرك مبعث النبي ﷺ فإنه وصاهم أن يؤمنوا به مبادرين غيرهم بهذا الإيمان، وأن لا يسبقهم أحد إلى

الإيمان به وهنا لما عرض كعب على قومه ذلك قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، وأبوا من هذا النصح الكريم الذي كانت فيه نجاتهم، ثم قال: فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلًا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا ما نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم فإنا نخرج إلى محمد وقد أمننا هو وأصحابه؛ فننزل لعلنا نصيب منه ومن أصحابه غرة، قالوا: أتفسد علينا سبتنا؟ وقد كانت الليلة ليلة سبت، ثم إنه على الرغم من كل هذا قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه من الدهر حازمًا.

موقف النبي ﷺ من بني قريظة

وهنا بدا لهم أن يبعثوا إلى أبي لبابة، وكان من حلفائهم قبل الإسلام، فبعثوا إلى النبي ﷺ أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا، فبعث النبي ﷺ به إليهم كما طلبوا، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، أي الهلاك الذي سينزل بهم، يقول أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ومن ثم فقد انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد وارتبط بسارية من سواريه، وقال: لا أبرح حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة أبدًا، وأن لا يرى في بلد خان الله ورسوله فيه، فلما بلغ رسول الله ﷺ أمره، وكان قد

استبطأه، قال: "أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه".

وهنا قد نزلت على رسول الله ﷺ من السحر بعد أن عاد من حصار بني قريظة وأمرهم وهو عند أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، فقلت: مما تضحك يا رسول الله، أضحك الله سنك؟ قال: "تيب على أبي لبابة" قالت: فقلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: إن شئت، قالت: فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مر رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه، هذا أمر أبي لبابة الذي ارتبط بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في كل وقت من الصلاة فتحل وثاقه للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع ثانية، هذا أمر أبي لبابة.

إسلام بعض بني قريظة، ووفاء بعضهم بعهده

ونعود إلى أمر بني قريظة: فإن منهم أناسًا نجاهم الله بإيمانهم، منهم ثعلبة بن سعية، وأسيب بن سعية، وأسد بن عبيد، وهم نفر كانوا بينهم، ولكن نسبهم ليس في بني قريظة، ولكنهم أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ بعد أن تذكروا وصاة ابن الهيبان، ووجدوا أنه لن ينجيهم من هذا الكرب إلا إسلامهم فأسلموا، كذلك خرج رجل من بني قريظة لم يخن خيانتهم ولم يغدر غدرهم هو عمرو بن سعدى الذي مر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة، فلما رآه قال: "من هذا؟" قال: أنا عمرو بن سعدى،

وكان أبى أن يدخل فيما دخل فيه بنو قريظة من الغدر برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام؛ ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى أتى باب مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يدر به أين توجه من الأرض ولم يعلم له مكان، فذكر أمره لرسول الله ﷺ فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

الجزاء الذي نزل ببني قريظة، وطلب تحكيم سعد بن معاذ فيهم

على أن بني قريظة صار أمرهم بعد ذلك لما نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثب الأوس يرجون من النبي ﷺ أن يقبل شفاعة الأوس فيهم؛ لأنهم كانوا حلفاءهم، وطمعوا في أن يجعل لهم رسول الله ﷺ مثل ما جعل لعبد الله بن أبي بن سلول في شفاعته في بني قينقاع، وكلم الأوس رسول الله ﷺ في هذا، فقال لهم: "ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟" قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: "فذاك إلى سعد بن معاذ".

وكان رسول الله ﷺ جعل سعدًا في خيمة لامرأة من بني أسلم يقال لها: رفيدة، ضربت له في المسجد حتى يداوى فيه وحتى يكون الرسول ﷺ على مقربة منه ليعوده، فجيء بسعد لما طلبه النبي ﷺ لما رضي قومه أن يحكم فيهم، وهنا جاء سعد إلى حيث النبي ﷺ وأقبلوا معه إلى رسول الله وهم يقولون لسعد: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد أنى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دور بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد لهذه الكلمة التي سمعوها منه. ذلك أنهم عرفوا بأن سعدًا

إنما هو رجل مؤمن ليس منافقًا كابن سلول الذي يقف مع أعداء الله وأعداء الدين.

على أن أمر بني قينقاع -وكان معهم ابن سلول المنافق- لم يكن كأمر بني قريظة الذين غدروا في هذه المحنة، وكان لا بد أن ينالهم جزاء على قدر خيانتهم التي قاموا بها في غزوة الأحزاب، هنا لما وصل سعد بن معاذ إلى حيث النبي ﷺ قال النبي ﷺ: قوموا إلى سيدكم، فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: قد عم النبي ﷺ بكلامه، فقاموا إليه، ثم إنهم أحاطوا به فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، وعلى من هاهنا؟ مشيرًا إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض إجلالًا له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال النبي ﷺ لما سمع ذلك: "لَقَدْ حَكَمْتِ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ"، أي من فوق سبع سماوات.

ثم استنزل بنو قريظة فحبسهم رسول الله ﷺ في المدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج # إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم جيء بهم أرسالًا، فكانت تضرب أعناقهم الجماعة بعد الجماعة، وجيء بعدو الله حيي بن أخطب وكذلك كعب بن سعد رأس بني قريظة فتم فيهم حكم الله ﷻ وكان بنو قريظة نحو من ستمائة أو سبعمائة كما في بعض الروايات، ولما قالوا لكعب بن أسد وهو يذهب به إلى رسول الله ﷺ: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به

منكم لا يرجع، والله هو القتل؟، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ وأما حيي بن أخطب؛ فإنه جاء للقتل وعليه حلة قد شقها من كل ناحية حتى لا تسلب، فجيء به مجموعة يداه إلى عنقه فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك.

كما قالها -يوم أن رأى النبي ﷺ لأخيه أبي ياسر أن ما في نفسه عداوة النبي ﷺ ما بقي، حتى ساعة القتل وساعة الموت لا يغير من هذا العداء لله ولا لرسول، فكان حقه أن يناله ذلك الجزاء من الله ﷻ ثم أقبل على الناس هذا الرجل فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه جزاء له. ولم يقتل من بني قريظة من النساء إلا امرأة طرحت رحىً على خلاد بن سويد فقتلته.

كذلك جاء ثابت بن قيس بن الشماس إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يهبه الزبير بن باطا القرظي، فوهبه له النبي ﷺ وطلب الرجل أهله، فاستوهبهم ثابت من النبي ﷺ فوهبهم له، وكذلك لما طلب الرجل ماله، جاء ثابت يطلب ذلك من النبي فأعطاه له، لكن الرجل بعد ذلك لما علم بمقتل جماعة من بني قريظة لم يرض بأمر الحياة وأراد أن يلحق بهم، فكان ذلك منًا من النبي ﷺ عليه لهذا الرجل المسلم ثابت بن قيس الذي كان للزبير بن باطا يد عليه في يوم بعاث، إذ أنه جز ناصية ثابت وخلى سبيله من غير أن يقتله، هنا نجد بأن النبي ﷺ يهب الحياة والأهل والمال لهذا الرجل، ولكنه يرفض ولا يرضى إلا بأن يلحق بأقرانه من اليهود الذين نالهم جزاء القتل، فأخذ وقتل معهم.

كذلك؛ فإن سلمى بنت قيس أم المنذر جاءت إلى النبي ﷺ فسألته رفاعة بن سموأل القرظي، وكان رجلًا قد استحق القتل، لكنه لاذ بها وأراد أن تطلب من

رسول الله أن يمن عليه، فطلبت ذلك من الرسول ﷺ فقالت: يا نبي الله هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي، فوهبه لها ﷺ فاستحيته.

وقد قسم فيء بني قريظة أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأخرج منها النبي ﷺ الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان وسهم لفارسه، وللراجل سهم واحد، ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من بني قريظة إلى نجد، فابتاع بهم خيلًا وسلاحًا من نجد، على أن النبي ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملك يمينه، وقد عرض عليها # أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فلم ترض وأرادت أن تكون في ملك يمينه.

نتيجة يوم بني قريظة، وتطهير المدينة من آخر جماعات اليهود، وخلوصها للإسلام

هذا وإن يوم بني قريظة إنما كان من تمام أمر هذه الغزوة غزوة الأحزاب، وكانت آخر الآيات التي نزلت في أمر هذه الغزوة كانت تتعلق ببني قريظة وما فعله الله بهم، قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، هذه الغزوة التي رأينا أمرها تمت على هذا النحو الذي أراد الله نصرًا للمؤمنين، على الرغم من شدة البلاء الذي نزل بهم، هكذا انتهت أحداث هذه الغزوة، وهنا نقف أمام ذلك الجزاء الذي نزل بهؤلاء اليهود يهود بني قريظة، الذين نالهم ما لم ينل إخوانهم السابقين الذين كانت لهم غدراتهم مع النبي ﷺ وهم: بنو

قينقاع، وبنو النضير، فهنا حينما نأخذ بالمقارنة نجد أن بني قينقاع، وبني النضير لم تكن خيانتهم وغدرهم في حال كهذه الحال، التي كانت فيها غدرة بني قريظة ؛ لأن المسلمين في وقت بني قينقاع وبني النضير لم يكونوا في حال حرب مع قوة خارجية كقوة المشركين أو قوة الأعراب.

وإنما كان الأمر ولكأنه حدث داخلي في المدينة، أما هنا فإن غدرة بني قريظة إنما كانت في وقت ألم بالمسلمين فيه خطر شديد هو خطر الأحزاب الذين بلغوا عشرة آلاف مقاتل، جاءوا يريدون استئصال شأفة المسلمين من وطنهم ومن بلدهم الذي هاجروا إليه، يأخذون في هذا المسلمين من مكة من قريش والذين آووهم من يثرب أو المدينة، ونرى بأن السعي الذي جمع هذا كله إنما كان من اليهود حقيقة يهود بني النضير، ولذلك فإن غدرة بني قريظة في ذلك الوقت كانت لها خطرها الشديد على المسلمين ؛ لأنهم كانوا من داخل المدينة، وإن خروجهم وغدرهم في ذلك الوقت كان يمثل خيانة كبرى في ذلك الوقت ؛ لأنهم غدروا في وقت محنة وحال حرب، كان عليهم أن يقفوا وأن يساعدوا مع المسلمين، ذلك أن نصوص الصحيفة التي جعلت لهم حق المقام في المدينة والمعاش فيها مع النبي ﷺ كانت تلزمهم بأمور كثيرة لم يقوموا بواحد منها، وإننا لو استعرضنا بعض النصوص التي تعلقت بأمر اليهود وألزمتهم وجعلت لهم حق المقام في المدينة نجد هذا الكلام وهذه البنود التي تلزمهم ولا تجعل لهم عذرًا فيما وقعوا فيه، من نصوص هذه الصحيفة: إنه من فتك فبنفسه فتك، وإن الله على أبر ما في هذه الصحيفة، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام وجوفها لأهل هذه الصحيفة.

ثم إنه # في وضوح كامل بيّن أمر قريش وأنها هي العدو لأهل هذه الصحيفة حينما نص في بنودها هذا الكلام: وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، هذه البنود التي لا تخفى ولم تكن تخفى على اليهود، خاصة يهود بني قريظة، الذين أبقاهم النبي ﷺ في المدينة بعد أن أخرج إخوانهم قبيلًا من بعد قبيل، ولم يأخذهم بجريرة أمرهم؛ لأنهم جميعًا كانوا على كلمة سواء هي كلمة الكفر التي جمعتهم على العداء لله ولرسوله.

وكان الواجب على بني قريظة في هذه المحنة أن يكون لهم عبرة بأمر إخوانهم الذين خرجوا من قبل تاركين ديارهم من بني قينقاع وبني النضير، وأن يكون لهم دور مشرف يتناسب مع من النبي ﷺ عليهم بأن أبقاهم بعد خروج بني قينقاع، وأبقاهم بعد خروج بني النضير، وكان عليهم أن يقوموا بالواجب على اليهود جميعًا أن يقوموا به، وهو: أن ينفذوا ولو بندًا من بنود هذه الصحيفة التي كانت سببًا في معاشهم بالمدينة، وأن يلتزموا بهذه الكلمة، وأن بين أهل هذه الصحيفة -من المؤمنين واليهود. النصر على من دهم يثرب، وقد دهم يثرب كما رأينا قبل ذلك المشركون في أحد وهاهنا يأتي المشركون والأعراب وإخوانهم اليهود، ومع ذلك كان عليهم أن يقوموا بواجب الدفاع عن هذا البلد الذي آواهم وأصبح وطنًا للجميع.

ولكنهم على العكس من هذا كانوا مجال شر فتح على المسلمين لما غدروا في هذه الساعة، وهذا الوقت العصيب الذي ألم بالمسلمين، ولذلك كان واجبًا أن ينالهم هذا الجزاء الذي حكم به رجل كان حليفًا لهم من قبل، وإذا كان بنو النضير قد وهبهم الله أنفسهم ونساءهم وأولادهم فإنهم لما خرجوا من غير أن ينالهم العقاب الذي كان جديرًا بهم فإن أمرهم تم على ما رأينا من جمع الأعداء الكثيرين للإسلام والمسلمين.

هكذا رأينا ما نزل ببني قريظة من الجزاء الرادع لهم ولأمثالهم ذلك أن خيانتهم كانت في وقت عصيب وفي ساعة شدة ومحنة، فبنو قينقاع أول من غدر بعهدهم مع النبي ﷺ وخرجوا من المدينة، وكذلك بنو النضير الذين دبروا لمقتل النبي ﷺ وحاصرهم وأخرجهم، كان أمر هؤلاء وأولئك في أيام سلم كان فيها المسلمون، ولذلك كان أمرهم كل قبيلة مع النبي ﷺ وحدها، أما أمر بني قريظة فإنه تم كما رأينا في وقت ألم بالمسلمين خطر داهم ما قصدوا بمثل هذا العدد أبدًا، عشرة آلاف من الحانقين الحاقدين من المشركين من أهل مكة والأعراب ومن اليهود الذين جمعهم هذا الطريق بسعي حيي بن أخطب وأقرانه من بني النضير الذين خرجوا سالمين من المدينة.

وكان هذا أمرهم مع المسلمين تحزيب لمثل هذا العدد الكبير، ونجد أمر بني قريظة أنه تم خيانتهم في وقت كما رأينا أحاط بالمسلمين مثل هذا الخطر الداهم الذي لولا أن الله ﷻ هدى المسلمين إلى أن يتخذوا وسيلة دفاع كانت متمثلة في الخندق الذي رد الله به هذا الكيد العظيم لكان له أمر آخر، وإلا فإنه لو لم يكن ذلك السبب الذي هيأ الله له لما كان متوقعًا أن تكون النتيجة على مثل هذه الحال التي انتهت إليها، ونحن نذكر نعمة الله وفضله على المسلمين أن رد هؤلاء كلهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال.

وبعض الناس يستصعب أمر ما نزل بهؤلاء الغدرة من الجزاء الذي نالهم، مع أن هذا أمر طبيعي لأمثال كل خائن يخون بلده في وقت الشدة؛ لقد كان أمر بني قريظة -كما رأينا. قد احتبست ديارهم وحصونهم داخل حلقة الدفاع عن المسلمين، فقد أصبحوا الآن -بعد أن نقضوا عهدهم في وقت الشدة- أصبحوا ثغرة للأحزاب، بل هم كذلك أضافوا جهدًا لهم مع أولئك، هذا في الوقت الذي

رأينا فيه النبي ﷺ لما أحس بخطر خروج بني قريظة من عهدهم ودخولهم مع الأحزاب، فزاد جانب الأحزاب ببني قريظة، فأخرج النبي ﷺخمسمائة رجل من جنوده المرابطين أمام جبهة الأحزاب، فقد خرج هؤلاء ليقوموا بحماية الذراري والعجائز والنساء، الذين خاف عليهم النبي ﷺ وخاف المسلمون غدر بني قريظة، فهكذا كان الخطر الذي قام به بنو قريظة لا يمكن أن يستبعد معه ما نزل بهم من الجزاء.

وعلى أية حال فإن النبي ﷺ فتح باب العفو لمن أسلم منهم، وقد رأينا ذلك، وكذلك عفا عن الزبير بن باطا ووهب له ماله وأهله لما طلب أحد المسلمين ذلك من النبي ﷺ فهنا نرى بأن الباب كان واسعًا للعفو وللتوبة عن هذا الجرم الذي اقترفته بنو قريظة، والذي رفضوه لما عرض عليهم سيدهم كعب بن أسد أن يسلموا وقد عرفوا أن النبي رسول الله حقًّا، ومع هذا رفضوا دخول باب العافية والنجاة بإعلان إسلامهم ودخولهم في مجال هذا الخير، ولكنهم أبوا فكان ذلك جزاءهم.

على أنا رأينا بني النضير لما أخرجوا من المدينة نزلوا خيبر وأخذوا يعدون لهذا الأمر الذي ما كنا نتصور مدى الضخامة في العدد الذي سعى إليه أمثال هؤلاء، فما كانت الحال المتوقعة إذن لو أخرج بنو قريظة هم الآخرون من المدينة بعفو يشملهم؟، كان نوعًا من الحكمة ألا يكون ذلك، فكان الجزاء جزاء وفاقًا لأمثال هؤلاء.

ولقد كان الحكم فيهم من رجل كان حليفًا لهم، ولكن هذا الرجل كان قلبه مفعمًا بالإيمان لا نفاق فيه كعبد الله بن أبي بن سلول الذي شفع في بني قينقاع، وهنا بعد هذا العمل الذي تم بغزو بني قريظة الذين كان غزوهم إكمالًا لغزوة

الخندق حيث إنه # سار إليهم بجموع المسلمين التي كانت في الخندق وبعقد الراية نفسها، نفس الأمر الذي حدث في حمراء الأسد التي كانت تمامًا لغزوة أحد، وهكذا بعد هذا النصر الذي وهبه الله للمسلمين على الأحزاب وعلى يهود بني قريظة خلت المدينة لأهلها ولدين الله الإسلام، بعد أن تكرر العداء والغدر من اليهود قبيلًا من بعد قبيل.

وكان الجزاء منه ﷺ مع من سبق منهم عفوًا كما رأينا، ولكن لم يسلم بنو قريظة من عاقبة السوء التي ألمت بهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، هذا والحمد لله أولًا وآخرًا هو صاحب الفضل والنعمة على الإسلام والمسلمين.

سبب غزوة بني المصطلق، ومباغتة المسلمين للأعداء، ومميزات هذه الغزوة

فهذه الغزوة غزوة الخندق أو الأحزاب التي استمرت هذه الفترة الطويلة على نحو لم يكن قد حدث من قبل في الغزوات التي سبقت، فقد رأينا بدرًا كيف تمت في سرعتها في سويعات من أول النهار نهار يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، كما عرفنا من السنة الثانية للهجرة، وكذلك غزوة أحد التي كانت يوم السبت الخامس عشر من شوال في السنة الثالثة.

أما هذه الغزوة فإننا نرى بأنها كانت قد احتلت مسافة طويلة من الزمن، من شوال السنة الخامسة وكل ذي القعدة وكذلك أيامًا من ذي الحجة، هذه الغزوة التي استمرت هذه الفترة الطويلة نجد أمرًا عجيبًا وهو: قلة الشهداء فيها من المسلمين، وقلة القتلى من المشركين، فلقد استشهد من المسلمين ستة نفر: سعد بن معاذ الذي كان قد أصيب في ذراعه في أكحله، وأوشك جرحه أن يندمل، ولكنه مرت على ذراعه وهو مضطجع عنز فانفجر الجرح ومات فيه >

وكذلك استشهد أنس بن أوس بن عتيك، وعبد الله بن سهل، والثلاثة من الأوس من بني عبد الأشهل.

وكذلك الطفيل بن النعمان، وثعلبة بن عنمة، وكلاهما من بني سلِمة، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار أصابه سهم غرب فقتله، كما يقولون: سهم غرب لا يعرف من رماه، أما المشركون فقد أصيب منهم يوم الخندق ثلاثة نفر منبه بن عثمان بن عبيد، أصابه سهم مات منه بمكة، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة الذي اقتحم الخندق فقتل فيه، وعمرو بن عبد ود الذي قتله علي مبارزة.

أما شهداء بنو قريظة: فقد استشهد يوم قريظة خلاد بن سويد بن ثعلبة، حيث طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحىً فقتلته، كذلك مات في الحصار أبو سنان بن محصن فدفنه رسول الله ﷺ هناك.

وبعد هذا كله بشر النبي ﷺ أصحابه بأن قريشًا لن تغزوهم بعد هذا، وإنما المسلمون هم الذين سوف يغزونهم في عقر دارهم، وكانت نبوءة صادقة من النبي ﷺ.

وبعد هذا كان رجل من الأحزاب من اليهود الذين سعوا في هذا المسعى الخبيث ولكنه أفلت من العقاب هو: أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، الذي كان له دور واضح في جمع الأحزاب والتأليب على رسول الله ﷺ مع ابن أخطب الذي مكن الله منه؛ لأنه كان تعهد لسلام بن مشكم أن يدخل معه في حصنه بعد رجوع الأحزاب إذا رجعوا، أما ابن أبي الحقيق؛ فإنه كان يظن أنه قد أفلت بجريرة جرمه لما رجع إلى خيبر، ولذلك انتدب له خمسة نفر من الخزرج عزموا على أن يكون لهم شرف قتله بجرمه الذي اقترف، وليكون لهم مثل الشرف الذي تحقق لجماعة الأوس الذين أنزلوا عقاب الله بابن الأشرف من بعد بدر.

وقد خرج هؤلاء النفر الخمسة الخزرجيون وكانوا كلهم من بني سلِمة، وهم: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود حليف لهم، وكان أميرهم عبد الله بن عتيك، أمره عليهم # ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة، فلما قدموا خيبر أتوا حصن بن أبي الحقيق ليلًا ودخلوا عليه داره على أنهم ناس من العرب جاءوا يلتمسون الميرة، فلما دخلوا وانفردوا به ابتدروه بأسيافهم فقتلوه، ولما صاحت امرأته هموا بقتلها ولكنهم تذكروا نهيه # إياهم عن أن يقتلوا وليدًا أو امرأة، وقد تمكنوا من العودة بعد أن تأكدوا من مقتل ابن أبي الحقيق.

وبعد أن اشتد اليهود في طلبهم، ولما رجعوا إلى المدينة أخبروه # بقتل عدو الله، ولما ادعى كل منهم أنه هو الذي قتله، نظر # إلى أسيافهم فوجد أثر الطعان في سيف عبد الله بن أنيس فقال # : "هذا قتله"، ولقد كان عمل هذه الجماعة في إنزال العقاب بابن أبي الحقيق مظهرًا من مظاهر التنافس بين الأوس والخزرج في خدمة هذا الدين وإنزال العقاب اللائق بكل من تسول له نفسه أن ينال من الإسلام أو المسلمين، وقد سجل حسان بن ثابت أمر هذه السرية فيما قاله من شعر:

لله در عصابة لاقيتهم	❖	يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم	❖	مرحًا كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم	❖	فسقوكم حتفًا ببيض ذفف
مستبصرين لنصر دين نبيهم	❖	مستصغرين لكل أمر مجحف

وهكذا نرى بأن أمثال حسان بن ثابت الذي ساهم بجهده في الشعر في نصر الإسلام والمسلمين.

بعد هذا النصر الذي أيد الله به نبيه محمدًا ﷺ والمسلمين معه أقام النبي # بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر وربيعًا الأول وربيعًا الآخر، وخرج # في جمادى الأولى لينزل الجزاء بالغدرة الذين غدروا بأصحاب الرجيع، فخرج # قاصدًا بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع، وكانت بلاد بني لحيان وديارهم متوغلة في بلاد الحجاز إلى حدود مكة.

واتبع النبي ﷺ أسلوب التعمية حتى لا يشعر به أحد وحتى لا يبلغ بني لحيان أمره، فإنه # اتبع أسلوب التعمية حيث إنه # أظهر أنه يريد السلام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران وهو واد بين أمج وعسفان حيث كان مصاب أصحابه -رضوان الله عليهم- فترحم على أهل الرجيع ودعا لهم، وقد سمعت بنو لحيان بأمر النبي ﷺ وقصده إياهم فهربوا في رءوس الجبال، ومن ثم لم يقدر على أحد منهم فسار إلى عسفان، ثم بعث فرسانًا إلى كراع الغميم لتسمع بهم قريش فيذعرهم ويريهم من نفسه قوة.

وهكذا نرى بأنه # لا يتهاون مع أعداء الله مهما طالت المدة ومضى الزمن، فها هو # يلاحق هؤلاء الغدرة الذين غدروا بالقراء من أصحابه -رضوان الله عليهم- وكان هذا دأبه ﷺ ينزل العقاب بأولئك الغادرين والمجترئين على الإسلام والمسلمين من الأعراب، وهذا ما نراه واضحًا في خرجاته ﷺ في غزوات، أو إرساله السرايا لهذا الأمر.

ولم يكن # بعد هذه الغزوات الكبار أمثال بدر وأحد والأحزاب يركن إلى الدعة، وإنما كانت حياته جهادًا متصلًا ﷺ وهذا لأمر ملاحظ فيما كتبه كتاب السير، ولكننا نقف عند غزوة كان لها شأنها في الإسلام هي: غزوة بني المصطلق، والتي سميت هي الأخرى باسم آخر هو: غزوة المريسيع:

هذه الغزوة من الغزوات التي كان لها شأنها في حياة الإسلام والمسلمين، وحياة النبي ﷺ وهذا الاسم "المصطلق" بهذا الوزن مفتعل من الصلق، وهو شدة الصوت وقيل: حسنه، والمصطلق هو جزيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، وهم بطن من خزاعة، وسمي جزيمة بالمصطلق، أما المريسيع فهو ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم، مأخوذ من قولهم: رسعت عين الرجل إذا دمعت.

وكانت قبيلة خزاعة يسكنون قُدَيْدًا وعُسْفَان على الطريق من المدينة إلى مكة، وتبعد قديد عن مكة نحوًا من مائة وعشرين كيلو مترًا، وتبعد عسفان نحو ثمانين كيلو مترًا، ونجد بأن ديار خزاعة تنتشر على الطريق من المدينة إلى مكة ما بين مر الظهران التي تبعد عن مكة نحوًا من ثلاثين كيلو مترًا، وبين الأبواء التي تبعد عن مكة نحوًا من مائتين وأربعين كيلو مترًا، مساحة واسعة، كانت تتوسط هذا المساحة من ديار خزاعة ديار بني المصطلق، وكان موقعهم مهمًّا بالنسبة للصراع بين المسلمين وبين قريش.

ونلاحظ بأن خزاعة كانت عينًا للنبي ﷺ وموادة له، ولذلك رأينا مواقفها في أنهم كانوا يسرعون بالأخبار للنبي ﷺ يخبرونه بأمر قريش، كذلك فإنا نرى موقف معبد الخزاعي بعد أحد حينما واسى النبي ﷺ فيما نزل به وبالمسلمين من المصاب، كما أنه رد أبا سفيان عن عزمه لما أراد أن يرجع من الروحاء إلى المدينة كان ود خزاعة في عمومها مع النبي ﷺ.

أما بنو المصطلق فلقد أخذوا جانب العداء منهم، وكان أول ما فعلوه، بل أظهر ما فعلوه حينما شاركوا قريشًا في غزوها المسلمين في أحد، ولما كانت المصالح التجارية التي حرصت عليها بنو المصطلق تمثل دافعًا من دوافع التعامل مع قريش

فإن بني المصلطق عملوا على أن يؤلبوا ضد المسلمين، ومن ناحية أخرى فإنه كان للعقيدة الوثنية التي كان عليها بنو المصطلق وهي عبادتهم لمناة؛ فإنهم كذلك كرهوا الإسلام لذلك.

هذه الغزوة كانت بسبب أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق جمع لحرب رسول الله ﷺ من قدر عليه من قومه ومن العرب، لعله خشي انتقام النبي ﷺ لمواقف بني المصطلق من المسلمين ومؤازرتهم لقريش، ولما علم النبي ﷺ بأمرهم بعث بريدة ابن الحصيب الأسلمي حتى يقف على أمرهم، فنزل بريدة بينهم ووجدهم قد تألبوا وجمعوا الجموع، فأوهمهم أنه جاء ليشترك معهم في حرب المسلمين لما سمع بأمرهم، ولذلك وقف هذا الرجل على حقيقة أمر بني المصطلق وعاد ليخبر النبي ﷺ الذي أسرع ليرد على هذه الجموع قبل أن يستفحل خطرهم.

خرج النبي ﷺ إليهم في شعبان من هذه السنة السادسة للهجرة، وهذا هو الأصح من أقوال المؤرخين التي تؤرخ لهذه الغزوة أنها كانت بعد الأحزاب في شعبان من السنة السادسة للهجرة، وإن كان بعضهم يقول بأنها كانت في السنة الخامسة على أساس رواية ذكرت اشتراك سعد بن معاذ فيها، وسعد كما عرفنا قد توفي السنة الخامسة بعد غزوة الأحزاب التي كانت في شهر شوال ومات < بعد الانتهاء من أمر بني قريظة الذي كان في شهر ذي الحجة.

وعلى أساس هذه الرواية قال بعضهم بأنها كانت في سنة خمس من الهجرة، ولكن كان هناك دليل على أنها كانت في السنة السادسة وهو: اشتراك عبد الله بن عمر { في هذه الغزوة كما جاء في صحيح البخاري، مما يؤكد أنها كانت بعد الأحزاب؛ لأن عبد الله بن عمر إنما أجيز للقتال في غزوة الأحزاب ولم يجز

قبلها، وهذا ما يؤكد أنها كانت في السنة السادسة، على أن الرواية التي ذكرت تلاحي سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في شأن المنافقين في هذه الغزوة إنما ذكر اسمه خطأ، وإنما كان التلاحي بين أسيد بن حضير وبين سعد بن عبادة.

وهذه الغزوة لها مميزاتها، فقد رأينا اشتراك بطن من خزاعة أصحاب ود النبي ﷺ وهم بنو المصطلق الذين تحالفوا مع قريش وارتبطت مصالحهم بها، وهنا نجد بأن كل خزاعة لم تكن مع النبي ﷺ كما رأينا، كذلك فإنه في هذه الغزوة خرج مع رسول الله ﷺ بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة مثلها قط، ولم يكن لهم رغبة في الجهاد اللهم إلا أن يصيبوا من عرض الدنيا، ولقرب المسير عليهم، ولذلك فإنه سمح # لهم بالمسير معه، وكان # من دأبه حين يخرج لغزو أو سفر كان يسهم بين نسائه، فخرج سهم عائشة، فخرجت معه < .

وقد استعمل # على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال نميلة بن عبد الله الليثي، ومضى # يقصد ديار بني المصطلق التي اجتمعوا فيها تحت زعامة قائدهم وشيخهم الحارث بن أبي ضرار أبي جويرية بنت الحارث التي تزوجها النبي ﷺ بعد ذلك، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم وهو المريسيع وهو من ناحية قديد إلى الساحل، وتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل منهم من قتل، وسبى النبي # أبناءهم ونساءهم وأموالهم، وأسر كثيرين من رجالهم؛ لأنه # غزاهم كما يقول البخاري: وهم غارون، أي: غافلون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث < التي تزوجها -كما قلنا- بعد ذلك.

وهنا نجد بأن النبي ﷺ فاجأهم وباغتهم بغزوه من غير إعلان لهم؛ لأن دعوة الإسلام كانت قد بلغتهم، ولأنهم كذلك حاربوها مع قريش وجمعوا بعد ذلك لحرب المسلمين من جمعوا في هذه الغزوة، ولذلك كان أمر النبي معهم ﷺ كما رأينا.

تقسيم سبيهم، وزواج النبي ﷺ من بنت شيخهم، وأثر ذلك

ولم تتفق الروايات على عدد القتلى منهم، ولا على مقدار السبي والأموال، سوى ما ذكره ابن إسحاق من عتق مائة أهل بيت من بني المصطلق بعد أن سمعوا بزواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث < .

ويذكر الواقدي أن عدد القتلى من بني المصطلق كان عشرة، وأن سائرهم قد وقع في الأسر فما أفلت منهم إنسان، ويذكر كذلك أن الغنائم كانت ألفي بعير وخمسة آلاف شاه، وأن السبي كانوا مائتي أهل بيت، وروي أن السبي أكثر من سبعمائة، وعاد النبي ﷺ بعد أن من الله عليه بهذا النصر وأذل هذا العدو الذي اجتمع لحرب الإسلام والمسلمين على هذا النحو والله أعلم.

هذه الغزوة استشهد فيها رجل من المسلمين هو: هشام بن صُبَابَة، حيث أصابه رجل من الأنصار خطأ وهو يرى أنه من العدو، ووجدنا بأن أخاه مقيس بن صبابة قد قدم من مكة مظهرًا الإسلام، وطلب دية أخيه هشام من رسول الله ﷺ فأعطاه الدية، ومكث يسيرًا ثم عدى على قاتل أخيه فقتله، ورجع مرتدًا إلى مكة، وقال في ذلك شعرًا:

شفى النفس أن قد بات بالقاع مسندًا ❖ يضرج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله ❖ تلم فتحميني وطاء المضاجع
حللت به وتري وأدركت ثأرتي ❖ وكنت إلى الأوثان أول راجع

ولذلك فإن النبي ﷺ أهدر دم مقيس هذا، وجعله من الأربعة الذين أمر بقتلهم يوم الفتح حتى وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

كثرة المنافقين في غزوة بني المصطلق، وسعيهم في الفتنة

وهنا في هذه الغزوة التي كثر فيها المنافقون. وكانت تلك ملاحظة عليهم، وبخاصة أنه قد خرج معهم شيخهم ورأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، هنا استغل عبد الله بن أبي بن سلول موقفًا عارضًا بين رجلين: رجل من الأنصار، ورجل كان أجيرًا لعمر بن الخطاب من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود، فازدحم الرجلان على الماء، فكسع -كما يقولون- جهجاه هذا الأنصاري أو غلام الأنصار برجله، فنادى الغلام: يا للأنصار، ثم نادى جهجاه بقوله: يا للمهاجرين، وهنا لما سمع النبي ﷺ ذلك قال: "دعوها فإنها منتنه"، أي: دعوى الجاهلية، النداء لتأليب الناس على بعضهم.

ولما سمع عبد الله بن أبي بن سلول هذه المناداة قال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، وكان في المجلس غلام أو قريبًا منه، وكان قريبًا من عبد الله بن أبي بن سلول غلام من المسلمين، هو زيد بن أرقم الذي مشى إلى النبي ﷺ يخبره بكلام عبد الله بن أبي بن سلول، ولما سمع عمر بن الخطاب > ذلك قال: يا رسول الله، مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: "يا عمر فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن آذن بالرحيل".

وهنا مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه مقالة زيد للنبي ﷺ وأنه بلغ الرسول ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت

به، وكان هذا الرجل شريفًا عظيمًا في قومه، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، يحرصون بذلك على أمر ابن سلول لأن ما نقله زيد كان عظيمًا في أمر النبي ﷺ.

حكمة النبي ﷺ في معالجة الفتنة

وهنا أمر النبي ﷺ بالمسير، وكان ذلك في ساعة لم يألفها أصحابه من ساعات المسير التي كان يأذن فيها النبي ﷺ ولكنه كان لبالغ حكمته ﷺ أراد أن يعالج هذه الفتنة وأن يأدها في مهدها، ولذلك خرج ﷺ وسار بالناس في ذلك الوقت يومهم ذلك الذي ساروا فيه حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم التالي حتى آذتهم الشمس، ثم أذن بالنزول، فنزل الناس وقد أجهدهم المسير والتعب، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نيامًا.

وهكذا نرى هذه الحكمة السامية من فعله ﷺ ليشغل الناس عن هذا الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي بن سلول.

ثم إن رسول الله ﷺ راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع مكان في الطريق، ليتخذه مكان راحة لهم في الطريق، وفي شأن عبد الله بن أبي بن سلول فيما قاله من هذا نزلت سورة المنافقين التي أيدت بآياتها كلام زيد بن أرقم، وكذبت عبد الله بن أبي بن سلول فيما قاله؛ لأنه قال كلامًا هو الكفر في حق النبي ﷺ ولما نزلت هذه الآيات أخذ النبي ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال: هذا الذي وفى الله بأذنه، وهنا جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، إذا كنت آمرًا أحدًا بقتل عبد الله فمرني أنا بقتله، وهذا نوع من كمال الإيمان عند هذا الابن الذي خرج من صلب هذا المنافق.

كان كلام عبد الله للنبي ﷺ: يا رسول إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يعيش في الناس فأقتله به، فأكون قد قتلت مؤمنًا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ مهدئًا عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول: "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي فينا".

وكان هذا الأمر من النبي ﷺ مما دفع رهط عبد الله بن أبي بن سلول أنه كان إذا أحدث الحدث فإنهم كانوا هم الذين يتناولونه بالعتاب ويأخذونه ويعنفونه، ولذلك قال النبي ﷺ لعمر حين بلغه ذلك من أمرهم: "كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت آنفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته"، فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

ولما وصل الركب إلى مشارف المدينة هنا وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ينتظر مجيء أبيه، وهنا قال له: والله لا تدخل المدينة حتى يأمر لك رسول الله ﷺ فرسول الله الأعز وأنت الأذل، وهنا هدأ النبي ﷺ كذلك من خطورة هذا الموقف بين الابن وأبيه، وسمح لعبد الله بن أبي بن سلول أن يدخل المدينة، وكان في هذا أبلغ الرد إذ جعل الله من صلب هذا المنافق من يدفع عن رسول الله ﷺ قالة السوء التي قالها هذا الرجل.

أمر آخر كان من هؤلاء المنافقين ولم يكن أمرهم في هذه الغزوة إلا شرًّا والعياذ بالله: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

حادثة الإفك وملاحظات على غزوة بني المصطلق، و صلح الحديبية

عناصر الدرس

العنصر الأول :	من الأمور التي ارتبطت بغزوة بني المصطلق: حادثة الإفك، وشيوع نبأ الكذب بين الناس، ودور ابن سلول فيه، وموقف المسلمين منه، ومراجعة النبي ﷺ لعائشة، وحدُّ من خاض في الحديث إلا ابن أبي سلول	٣٥٩
العنصر الثاني :	من الآداب التي علمها القرآن للمؤمنين خلال الأحداث السابقة، ملاحظات على غزوة بني المصطلق	٣٦٥
العنصر الثالث :	صلح الحديبية	٣٦٩
العنصر الرابع :	النزول بالحديبية، ومجيء رسل قريش إلى النبي ﷺ ورسل المسلمين إلى قريش، وموقفها منهم، وشيوع نبأ مقتل عثمان، وبيعة الرضوان، ووقوع الصلح، وموقف المسلمين منه	٣٧٣
العنصر الخامس :	بنود الصلح، وتطبيقها في رد أبي جندل	٣٧٩
العنصر السادس :	نزول سورة الفتح وتسميتها صلح الحديبية: فتحًا	٣٨٢
العنصر السابع :	نتائج صلح الحديبية، وأمر أبي بصير واستفحال خطره	٣٨٥
العنصر الثامن :	استثناء المهاجرات من هجرة المسلمين من مكة، وحكم القرآن في الإمساك بعصم الكوافر، و كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، والدعوة العامة إلى الإسلام، وأثر ذلك	٣٩٢

من الأمور التي ارتبطت بغزوة بني المصطلق: حادثة الإفك، وشيوع نبأ الكذب بين الناس، ودور ابن سلول فيه، وموقف المسلمين منه، ومراجعة النبي ﷺ لعائشة، وحدُّ مَن خاضَ في الحديث إلا ابن أبي سلول

هناك أمر خطير ارتبط بغزوة بني المصلق، وهو حادث الإفك الذي تزعم أمره عبد الله بن أبي بن سلول لما ألحق الأذى بعائشة < وبالنبي ﷺ وبأبي بكر وبالمسلمين عمومًا.

وحاصل ذلك: أن النبي ﷺ كما عرفنا قد خرج بعائشة معه في هذه الغزوة بعد أن أقرع بين نسائه، وتحكي السيدة عائشة هذا الأمر فتقول: أنهم -أي: الرجال- كانوا يحملون هودجها، ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به -وكانت عائشة في هذه السن خفيفة لم تكن ثقيلة الوزن- فقالت: أنها لما فرغ رسول الله ﷺ من سفره وجه قافلًا، حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلًا فبات فيه بعض الليل، ثم أذَّن المؤذن في الناس بالرحيل، تقول: فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي، وكان في عنقها عقد لما فرغت من أمرها انسلَّ من عنقها. تقول: لم تدر به، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت لتلتمسه في عنقها فلم تجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، ولكنها رجعت إلى مكانها تلتمس عقدها.

فلما عادت بعد أن وجدته وجدت الناسَ قد مضوا في طريقهم، تقول: فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إلي، قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، ولما رأى سوادي أقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني استرجع ثم قال: ظعينة رسول الله ﷺ

وهي متلففة في ثيابها، ثم قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته. ثم إنه قرب إليها البعير فركبت، واستأخر عنها حتى تركب، ومضى منطلقًا يطلب الناس. تقول عائشة: فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي بعيره، فقال أهل الإفك لما رأوا ذلك قالوا ما قالوا، وارتج العسكر، فوالله ما أعلم بشيء مما قيل؛ لأن ابن سلول قال كلمة الإفك والعياذ بالله، قال: والله ما نجى منها وما نجت منه، وهنا انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى بيت أبي بكر، وكانوا يذكرون شيئًا لعائشة > إلا أنها قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بها، فكانت إذا اشتكت تقول: رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك # بها في شكواها تلك، ولذلك أنكرت ذلك منه، كان إذا دخل # عليها وعندها أمها تمرضها يقول: ((كيف تيكم))، أي: كيف هذه، لا ينطق باسمها ولا يزيد على ذلك، قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله -حين رأيت ما رأيت من جفائه- لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني، قال: ((لا عليك))، قالت: فانقلبت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان حتى برئت من وجعي الذي كنت فيه بعد بضع وعشرين ليلة.

علم السيدة عائشة بالبهتان العظيم، وموقف الرسول ﷺ والمسلمين منه:

قالت عائشة: إنها خرجت في ليلة من الليالي مع أم مسطح بن أثاثة -الذي كان ممن سعى في هذا الأمر كذلك، وكان قريبًا لأبيها لحاجاتهن- حاجات النسوة التي كن يخرجن لها ليلًا. وكنا قومًا عربًا لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرهها، إنما كنا نخرج في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن. قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت

في مرطها، فقالت: تعس مسطح، قالت: فقلت: بئس لعمر الله قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدرًا، قالت: أَوَما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ورجعت فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي.

قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا، قالت: أي بنية، خففي عليك الشأن، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن وكثر الناس عليها.

وهنا عرفت عائشة بحقيقة الأمر المؤلم، وعرفت لماذا جفاء رسول الله ﷺ بها.

تقول: إن رسول الله ﷺ قام في الناس فخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أيها الناس، ما بال رجال يؤذنني في أهل بيتي، ويقولون عليهم غير الحق، ووالله ما علمت عليهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، ولا يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي))، قالت: وكان كِبْر ذلك كله عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش وكذلك حسان بن ثابت { .

وتعلل عائشة < دخول حمنة في هذا الأمر؛ لأن أختها زينب بنت جحش لم تكن امرأة من نساء النبي ﷺ توازيها في المكانة والمنزلة وتتقارب معها فيها عند النبي ﷺ غير زينب.

تقول عائشة: إن الله عصم زينب بدينها فلم تقل إلا خيرًا، أما أختها فأشاعت من ذلك ما أشاعات تضارني لأختها، فشقيت بذلك، فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس -أي:

الذين أشاعوا هذا. نكفكفهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فيهم، وهنا وقع -كما تقول بعض الروايات- ملاحاة بين أسيد بن حضير وبين سعد بن عبادة؛ لأنه لم يقبل أن يقول ذلك أسيد في حق الخزرج، ولكن كادت تقع فتنة بين الرجلين ولكن الله عصم ذلك.

وهنا نشير إلى أمر:

إن بعض الروايات تقول: إن الذي قال هذا ليس أسيد بن حضير وإنما هو سعد بن معاذ، وقد رددنا هذا بأن سعدًا استشهد في غزوة الأحزاب، ولكنه مات بعد أن قضى أمر الله في بني قريظة، إذن، فلم يكن سعد هو الذي حضر غزوة المريسيع، وهذا هو الأصح، وهذا ما يؤكد أن هذه الغزوة كانت في السنة السادسة؛ لأن كثيرًا من النصوص تدل على أن الذي تلاحى مع سعد بن عبادة إنما هو أسيد بن حضير الذي آلت إليه زعامة الأوس بعد وفاة سعد بن معاذ.

على أية حال، استشار رسول الله ﷺ بعد هذه الفتنة التي كادت أن تقع بين الأوس والخزرج. أسامة بن زيد وعليّ بن أبي طالب، فقال أسامة خيرًا في حق عائشة، وهكذا كانت كل أقوال المؤمنين الصادقين في أمر عائشة < وعلي قال: يا رسول الله، سَل الجارية تصدقك، فجيء بالجارية "بريرة" ولما سئلت عن عائشة قالت: والله ما أعلم عنها إلا خيرًا، وأثنت عليها.

النبي ﷺ يراجع السيدة عائشة فيما أشيع عنها، والوحي ينزل ببراءتها:

بعد أن سَمِعَ النبي ﷺ من أسامة ومن علي القول فيما استشارهما فيه دخل النبي ﷺ على عائشة فقال لها ، وكان عندها أبواها وامرأة من الأنصار كانت تبكي معها،

فجلس النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس -ولعل النبي ﷺ عرف بأمرها بعد أن عرفت من أم مسطح- فإن كان فاتّقِ اللهَ، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلى الله؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده)) قالت: فوالله إن هو إلا أن قال هذا حتى قلص دمعي -أي: احتبس- حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوي أن يجيبَا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما، قالت: وايم الله، لأَنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فيَّ قرآنًا، ويصلى به، ولكني كنت أرجو أن يرى النبي ﷺ في نومه شيئًا يكذب الله به عني؛ لما يعلم من براءتي ويخبر خيرًا، وأما قرآن ينزل فيَّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قالت: فلما لم أرَ أبويَّ يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بما نجيبه، قالت: فوالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل أبي بكر في تلك الأيام، ثم قالت: فلما استعجما عليَّ استعبرت -أي: لما لَمْ يتكلمَا نيابةً عنها، استعبرت فبكت- ثم قالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدًا يا رسول الله، والله إني لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني، قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، ولكني سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حينما رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي: فوالذي نفس عائشة بيده، ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت

لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ -ي: العرق الذي كان يتغشاه من شدة الوحي- تقول: فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: ((أبشري يا عائشة، قد أنزل الله ﷻ براءتك))، قالت: قلت: الحمد لله.

إقامة الحد على من خاض في حديث الإفك، وإعفاء عبد الله بن أبي بن سلول من إقامة الحد عليه:

ثم خرج إلى الناس فخطب وتلا عليهم القرآن الذي أنزل الله، فأمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فحدوا حد القذف ثلاثتهم.

وهنا نشير بأن من تولى كبر هذا هو عبد الله بن أبي بن سلول، تقول الروايات عنه: إنه لم يحد في هذا حتى يلقى الله بجرمه وإثمه، فإنه لو حد لكان الحد فيه نوع من العفو من الله ﷻ لأنه نال جزاءه في الدنيا، ولقد نزل في هذا الأمر -حادث الإفك- آيات من سورة النور التي برَّأ الله فيها عائشة > ومن هذا قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١]، فالذي تولى كبر هذا كله هو عبد الله بن أبي بن سلول.

ثم تمضي الآيات وتستحث المسلمين على أن يردوا هذا الأمر ولا يظنوا بأنفسهم إلا خيرًا: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ [النور: ١٢]، وهنا عصم الله أناسًا كثيرين من هذا لصدق إيمانهم، فهذا أبو

أيوب خالد بن زيد: قالت له امرأته: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلته؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك وصفوان خير مني.

من الآداب التي علمها القرآن للمؤمنين خلال الأحداث السابقة، ملاحظات على غزوة بني المصطلق

ثم بعد هذا نجى الله عائشة من هذا الأمر، وكان ختام هذا البلاء الذي ابتلي به النبيُّ ﷺ وزوجه وبيت أبي بكر، والمسلمون الصادقون الذين ابتلوا بهذه الفتنة التي كانت بسبب خروج أمثال هؤلاء في غزوات النبي ﷺ وصدق الله العظيم:

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾

[التوبة: ٤٧].

أ. الآداب يجب أن يتحلى بها المؤمنون في مثل هذه الأمور:

وكان من القرآن العظيم الذي نزل في هذا الأمر يعلم المسلمين أن يلتزموا جانب الحق والصواب؛ لأن أمثال هذه المحن لا بد أن يخرج المسلمون منها بالدروس التي تعلمهم أدب الإسلام.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٤ - ١٨].

ثم تمضي الآيات وتتوعد أولئك الذين أشاعوا هذا عن حب ورغبة في إشاعة الفاحشة في بيت رسول الله ﷺ يقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١٩، ٢٠].

وهنا أقسم أبو بكر بعد هذا، وكان يحسن ويعطي مسطح بن أثاثة صدقات كان يعطيه إياها، فلما وقع ذلك منه في حق ابنته، وسعى فيه أقسم لا يعطيه أبدًا، فنزل قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

هنا نرى تأديب الإسلام وتأديب القرآن للمؤمنين، ينالهم ما ينالهم ولا يكون ردهم إلا خيرًا.

ب. ملاحظات على غزوة بني المصطلق:

هنا بعد هذه الحادثة التي تعلقت بأمر هذه الغزوة، نجد أن هناك ملاحظاتٍ على هذه الغزوة -غزوة المريسيع، أو بني المصطلق كما سميت-:

أولاً: أن المنافقين -ولأول مرة- يكون لهم هذا الخروج بهذه الكثرة، وتحت هذه الزعامة المنافقة الكافرة، زعامة شيخهم عبد الله بن أبي بن سلول، فخرجوا في هذا السفر وكانوا من قبل في أُحد وفي الأحزاب، ففي الأولى رجعوا من الطريق ولم يكن لهم شرف المساهمة في هذه الموقعة التي كانت على حدود المدينة، وكذلك كان أمرهم بعدها شماتة في المسلمين وفيمن أصيب منهم، أما مصابهم في ذويهم من المؤمنين، فقد تلقوها بعدم التسليم لأمر الله وقبول الابتلاء، بخلاف

تقبل المؤمنين لقضاء الله في أنفسهم وفي ذويهم، وآيات سورة آل عمران تشهد بهذا، وفي الأحزاب رأينا أمرهم في تسللهم وقولهم في أمر النبي ﷺ ووعده إياهم بالفتوح: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي بينت أمر هؤلاء، وأنهم لم يكن لهم نصيب في الخير.

أما هنا فقد خرجوا طمعًا في الدنيا، ولا نراهم خرجوا مع النبي ﷺ بجمعهم هذا، وإنما خرجوا مع عبد الله بن أبي بن سلول.

ثانيًا: الكلام السيئ الذي سمعه زيد بن أرقم من عبد الله بن أبي بن سلول، أو قالة السوء التي قالها في حق النبي ﷺ وحق المهاجرين، يدل على أنهم كانوا جميعًا معًا، لا يفارقون أنفسهم، ولا يدخل بينهم مؤمن؛ لأنه ما كان يمكن أن يتكلم ابن سلول هذا الكلام في حق المهاجرين وحق النبي ﷺ وبينهم رجل مؤمن، وهذا ما يدلنا على أنهم كانوا جميعًا مع بعضهم، يجتمعون معًا، ويسيرون معًا، ويتحدثون معًا، وما كان يظن هذا الرجل أن هذا الغلام صغير السن يمكن أن يلتقط كلامه وأن ينقله، ولكنه كان أُذن خير نقلت أمر هؤلاء للنبي ﷺ حتى تظهر الحكمة منه ﷺ حينما كان لا يحب خروجهم معه في أي مكان، وحينما كان يستأذنه بعضهم فيأذن، وحين كان لا يؤاخذ بعضهم إذ رجع، كما حدث في تبوك -كما سوف نرى بعد ذلك- يؤاخذ المؤمنين الصادقين الذين تخلفوا ولا يؤاخذ هؤلاء.

ثالثًا: أن خروجهم لم يكن إلا للدنيا، ولانتهاز الفرص التي توقع الفتنة بين المؤمنين، وقد رأينا كيف اجترأ هؤلاء على النبي ﷺ وقالوا قالة السوء فيه وفي المهاجرين، وكذلك ما قالوه كذلك في حق النبي ﷺ وفي حق عائشة.

وهنا نرى حلم رسول الله ﷺ على أمثال هؤلاء.

تقسيم الأسرى، وزواج النبي ﷺ من أم المؤمنين جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وأثر ذلك في إطلاق المسلمين من بأيديهم من الأسرى:

أصاب رسول ﷺ سبيًا كثيرًا فقسمه في المسلمين، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار زوج رسول الله ﷺ وجاءت جويرية إلى رسول الله ﷺ بعد أن وقعت في سهم ثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها؛ لأنها بنت سيد في قومه، وجاءت للنبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: ((فهل لك في خير من ذلك؟)) قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: ((أقضي عنك كتابتك وأتزوجك))، قالت: نعم يا رسول الله، قالت: قال قد فعلت.

هكذا ساقها الله ﷻ في الأسر لتنال شرف أمومة المؤمنين { .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺوأرسلوا ما بأيديهم من السبايا والأسارَى، ولقد أعتق الله بتزويجه # من جويرية مائتي أهل بيت من بني المصطلق، تقول عائشة: فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وهناك رواية تقول بأن أباها الحارث بن أبي ضرار جاء إلى النبي ﷺ بفداء ابنته، وقال: يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، ثم لما دفع فداءها خطبها النبي ﷺ بعد أن أسلم الحارث وأسلم معه ابنان من أولاده، وناسٌ من قومه، وحسن إسلام هؤلاء، ودفعت إليه ابنته جويرية فأسلمت وحسن إسلامها، وخطبها النبي ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم ﷺ.

صلح الحديبية

هذه الغزوة هي من غزوات النبي ﷺ وكانت على أصح الأقوال في السنة السادسة للهجرة في شعبان منها. وهذه السنة السادسة من الهجرة كانت من أكثر سنوات الجهاد في حياة النبي ﷺ وفي حياة المسلمين، فإن هذه السنة نجد فيها خروجات كثيرة؛ سرايا، وغزوات وجهها النبي ﷺ من بعد الأحزاب، وبعد أمر بني قريظة، وبعد الإسهام والتحزب الذي كان من المشركين ومن اليهود، ومن الأعراب مَن قَرُبَ منهم ومَن بعد، ولذلك كان مما وفق الله إليه رسوله ﷺ هذه الخروجات وهذه الأعمال العسكرية التي لاحظناها على وجه الخصوص في هذه السنة، فكان لا بد من إظهار قوة المسلمين بعد أن منع الخندق من أن يقاتلوا جموعَ الأحزاب، وبعد أن منعهم الله من هؤلاء الذين جاءوا يريدون استئصال شأفة المسلمين، وهم عشرة آلاف كما رأينا.

هذا على الرغم من أن السنة الخامسة قد ختمت -كما رأيناً. بهذا الجمع كله الذي تحزَّبَ على المسلمين من كل ناحية وكل معتقد، ورد الله الجميع بفضله ونعمته خائبين لم ينالوا خيرًا.

كان من أمر النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب ورجوعهم، أنه بشر المسلمين بأن قريشًا لن تغزوهم بعد ذلك، وإنما هم الذين سيغزونهم، وهذا ما تحقق بأمر الله ﷻ.

على أن هذه السنة السادسة التي لها وزنها في حياة الإسلام والمسلمين كان فيها عمل استحق أن نقف عنده، وهو صلح الحديبية الذي ساقَ الله إليه المسلمين مساقَ الخير، حينما خرج النبي ﷺ معتمرًا في شهر ذي القعدة، فإنه # رأى رؤيا خير، أنه هو وأصحابه دخلوا مكة وطافوا بالبيت الحرام محلقين مقصرين لا

يخافون، فلما قص ذلك على أصحابه الذين أحبوا مكة، وتربوا في ربوعها، اشتاق المسلمون إلى هذا الخروج، وأذاع ﷺ هذا بين الناس، واستنفر من حول المدينة من الأعراب حتى يخرجوا معه في جمع تخشاه قريش؛ لأنه # كان يخشى قريشًا على أصحابه، ولذلك فإنه # خرج في هذا الشهر -الشهر الحرام- حتى يأمن الناس ويأمنه الناس، فلا يظنوا أنه خرج لحرب، وكان هذا أمره ﷺ.

فلما أذاع في الناس هذا الخبر، خرج معه ألف وأربعمائة من المسلمين، ولحق به حتى يتم هذا العدد جماعة من المسلمين الصادقين من الأعراب، وإن كان كثير من الأعراب تخلفوا عن ذلك؛ خشيةَ أن يقع قتال فينالهم بأس أو ضر، خرج النبي ﷺ في أمان الله الذي أضفاه على هذا الشهر الحرام قاصدًا مكةَ، وساق معه الهَدْي سبعين بَدنةً، وسار في الطريق بعد أن قدم بسر بن سفيان الخزاعي -أو بشر، خلاف في النطق- الذي جاء إلى المدينة في شهر شوال في ليال بقيت منه، فأسلم وحسن إسلامه، وهو من "خزاعة". ومضى بسر بعد أن قال له النبي ﷺ أن يبقى معهم حتى يخرجوا، وسبق النبي ﷺ بأمره حتى يرتاد له الطريق، فهو لم يعلن إسلامه بعد، ومضى النبي ﷺ بعد أن أحرم من ذي الحليفة، وقلد البدن والهدي، ومضى الجميع في طريقهم إلى مكة معتمرين.

هذا الخروج هو المعروف في كتب السير بـ"غزوة الحديبية" التي كانت في السنة السادسة للهجرة في ذي القعدة منها، وعرفنا بأن النبي ﷺ خرج لا يريد قتالًا، وإنما خرج ليعتمر هو أصحابه.

ملحوظة:

هذا المسير الذي ساره النبي ﷺ بأصحابه هو غزوة الحديبية كما يقولون، والحديبية: اسم بئر سُميت به منطقة تقع على بعد اثنين وعشرين كيلو مترًا إلى

الشمال الغربي من مكة، وأطراف الحديبية تدخل في حدود الحرم المكي، ومعظمها من الحل خارجه، وكان خروجه # إلى الحديبية يوم الاثنين مستهل ذي القعدة، وكان قصده مع أصحابه خيرًا عبادة لله ﷻ ها هي قريش أتت بشرها تبغي الشر بالمسلمين في بدر وفي أحد وفي الأحزاب، أما خروج النبي ﷺ هو وأصحابه، وكما وعد أصحابه بأنهم هم الذين سيغزونهم، كانت أول خروجة بعد الأحزاب، توجهًا إلى مكةَ بهذا الجمع، إنما كانت خيرًا وإعظامًا للبيت ولحرمته. وإن النبي ﷺ اختار هذا الشهر -وهو الشهر الحرام، وهو من أشهر الحج. حتى يصحح معتقدَ الناس الذين كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، ولذلك كانت عُمَرُه ﷺ في شهر ذي القعدة.

سار النبي ﷺ بأصحابه وأخذ في الاحتياط، فكانت معهم السيوف في قربها؛ لأنه ربما غدرت بهم قريش، وإن النبي ﷺ قد بعث بسر بن سفيان الخزاعي أمامه ليرتاد الطريق، فلما وصل النبي ﷺ إلى عُسْفَان وهي منهلة- أي: منزل من منازل الطريق بين الجحفة ومكة، وهي من مكة على نحو مرحلتين- لقيه عند عسفان بسر بن سفيان الخزاعي، وأخبره بخروج قريش التي علمت بأمره ﷺ.

و كان من كلام بسر بن سفيان للنبي ﷺ: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العود المطافيل -أي: الإبل الحديثة النتاج، التي أطفالها معها صغارها استعدادًا يتقووا بألبانها. قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون اللهَ أن تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدَّموه إلى الغميم، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا

قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش أني فاعل؟، فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة -أي: صفحة العنق يقصد الموت-)). ثم قال ﷺ: ((مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريق القوم التي هم عليها؟)).

أراد النبي ﷺهنا الخير لقريش، والخير لهؤلاء الناس الذين أرادوا شرًّا، وخالفوا أمرًا لم يكن من عادة أهل مكة، وهو أنهم يتصدَّوْنَ لمن يأتي معتمرًا أو زائرًا أو حاجًّا يصدونه عن البيت، ولما قال النبي ﷺ: ((من رجل يخرج بنا إلى طريق ليس عليه القوم؟))، قال رجل من أسلمَ: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا أجرلَ –أي: صعبًا، كثيرَ الحجارة- بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين، فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ: ((قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه))، فقالوا ذلك، فقال: ((والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها)).

ثم إن النبي ﷺ أمرهم أن يسلكوا ذات اليمين في طريق يخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، فلما سلك الجيش ذلك الطريق، ولما رأت خيل قريش أن المسلمين خالفوا عن طريقهم -أي: طريق الخيل- ركضوا راجعين إلى قريش ليخبروهم بأمر النبي ﷺ وأنه تنكب عن الطريق؛ ليسلك طريقًا آخر ليس فيه هؤلاء الذين خرجوا يمنعونه ﷺ ومن معه، ولما وصل المسلمون إلى قريب من الحديبية، بركت ناقة النبي ﷺ القصواء، فقال الناس: خلأت الناقة –أي: حرنت- ولكن النبي ﷺ قال: ((ما خلأت القصواء وما كان لها هذا بخلق، إنما حبسها حابس الفيل عن مكة)).

ولقد نزلت قريش في بلدح -وهو واد بمكة شمالي الحديبية- وسبقوا المسلمين على الماء في هذا الوادي، وهنا لما أمر النبي ﷺ الناس بالنزول؛ لأنه رأى # أن هذا إيذان من الله ﷻ ألا يتابعوا المسير، كما بركت الناقة في موضع المسجد أول يوم دخوله المدينة ﷺ وقال: ((ها هنا المنزل إن شاء الله))، كذلك لما بركت الناقة رأى النبي ﷺ أن في هذا توجيهًا للمسلمين أن ينزلوا في هذا المكان، فأمر النبي ﷺ أن ينزلوا، وهنا قال الناس: يا رسول الله، إنه ليس هناك ماء حتى يقوم بأمر الناس، وكانت هناك بئر لا تقوم بأمرهم، إنما كان فيها قليل من الماء لا تكفي، وهنا حدثت من معجزات النبي ﷺ حينما أخرج سهمًا من كنانته، وأمر مَن ينزل بالبئر حتى يغرسها فيه، فنزل ناجية بن جندب سائق البدن للنبي ﷺ وهو رجل من أسلم، فنزل فجاشت البئر بالماء، وشرب الناس، وسقوا دوابهم وكفاهم الماء، وهنا يقول جابر بن عبد الله لما سئل: كم كنتم؟ قال: كنا أربع عشرة مائة، وقال: والله لو كنا مائة ألف لكفانا الماء.

النزول بالحديبية، ومجيء رسل قريش إلى النبي ﷺ ورسل المسلمين إلى قريش، وموقفها منهم، وشيوع نبأ مقتل عثمان، وبيعة الرضوان، ووقوع الصلح، وموقف المسلمين منه

نزل النبي ﷺوالمسلمون الحديبيةَ لأمر الله ﷻ الذي أراد، وهاهم ما وجدوا عوزًا في ماء، فقد سقاهم الله وأسقاهم من فضله، وببركة الله، وبركة نبيه ﷺ وإن المسلمين في مقامهم هذا أهداهم عمرو بن سالم وبسر بن سفيان الخزاعيان غنمًا وجزورًا، فَرَّقها النبي ﷺ في الناس، وأقام النبي ﷺ في هذا المكان.

وهنا ظهرت بوادر الخير في فرج الله ﷻ في هذا الأمر، حينما بعثت قريش بديل بن ورقاء الخزاعي إلى النبي ﷺ يستطلع منه حقيقة الأمر. جاء بديل في جماعة

من خزاعة، فكلموه ﷺ وسألوه ما الذي جاء به؟، فأخبرهم أنه لم يأتِ يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت، ومعظمًا لحرمته، وهنا رجع القوم إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدًا لم يأتِ لقتال، إنما جاء زائرًا لهذا البيت، وهنا اتهمهم أهل مكة، وجبهوهم، وعنفوا لهم القول، وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالًا فوالله لا يدخلها علينا عنوةً، ولا تحدِّث العرب عنا بذلك.

ثم بعثت قريش بعد ذلك مكرز بن حفص بن الأخيف إلى رسول الله ﷺ حتى يستطلع الأمر هو الآخر، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا قال: ((هذا رجل غادر))، ولما انتهى مكرز إلى رسول الله ﷺ وكلمه، قال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال.

ثم إنهم بعثوا بعد ذلك الحليس بن علقمة سيد الأحابيش – والأحباش: جماعات ليسوا من صميم مكة تحالفوا مع قريش، وهم الذين خرجوا معهم في أُحد، وهم الذين يطلق عليهم ذلك- ولما جاء الحليس رآه النبي ﷺ وقال: ((إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجه حتى يراه))، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، وسمع تهليل المسلمين، رجع من مكانه ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما يرى، ولما قال لهم ذلك، قال أهل مكة: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علمَ لك، ثم إن الحليس غضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاهدناكم، أَيُصَدُّ عن بيت الله مَن جاءه معظمًا له؟ والذي نفس الحليس بيده، لَتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، قالوا: كُفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضَى به.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فاشترط عليهم قبل أن يأتي إلى النبي ﷺ قائلًا: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم مَن بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم صلتي بكم، فإنما أنتم والد وإني ولد -وكان عروة لسبيعة بنت عبد شم- وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى أواسيكم بنفسي، قالوا: صدقتَ ما أنت عندنا بمتهم، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد، أجمعتَ أوشاب الناس –أي: أخلاط الناس وأوباشهم كما يقولون- ثم جئت بهم إلى بيضتك هذه لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العود المطافيل قد لبسوا جلود النمور -يحاول أن يرهب بأمر قريش- يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، وايم الله لكأني بهؤلاء -يقصد أصحابه ومن معه- قد انكشفوا عنك غدًا.

وكان أبو بكر الصديق > خلف النبي ﷺ فنهره، وقال: أنحن ننكشف عن رسول الله ﷺ؟ ثم أخذ عروة في الكلام مع النبي ﷺ وجعل يتناول لحيته ﷺ يضع عليها يده وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة -ابن أخي عروة- واقف بجوار النبي ﷺ لابسًا الحديدَ، كلما حاول عمه أن يمسك أو أن يمس لحيةَ النبي ﷺ يقرع المغيرة يد عمه، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ وذلك قبل أن تصل يده إلى لحية النبي ﷺ وهنا كان يقول عروة: ويحك، ما أفظك وأغلظك، لشدة ما كان يقرعه على يده.

وهنا تبسم النبي ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟، قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، وهنا نهره عمه، وقال: أي غدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟ وذلك في جريرة فعلها وتحملها عنه.

لما تكلم النبي ﷺ مع عروة وأخبره بأمره، رجع عروة إلى قريش ليخبرهم أن النبي ﷺ لم يأتِ يريد حربًا، وأنه قام من عند رسول الله ﷺ وأخبرهم عروة بما يصنع أصحابُه -رضوان الله تعالى عليهم- من التعظيم والتوقير لرسول الله ﷺ فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكًا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا، فَرَوْا رأيكم.

رسل النبي ﷺ إلى قريش وموقفها منهم، وشيوع نبأ مقتل عثمان بمكة، وبيعة الرضوان، ووقوع الصلح:

دعا النبي ﷺ خراشة بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش يخبرهم بأمر النبي ﷺ وحمله على بعير له يقال له: الثعلب. وهذا فيه دَلالة أنه بعير سباق حتى ينجو به إذا ناله أذًى منها.

وخرج خراش حتى وصل إلى أهل مكة حيث كانوا، ولما رأوه، قاموا به فعقروا البعير وأرادوا قتل هذا الرجل، ولكن الأحابيش منعتهم، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

ملحوظة:

رأينا هنا حسنَ معاملة النبي ﷺللرسل التي كانت تأتيه من قبل قريش؛ وذلك حين بَعثت إليه ﷺ تلك الرسل، فلا ينالهم أذًى منه، ولا من المسلمين، ونرى أن الرسول يأتيهم من قِبلِ النبي ﷺ وهو رجل من خزاعة من القبيلة التي تعيش بجوار مكة، ويفعلون به هذا. والمتعارف عليه أن الرسل لا تُقتل ولا تؤذى؟!

ولكن هكذا أخذ الكفر بأمر قريش، ففعلت ما فعلت، وما كان غريبًا عليها أن تفعل ذلك بهذا الرجل وهو أول رسول من رسل النبي ﷺ إلى مكة.

ولقد قامت قريش قبل هذا ببعث أربعين رجلًا أو خمسين منهم، أمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، ولكن المسلمين على الرغم من طول السفر وتعب المدة، أمسكوا بهم، وأَتَوْا بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم على الرغم من أنهم كانوا قد رموا في عسكر النبي ﷺ بالحجارة والنبل.

وهنا نرى فعل النبي ﷺ حتى بمن اعتدَى منهم، كل هذا على مقربة من الحرم أو في الحرم، وفي شهر الله الحرام، وفي قصد خير من المسلمين ومن النبي ﷺ فشتان شتان بين هذا وذاك، بين فعل هؤلاء الكفار، وفعل النبي ﷺ.

بعد ذلك أراد النبي ﷺ أن يبعث رجلًا له شأنه من أصحابه، فطلب عمر بن الخطاب > ليبعثه إلى مكة ليبلغ أهلها ما جاء له، ولكن عمر خاف قريشًا على نفسه، وقال: يا رسول الله، إنه ليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغِلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز مني: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان > فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم بمجيء النبي ﷺ وأنه لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته، فخرج عثمان حتى وصل مكةَ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص وهو ذو قرابة ورحم منه، فأجاره حتى دخل مكة، وحمله بين يديه.

بَلَّغَ عثمان رسالة رسول الله ﷺ في أمان الله أولًا، ثم في أمان هذا الجوار الذي يسَّره الله لأبان بن سعيد بن العاص، ولما جاء عثمان أبا سفيان وعظماءَ مكةَ، وبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به إليهم، قالوا لعثمان حينما بلغ الرسالة: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فَطُفْ، ولكن أَبَى عثمان من هذا، وقال: ما كنت

لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ومكث عثمان في مكة أيامًا حتى شاع بين المسلمين أن عثمان قد قُتِلَ، وهنا قال النبي ﷺ: ((لئن كان عثمان قد قتل، فوالله لا نبرح حتى نناجز القوم)).

ثم دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة -بيعة الرضوان- وكانت تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وقال جابر بن عبد الله: إن رسول الله ﷺ إنما بايعنا على ألا نفرَّ، فبايع الناس رسولَ الله ﷺ ولم يتخلف عن هذه البيعة أحد من المسلمين حضرها، إلا رجل من الأعراب هو الجد بن قيس أخو بني سلمة، وكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته يختبئ خلفه وقد ضبأ إليها -أي: اختبأ واستتر حتى يتوارَى عن الناس وعن رسول الله ﷺ ثم جاء رسول الله ﷺ أن هذا الخبر غير صادق وإنما أشيع هكذا، وأن عثمان حي.

ثم إن قريشًا بعد هذا أرسلت سهيل بن عمرو في جماعة، وقالوا: ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة، فأتاه سهيل، ولما رآه النبي ﷺ مقبلًا قال: ((قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل))، فلما انتهى سهيل إلى النبي ﷺ وتفاوض في الكلام وفيما جاء به، جرى الصلح بعد مفاوضات في أمور تألم لها كثير من المسلمين؛ لأن النبي ﷺ وافق على أمور كثيرة، كان فيها استفزاز لمشاعر المسلمين -وسوف نرى هذا من بنود الصلح الذي وافق النبي ﷺ عليه- حتى يعلم أهل مكة أنه ما جاء إلا لأمر هذا الصلح، وهذا السلام، وأنه أراد الخيرَ والصلحَ، وكان في هذا رغبة منه ﷺ أن يبقي على قريش؛ لأنه # كان يحب ذلك، ولكنها كانت لا تحب الخير لنفسها ولا لغيرها.

هنا لما عَلِمَ المسلمون بأمر بنود هذا الصلح، وأن النبي ﷺ وافق عليه ولم يعترض على أمر منه، أنكر عمر ذلك الأمر، ولما التأم الأمر، ولم يبقَ إلا أن يكتبوا وإلا أن يتم الأمر، ويتفق عليه ويشهد عليه، جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أَوَلسنا بالمسلمين؟، قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟، قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: ياعمر الزم غرزه –أي: الزم أمر النبي ﷺ فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى بعد ذلك النبي ﷺ فقال مثلما قال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟، قال: ((بلى))، قال: أولسنا بالمسلمين؟، قال: ((بلى))، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال النبي ﷺ: ((أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني الله))، قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأعتق مِن الذي صنعتُ يومئذٍ؛ مخافةَ كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا.

بنود الصلح، وتطبيقها في رد أبي جندل

هنا انتهى الأمر بعد المفاوضة والمراجعة بين النبي ﷺ وبين سفير قريش إلى المسلمين وإلى رسول الله، سهيل بن عمر، تم الصلح الذي دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ليكتبه.

ونرى هنا حتى في كتابةِ وثيقة الصلح هذا العنتَ، وهذه اللجاجةَ من ممثل قريش سهيل بن عمرو، فلما جاء عليٌّ، قال له النبي ﷺ: ((اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم))، قال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ لعلي: ((اكتب: باسمك اللهم))، رضي هنا النبي # لأنه لم

يقل: اكتب باسم اللات، وإنما قال: باسمك اللهم، فرضي النبي ﷺ ثم قال النبي ﷺ لعلي: ((اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيلَ بن عمرو))، هنا قال سهيل: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ لعلي: ((هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحَا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضُهم عن بعض)).

هذا هو أول بندٍ من بنود الوثيقة.

الثاني: على أنه من أتَى محمدًا من قريش بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، كذلك وإن بيننا عيبة مكفوفة -أي: صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة- ثم قال: وإنه لا إسلالَ ولا إغلال -أي: لا اختلاس وسرقة، ولا خيانة- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه.

كذلك كان من شروط الصلح: أن يرجع النبي ﷺ عامه هذا، فيرجع ولا يدخل عليهم مكة، وأنه إذا كان العام القابل خرجنا عنك فدخلتها -أي: مكة- بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها، وهنا وافق النبي ﷺ على كل هذه الشروط.

ولما قالت قريش: إنه من أحب أن يدخل في عهد محمد يدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش يدخل فيه، هنا دخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في حلف قريش وعقدها، إذن فهؤلاء وأولئك يسري عليهم ما يسري على من حالفوا ودخلوا في عقدهم وعهدهم.

نجد هنا أن أهم ما أثار المسلمين بعد ذلك، هو مجيء أبي جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت من المشركين وحبسهم إلى رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب النبي ﷺ كذلك قد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، وأنهم سوف يعتمرون، ويدخلون مكة التي طالما اشتاقوا إليها، وحنوا إلى دخولها، فلما رأوا ما رأوا من أمر الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ في نفسه من هذا كله، دخل على الناس مِن كل ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون، ولما رأى سهيل بن عمرو ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية –أي: قد انتهت واتفقنا على كل شيء- وهذا أول جاء إليك من مكة بغير إذن وليه، فوليه موجود وهو سهيل، فلما قال له هذا، قال له النبي ﷺ: ((صدقتَ))، فجعل سهيل يجذب ابنه جَذبًا من تلابيبه، ويجره ليرده بعيدًا عن المسلمين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتونني في ديني؟! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم من الغم، فقال رسول الله ﷺ: ((يا أبا جندل، اصبرْ واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومَخْرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم)).

وهنا وثب الفاروق عمر بن الخطاب > مع أبي جندل يمشي إلى جواره، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دمُ أحدهم دم كلب، قال ذلك عمر يغري أبا جندل بأبيه، وكان يدني قائمَ السيف منه، ينتظر أن يستلَّ أبو جندل سيفَ عمرَ فيضربَ به أبيه، ولكن الرجل، كما يقول عمر: رجوتُ أن يأخذ السيفَ فيضربَ أباه به، لكنه ضَنَّ بأبيه، ونفذت القضيةُ.

وهنا أشهد النبي ﷺ على كتاب الصلح بعد أن تم الاتفاق عليه رجالًا من المسلمين، ورجالًا من المشركين، وكان ممن شهد من المسلمين: أبو بكر، وعمر،

وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومن المشركين: شهد مكرز بن حفص وكان يومئذٍ على شركه، وكذلك شهد علي بن أبي طالب وكتب هذه الصحيفة، وهو كاتبها كما رأينا.

نـزول سـورة الفـتح وتـسميتها "صـلح الحديبيـة": فتحًـا

رجع المسلمون بعد هذا، وفي الطريق نزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح، يحكي عمر بن الخطاب > وهم في طريق العودة، أنه حاول أن يقترب من النبي ﷺ أو أن يفاتحه بكلام؛ حتى يزيلَ ما بصدر النبي ﷺ مما اعترض به عليه أو مما تكلم به عمر عندما تكلم متألمًا من شروط الصلح التي وافق عليها النبي ﷺ ولكن النبي ﷺ ما كان يرد عليه مرةً من بعد مرةٍ، حتى خشي عمر وخاف على نفسه، وتأخر لِمَا رأى من النبي ﷺ هذا الإعراض، أو الذي ظنه عمر إعراضًا من النبي ﷺ، ثم إن النبي ﷺ في ليله وهو في الطريق، نزلت عليه سورة الفتح التي سجلت أحداث هذا الصلحَ العظيمَ الذي سمَّاه الله "فتحًا"، فنادَى النبي ﷺ على عمر، ولما سمع عمر الهتاف باسمه في العسكر، خشي وخاف أن يكون أمر شر نزل به، ولكنه لما جاء إلى النبي ﷺ وما كان له إلا أن يأتِ- وجد البشرى في وجه النبي ﷺ وهو يقول له: ((لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها)).

كانت سورة الفتح هي التي أنزلها الله ﷻ في هذا المسير، والتي سجلت على هذا الأمر العاجل تنزل السورة في المسير قبل أن يرجع النبي ﷺ إلى المدينة، تبشر بفتح الله ﷻ وتسجل أحداث هذه الغزوة من أول أمرها إلى آخر أمره، من رؤيا النبي ﷺ وخروجه ﷺ وفَتْح الله عليهم، وأمر من تخلف من الأعراب عن النبي ﷺ.

وهكذا نجد القرآن العظيم يسجل أحداث أمثال هذه الغزوات فيما نزل من آياته وسوره، حتى إن هذه الغزوة اعتبرت فتحًا، ولم يكن القصد من فتح الله الذي فتحه لنبيه ﷺ فتح مكة، وإنما كان المقصود هذا الصلح؛ لأنه كان فتحًا عظيمًا من الله على المسلمين.

آيات هذه السورة تستعرض أمر هذه الغزوة وما تم فيها، وتذكر أمر أولئك الذين بايعوا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] ثم يذكر رضا الله ﷻ عن المؤمنين الذين بايعوا النبي ﷺ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

إن الله ﷻ ذكر نعمة الله على المسلمين أنه كف أيدي المشركين عن المسلمين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، وتمضي الآيات لتذكر صدق الله ﷻ نبيه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وذكرت آيات هذه السورة أولئك الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يسارعوا ولم يبادروا بأمر الخروج معه حينما استنفرهم للخروج معه في هذه الغزوة وهذا المسير، أولئك أقوام لم يكن لهم هذا الشرف العظيم وهو رضوان الله ﷻ الذي ناله المؤمنون المخلصون بإجابتهم أمرَ نبيهم، ومسيرهم معه ﷺ ومبايعتهم له، حتى إننا رأينا من هؤلاء المنافقين مَن سار واختبأ واستتر، ولم يرِد أن يكون له شرف هذه البيعة وشرف هذا الرضوان من الله ﷻ.

ولما رجع النبي ﷺ وكان من أمر صلح الحديبية ما كان، قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُد هدينا، فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك الناس، فقال: ((بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم، ويسألونكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رَأَوْا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أتنسون يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت الحناجر، وتظنون بالله الظنونا)).

فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرتَ فيه يا رسول الله، ولَأَنْتَ أعلم بالله وأمره منا، ولقد خرَّج البخاري من حديث البراء بن عازب، قال: ((تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتحَ بيعةَ الرضوان، يوم الحديبية كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناه غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا)).

رجع المسلمون إلى المدينة فائزين برضوان الله ﷻ وقد حقق الله لهم بهذا الصلح ما تفرغوا لغيره من بعده؛ لأن مكة كانت -قبل ذلك- شديدة العداوة، وقد رأينا ما حدث منها في حربها مع النبي ﷺ الذي طال، ولم تكن قريش تعترف بالمسلمين ولا بأمرهم، وطاردتهم حتى في محل نزولهم بالمدينة، ولم تراع مصالحها التي هدد المسلمون مسيرها، وحياتها -أي: حياة قريش- لا تقوم إلا على التجارة. وعلى الرغم من كل هذا فإنها لم تبادر وتصالح المسلمين حتى

مراعـاةً لمصالحها، ولم يلجئهـا إلى هـذا الـصلح إلا هـذا الموقـف العظـيم، وهـذا التسامح الذي بَدَا من رسول الله ﷺ.

إن قريشًا ما كانت تراعي أيَّ أمر في سبيل عـدائها للإسـلام والمسلمين، وهـا هـي قد رأيناها تقـف بجموعهـا، بخيلـها، وبرجالـها، وبسلاحها، تـدفع أناسًا جـاءوا يعظمون البيت معتمـرين، ولكنهـا وقفـت أمامهم تريـد أن تحـاربهم، وتعـد لهـذا عدة الخيل، وعدة الجيش؛ لرد المسلمين وصدهم عن بلد الله الحرام، وفي أماكن الحرم، وفي شهر حرام، وفي أيام حرام، بـل إنهـا لم تـراع أمـر العـرف بـين النـاس حينما أرادوا أن يقتلوا أولَ رسولٍ لرسولِ الله ﷺ جاء يعرض أمره عليهم، وهـو خراش بن أمية الخزاعي.

هكذا نرى أن أمر صلح الحديبية كان خيرًا عظيمًا مـن الله ﷻ سـاقه إلى الإسـلام والمسلمين.

نتائج صلح الحديبية، وأمرُ أبي بصير واستفحال خطره

نزلت سورة الفتح -كما قلنأ. في الطريـق عنـد كـراع الغمـيم، وهـو عـلى نحـو مـن أربعة وستين كيلو مترًا من مكة، وليس هو الغميم الذي وقف عنـده خالـد ليـصد المسلمين؛ لأن بعض الكتاب يخطئون في هذا، فالغميم قرب الحديبية، أمـا كـراع الغمـيم فهـو في الطريـق مـا بـين مكـة والمدينـة، وهـو الـذي التـف المسلمون حـول رسـول الله ﷺ مستبـشرين بـما نـزل مـن القـرآن العظـيم يـذكر بـالخير أهـل بيعـة الرضوان، ويثيبهم الله على ذلك فتحًا قريبًا.

هذا الصلح المبارك كان فاتحة خير على الإسلام وعلى المسلمين، على الرغم مما ظهر من قريش من التشدد والتعنت عند كتابته، وعند تنفيذ شروطه، وما بدا منه ﷺ من التسامح والتساهل الذي أبداه # حتى تم هذا الصلح العظيم الذي اعتبر فتحًا من الله ﷻ لأن بعض الناس يتصورون أن الفتح إنما هو فتح مكة، وإنما الفتح كما عرفه صحابة النبي ﷺ أنه هذا الصلح العظيم؛ لأنه ترتب عليه الفتح الأكبر بعد ذلك:

١. فتح الأبواب التي كانت مغلقة أمام دعوة الإسلام.

٢. اعتراف قريش -لأول مرة- بقوة المسلمين ومفاوضتهم في أمس الأمور التي تمس علاقاتهم التي كانت واضحة المعالم في مباشرة المعارك من قبل، أما الآن فقد اعترفت قريش -كما رأينا..

٣. أتاح هذا الصلح العظيم لكل مَن كان يتخفى بإسلامه، أو يخشى من قريش أن تعرف إسلامه ووده لمحمد ﷺ مثل خزاعة- سعةً من أمره. ولذلك في علانية أقبلت خزاعة على التحالف مع النبي ﷺ وأن تدخل في حزبه وحلفه، وهذا من أعظم الأمور التي ترتبت على هذا الصلح العظيم.

٤. هذا الصلح جعل الناس يتلاقون في سلم، ويتباحثون في أمر الإسلام، وكانت فرصة لكل ذي عقل ولب أن يتعرف على الإسلام، فكان كثيرون من أمثال من أراد الله بهم خيرًا عرفوا الإسلام عن قرب، وبمناقشة ومراجعة خيرة، فكان ذلك سببًا في إسلام كثيرين من الذين كانوا على الكفر قبل ذلك، ولا يخفى أنه من أدل الأمور على هذا أن النبي ﷺ خرج إلى مكة في مسير الحديبية ومعه ألف وأربعمائة رجل من المسلمين، ولما

جاء لفتح مكة بعد نحو من سنتين، كان معه عشرة آلاف رجل من المسلمين.

يقول الزهري: ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضًا والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك.

كذلك فإنه كان من أمر إشاعة دعوة الإسلام والتفرغ لتبليغها قيام النبي ﷺ بإرسال الرسل من عنده ليحملوا كتب الدعوة إلى الملوك والأباطرة وإلى الأمراء، فكانت فرصةً أن تخرج الدعوة بجهود المبلغين خارج الجزيرة العربية؛ لأن الجزيرة أصبحت الآن -القوة التي كانت تصاد الإسلام- في هدنة مع المسلمين وهي قريش، وهذه القوة قوة قريش التي كانت تقاوم الإسلام في دعوته الخاصة بين العرب، وها هي رضيت آخر الأمر بالمفاوضة والصلح والهدنة عشر سنين مع المسلمين.

كما أنه ﷺ تفرغ لأمر هام ولقوة كانت أشد عنادًا، وأبلغ أذًى للمسلمين، وهم اليهود. وسنرى بعد ذلك أن النبي ﷺ تفرغ لأولئك الذين حاربوا الإسلام عن علم وليس عن جهل كما كانت تحارب قريش.

على أن ما تم بعد ذلك من الأمور التي دلت على بالغ حكمة الرسول ﷺ في تساهله مع قريش عند عقد الصلح، وذلك في الذين احتبسوا بمكة من المسلمين الذين منعتهم قريش قبل ذلك.

فرأينا أمر أبي جندل بن سهيل وكيف عاد مع أبيه. ولكن بعد ذلك جاء رجل من المسلمين ممن كان في مكة، وهو أبو بصير الذي أقبل مسلمًا على النبي ﷺ وأبو

بصير هذا هو عتبة بن أسيد حليف بني زهرة، جاء مسلمًا إلى النبي ﷺ ولم يلبث عنده حتى بعثت بنو زهرة في طلبه، فقد كتب الأخنس بن شريق وأزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتابًا، وبعث خنيس بن جابر من بني عامر ومعه مولى لهم، هذا الكتاب ذكر فيه الصلح الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ وطلبوا أن يرد إليهم أبا بصير، فخرج العامري هذا ووصل إلى النبي ﷺ بعد ثلاثة أيام من مقدم أبي بصير، ولما قرئ الكتاب على النبي ﷺ فإذا فيه: "قد عرفت ما شارطناك عليه من رد مَن قدِمَ عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا".

فأمر النبي ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما، فقال: يا رسول الله، تردني إلى المشركين يفتونني في ديني؟، فقال: ((يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا))، فقال له الرسول ﷺما قاله لأبي جندل، ولكن هذا الرجل لا ولي له هنا، ولذلك لم يكن أمام أبي بصير إلا أن يلتزم بأمر رسول الله ﷺ.

فخرج مع الرجلين حتى وصل إلى ذي الحليفة عند الظهر، فصلى الظهر وجلس مع الرجلين ليأكلا، ثم إنه رأى سيف العامري وقد علقه في الجدار وتحادثا معًا، ونظر أبو بصير إلى السيف الذي علقه العامري في الجدار، فقال: أصارم سيفك هذا؟، قال: نعم، قال: ناولنيه أنظر إليه إن شئتَ، فناوله إياه، فلما قبض عليه أبو بصير ضربه به، فقتله، وهنا فَرَّ الرجل الثاني مسرعًا ولم يكن له ملجأ يأمن فيه من أبي بصير إلا رسول الله ﷺ ولذلك أخذ يعدو حتى دخل المسجد عند العصر والرسول ﷺ جالس مع أصحابه، فلما رآه النبي ﷺ قال: ((لقد رأى

هذا الرجل ذعرًا))، ولما انتهى إليه # قال: ((ويحك ما لك؟))، قال: قتل والله صاحبكم صاحبي، وأفلتُّ منه ولم أكد، واستغاث برسول الله ﷺ فأمنه.

وهنا أقبل أبو بصير ودخل متوشحًا السيف، فقال: يا رسول الله، قد وفت والله ذمتك، وأدى الله عنك وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله ﷺ: ((ويل أمه مسعر حرب -وفي لفظ: ((محش حرب)) أي: مسعر حرب ومهيجها. لو كان معه رجال))، وقدم أبو بصير بسلب العامري لرسول الله ﷺ ولكنه # لم يقبله منه، وقال له: ((شأنك بسلب صاحبك، واذهب حيث شئتَ)).

وهنا لما قال النبي ﷺ لأبي بصير هذا الكلام، عرف أنه سيرده، ولكن خرج أبو بصير بعد ذلك متجهًا إلى ناحية العيص من الساحل إلى ناحية سيفِ البحر، ولما بلغ سهيلًا بن عمرو قتلُ أبي بصير العامري، اشتد عليه ذلك، وقال: ما صالحنا محمدًا على هذا، فقالت قريش له: قد برئ محمد منه، قد أمكن صاحبكم منه فقتله في الطريق، ولذلك لم يَدِ النبي ﷺ هذا القتيل، وتوجه أبو بصير ناحية سيف البحر، يقولون: إنه كان معه خمسة من المسلمين من مكة ولكن لم يطلبهم أولياؤهم، وتوجه إلى مكان بين العيص وذي المروة من أرض جهينة على طريق عير قريش، وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة -وهم كثير- أمر أبي بصير وما تم معه؛ لأن قريشًا عرفت بما كان من قتل وافدهم الذي طلبوا أن يأتي بأبي بصير، ولذلك تسلل كثيرون من المسلمين من مكة متجهين مباشرةً إلى حيث أبو بصير، ولم يذهبوا إلى المدينة؛ لأنهم كانوا يعلمون أن النبي ﷺ سوف يردهم، ويقولون: إن عمر بن الخطاب هو الذي كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ: أن أبا بصير لو كان معه رجال، وأخبرهم أنه بالساحل، ولذلك انفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى حيث أبو بصير.

وخرج كذلك سبعون راكبًا ممن كان بمكة فلحقوا بأبي بصير، وكلهم خافوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ في هُدنة المشركين، وكرهوا البقاء بين ظهراني قومهم في مكة، ولذلك نزلوا مع أبي بصير، ولما قدم أبو جندل على أبي بصير سلم أبو بصير له بالأمر؛ لأن أبا جندل قرشي، فكان أبو جندل يؤمهم في الصلاة، كذلك اجتمع إلى أبي بصير ناس من بني غفار وأسلم وجهينةَ، وطوائف من الناس حتى بلغوا نحوًا من ثلاثمائة كما يذكر ابن عقبة في مغازيه، وإن كان ابن إسحاق يذكر أنهم سبعون ولعله يقصد بهؤلاء من خرج من مكة.

على أية حال، فإن هذا الجمع الذي تمالأ واجتمع على طريق قريش وعيرها بعد أن أمنت المسلمين، وعادت الأمور كما كانت من قبل الهجرة أمانًا في الطريق، لا خوف ولا ملاحقة من المسلمين لهم. نرى أن الشرط الذي جعل المسلمين يكفون عن قريش عشر سنين أصبح غير ذي قيمة؛ لأن هذه الفئة -التي على أقل تقدير كانت سبعين، أو على الأكثر كانوا ثلاثمائة- هؤلاء روعوا قريشًا، وهؤلاء ليس لهم مَن يتحكم في سلوكهم، إنما هم أمراء أنفسهم لا سلطان بنص البيعة عليهم لأحد، ولذلك لما لم تجد قريش ثمرة الهدنة بأبي بصير ومن لجأ إليه، حيث كانوا يترصدون كل قافلة تمر عليهم ذاهبةً أو عائدةً يقتلون مَن فيها ويحوزون القوافل.

وهنا بعثت قريش تناشد رسولَ الله ﷺ وترجوه ألا يرد من جاءه من مكة مسلمًا، وتنازلت هي طواعيةً وراغمةً عن الشرط الذي تشدد وتعنت فيه سهيل بن عمرو كما رأينا.

وهكذا ظهرت حكمة رسول الله ﷺ التي ظهرت منه عند الصلح، حكمة التسامح الذي بَدَا منه ﷺ.

هذا ولقد كتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل، يأمرهما أن يقدِمَا عليه، ويأمر مَن معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، فلا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش وعيراتها، وقد وصل كتاب رسول الله ﷺ وأبو بصير يجود بنفسه، فقد أدركه الكتاب عند موته، فجعل يقرأه ومات وهو في يديه، فدفنه أبو جندل مكانه، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه، ورجع سائرهم الذين كانوا من غير مكة إلى أهليهم، وأمِنت بعد ذلك عيرُ قريش لتفضُّلِ رسول الله ﷺ وَأَمْرِه المسلمينَ الذين تعرضوا لقريش وعيرها على طريق الساحل.

وهكذا عرفت قريش أن محمدًا ﷺ هو ملاذهم –بعد الله ﷻ في حل أمثال هذه المشكلات المعضلة.

وهكذا تحقق كلام رسول الله ﷺ لما غضب المسلمون من تساهله وقالوا ما قالوه حتى قال في ذلك عمر، وكان رده # : ((إني عبد الله ورسوله، وإن الله لن يضيعني))، وهذا الذي قال لهم # حينما جاءت قريش بنفسها تسعى وترجو أن يعفيها رسول الله ﷺ من هذا الشرط.

وكان أبو بكر > يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وكان الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله ﷺ وبين ربه، والعباد يعجلون والله تعالى لا يعجل لعجلة العبد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله، ولقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائمًا عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بدنة، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره ﷺ وأراه يضعه على عينيه، ثم أذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يقول: محمد عبد الله ورسوله، ويقول في جرأة للنبي ﷺ: لو أعلم أنك رسول الله، ما قاتلتك.

وهنا نرى عظيم الحكمة منه ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى وما يفعل ولا يعمل إلا بأمر الله ﷻ إن هو إلا وحي يوحى.

استثناء المهاجرات من هجرة المسلمين من مكة، وحكم القرآن في الإمساك بعصم الكوافر، وكتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، والدعوة العامة إلى الإسلام، وأثر ذلك

أمر المهاجرات وحكم الله فيهن، والحكم في الإمساك بعصم الكوافر:

وهنا كان لا بد لأمر أن يستثنى من هجرة المسلمين من مكة وهو: أمر المؤمنات اللائي هاجرن فرارًا بدينهن من مكة، ولذلك جاءت بعض النسوة مهاجرات إلى رسول الله ﷺ فارات بدينهن من مكة، وجاء ذووهن يطلبوهن.

وأمامنا حادث هو أمر أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي هاجرت إلى المدينة مسلمة، فتبعها أخواها ليستردها بشروط صلح الحديبية، ولكن رسول الله ﷺ أبى من ذلك؛ لأن الله ﷻ منع هذا الأمر بنص قرآني، وبين أن المهاجرات المسلمات أمرهن غير الرجال، ولذلك نزلت آيات سورة الممتحنة تحدد هذا الأمر الذي أخرج النساء من أمر شرط الرد لقريش، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الممتحنة: ١٠، ١١]، هاتان الآيتان ظهر منهما الحكم في أمر المهاجرات المؤمنات:

يمتحن في دينهن وإيمانهن بالله ﷻ حتى لا تكون امرأة لها جريرة ذنب فعلتها وهربت من مكة من أجلها، وأنه ما أخرجها إلا الهجرة وإلا قصد المدينة حتى

تكون في عافية أمر الدين، كذلك فإن الحكم الذي تبين من هذه الآيات أن المؤمنة لا تحل لكافر: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لأن المؤمنة لا تحل لكافر ولا لمن هو أقل منها في الدين، أما المسلم أيضًا لا يحل له أن يمسك مشركة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ ولذلك وجدنا عمر يطلق زوجتين له، وكذلك أبو بكر يطلق زوجة كانت على الشرك، وإذا أحل الله الزواج من الكتابيات، فإنه لا يحل الزواج من الكوافر اللائي أمر الله ﷻ بطلاقهن، وألا يمسك المسلم بعصمة كافرة.

وهنا جاءت الآيات تحدد أمر تعويض أولئك الذين جاءت نساءهم من مكة، وأمر ربنا ﷻ أن ترد مهورهن إلى أزواجهن، وكان النبي ﷺ لا يرد المرأة ولا مهرها قبل صلح الحديبية لو جاءت، أما بصلح الحديبية فقد نزل القرآن يأمر النبي ﷺ ألا يرد أي مؤمنة جاءت، ولكن من أجل الصلح أمر القرآن بأن ترد مهورهن على رجالهن وأزواجهن.

كذلك المسلم الذي تخرج زوجته من المدينة مصرةً على الكفر وترجع إلى أهلها؛ لأمر الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ كان على قريش أن تعوض المسلم الذي خرجت زوجه إلى مكة كنص الصلح أو كنص الآيات، وهنا تذكر الآيات لو أن قريشًا – وقد حصل هذا. لم ترد أجرَ ومهرَ وحق المال لكل مَن طلق زوجته الكافرة، فإن الله ﷻ أمر المسلمين بأن يعوضوا ذلك المسلم عن خسارته في صداق امرأته، ولذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: من الآية١١] أي: أولئك الذين لم يأخذوا حقهم من قريش: أنتم تعوضونهم مما يفيء الله عليكم من الغنائم وعوائد القتال.

كُتُبه ﷺ إلى الملوك والأمراء، والدعوة العامة إلى الإسلام، وأثر ذلك:

هكذا تداعت الأحداث بعد صلح الحديبية وترتب على هذا كل ما رأينا، وكان كله خير على الإسلام وعلى المسلمين، ولذلك تفرغ النبي ﷺ والمسلمون -كما أشرنا- إلى أمرين هامين هما:

إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة وخارجها، ورأينا مَن يؤرخ لإرسال هذه الكتب في نفس السنة التي وقع فيها الصلح في ذي الحجة الشهر التالي لشهر الصلح من السنة السادسة، وقد أرَّخ بهذا الطبري، وأشار ابن سعد مؤرخًا إلى أن هذه الكتب وبداية إرسالها كان في المحرم من السنة السابعة، كأنها أيام معدودات حتى بدأ النبي ﷺ يخرج بالدعوة إلى خارج نطاق الجزيرة العربية، في هذه الدعوة العالمية حتى يتخطى الإسلام وتتخطى دعوته مرحلة الخصوصية في الجزيرة للعرب إلى مرحلة العموم إلى خارج الجزيرة، وما حولها ممن أرسل إليهم الرسول ﷺ كتبه يدعوهم إلى الإسلام، وممن قال بهذا ابن القيم، وابن حجر الذي يذكر أن رسول الله ﷺ أرسل إلى هِرقل في آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية، وأن الكتاب وصل إلى هرقل في المحرم سنة سبع.

ويدل الحديث الصحيح على أن كتاب رسول الله ﷺ وصل إلى هرقل في مدة الصلح، وابن حجر يرى أن ذلك كان في سنة ست من الهجرة، وقال أنس بن مالك: كتب النبي ﷺ إلى كل جبار -أي: إلى كل عظيم من الحكام- يدعوهم إلى الله، وسمى منهم: كسرى، وقيصر، والنجاشي، قال: وليس بالنجاشي الذي أسلم من قبل -كما عرفنا-.

ومما لا شك فيه أن مكاتبة الملوك خارج الجزيرة العربية، إنما هو تعبير صادق على عالمية هذه الدعوة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهذا

الأمر لم يتمكن منه النبي ﷺ هذا التمكنَ إلا بعد أن كفت بنود صلح الحديبية يدَ قريشٍ عن معاداة الإسلام والمسلمين.

ويطول الكلام لو تناولنا الكتب التي بعث بها النبي ﷺ ولكنا نختار منها بعض الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى أولئك الكبار من ملوك الأرض في ذلك الوقت:

ومنهم هرقل الذي بعث رسول الله ﷺ بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وفي الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين -أي: الفلاحين- ثم يذكر هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤])).

كذلك فإنه # لم يكتفِ بهرقل وحده، وإنما بعث إلى عامله على مصر، وهذا يدل على بالغ الحكمة من النبي ﷺ فإنه # لم يكتفِ بإرسال كتاب الدعوة هرقل، وإنما يتبع هذا بإرسال كتاب إلى عامله على مصر.

كذلك فإنه # بعث كتابًا إلى كسرى يدعوه فيه إلى الإسلام، أرخ هذا الكتاب بشهر جمادى الأولى سنة سبع وهي السنة التي قتل فيها كسرى، وبعث كتابه ﷺ مع عبد الله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى العبدي، ويقوم المنذر بعد ذلك بإرسال الكتاب وبعثه إلى كسرى، ولكن كسرى لما وصله كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام، مزق هذا الكتاب بعد أن قرأه، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ أن يمزقهم الله كل ممزق، وقد مزق الله

ملك كسرى، فقتله ابنه، واستولى على عرشه، ثم تمزقت من بعده دولته التي كانت واسعة الأرجاء، ثم زالت من الوجود على أيدي رجال المسلمين من بعد، كما سنرى إن شاء الله.

وكما أشرنا إلى أن رسول الله ﷺ بعث للمقوقس عامل هرقل على مصر، فإنه # بعث إلى "باذان" -"أو بدهان"- عامل كسرى على اليمن، دعاه فيه إلى الإسلام، وكان هذا الرجل من أعظم من أجاب على كتاب لرسول الله ﷺ فقد بادر إلى الإسلام فأعلن إسلامه، ودخلت اليمن كلها بإسلام هذا الرجل في حوزة الإسلام والمسلمين، فكان هذا الكتاب فاتحة خير على أهل اليمن إذ دخل الإسلام إليهم جميعًا.

وهكذا نرى حكمة النبي ﷺ في إرساله إلى الولايات التابعة للأكاسرة والقياصرة، وأثر هذا الخير على اليمن وأهلها بكتاب النبي ﷺ.

ولقد كانت آية من الله ﷻ صدق بها رسوله ﷺلأن كسرى بعث إلى عامله على اليمن، وكان رابع العمال الذين تولوا أمر اليمن بعد إخراج الأحباش من اليمن، ومساعدة أهلها على استرداد بلدهم من الأحباش، ولكن الفرس لما أعانوا أهل اليمن على التخلص من المحتل الحبشي، احتلوا هم بلادهم، وتولى أمر اليمن من لدن كسرى عمال وولاة عرفنا عهودهم بعهود الأبناء، كان "باذان" رابع رجل -أو رابع عامل- تولى اليمن من لدن كسرى، وهنا لما وصل الكتاب إلى كسرى، واغتاظ لهذا الأمر، واستكبر أن يخاطبه رجل من العرب بهذا الكتاب، لذلك بعث إلى عامله على اليمن يأمره بقتل النبي ﷺ وأن يأتي برأسه.

ولما جاءت الرسل إلى النبي ﷺ وعرف منهم ذلك بلغ "باذان" بأن الله ﷻ قتل ملكه، وقتله ابنه في ليلة كذا، فلما تأكد "باذان" من هذا الأمر، وذلك الخبر، صدّق بصدق نبوته ﷺ ودخل في الإسلام كما رأينا.

أما المقوقس فإنه تلقى كتاب النبي ﷺ باحترام ورد عليه بهدايا بعث بها إلى النبيﷺ كان منها مارية القبطية، وسيرين التي وهبها النبي ﷺ لحسان بن ثابت > وبعث له بعسل وبحمار يركبه، وكان في هذا نوع من الأدب في الرد على النبي ﷺ.

وغير ذلك كتب كثيرة وجهها النبي ﷺ بعد الحديبية إلى: الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق، وهوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة، وجيفر وعبد ابني الجلندى حاكمي عمان، وغيرهم من الملوك والأمراء الذين وصلتهم دعوة الإسلام السلمية في بداية أمرها بالحسنى والموعظة الحسنة التي تضمنتها كتب رسول الله ﷺ.

ونرى الحكمة وأدب الخطاب التي اتسمت به كتبه ﷺ وبدت فيما عثرنا عليه من هذه الكتب، ومنها كتاب هرقل الذي اتسم بالحكمة والسمو الأخلاقي والأدبي في مخاطبة الملوك حينما خاطبه بهرقل عظيم الروم، ثم إنه لما ذكر آيات القرآن التي نزلت لتحدد العلاقة بين المسلمين وبين النصارى، كما أنه # يرغب هرقل في الإسلام، ويبشره بأجره: ((أسلم تسلم ؛ يؤتك الله أجرك مرتين)) كما يقول الله ﷻ في أمثال من يؤمن من أهل الكتاب أن لهم أجرهم مرتين كما تنطق بذلك آيات سورة القصص، وكذلك فإنه في الوقت نفسه يحذره ويرهبه من الإثم الذي يلحقه إذا صد عن دين الله، ورفض هذه الدعوة ولم يقبلها: ((وإلا فإن عليك إثم الإريسيين))، أي: الفلاحين الذين هم أتباعٌ لا يملكون من أمورهم شيئًا، وحتى لا تقف الدولة الرومية أمام دعوة الإسلام كما وقف أسلافهم الرومان أمام دعوة المسيح # فحجبوا أمر النصرانية بالإكراه والتعذيب عن شعوب الدنيا وعن المصريين على وجه الخصوص.

فتح خيبر

عناصر الدرس

العنصر	الموضوع	الصفحة
العنصر الأول	موقع خيبر، وخطر يهودها وحقدهم على المسلمين، وانضمام يهود بني النضير إليهم	٤٠١
العنصر الثاني	المسير إلى خيبر، وخصوصية الخارجين لغزوها، وكيف كانت خيبر وعد الله لأهل الحديبية	٤٠٩
العنصر الثالث	خطة النبي ﷺ في الوصول إلى خيبر، وتعامل المسلمين مع حلفاء اليهود، خطة النبي ﷺ في نزول أرض خيبر، ومباشرة الحصار في مراحله الأولى	٤١١
العنصر الرابع	فتح المسلمين حصن ناعم وحصن الصعب وحصن الزبير، وسقوط منطقة النطاة بفتح ثلاثة الحصون، التحرك إلى منطقة الشق، وحصار أول حصونها وفتحه، وفتح حصن النزال	٤١٣
العنصر الخامس	فرار اليهود إلى منطقة الكتيبة، وحصار أول حصونها، ومرضه ﷺ وإمارة علي	٤١٥
العنصر السادس	حصار الو ـيح والسُلالم وتسليم اليهود بعد الامتناع، وشهداء المسلمين وقتلى اليهود، وتقسيم الغنائم	٤١٨
العنصر السابع	ـلب أهل فدك أن يُصالَحوا على مثل ما صُولح عليه أهل خيبر، ومناقشة قضية فتح خيبر	٤٢٢
العنصر الثامن	التوجه إلى أهل فدك وتيماء، وفتح وادي القرى بعد امتناع يهودها ومغانم المسلمين فيها	٤٢٥

موقع خيبر، وخطر يهودها وحقدهم على المسلمين، وانضمام يهود بني النضير إليهم

رأينا -فيما سبق- بركة الصلح العظيم -صلح الحديبية- وكان الخير كله في أمان الناس بعضهم بعضًا، وانتشار الإسلام بين العرب -أهل الدعوة الخاصة- الذين فشا الإسلام فيهم خلال نحو من سنتين من لدن إقرار الصلح وحتى فتح مكة.

كذلك فإن دعوة الإسلام تجاوزت حدود الجزيرة ووصلت إلى الأقطار المتاخمة لها في الشام، وفي مصر، وفي العراق، وفي اليمن، وفي كثير من البلدان، ورأينا وجه الخير الذي رد به "باذان" على كتاب النبي ﷺ بإعلانه الإسلامَ ودخول اليمن مسلمةً لله ولرسوله.

ولم تكن هذه نتائج الخير التي رأيناها من الكتب التي تفرغ النبي ﷺ لإرسالها، وإنما كان الخير كذلك فيما حدث من أعمال كان فيها جهاد عظيم؛ لأن أمر الجهاد لم يكن مع قريش وحدها -وقد كفت بنود الصلح يدها عن المسلمين- وإنما كان هناك أعداء كثيرون داخل الجزيرة لهذه الدعوة، ونذكر منهم اليهود، الذين يمثلون ألد أعداء هذه الدعوة؛ لأن المشركين من أهل مكة أصحاب قضية وثنية، حاربوا بجهل في سبيلها، وبذلوا في ذلك أموالهم وأرواحهم. كذلك الأعراب الذين كانوا أتباعًا مرتزقة لا قضية لهم، وإنما هم رجال من يعطي، وجنود من يهبهم الأموال للقتال معه، لا يدينون بقضية -كما رأينا وسنرى من أمرهم- ولذلك لعلنا نذكر أمر النبي ﷺ حينما أراد أن يخرجهم من الأحزاب، ما توجه إلا إليهم وحدهم بأن يعرض عليهم ثلث ثمار المدينة؛ لأنهم ليسوا بأصحاب قضية كاليهود الذين جمعوا الأحزاب، وقريش الموتورة من المسلمين والتي لم يكفها ما حققته من الأذى بالمسلمين في أحد.

هنا نذكر بأن اليهود كانوا أول من توجه لهم النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، وكان أمرهم -كما عرفنا. قد تركز في خيبر، حتى من قبل أن يقضى على بني قريظة، لأن خروج بني النضير إلى خيبر -التي كانت قوية في الأساس، وكان يهودها من أشد اليهود بلاءً في القتال، وكانوا أكثر استعدادًا له؛ لهذه الحصون التي أقاموها في بلاد العرب، والتي كانت حصونًا عسكرية في تخطيط بنائها وإعدادها، وتزويدها بالماء والسلاح والطعام وبكل ما يعين أهلها على الصمود أمام أيّ غازٍ أو محاصرٍ لها. كان من أسباب قوة يهود خيبر، واشتعال نار العداوة أكثر وأكثر؛ لِما نزل ببني النضير الذين أقاموا بين يهود خيبر -كما عرفنا.

وإذا كان المشركون في مكة يعادون دعوة الإسلام بهذا الحماس وهذه الصلابة، فإنهم كانوا جهالًا بأمر هذه الدعوة لا يعرفون حقها كمعرفة اليهود العلماء، فالمشركون جادلوا في دعوة الإسلام بغير علم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣] وهكذا وصفهم الله ﷻ وأشار إلى أن تكذيبهم لهذه الدعوة ليس على أساس علمي، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، ولذلك كان لهؤلاء عذرهم على الرغم من هذه المعاداة، وكان أمر الله ﷻ لرسوله ﷺ بالصبر عليهم وألا يدعو عليهم: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وكان هذا أمره ﷺ حتى في ساعات ما كان ينزل به منهم وبأصحابه من الأذى، ونذكر في هذا ما حدث له بعد الطائف حينما دعا لهم ولم يدع عليهم، مع أن جبريل # جاء ومعه ملك الجبال يستأمره أن ينكل بهم، ولكنه ﷺ قال: ((اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون)).

كذلك فإنه ﷺ بعد أن رأى ما نزل بأصحابه وبعمه من هذا القتل والتمثيل الذي نزل بهم ما قال فيهم إلا: ((اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون)) وكفَّ عنهم.

بل نزل أمر الله ﷻ يأمره ﷺ ألا ينكِّل بهم، وألا يمثِّل بهم ويفعلَ أفعالهم ويعملَ عملهم: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ويأمره ﷻ بالصبر عليهم: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧] هنا نرى بأن النبي ﷺ كان يحرص ملتزمًا بهذه الآيات وبما جُبل عليه من خلق الرحمة والرأفة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] بل كان ﷺ كذلك رءوفًا رحيمًا بأمثال هؤلاء مع عصيانهم ومع ما نالوه به من الأذى، فكان يصبر عليهم.

أما هذا العدو الغادر الذي رفض هذه الدعوة عن علم، فهم يعلمون بنبوته ﷺ بما ورثوه من مواثيق العهود في كتبهم، ووصايا أنبيائهم، ووصايا أحبارهم، وبخاصة يهود الجزيرة، كذلك يهود خيبر، وفدك، وتيماء، ووادي القرى، ويهود الشام، كل أهل الكتاب يعرفون صدق نبوته ﷺ ولكنهم يحاربون الله ورسوله ودعوة الإسلام عن علم علموه من قبل ذلك، وعهد نبذوه جاءت به كتبهم، ونزلت به آيات القرآن تذكرنا وتذكرهم بذلك.

فاليهود أحبار يعرفون صدق النبي ﷺ وصفاته، ومبعثه، وزمانه، وبلد مولده، وبلد مُهاجَره، هم يعلمون كل ذلك، بل إن الأجيال الأولى منهم التي جاءت وسكنت المدينة -والتي عرفْتها بصفاتها التي كانت عندهم- إنما جاءوا على أساس أنها مُهَاجَر آخر الرسل مبعثًا، وهذا ما رأيناه من أحبارهم الذين كفوا يد "تبع" عن المدينة حينما أراد أن يدمر المدينة، ويُهلِك أهلَها بقتلهم ولدَه وكبيرًا من قوّاده؛ إذن هم يعرفون. كذلك من نزل من اليهود من قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، بل ربما من قبل بَعثته ﷺ.

فهذا هو ابن الهيبان الذي نزل في بني قريظة لنسبه فيهم، وعاش ما عاش مؤمنًا صادقًا صالحًا، كان مقصد الناس في الاستسقاء، وفي التبرك بدعواته التي كانت تأتي بالخير دائمًا لأهل المدينة، وهذا الرجل لما أدركته الوفاة أخذ العهد على يهود بني قريظة أن يؤمنوا بالنبي ﷺ آخر الأنبياء رسلًا، كما ذكرت بذلك آيات التوراة وكتبهم، ثم إننا حينما جاء النبي ﷺ إلى المدينة ونزل في قباء بادرَ عبد الله بن سلام حبرُ بني قينقاع -أول من غدر من قبائل اليهود وخرج من المدينة- بإعلان إسلامه للنبي ﷺ لَّما نظر في وجهه ﷺ فوجد صدق الآيات وصدق الوصف الذي جاءت به كتبهم، فأسلم وأعلن إسلامه، ورجع إلى أهل بيته فأسلموا جميعًا ما تخلف رجل ولا امرأة منهم، وكان يكفي في إسلام هذا الرجل أن يتبع بنو قينقاع كلُّهم هذا الخير وأن يأخذوا به، ولكنهم لما عَرَفوا بإسلامه سبُّوه وسخطوا عليه؛ لأنه ترك دينهم وترك التوراة، هم يقولون: هذا لرجل عالم يعلم علمًا لا يعلمونه.

كذلك فإن بني النضير كان حبرهم وسيدهم حييّ بن أخطب، الذي كان في أحبار مثله يعلمون صدق النبي ﷺ لما نزل في قباء، كان له لقاء بالنبي ﷺ حيث جاء ليتأكد من صدق الصفات التي فيه ﷺ فرآها وعرفها، ولكنه لم يكن موقفه كموقف عبد الله بن سلام، كان موقف الكافر المعاند الذي جره إليه حقده وعداوته للإسلام ولرسوله ﷺ ولذلك نرى بأنه لما عاد إلى منازلهم في المدينة - منازل بني النضير- سأله أخوه: أهو هو؟ يعني: أهو هو الرسول الذي نجد صفته في التوارة؟ قال: نعم، إنه هو، والذي أنزل التوراة على موسى إنه هو. هنا قال أخوه له: فما نفسك منه؟ يعني: ماذا نفعل بعد ذلك؟ قال: عداوته ما بقيت. وهذه العداوة -كما رأينا- هي التي جرت السوء والأذى والهلاك عليه وعلى قومه، فقد كانت عداوته سببًا في خروج بني النضير من المدينة، بل كانت كذلك سببًا في قتله الذي تكلم عنده بقوله مخاطبًا النبي ﷺ: والله ما لمت نفسي في عداوتك.

وهكذا نرى بأن اليهود كانوا أعداء بعلم، وهم من أولئك الذين يقول الله ﷻ فيهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

هكذا يظهر دور اليهود في المدينة، ويتضح أمرهم وأمر زعمائهم من بني قينقاع الذين كانوا أول من غدر وخرج، على الرغم من أنه ﷺ وعظهم وذكَّرهم بالآيات عندهم، وبأنه الرسول الذي جاءت به كتبهم، وردوا عليه ﷺ في وقاحة، وتم من أمر الله فيهم ما تمَّ حينما أخرجهم الله ﷻ وإخوانهم من بني النضير من المدينة، ونعلم أنهم كانوا أعظم جرمًا حينما دبروا مؤامرةً لقتل النبي ﷺ تزعمها حيي بن أخطب نفسُه، فكان خروجهم من المدينة، وكذلك بنو قريظة الذين كان من أمرهم ما كان.

هنا رأينا المدينة وقد خلت، وطهرها الله من رجس هؤلاء، وهي دائمًا تنفي خبثها كما يقول النبي ﷺ وهنا كان يمكن أن نتوقع بعد خلو المدينة من اليهود أن يعود الأمر بالأمان على المسلمين، ولكن الأمر كان أعظم من هذا وكان أشد خطرًا؛ لأن المدينة كان على مقربة منها موقع عسكري في بنائه، وفي استعداد أهله، وفيمن أوى إليه وعاش فيه من عتاة اليهود، وهو: خيبر، التي كانت إلى الشمال من المدينة، والتي أوى إليها يهود بني النضير بعد خروجهم من المدينة، والتي كانت الأحقاد كلها تشتعل في قلوب أهلها من قبل بني قريظة لخروج بني النضير، ثم لما نزل بإخوانهم -بني قريظة- من الجزاء الوفاق الذي نزل بهم وكانوا يستحقونه؛ ولذلك ما كان يؤمن أهل خيبر من اليهود بعد ذلك، لأنها -كما رأينا- كانت المأوى لهم من قبلُ ومن بعدُ.

كذلك فإن النبي ﷺ أعقب أمر الخلاص من يهود بني قريظة بأن وجه سرية لقتل ذلك الرأس الذي كان كبيرًا فيهم، وكان له سعي في أمر الأحزاب، وكان قلبه يمتلئ حقدًا على الإسلام والمسلمين، وهو: أبو رافع بن أبي الحقيق.

ولذلك كانت كل هذه الأمور بواعث شر وحقد من هؤلاء على الإسلام وعلى المسلمين، ومن ثم كان لا بد من أن يتوجه جهد المسلمين بعد ذلك إلى هؤلاء الأعداء، الذين كانوا مع قريش ومع الأعراب يمثلون جبهات قوية تنبعث الشرور من سعيها، وهم اليهود، وبخاصة في خيبر.

فقد كان يهودُ خيبر أصحابُ هذه الحصون المنيعةِ القويةِ أعظمَ خطرًا من يهود المدينة؛ لأنهم كانوا يعيشون وحدهم، بخلاف يهود المدينة فإنهم كانوا مع المسلمين، يعرف المسلمون بعض أمورهم لمعايشتهم إياهم، وإن كانوا جميعًا يتكتَّمون في أحوالهم وفي معايشهم مع غيرهم، وأعطاهم هذا الأمر قوةً وخصوصيةً في المعاش، وسرِّية لا يعرفها غيرهم؛ لتدبير أمورهم وما كانوا يخططون له.

وهناك أمر آخر كان يزيد في خطر هؤلاء اليهود وهو: أنهم وثَّقوا علاقاتِهم بالأعراب، وبخاصة تلك القبائل القوية أمثال "غطفان" التي توثقت علاقتها باليهود وبخاصة يهود خيبر، وقد رأينا مساهمة "غطفان" في الأحزاب؛ ولذلك كان لا بد من التوجه إلى يهود خيبر بهذا الأمر، وهو مواصلة الجهاد والكفاح مع هذا العدو الخطر في هذا المكان الخطير.

ولذلك فإن النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة -وقبل صلح الحديبية- وجّه هذه السرية لقتل أبي رافع بن أبي الحقيق -كما رأينا- في خيبر نفسها.

وكذلك فإنه بعث ﷺ سرية عليها علي بن أبي طالب > في شعبان من نفس السنة -سنة ست من الهجرة- بعثه إلى بني سعد بن بكر بـ"فدك"، و"فدك" -كما نعرف- هي منازلُ ليهود من يهود الجزيرة، كغيرها من "وادي القرى" و"تيماء" و"خيبر" و"المدينة"... وغيرها، وقد بعث النبي ﷺ هذه السرية لأنه بلغه ﷺ أن جمعًا من بني سعد بن بكر بـ"فدك" يريدون أن يمدُّوا يهود خيبر، ولما توجه علي بهذه السرية انتهى إلى مكان يسمى "الغمج"، وهو ماء بين "خيبر" و"فدك"، فوجدوا به رجلًا عَرَفوا منه أنه رسول لبني سعد إلى اليهود في خيبر يعرض عليهم نصرَهم؛ على أن يجعلوا لبني سعد من تمرهم كما جعلوا لغيرهم، هنا نرى بأن يهود خيبر يَجمعون الناس ويُعطونهم مما يحتاجون من التمر وثمر خيبر ما يضمنون به ولاءهم وتوجههم إلى قتال المسلمين، ثم إن عليًّا عَرَفَ من الرجل مكانَ سرح بني سعد وأماكنهم -أماكن نزولهم- فتمكنوا من ذلك كله بعد أن دلَّهم هذا الرجل، وعادوا بهذه الغنيمة التي كانت حلالًا لهم وعقابًا لأولئك الذين أرادوا أن يعينوا خيبر من بني سعد بـ"فدك".

كذلك فإن النبي ﷺ بلغه أن يهود خيبر اجتمع أمرهم بعد أبي رافع إلى رجل منهم، هو أسير بن رزام الذي ظهر أمره بعد أبي رافع بخيبر بين يهودها، فوجه إليه النبي ﷺ سرية عليها عبد الله بن رواحة في شوال من سنة ست -أي قبل صلح الحديبية بشهر تقريبًا. وعزم "أسير" هذا على أن يتوجه بجموع إلى المدينة يقاتل النبي ﷺ والمسلمين؛ ولذلك فإنه عزم على المسير في غطفان وغيرهم من قبائل العرب يدعوهم إلى قتال محمد في عقر داره، فإنه -كما قال- لم يُغزَ أحدٌ في عقر داره إلا أدرك منه عدُّوه بعض ما يريد، واجتمع أمرهم على هذا وسار في "غطفان" وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ ولما بلغ رسول الله ﷺ أمره وجه إليه عبد الله بن رواحه ومعه ثلاثة نفر سرًّا؛ ليكشف أمره وليعرف خبره -وكان

ذلك في رمضان- فنزل عبد الله بن رواحه ومن معه من الرجال ودخلوا خيبر، وعرفوا أمر هذا الرجل وما عزم عليه، فرجعوا إلى النبي ﷺ حتى يخبروه الخبر.

كذلك فإنه قدم عليه ﷺ خارجة بن حسيل الأشجعي، فعرَف منه الرسول ﷺ ما يعزم عليه "أسير" هذا، فقد قال خارجة للنبي ﷺ: تركت أسير بن رزام يسير إليك في كتائب يهود. فندب النبي ﷺ الناس فانتدب له ثلاثون رجلًا، أمَّر عليهم عبد الله بن رواحة -وكان من رجال هذه السرية: عبد الله بن عتيك، الذي كان في سرية قتل أبي رافع. وكذلك: عبد الله بن أنيس- فخرجوا حتى قدموا خيبر، وأرسلوا إلى أسير بن رزام إنا آمنون حتى نأتيك فنعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم، ولي مثل ذلك منكم، فوافق، فدخلوا عليه وقالوا له: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك. ولعل الأمر كان كذلك من رسول الله ﷺ حتى يستميله بالحسنى أولًا، أو لعله كان تصرفًا من هؤلاء الرجال حتى يلاقوا ذلك الرجل، فلم يزالوا به حتى خرج معهم، وطمع في ذلك، ولما شاور يهود خيبر خالفوه في الخروج وقالوا له: ما كان محمد ليستعمل رجلًا من بني إسرائيل. وحذروه. ثم إنه قال لهم: بلى؛ لقد مللنا الحرب. وطمع في ذلك الوعد، ولعله لو جاء بهذا لكان الأمر غير ذلك، ولكن حدث أمرٌ في الطريق، لأن المسلمين خرجوا معهم ثلاثون رجلًا من اليهود، فكان مع كل رجل رديف من المسلمين، ولذلك يقول ابن إسحاق: أن عبد الله بن أنيس حمل أسير بن رزام على بعيره. وقال عبد الله بن أنيس يحكي أمر الطريق: فسرنا حتى إذا كنا بـ"قرقرة ثبار" -وهي موضع على ستة أميال من خيبر- شعر عبد الله بن أنيس هناك ببادرة غدر من أسير بن رزام هذا، ولذلك نزل مسرعًا وساق القوم ثم انفرد به وضربه بالسيف فقطع مُؤَخّرَةَ الرّجْلِ وذهب بعامة فخذه وساقه وسقط عن بعيره، ثم إنه ضرب عبد الله بن أنيس بمخرش من شوحط -

أي عصاة من شجر من أشجار البادية- ضربه فشجه في رأسه، وما فعل معه هذا إلا لأن أسير بن رزام كان قد أهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس، فلذلك لما فطن منه حدث ما حدث، وهنا مال كل رجل من المسلمين على من معه من اليهود فقتله، إلا رجلا واحدًا منهم أعجز المسلمين فلم يدركوه، وعادت هذه السرية بعد أن قضت على رأس التدبير ضد المسلمين من هذا الموقع الخطير في خيبر.

بعد هذا فإن النبي ﷺ بعد إتمام صلح الحديبية تفرغ -كما قلنا- لهؤلاء اليهود، فإذا كنا رأينا بوادر السلم مع قريش ومن دخل مدخلها من القبائل كبني بكر، وكذلك دعوة الحق التي بدأت بالحكمة والموعظة الحسنة التي حملتها كتب النبي ﷺ إلى خارج الجزيرة وإلى الملوك والأمراء، هنا نجد الأمر الآخر الذي كان دأب المسلمين كفاحًا وجهادًا في سبيل هذه الدعوة، ومن ثم عزم رسول الله ﷺ يكاد يكون الأمر متزامنًا مع إرسال الكتب حينما عزم النبي ﷺ على الخروج إلى خيبر، فقد كان ذلك -في أصح الأقوال- في المحرم من سنة سبع، فحينما كانت تتوجه رسل النبي ﷺ بكتبه كان النبي ﷺ خارجًا إلى خيبر التي كان منها العداء والخطر.

وعلى هذا فإن يهود خيبر لم يكن قد ظهر منهم عداء سافر تجاه المسلمين إلا بعد أن وصل إليهم بنو النضير -على النحو الذي رأينا.

المسير إلى خيبر، وخصوصية الخارجين لغزوها، وكيف كانت خيبر وعد الله لأهل الحديبية

مما يوثق علاقة صلح الحديبية بأمر يهود خيبر: أن الله ﷻ اختص أولئك النفر الذين خرجوا في هذه الغزوة، وبايعوا النبي ﷺ بـ"بيعة الرضوان" تحت الشجرة، بوعد الحق، بمغانم خيبر، يقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا

قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨- ١٩] ومن هنا فإن رسول الله ﷺ لم يجعل لأحد إذنًا في الخروج معه إلى خيبر إلا لمن شهد صلح الحديبية؛ لأن الله ﷻ يَسَّرَ بهذا الصلح وبمظاهرة هؤلاء المؤمنين لرسوله ﷺ ومبايعتهم له ما تلاه من خير وفتح للمسلمين.

أما أولئك الذين تخلَّفوا من الأعراب الذين خافوا من قريش لو ساروا إليهم - لأنهم ما كانوا يظنون بأن النبي ﷺ سيرجع بمن معه من المسلمين- حينما جاءوا يستأذنون النبي ﷺ في الخروج معه لغزوة خيبر لم يأذن لهم؛ ولذلك عندما جاءوا يعتذرون للنبي ﷺ عما بدر منهم، ويطلبون من النبي ﷺ ومن المسلمين أن يشركوهم في خروجهم إلى خيبر، كان حسْم الأمر من الله ﷻ كما قَصَّت علينا الآيات: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١١- ١٢] ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥] فما جاءوا تلك المرة إلا لينالوا هذا المغنم الذي اختص الله ﷻ به من كان من شارك في الحديبية ومسيرها، وبايع النبي ﷺ بيعة الرضوان، حتى إن النبي ﷺ عند قسمه غنائمَ خيبر ضرب سهمًا في الغنيمة لعبد الله بن جابر > الذي تخلف عن غزوة خيبر، وكان ممن حضر وشهد صلح الحديبية.

وهنا عزم النبي ﷺ على المسير إلى خيبر، فقد خرج إليها بعد أن عاد من الحديبية ومكث بالمدينة نحوًا من عشرين ليلة، وقد خرج إلى خيبر التي وعده الله ﷻ إياها مغنمًا؛ لقاءَ ما صبروا عليه في الحديبية، وكان خروجه ﷺ في أوائل المحرم من السنة السابعة.

خطة النبي ﷺ في الوصول إلى خيبر، وتعامل المسلمين مع حلفاء اليهود، خطة النبي ﷺ في نزول أرض خيبر، ومباشرة الحصار في مراحله الأولى

أ. خطة الوصول إلى خيبر:

سار ﷺ بالأدلاء، وأمر أن يأتي خيبر من ناحية الشام حتى يحول بينهم -أي: اليهود. وبين حلفائهم من غطفان، وكانت هذه خطة محكمة؛ لأن أمثال هؤلاء الأعراب هم أكثر أعوان اليهود، وقد كان اليهود يظنون أنه ﷺ لن يقدر على أن يغزوهم؛ لمنعتهم ومنعة حصونهم، وكثرة مَن فيها من الرجال والعتاد والعدة والمال والسلاح والطعام، وكانوا يقولون: محمد يغزونا هيهات هيهات!! ووصل ﷺ قرب خيبر ليلًا، ونزل دونها ولم يدنُ من الحصون حتى يأمن نِبَلَهم، فهم مرتفعون بحصونهم ولهم مهارة وشدة في الرمي، كما أن ذلك سوف يُبعد المسلمين عن نزِّ الأرض -أي: عن رطوبة الأرض وما فيها من ماء- ولذلك اختار النبي ﷺ أن ينزل بمكان قريب منها، وهو "وادي الرجيع"، وهو أقرب وادٍ من خيبر، وكان ذلك كله بمشورة الحباب بن المنذر > كما تقول بعض الروايات.

ب. المبيت في خيبر، وذعر اليهود من رؤية المسلمين:

وبعد أن صلى النبي ﷺ الصبح استعد المسلمون لأمر القتال، كان من سنته ﷺ هذا المبيت؛ لأنه ما كان يغزو قومًا حتى يعلم إسلامَهم، فإذا سمع أذانًا كفَّ عنهم، وإن لم يسمع غزاهم بعد أن يدعوَهم إلى الإسلام، وكما يحكي أنس بن مالك > الذي صحب النبي ﷺ ويحكي لنا هذا يقول: أنهم استقبلوا عمال

خيبر غادين؛ لأنهم خرجوا في ذلك اليوم متوجهين إلى مزارعهم بمكاتلهم ومساحيهم -أدوات الحرث والزراعة- فلما رأوا رسول الله ﷺ وجيش المسلمين ذُعروا وقالوا: محمد والخميس معه -أي والجيش معه- فأدبروا هِرَابًا، فقال ﷺ: ((الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)).

ولقد كان يهود خيبر قد سمعوا بعزم رسول الله ﷺ على المسير إليهم؛ ولذلك كانوا يخرجون في عدة السلاح، ولكنهم بعد أن تكرر منهم ذلك ولم يكن حصار ولم يكن مجيء للنبي ﷺ بعدُ؛ فإنهم خرجوا في ذلك اليوم وقد أمِنوا أمرَه، فخرجوا إلى مزارعهم مبكرين بمساحيهم ومكاتلهم، فما راعهم إلا وجود النبي ﷺ والمسلمون معه، ففرُّوا سِراعًا مذعورين عائدين إلى حصونهم يقولون: محمد والخميس معه.

ج. خطة النزول إلى أرض خيبر، ومباشرة الحصار في مراحله الأولى:

وهنا بدأ حصار النبي ﷺ لحصون خيبر، وبدأ النبي ﷺ بالحصار، وكانت أول مناطق هذه الحصون هي منطقة "النطاة"؛ لأن هذه الحصون كانت في مناطقَ في أرض خيبر، كانت "النطاة" في الشمال الشرقي من خيبر، ثم منطقة "الشق"، ومنطقة "الكتيبة"، التي كانت كل منها تضم حصونًا فيها، وكان البدء كما رأينا بمنطقة "النطاة"، فصف النبي ﷺ الصفوف، وحث على الصبر، وفرَّق الرايات، راية للحباب بن المنذر، وراية لسعد بن عبادة، أما اللواء -وهو أبيض- فكان لعلي بن أبي طالب > وكان شعارهم: يا منصور، أَمِتْ. وكان أول حصن حاصره النبي ﷺ من هذه المنطقة -منطقة النطاة- "حصن ناعم" الذي قاتل فيه المسلمون واليهود أشد قتال، حتى أمسوا، ثم تحول المسلمون بعد ذلك إلى الرجيع ليبيتوا فيه حتى يستأنفوا يومًا آخر من أيام الحصار والقتال.

فتح المسلمين حصن ناعم وحصن الصعب وحصن الزبير، وسقوط منطقة النطاة بفتح ثلاثة الحصون، التحرك إلى منطقة الشق، وحصار أول حصونها وفتحه، وفتح حصن النزال

أ. فتح حصن "ناعم" :

بات المسلمون ليلتهم في مكان "الرجيع" ؛ حذرًا من سهام اليهود وحذرًا من غدرهم ليلًا، وكذلك بعدًا عن نزِّ الأرض، ثم بدءوا حصارهم لحصون خيبر حصارهم في اليوم الثاني، وبدءوا بحصار "حصن ناعم"، وتتابع الحصار والقتال حول هذا الحصن حتى فتحه الله عليهم آخر الأمر بعد نحو من عشرة أيام.

ب. فتح حصن "الصعب" :

ثم تحول المسلمون إلى "حصن الصعب"، وكان هذا الحصن منيعًا، لكن على الرغم من هذا تمكن المسلمون من فتحه بعد أيام ثلاثة عانوا فيها من الجوع والجهد، حتى إن "أسلم" شكت الجوع والجهد له ﷺ فدعا الله ﷻ أن يفتح أعظم الحصون فيها أكثر طعامًا وأكثر ودكًا -والودك هو شحم اللحم ودهنه- فكان فتح الله ﷻ هذا الحصن الذي أصاب المسلمون فيه طعامًا كثيرًا وماشية ومتاعًا. ويذكر محمد بن عبد البر: أن المسلمين أصابوا في هذا الحصن من الطعام ما لم يكونوا يظنونه فيه من الشعير، والتمر، والسمن، والعسل، والزيت، والودك، فأكلوا وشبعوا وعلفوا دوابهم، كما أمرهم النبي ﷺ أن يغنموا بنعمة الله ﷻ التي كانت إجابة لدعائه ﷺ.

ج. فتح حصن "الزبير بن العوام" :

ثم تحول المسلمون إلى حصن الزبير بن العوام، الذي سمي كذلك ؛ لأنه صار في سهمه بعد أن قسمت خيبر، وحاصر المسلمون هذا الحصن ثلاثة أيام، وكان

المتوقع أن يطول أمد الحصار لولا أن ساق الله ﷻ رجلًا من اليهود جاء للنبي ﷺ ودلَّه على مصدر حياة أهل هذا الحصن، هذا المصدر المتمثل في الماء الذي يمدهم بالشراب وحاجتهم إلى الماء؛ ولذلك فإنهم اضطروا للخروج والقتال، ولولا ذلك لطال حصارهم، وقاتل اليهود المسلمين أشد قتال، وكان في هذا الحصن وهذا القتال شهداء من المسلمين، وقتلى من اليهود بلغوا نحوًا من عشرة، وكان هذا الحصن آخر حصون منطقة "النطاة" التي تقع في الشمال الغربي من خيبر.

د. التحرك إلى منطقة "الشق"، وفتح أول حصونها، وفتح حصن "النزال":

انتقل المسلمون -بعد ذلك- إلى منطقة "الشق"، لم يعد هناك عَوْدٌ إلى وادي "الرجيع"؛ لأنهم أصبحوا الآن وقد حازوا أراضي من خيبر، وكان أول حصن من حصون منطقة "الشق" هو حصن "أُبَيّ"، قاتل فيه المسلمون قتالًا شديدًا، وهنا نرى بأن اليهود اتبعوا أسلوب الخروج للمبارزة، فكانوا يخرجون رجلًا من بعد رجل؛ ولذلك خرج رجل من اليهود دعا للبراز، فخرج له الحباب بن المنذر فقاتله ونصره الله ﷻ عليه وقتله، ثم خرج آخر فبارزه رجل من المسلمين فاستشهد وقتل، ثم تصدى له أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه، وهنا كف اليهود عن طلب المبارزة وأحجموا عنها، فاقتحم المسلمون هذا الحصن يقدمهم أبو دجانة؛ ولذلك فرَّ أهل هذا الحصن سراعًا إلى حصن "النزال"، الذي سار إليه كذلك فلول "النطاة" من قبلُ، وأغلق اليهود عليهم هذا الحصن وامتنعوا فيه أشد امتناع، واستبسلوا في القتال والرمي بالنبل والحجارة؛ لأنهم تقوَّوا بعتادهم وبمن فرَّ إليهم من الحصون الأخرى التي أخذها المسلمون، وكان رميُهم شديدًا حتى إن سهامهم أصابت ثياب النبي ﷺ وعلقت بها، وكان ﷺ يجمع النبل للمسلمين، ثم إنه ﷺ أخذ كفًّا من الحصى فدعا وحصب به هذا الحصن فرجف باليهود فحازه المسلمون حيث دخلوه.

فرار اليهود إلى منطقة الكتيبة، وحصار أول حصونها، ومرضه ﷺ وإمارة علي

أ. فرار اليهود منطقة الكتيبة:

فرت فلول اليهود أمام جموع المسلمين إلى منطقة الكتيبة وحصونها، وكانت هذه المنطقة كذلك لها منعتها، وكان أعظم حصونها وأمنعها حصن "القموص"، الذي طال حصار المسلمين له، حتى لقد بلغ الحصار مدة عشرين ليلة -كما تذكر بعض الروايات.

ب. مرض النبي ﷺ وإمارة أبي بكر ثم عمر:

وخلال هذه الفترة أصابه ﷺ وجع في رأسه؛ لذا فإنه ﷺ أعطى الراية في اليوم أبا بكر، وحاصر بالمسلمين اليهودَ في هذا الحصن، ولكن لم يكن فتحٌ لهم، ثم في اليوم الثاني أعطى الراية عمرَ، وكذلك لم يكن فتحٌ؛ وذلك لشدة بسالة هؤلاء اليهود وامتناعهم بهذا الحصن.

ويذكر البيهقي أن الغلبة كانت لليهود في اليومين الأولين، ولا غرابة في هذا، فقد كان هذا الحصن مليئًا بأهله، ومن فر إليهم من فلول الحصون التي فتحت من قبل كذلك، هذا بالإضافة إلى مناعته.

ج. إمارة علي < وفتح الحصن:

ثم إنه ﷺ في يوم عمر لما عاد قال: ((لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله عليه، ليس بفرّار، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يأخذها عنوة)) وفي لفظ: ((يفتح الله على يديه)).

فبات الناس ليلتهم، وقد ذهبت ظنونهم كل مذهب، من هذا الرجل؟ حتى إن عمر > قال: فوالله ما أحببت الإمارة قط حتى كان يومئذ. يقول بريدة بن الحصيب: فما منا من رجل له من رسول الله ﷺ منزلة إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى إني تطاولت أن أنالها، فلما أصبح ﷺ وصلى المسلمون الصبح دعا ﷺ باللواء، وقام فوعظ الناس، ثم قال: ((أين علي؟)) وهنا تحدد الرجل، فجيء به معصوبة عينُه من شكوى رمد أصابه، فأدناه النبي ﷺ لما علم ما به ووضع رأسه في حجره، ثم بصق في يده ﷺ ودلك بها عينا علي؛ فبرأ كأن لم يكن به وجع قط، وما رمدت عيناه بعد، ثم أعطاه الرسول ﷺ الراية، وكان أمره ﷺ لعلي: ((انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ فوالله لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم)). وفي رواية أخرى: أنه قال له ﷺ: ((قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها)) فخرج علي بالراية يهرول حتى ركزها تحت الحصن، وهنا نرى الحكمة من أمره ﷺ عليًّا بدعوة اليهود إلى الإسلام أولًا؛ لأنه قد اجتمع في هذا الحصن كثير منهم، ومنهم من عانى قتال المسلمين، كذلك فإن مجيء الفارِّين إلى هؤلاء الذين لم يقاتلوا بعدُ مما كان له من غير شك أثر في نفوسهم.

وظهرت في حصار هذا الحصن -حصن القموص- بطولات فذَّة من المسلمين ومن اليهود، وقد برز مقاتلة من اليهود واحدًا تلو الآخر كانت ممارستهم للقتال تدل على براعتهم فيه، وكان خروجهم يدل على شجاعتهم وبسالتهم، وكان أول من برز منهم: "الحارث" أخو مرحب اليهودي سيد هذا الحصن، وكلاهما من شجعان اليهود، فبرز علي بن أبي طالب للحارث فقتله، وهنا رجع أصحاب الحارث إلى الحصن.

ثم برز من بعد الحارث رجل اسمه "عامر" كان جسيمًا فارع الطول، آتاه الله بسطة في الجسم، فخرج عليٌّ كذلك له فضربه ضربات لم تصنع فيه شيئًا، حتى تمكن من قتله آخر الأمر على الرغم من هذه الخلقة التي كان عليها ذلك الرجل، والتي أثارت تعجب المسلمين من أمر الله في خلقه.

ثم خرج بعد ذلك "ياسر" يطلب المبارزة فرغب الزبير بن العوام أن يخرج له بدل علي واستعان بالله عليه ودعا له رسول الله ﷺ أن يعينه على "ياسر" فتمكن الزبير من قتله، وبعد هذا خرج "مرحب" زعيم هذا الحصن كله وكان من شجعان اليهود، فخرج له عامر بن الأكوع عم سلمة > لكنه رجع سيف عامر إليه فأصابه إصابة بليغة قتلته؛ ولذلك قال الناس: قتل نفسه فليس بشهيد. لكنه ﷺ قال: ((إنه جاهد مجاهد)) وأخبر ﷺ أنه شهيد لما جاء سلمة يبكي لرسول الله ﷺ من قول الناس في عمه.

ثم خرج بعد عامر محمد بن مسلمة؛ وأراد ذلك لأن أخاه محمود بن مسلمة كان قد قتله مرحب هذا كما يقولون بعد أن ألقى عليه رحى من فوق الحصن، ولذلك طلب من النبي ﷺ أن ينال ثأره من قاتل أخيه، وقد أمكن الله ﷻ من مرحب فضربه محمد بن مسلمة ضربات قطعت ساقيه وتركه ينزف.

ثم جاء علي بن أبي طالب فأجهز على مرحب، ولذلك كان ذلك الأمر لاشتراك الرجلين فيه، ولأن كلًا منهما ضربه ضربات قاتلة اختلفت الروايات فيمن قتل مرحب، فبعضها يقول: إنه محمد بن مسلمة. وبعضها يقول: إنه علي. ولما اختلف الرجلان في أمر قتله حكم النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة؛ لأن ضرباته كانت قاتلة، وإنما عليًّا جاءه بعد أن أثخنته جراحُه.

وقد ظهرت من علي بطولاتٌ عظيمةٌ في هذا الحصار -وفي حصار يهود بني النضير عمومًا. أعانه الله عليها، هذه البطولات يسَّرها الله ﷻ له، حتى إنه ترس بباب من أبواب خيبر لما سقط ترسه وطرح من يده، حتى ليقولون: إن هذا الباب كان أثقل من أن يحمله عدة رجال.

حصار الوطيح والسُلالم وتسليم اليهود بعد الامتناع، وشهداء المسلمين وقتلى اليهود، وتقسيم الغنائم

أ. حصار "الوطيح" و"السلالم"، وتحقُّق وعْد الله ﷻ للمسلمين:

سقطت حصون خيبر الواحد تلو الآخر، وحاز النبي ﷺ هذه المناطق المنيعة بحصونها منطقة من بعد منطقة، وما بقي بعد ذلك إلا حصن "الوطيح" و"السُلالم" وكان آخر حصون خيبر فتحًا، ولما انتهى المسلمون إلى هذين الحصنين امتنع اليهود فيهما، حتى هَمَّ النبي ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق لما رأى من امتناعهم وإبائهم الخروجَ للمبارزة، وطال حصار اليهود حتى بلغت مدته أربعة عشر يومًا، ثم سألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأرسل كنانةُ بن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ رجلًا ليعرض عليه ﷺ الصلح؛ ولذلك صالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في هذه الحصون من المقاتلة، وترك الذرية لهم، وأن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم ونسائهم، ثم يخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء -أي على الذهب والفضة- والكراع والحلقة -أي الخيل والسلاح- وعلى كل شيء من أموالهم.

وافق النبي ﷺ وانتهى أمر الحصار والقتال في خيبر على النحو الذي وعد الله ﷻ به رسوله ﷺ والمسلمين.

ب. شهداء المسلمين، وقتلى اليهود وسبيُهم:

وكان شهداء المسلمين في هذه الغزوة عشرين رجلًا فيما ذكر ابن إسحاق، وخمس عشرة فيما ذكر الواقدي.

أما اليهود فقد قتل منهم ثلاثة وتسعون رجلًا، وسبيت النساء والذراري، وكان من النساء صفية بنت حيي بن أخطب، وسيكون لها أمر مع النبي ﷺ لأن دحية الكلبي جاء يستأذن النبي ﷺ في أن يأخذ سبيه فأذن له النبي ﷺ فاختار دحية صفية، ولكن جاء إلى النبي ﷺ من يقول له: إنه ﷺ أولى بها، فهي سيدة بني النضير وبني قريظة، وأبوها -كما نعرف- حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكان له شأن كذلك في خيبر، ولما علم النبي ﷺ بذلك طلب من دحية أن يختار غيرها وعوضه أيضًا زيادة على من اختار حتى يرضى، وكان في هذا من الحكمة ما فيه؛ لأن النبي ﷺ أراد أن لا تعتمل صدور بعض المسلمين لما آثر به دحية، فلم تكن هناك امرأة مثل صفية، ولكن كان هناك من المسلمين من هو أعلى منزلة من دحية، وكان اختيار الخير أن تكون صفية من حظ النبي ﷺ وأن يكون ﷺ من حظها؛ لأنها بنت سيد بني النضير، وهذا الرجل "حيي" الذي حاز سيادة كذلك في خيبر، وهنا وقد كرم رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بأن أعتقها وتزوجها ودخل عليها في طريق العودة إلى المدينة.

ج. السماح لأهل خيبر بالبقاء في أرضهم

أما أمر أهل خيبر فإنهم عرضوا على النبي ﷺ أن يدعهم في أرضهم بعد أن يأخذ المسلمون ما غنموه، وأن يترك الأرض والزرع والسكنى لهم، ويعملون في أرض خيبر على نصف ما يخرج منها، وللمسلمين النصف الآخر، ولذلك وافق النبي ﷺ على ذلك.

د. أموال حيي بن أخطب التي خرج بها من المدينة:

وهناك أمر تعلق بهذا الغزوة وتلك الغنائم والأموال، فإن النبي ﷺ سأل عن أموال كان يعرف أنها معهم، وهي أموال حيي بن أخطب التي خرج بها من المدينة عند إخراجهم منها، ولما كان عهد أمانهم على أساس أن تكون الأموال والسلاح والدروع للمسلمين، ولهم ما حملت ركائبهم على أن لا يكتموا شيئًا ولا يغيبوه، وأنهم إذا فعلوا ذلك فلا ذمة لهم ولا عهد، ولذلك لما غيبوا مال حيي بن أخطب، وسأل عنه النبي ﷺ عما حيي سعيه عن هذا المال، قال: أذهبته الحروب والنفقات، فقال ﷺ: ((العهد قريب والمال أكثر من ذلك)) كما أنه ﷺ جيء له بكنانة بن الربيع فسأله فجحده بأن يكون يعرف مكان المال، وجاء رجل إليه ﷺ من اليهود فقال لرسول الله ﷺ بأنه رأى كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال: نعم، فأمر ﷺ بأن تحفر الخربة، فاستخرج منها المال، ثم سأله عن ما بقي فأبى أن يقر، ولذلك أمر النبي ﷺ بضرب عنقه جزاء هذا الإنكار.

هـ. اليهود يقدِّمون شاة مسمومة للنبي ﷺ:

وبعد ذلك جاءت امرأة من يهود خيبر هي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، جاءت بشاة مشوية وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيه من السم، لأنها سمت هذه الشاة ولكنها زادت في الذراع، وجاءت بها إلى النبي ﷺ فلما تناول النبي ﷺ الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، وكان معه بشر بن البراء بن معرور، وكان قد أكل مع النبي ﷺ ولكنه أساغها، أما النبي ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم،

وجيء بالمرأة فاعترفت فقيل لها: وما حملك على هذا؟، قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحنا منه، وإن كان نبيًا فسيخبر، فتجاوز النبي ﷺ عنها، ومات بشر من أكلته تلك، وقيل إنها قتلت بقتلها بشرًا.

و- فتح خيبر وقدوم جعفر

على أن بعض الأحداث تعلقت كذلك بوجود النبي ﷺ بخيبر، فقد قدم جعفر بن أبي طالب > من الحبشة مع من كان بقي بها من المسلمين، ولذلك فإن النبي ﷺ لقيه وقبله بين عينيه والتزمه، وقال: ما أدري بأيهما أسر بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟.

ز- تقسيم الغنائم

جاء النبي ﷺ جماعة من دوس فيهم أبو هريرة > فقسم لهم وأعطاهم من هذه الغنائم التي كانت وقفًا على أهل الحديبية وحدهم.

ولقد قسم النبي ﷺ هذه الأموال -كما قلنا. حتى لمن لم يحضر هذه الغزوة، وهو جابر بن عبد الله > .

أما من عدا المقاتلة من رجال المسلمين فإن النبي ﷺ أرضاهم بما أعطى، وكان ذلك متمثلًا في العبيد والصبيان والنسوة اللائي حضرن هذه الغزوة ليشاركن فيها بما يتناسب مع إمكاناتهم، ولقد روي عن امرأة من بني غفار أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلنا: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا -وهو يسير إلى خيبر- فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال لهن: على بركة الله، ولذلك فإنه ﷺ جعل لهن عطاءً لا يبلغ

مبلغ السهام -سهام الرجال- وكما يقولون: رضخ لهن من الفيء، أي: أعطاهن ما دون السهام، ولقد كان ﷺ يعطي الراجل سهمًا والفارس ثلاثة أسهم سهمًا له وسهمين للفرس، كما أنه ﷺ أعطى أبا هريرة من غنائم خيبر.

طلب أهل فدك أن يُصالَحوا على مثل ما صُولح عليه أهل خيبر، ومناقشة قضية فتح خيبر

أ. اختيار أهل "فدك" ما صولح عليه أهل خيبر:

ولما علمت يهود فدك بما تم عليه أمر المسلمين مع يهود خيبر من معاملتهم على أساس النصف من الخارج من الأرض، فإنهم بعثوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يعاملهم معاملة يهود خيبر، وقدمت رسلهم على النبي ﷺ وهو بخيبر، وقيل: وهو بالطائف أو بعد ما قدم إلى المدينة. فقبل ﷺ منهم ذلك، فكانت "فدك" لهذا خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وكان أمرها كأمر أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، وهنا يناقش أمرٌ:

هل فتحت خيبر عنوة؟ أم أن بعضًا منها فتح صلحًا؟

هناك من يقول بأنها فتحت عنوة إلا قليلًا، وهو حصن "الوطيح" و"السلالم" الذين بعث أهلهما يسلمان للنبي ﷺ ولكن الرأي الراجح بأن خيبر كلها فتحت عنوة؛ لأن هؤلاء ما سلموا إلا بحصار دام عليهم وجهد من المسلمين، ويذهب ابن القيم -موضحًا رُجْحَان هذا الرأي- إلى أن النبي ﷺ عزم على إجلاء بني النضير، بل هم عرضوا ﷺ أن لا يخرجهم وأن يبقوا في ديارهم وأن يتعاملوا على أساس المزارعة كما رأينا، وإلا فأمر الصلح يختلف عن أمر العنوة، ولمثل هذا الرأي يذهب ابن عبد البر في كتابه (الدرر).

ب. بقاء اليهود في خيبر مشروط برضا المسلمين:

كما أنه تعلق بأمر هذه المزارعة وإبقاء يهود خيبر أمرٌ شَرَطَه النبي ﷺ: أن بقاء اليهود في خيبر ما رضي المسلمون ذلك حتى لا يكون أمر إبقائهم مبرمًا من النبي ﷺ فلا يكون أمام المسلمين بعد ذلك أمر معهم، ولذلك لما عرف عمر > أيام خلافته بما شرط النبي ﷺ على يهود خيبر أنهم باقون في هذه الأرض ما رضي المسلمون ذلك، ولما بلغه > قول النبي ﷺ: ((إنه لا يبقى في أرض الجزيرة دينان، فلا يكون هناك إلا الإسلام)) عزم عمر على أن يمضي أمر النبي ﷺ ولذلك أرسل عمر إلى يهود خيبر يقول لهم: إن الله ﷻ قد أذن في جلائكم قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان))، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ فليتجهز للجلاء، وأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ وكان من الأمور التي دفعت إلى الشك في يهود خيبر حتى من أيام النبي ﷺ أنه وجد في ديارهم أيام النبي ﷺ قتيل من المسلمين جاء ليمتار الميرة -أي يجلب التمر والطعام منها. هو: عبد الله بن سهل، خرج -كما قلنا. إليها ولكنه لم يعد، فوجد في عين من عيون الماء قد كسرت عنقه ثم طرح فيها، فأخذوه فغيبوه، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له شأنه، ولما جاء عبد الرحمن بن سهل أخو عبد الله ومعه ابنا عمه حويّصة ومحيّصة ابنا مسعود، جاءوا إلى النبي ﷺ يطلبون دية عبد الله، فكتب النبي ﷺ إلى يهود خيبر -حين كلمته الأنصار- إنه قد وجد بين أبياتكم فدوه -أي ادفعوا ديته- فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلًا، ولذلك وداه النبي ﷺ من عنده.

كان الشك محيطًا باليهود أنهم قتلوا عبد الله بن سهل هذا، كذلك فإن ما دفع عمر بعد ذلك أن عبد الله بن عمر خرج إلى خيبر هو والزبير والمقداد إلى أموالهم بخيبر، ويذكر عبد الله أنه أصبح في يوم من أيام بقائه في خيبر وقد فدعت يده - أي انخلع مفصلها. فكان هذا من الأمور التي دلت على غدر هؤلاء؛ لأنه لم يعلم من فدع يده.

على أية حال فإن أمر خيبر قد تم على هذا النحو الذي جعله الله بشرى للمؤمنين ومغنمًا وعدهم الله ﷻ به في سورة الفتح.

ج. قريش تتمنى انتصار اليهود وتتوقعه:

هناك أمر تعلق بأمر هذه الغزوة التي كرم الله نبيه والمسلمين بالنصر فيها وآتاهم هذه المغانم كلها، وذلك هذا الأمر هو: أن قريشًا كانت تتوقع أن يتولى يهود خيبر بجموعهم وسلاحهم وما عرف عنهم من البأس وكذلك بمن كان يعينهم من الأعراب؛ أن يتولى هؤلاء أمر النبي ﷺ وجاء رجل منهم كان قد لقي النبي ﷺ بعد فتح خيبر، وهو الحجاج بن علاط السلمي، وهو من أهل مكة، وكان زوجًا لأم شيبة بنت أبي طلحة، وكان له منها أولاد، جاء هذا الرجل وكان تاجرًا تفرق ماله في تجار أهل مكة، ولما أسلم وأعلن إسلامه للنبي ﷺ استأذنه أن يرجع حتى يجمع ماله قبل أن يعرفوا بإسلامه فيمنعونه ماله، فأذن له ﷺ فرجع، كما استأذنه أن يقول ما يمكنه أن يجمع به ماله فأذن له النبي ﷺ في ذلك. يقول الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت رجالًا على مشارفها يتسمعون الأخبار؛ حرصًا من أهل مكة على أن يسمعوا ما يسرهم في أمر النبي ﷺ فقال الحجاج لهم لما سألوه: بأنه ترك أهل خيبر وقد نالوا من محمد وأصحابه ما لم ينله

أحد من قبل، ثم أخبرهم بأنه إنما جاء ليجمع ماله المتفرق في مكة حتى يرجع إلى خيبر ليشتري وليحوز من فيء محمد وأصحابه. فرح أهل مكة بهذا الخبر ونشطوا في جمع ماله، ولكن العباس جاء الحجاج وسأله عن حقيقة الخبر فأخبره بما يسر العباس من واقع الأمر، ثم خرج الحجاج من مكة بماله كله وكان قد استأمن العباس إلا بعد ثلاثة أيام، وبعدها خرج العباس في حلة وقد تطيب وطاف بالبيت، فقالوا: إن هذا لهو التجلد يا أبا الفضل، ولما قالوا له ذلك قال: والله لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروسًا على بنت ملكهم وأحرز أموالهم، قالوا من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به -يقصد الحجاج بن علاط.

التوجه إلى أهل فدك وتيماء، وفتح وادي القرى بعد امتناع يهودها ومغانم المسلمين فيها

أ. أهل فدك وتيماء:

إذا كان فتح خيبر يمثل نصرًا عظيمًا على أكبر وأعتى قوى اليهود في الجزيرة؛ فإنه قد استتبعه كذلك أعمال كان لا بد منها أن تتم حتى يأمن المسلمون غدر يهود كلهم، فلقد كانت هناك جماعات من اليهود في "فَدَك" "وتيماء" و"وادي القرى" كلها مناطق نزل فيها اليهود من قبل، وكانت سياستهم جميعًا سياسة التحالف مع الأعراب، ثم إنهم بعد البعثة -كما رأينا. كان أمرهم واحدًا على معاداة الإسلام ومعاداة رسوله ﷺ وها هي خيبر قد سقطت -على النحو الذي رأينا بتوفيق الله وأمره- على نحو ما كان ممن في الجزيرة من العرب والأعراب، بل كذلك واليهود من غير خيبر يظنون أن يكون هذا المصير مصير خيبر، ولكن إذا أراد الله أمرًا أصابه.

وهنا نرى بأنه ﷺ لكأنه جعل هذه الخَرْجة لقتال يهود خيبر كأنها كانت خروجًا لليهود كلهم بالجزيرة، ولما دنا من خيبر بعث مُحَيِّصَة بن مسعود الحارثي إلى "فدك" يدعوهم إلى الإسلام دعوة سلمية تتفق مع ما يعلمون في كتبهم وعهود أنبيائهم وحتى يكون في ذلك إزالة لأي حجة لهم، فجاء محيصة إلى "فدك" يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم في الوقت نفسه أن يغزوهم النبي ﷺ كما غزا إخوانهم في خيبر، وقام محيصة عندهم يومين ولكنهم ما أعطوه إجابة على هذا العرض من النبي ﷺ وجعلوا يتربصون وينتظرون ما سوف يتم الأمر عليه في خيبر، وكانوا يظنون ويأملون بأن المسلمين سوف يكون لهم أمر من يهود خيبر وشجعانها، ويقولون: إن بالنطاة عامرًا وياسرًا والحارث وسيد اليهود مرحبًا ما نرى محمدًا يقرب حِراهم -أي: ما يقدر عليهم ولا على ملاقاتهم- إن بها عشرة آلاف مقاتل، فلما سمع مُحَيِّصَة ذلك ورأى من خبثهم ما رأى عزم على أن يرجع ولكنهم خافوا، ثم قالوا: نرسل معك رجالًا منا يأخذون لنا الصلح كنوع من التسويف حتى تتبين لهم حقيقة الأمر، وظلوا على هذه الحال حتى جاءهم أمر النصر الذي حققه المسلمون، فلم يزالوا على ذلك حتى علموا بما جاءهم من الأمر من نصر الله ﷻ المسلمين على أهل حصن "ناعم" وهم يعلمون من به من أهل النجدة والبأس ففت ذلك في أعضادهم وبعثوا يطلبون الصلح فقد بعثوا رجلًا من رؤسائهم في نفر من اليهود صالحوا رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ويجليهم، ويخلوا بينه وبين الأموال ففعل رسول الله ﷺ. ولقد كان من أسباب دفعهم إلى السعي في الصلح أن محيصة خوفهم لما رأى تسويفهم فقال لهم: ما لكم منعة ولا حصون ولا رجال، ولو بعث إليكم رسول الله ﷺ مائة رجل لساقوكم إليه، ولذلك وقع الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ على أن لهم نصف الأراضين بتربتها ولرسول الله ﷺ نصفها، فقبل رسول الله ﷺ ذلك وأقرهم رسول الله ﷺ على هذا الأمر ولم يأتهم لقتال هذا أمر يهود فَدك.

ب. فتح وادي القرى بعد امتناع يهودها، ومغانم المسلمين فيها:

أما يهود وادي القرى فإنه كان لهم أمرًا آخر؛ فلقد أتاهم رسول الله ﷺ وهو منصرف من خيبر بعد أن نصره الله على أهلها، فلما دنا المسلمون من منازل وادي القرى فاجأهم يهودها بالرمي بالنَّبْل فدل هذا على أن أمرهم من بدايته الرفض للتسليم كما فعل يهود فدك وأنهم أرادوا القتال، ولذلك فإنه عبأ أصحابه للقتال وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ودفع راية إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سهل بن حنيث، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم أولًا إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، ولكنهم ما ردوا على ذلك ردًا يدل على قبولهم له، وبدءوا بأمر القتال بعد أن تعبأ المسلمون عدا ما كان من رميهم حينما وصلوا إليهم، وبرز رجل منهم للقتال للمبارزة فخرج له الزبير بن العوام فقتله، ثم برز رجل آخر فقتله ثم برز منهم آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب > فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا.

كلما قتل منهم رجل دعا النبي ﷺ من بقي منهم إلى الإسلام وفي هذا مبالغة من حرصه ﷺ على أن يجنبهم القتال، وكانت الصلاة تحضر في ذلك اليوم فيصلي النبي ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام ولما لم يستجيبوا لهذا كله قاتلهم النبي ﷺ عامة هذا اليوم، ثم أمسى المسلمون وباتوا ليلتهم لحيطة من أمرهم، ولما غدا عليهم في اليوم التالي وبدأ النبي ﷺ يأخذ عدته لقتالهم، فلم تكد ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها الله عليه ﷺ عنوة وغنمه أموالهم، وقد أصاب المسلمون أثاثًا ومتاعًا كثيرًا وغنموا من وادي القرى غنائم كثيرة.

ثم إنه ﷺ أقام بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصابه على أصحابه بوادي القرى وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها كما عامل يهود خيبر.

تابع فتح خيبر ، وغزوة مؤتة

عناصر الدرس

العنصر الأول : بعث السرايا لتأديب بقايا أعداء الإسلام من الأعراب ٤٣١

العنصر الثاني : أمر المسلمين بالتجهّز لأداء عمرة القضاء التي حان موعدها بعد عام من إبرام صلح الحديبية، و دخول مكة للعمرة، وأمره ﷺ للمسلمين بإظهار القوة ٤٣٣

العنصر الثالث : إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وأثر ذلك ٤٣٧

العنصر الرابع : سرية مؤتة: أسبابها، وأهميتها، وموقف هرقل وأعوانه منها ٤٤٤

العنصر الخامس : خروج المسلمين لمؤتة بعد أن ودعهم الرسول ﷺ ووعظهم، وبطولات المسلمين فيها ٤٤٨

العنصر السادس : عبقرية خالد في إدارة غزوة مؤتة، وحزن الرسول ﷺ على أمراء المسلمين ٤٥١

العنصر السابع : عودة المسلمين من مؤتة إلى المدينة، وموقف أهل المدينة منهم ٤٥٥

العنصر الثامن : سرية عمرو بن العاص إلى قُضاعة ٤٥٧

بعث السرايا لتأديب بقايا أعداء الإسلام من الأعراب

هكذا كان نصر الله ﷻ على طوائف اليهود في الجزيرة، ورأينا أن نعمة الله بالنصر العظيم في هذه الخَرْجة مكنت من هؤلاء جميعًا، فإذا كان صلح الحديبية كفّ يد قريش التي كانت تقاتل المسلمين من أول الأمر وكذلك اليهود الذين ظهر بغيهم من لدن هجرته ﷺ إلى المدينة، ورأينا ما تمّ ليهود المدينة، ثم يهود خيبر ومن بعدهم فدك وتيماء ووادي القرى، إذًا لم يبقَ بعد ذلك أمام المسلمين إلا الأعراب الذين كانوا يتعايشون مما يعود عليهم من الكسب والعطاء من تجارات قريش، وما كانت تستميلهم به لحربها مع النبي ﷺ وكذلك اليهود الذين كانوا يستمدّون القوة من الأعراب ممن حولهم ممن قرب منهم أو بعد، إذًا فلم يبقَ إلا الأعراب، وهؤلاء إنما كان أمرهم كأمر المرتزقة.

ولذلك رأينا أنه ﷺ يوجه السرايا في نواحي الجزيرة لتأديب هؤلاء الأعراب الذين ما قبلوا الدخول في الإسلام، وأن يكونوا من رجاله حتى يضمنوا سَعة الرزق من هذه الوسائل الكريمة، وهي الجهاد في سبيل الله ﷻ ولكنهم اختاروا أن يبقوا على كفرهم، طامعين في علاقاتهم برءوس الكفر من اليهود ومن المشركين.

ونرى بأن النبي ﷺ كان في اعتباره أمر هذا الفريق من أعداء الدعوة من بداية الأمر، حتى إنه ﷺ في مسيره إلى خيبر رأينا كيف عمل قبل وصوله أن يحول بين يهودها وبين أعوانهم من الأعراب وبخاصة غطفان، وقد قدم جماعة من بني فزارة على أهل خيبر ليعيونهم، فراسلهم ﷺ على أن يخرجوا عنهم، وأن يعطيهم لقاء هذا من خيبر ما يرضيهم، فلما فتحت خيبر أتاه من كان هناك من

بني فزارة فقالوا: حظنا الذي وعدتنا، فأعطاهم ﷺ ذا الرقيبة وهو جبل من جبال خيبر فلم يرضوا، وقالوا: إذًا نقاتلك. فقال: ((موعدكم جنفًا)) مكان يعني: أنه قبل هذا النزال ما داموا لم يقبلوا عرضه عليهم، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ خرجوا هاربين لم يصمدوا أمامه ﷺ.

غير هؤلاء فإنه ﷺ عني ببث السرايا وبعثها، فأرسل سرية عليها أَبان بن سعيد بن العاص قِبَلَ نجد في جمادى الأولى، فقدم أَبان على رسول الله ﷺ وهو بخيبر بعد أن افتتحها.

وكما أنه ﷺ بعث عمر بن الخطاب نواحي تُربَة في شعبان إلى السنة السابعة نواحي هوازن، فلما سمعت به هوازن هربوا فرجع عمر بعد أن محالّهم فلم يلق أحدًا.

كذلك فإنه ﷺ بعث أبا بكر إلى بني كلاب بنجد فأوقع بهم وقتل وسبى منهم، وعاد ظافرًا.

كما أنه ﷺ أرسل غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة في مائة وثلاثين رجلًا إلى بني عوال، وبني عبد ثعلبة وهم بالميفعة نواحي نجد، ومنزلهم من المدينة على نحو من ثمانية بُرد، فأوقعوا بهم في وسط محالِّهم، وعادوا ظافرين قد استاقوا نعمًا وشاء، ولم يكن هناك أسر.

هذه الأعمال كلّها كانت بفضل الله في السنة السابعة للهجرة التي كان فيها هذا النصر العظيم من الله ﷻ. وكان من أواخر بعوثه ﷺ تلك السرية التي كان عليها بشير بن سعد إلى يمن وجبار، وهي مواضع تعارض سلاح، وخيبر، ووادي القرى -أي: أن لها صلة باليهود. فنزل المسلمون بسَلاح ودنوا من القوم فأصابوا لهم نعمًا كثيرًا، ولكن الرعاء تفرقوا، وحذروا الجموع من هذه القبل؛ فتفرقوا

ولحقوا بعلياء بلادهم. وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد بها أحدًا، فرجع بالنعم وأصاب منهم رجلين، فأسرهما وقدم بهما على رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما فأرسلهما ﷺ.

حينما نلاحظ أمر هذه الغنائم التي يحظى بها المسلمون في هذه الانتصارات، كان يمكن أن يُعمل الأعراب فكرهم وأذهانهم هذه أموالهم تُؤخذ منهم لكفرهم، وإصرارهم على الشرك، ومعاداة الإسلام؛ فما كان أجدر بهم إلا أن يقبلوا على الإسلام، ولكنهم أَبَو كما رأينا. على أية حال فإن هذا الأمر وهو إباحة الغنائم والفيء للمجاهدين كان أمرًا من الله ﷻ يغني هؤلاء الذين خرجوا في سبيل الله، ويدفع هؤلاء الذين لم تكن لهم قضية يدافعون من أجلها لا هم كقريش تتبنى زعامة الوثنية، ولا هم كاليهود، فكان إصرارهم على البقاء على كفرهم ومعاداة الإسلام لا يدل على عقل أو فكر سليم منهم.

أمر المسلمين بالتجهّز لأداء عمرة القضاء التي حان موعدها بعد عام من إبرام صلح الحديبية، ودخول مكة للعمرة، وأمره ﷺ للمسلمين بإظهار القوة

أ. أمر المسلمين بالتجهز لأداء عمرة القضاء:

انتهينا إلى أمر الجهاد خلال السنة السابعة، وقد ختمت بنصر من الله ﷻ تمت الموافقة عليه في صلح الحديبية، وهو أن يتمكن المسلمون من أداء عمرتهم في ذي القَعدة بعد عام من إبرام الصلح، ولذلك دعا النبي ﷺ المسلمين إلى أن يخرجوا لأداء العمرة التي صدوا عن أدائها في العام الماضي، وهذه العمرة تسمّى بأسماء كثيرة هي عمرة القضية، أو عمرة القصاص، أو عمرة القضاء، ولما دخل هلال

ذي القعدة أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لأداء العمرة التي صدوا عنها في العام الماضي، وكان أمره ﷺ أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبيَة فلم يتخلّف منهم إلا رجال قد استشهدوا في خيبر ورجال ماتوا، وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمّارًا غير هؤلاء وكان عدد المعتمرين مع رسول الله ﷺ نحوًا من ألفين. واستخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق ﷺ ستين بَدنة جعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، فسار أمامه بالهدي يطلب الرعي من الشجر، ومعه أربعة فتيان من أسلم.

ب. دخول مكة للعمرة، وأمره ﷺ للمسلمين بإظهار القوة:

كما أنه ﷺ أمر المسلمين بأخذ سلاحهم الذي اتفقت عليه بنود الصلح وهي السيوف في قُربها، ولكن كان له أمر احتياط آخر حينما حمل معه سلاح، وعدة القتال فساق الخيل مائة فرس، وكذلك ساق الدروع والمغافر والحراب كلها أدوات لم تدخل في الشرط، ولكنه ﷺ لم يخالف في هذا؛ فلم يدخل بذلك مكة وإنما كان مبالغة في الاحتياط حتى يأمن غدر المشركين به، وهكذا فإنا قد رأيناهم في العام الماضي فعلوا ما فعلوا وخرجوا بالخيل وبعُدة القتال.

وهنا لما وصل النبي ﷺ إلى ذي الحُلَيفة قدم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة، كما قدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد، وأحرم ﷺ من ذي الحُلَيفة، ولبى والمسلمون معه ثم مضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران، فلقي بها جمعًا من قريش أعلمهم بأن رسول الله ﷺ سينزل هذا المكان غدًا بمشيئة الله، فأسرعوا إلى قريش يخبرونهم من أمر الخيل، وأنها -بلا شك- عُدة للقتال كما أن بشير بن سعد تقدم بالسلاح إلى بطن يأجج، وهناك بقي على السلاح مائة رجل لحراسته عليهم أوس بن خَولي الأنصاري.

ولما رأت قريش هذا بعثت مِكْرَز بن حفص في نفر من قريش نزلوا بطن يأجج فوجدوا رسول الله ﷺ في أصحابه، والهدي، والسلاح قد تلاحقوا، فقالوا: يا محمد ما عرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن تدخل إلا بسلاح المسافر، فقال النبي ﷺ: ((إني لا أدخل عليهم السلاح)) -أي: إنه ﷺ إنما جاء حتى يكون قد أخذ احتياطه لأي أمر قد يكون- ، ولما جاء مِكْرَز بن حفص يخبر قريش بذلك لم يطقْ جماعات من كبار أهل مكة المقام فيها حتى يروا المسلمين يطوفون بالبيت في أمان، وهذه أول مرة بعد هجرته ﷺ يتاح هذا الأمر كله ثم إنه ﷺ أمر بالهدي أمامه حتى حبس بذي طُوى، وخرج ﷺ هو وأصحابه محيطون بالنبي ﷺ وهو على ناقته القَصْواء وكانوا متوشحي السيوف، وعبد الله بن رواحة يرتجز بهذا الشعر يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ❖ خلوا فكل الخير معْ رسوله
نحن ضربناكم على تأويله ❖ كما ضربناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ❖ ويذهل الخليل عن خليله

وهنا تكلّم عمر مع ابن رواحة وكأنه يستنكر أن يقول هذا الشعر في هذا المقام، ولكن رسول الله ﷺ قال لعمر: يا عمر، إني أسمع فسكت عمر، ثم إنه ﷺ قال: ((إن هذا الشعر لهو أشدّ عليهم من نضح النبل)). هذا ولقد كان بَلَغَ النبي ﷺ والمسلمين بأن قريشًا قالت عنهم: بأنهم أنهكتهم حمى يثرب، وأنهم ما يتباعثون من العَجَف -أي: من الضعف والوهن- ولذلك فإنه ﷺ لما طاف بالبيت طاف مطبعًا بردائه وقال: ((لا يرى القوم فيكم غَميزة)) أي: انتقاصًا من شأنكم، ثم استلم الركن ﷺ، ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، وهكذا ثلاثة أشواط من السبع، وقد كان من بقي من قريش قد

جاءوا ينظرون إلى النبي ﷺ وإلى المسلمين، ثم لما رأوا هذه القوة منهم قالوا: إنهم ما يرضون بالمشي إنما ينفرون نفر الظباء.

وبعد طوافه ﷺ أكمل عمرته ثم إنه ﷺ لما قضى نسكه دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال الظهر فوق الكعبة، وكان رسول الله ﷺ أمره بذلك حتى يُعلي كلمة الحق في هذا المقام، على الرغم من أن هذا الأمر أصاب كثيرين من أهل مكة، وبخاصة أولئك الذين ينتسبون إلى الأُسر التي تعمق فيها الشرك، كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل.

ولما مضت الثلاثة أيام التي كانت في شرط صلح الحديبية بعثت قريش إلى النبي ﷺ، حتى يخرج فأتاه سُهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، وكان رسول الله ﷺ في مجلسه مع الأنصار يتحدث مع سعد بن عُبادة فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا، فقد مضت الثلاث، ولقد وقعت ملاحاة بين سعد بن عبادة وبين حويطب، ولكن النبي ﷺ حسم الأمر بعد أن استأذنهم في أن يبقى حتى يدخل بميمونة بنت الحارث أخت الفضل زوج عمّه العباس، وقال: ((قد نكحت امرأة منكم فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع طعامًا فنأكل وتأكلون معنا))، فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا. نوع من التعنّت ما يزال مع قريش، وهنا سنرى كيف ستكون معاملة النبي ﷺ حينما يدخل مكة فاتحًا بأمر الله في العام القادم، ولكن ما نذكر إلا حتى نقارن بين عمل النبي ﷺ وبين عمل هؤلاء، وهنا أمر النبي ﷺ أبا رافع أن يؤذن بالرحيل في الناس، وطلب أن لا يمسي أحد في مكة من المسلمين، وخرج النبي ﷺ عن مكة كشرط صلح الحديبية كما رأينا، كما أنه ﷺ أمر أبا رافع مولاه أن يلحقه بميمونة، وهكذا تمت عمرته ﷺ على صدق ما وعده الله ﷻ ووعد

المسلمين معه: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح: ٢٧].

هكذا رأينا بأن قريشًا لم ترضَ أن تزيد يومًا لرسول الله ﷺ على الرغم من أن أمرًا كان يدفع إلى هذا اليوم، وهو أن يدخل بزوجه ميمونة بنت الحارث التي كان قد قدم جعفر بن أبي طالب ليخطِبها له، وكانت ميمونة لما جاءها طلب رسول الله ﷺ بذلك قبلت ووافقت، وكانت من قبل قد جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل التي جعلته إلى زوجها العباس فزوجها رسول الله ﷺ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم ثم كان دخوله بها ﷺ بسرف، وهو مكان بعد مكة.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وأثر ذلك

أ. إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

إذا كان نصر الله ﷻ على هذا النحو الذي رأينا خلال هذا الأمر كله، فإنه كان هناك أمر سيزداد الإسلام به قوة، ويزداد الكفر به ضعفًا وهو إسلام رجال كان لهم خطرهم في الإسلام من بعد ذلك كما كان لهم أمرهم في خدمة الكفر والشرك، ونعني بهؤلاء الوليد بن الوليد بن المغيرة كذلك عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة وغيرهم من الذين هداهم الله للإسلام بعد صلح الحديبية.

إن أمثال هؤلاء الذين كانوا يمثلون قوة للكفر إنما كان إسلامهم يمثل خسارة مضاعفة للمشركين؛ لأنهم لو ماتوا لكانت الخسارة، أما حين يخرجون من معسكر الكفر إلى معسكر الإسلام هنا تضاعف الخسارة على المشركين، وبالمثل

فإن الكسب يضاعف بإسلام هؤلاء، وإقبالهم على هذا الدين العظيم فإنهم بعد أن كانوا قوة تعادي الإسلام لو أنهم ماتوا لكان كسبًا للمسلمين. أما أن يكونوا في صفوف المسلمين فإن ذلك يعد كسبًا مضاعفًا، بهذا التقديم يمكن أن نتناول إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة حتى نرى كيف هدى الله هؤلاء إلى الإسلام، بعدما كان منهم ما كان من العداء لهذا الدين العظيم.

ولا يخفى علينا دور كل رجل منهم في المعارك التي سبقت في بدر وأحد والأحزاب، ولقد كان إسلام هؤلاء الثلاثة في زمن واحد، وكان دخولهم على رسول الله ﷺ المسجد بالمدينة مؤمنين مسلمين في يوم واحد ساروا جميعًا إلى المدينة يبغون الإسلام. مع أن الله ﷻ جمع بينهم على غير ميعاد فعمرو بن العاص خرج بعد أن ظهر أمر الإسلام إلى الحبشة ليقيم بها، ولكنه لما سمع من النجاشي ما يؤكد صدق النبي ﷺ عزم على أن يمضي في طريق الهدى، يبغي أن يسلم مع النبي ﷺ فخرج من الحبشة قاصدًا المدينة.

يقول عمرو: خرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران ومضيت حتى إذا كنت بالهدة، فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلًا، فلما نظر إليهما فإذا هو خالد بن الوليد قلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس في الإسلام، والله لو أقمت لأخذ محمد برقابنا كما يُؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: وأنا والله قد أردت محمدًا وأردت الإسلام، ثم مضى الجميع في طريقهم حتى أتوا المدينة يقول عمرو: فلما أتينا المدينة فما أنسى قول رجل لقيناه يصيح: يا رباح فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، ثم ولّى مدبرًا إلى المسجد سريعًا

فظننت أنه يبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت، وقد أنخنا بالحرة ولبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا حتى دخلنا على النبي ﷺ وإن لوجهه تهلّلًا والمسلمون حوله قد سُروا بإسلامنا، ثم تقدم خالد بن الوليد فبايع، وتقدم عثمان كذلك، ثم تقدم عمرو بن العاص فبايع النبي ﷺ يقول: فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياءً منه، ثم بايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر فقال ﷺ: ((إن الإسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما كان قبلها))، قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا.

ب. أثر إسلامهم:

وكان إيثارنا أن نذكر إسلام هؤلاء الرجال وبخاصة عمرو وخالد؛ لأن هذين الرجلين سيكون لهما شأن معنا إن شاء الله، وأعمال الجهاد التي سوف يباشرها المسلون بعد ذلك، وبخاصة في الشام وغيرها من البلاد التي كانت تحت الروم بعد ذلك في عهود الخلفاء الراشدين كذلك، كما أن خالدًا على وجه الخصوص كان له أثر في أول الأعمال التي خرج فيها المسلمون على هذه الكثرة منهم، فما عرفت سرية من سراياه ﷺ، أو غزوة خرج فيها لقتال بعيدًا عن المدينة، وصل عدد رجالها كما كانت عليه الحال في سرية مؤتة التي كانت فيها الصحابة ثلاثة آلاف، فكان اشتراك خالد في هذه الغزوة بعد إسلامه ومجيئه المدينة بقليل، فقد جاء المدينة مسلمًا في سفر، وخرج مجاهدًا في هذه الغزوة في جمادى الأولى.

وإذا كنا قد تناولنا إسلام عمرو على هذا النحو من الإطالة النسبية، وأوجزنا عن خالد، فإن أمر خالد ليحتاج إلى وقفة تبيّن حكمة النبي ﷺ واستمالته لأمثال

هذه الشخصيات النادرة من المسلمين، ولذلك فإنه ﷺ لما كان في المدينة معتمرًا عمرة القضية وقد أسلم الوليد بن الوليد أخو خالد، سأل النبي ﷺ عن خالد، ولذلك بعث الوليد إلى أخيه خالد بكتاب هذا الكتاب فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وَعَقْلُك عَقْلُك، ومثل الإسلام جهله أحد، وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: ((أين خالد))؟ فقلت: يأتي الله به إن شاء الله فقال: ((مثله جهل الإسلام، ولو جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيرًا له، ولقدمناه على غيره))، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة".

يقول خالد: فلم جاءه كتاب أخيه نشط للخروج إلى النبي ﷺ وزاده ذلك رغبة في الإسلام كما أنه سره سؤال رسول الله ﷺ عنه يقول خالد: وأرى في منامي كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت منها إلى بلاد خضراء واسعة، فقلت إن هذه لرؤيا فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنّها لأبي بكر فقال أبو بكر رضى الله عنه: مخرجك الذي هداك الله للإسلام والضيق الذي كنت فيه من الشرك. يقول خالد: وكان خالد قبل ذلك كان يلوم نفسه على نفسه على مواقفه التي وقفها ضد الإسلام، ويقول: لما أراد الله بي من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ فليس موطن أشهده إلا انصرف، وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء أي: أن جهده الذي بذله في خدمة الوثنية والمشركين ليس في موضعه، ثم يقول: وأن محمدًا سيظهر فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم، ثم لم يعزم لنا وكانت فيه خيرة فاطّلع على ما في

أنفسنا من الهمّ به، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع معنا موقعًا، فقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا.

كذلك فإنه ما كان يخفى على خالد موقفه في أحد، وما كان سببًا فيه من تحول الريح ضد المسلمين، ونزول من نزل بهم من القتل والتنكيل، فلعلّ خالدًا كان يرى أن هذا الجهد الذي قدمه للمشركين ما كان يجب عليه أن يكون منه هو. إذًا فالرجل يراجع نفسه ويلومها على مواقف الشرك، وقد عزم كما رأينا أن يعتدل به الطريق، وأن يسير في طريق الهدى الذي أراد الله له وأعده له. ثم إنه لما جاءه كتاب أخيه جعل استقرار نفسه على اتخاذ القرار الصائب، وهو التوجه إلى رسول الله ﷺ حتى يعلن إسلامه، ويضع جهوده النادرة في خدمة هذا الدين العظيم، عسى الله أن يغفر له ما سلف من أمره ضد الإسلام والمسلمين.

ومن حب الخير في نفس خالد فإنه دعى أصدقاء له أصفياء أراد أن يعرض عليهم الإسلام قبل أن يسير إلى النبي ﷺ، يقول: إنه لقي صفوان بن أمية فقلت: يا أبى وهب أما ترى ما نحن فيه وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمدٍ لنا شرف، فأبى صفوان أشد الإباء، وقال: لو لم يبقَ غيرى ما اتبعته، فافترقنا وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاكتم علي قال: لا أذكره حتى يخرج خالد من دون أن يشعر به أحد، قال: فخرجت إلى منزلي وأمرت براحلتي، وخرجت بها فلقيت عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا صديق لي، فلو ذكرت له ما أرجو ثم ذكرت من قتل من آبائه، فكرهت أن أقول شيئًا له، ثم قلت وما علي وأنا راحلٌ من ساعتي، فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب ماءٍ لخرج.

لعل خالدًا كان يرى، وهو يرى بالفعل ما صار إليه أمر قريش، وما صار إليه أمر النبي ﷺ، وما علمه مما حملتها الأخبار من فتح خيبر، وهزيمة اليهود في الجزيرة كلها، وخضوعهم للنبي ﷺ ولأمر الله، ما بقي إلا قريش، وقد فرغ النبي ﷺ كما رأينا من اليهود الذين ألبوا الدنيا على المسلمين.

ولما قال لعثمان بن طلحة ما دعاه به إلى الإسلام، وما صرح له به من همّ نفسه، وعزمه على المضي إلى محمد ﷺ وقال بعد ذلك خالد: فاتعدت -أي: تواعد الرجلان-، فاتعدت أنا وهو يأجج إن سبقني أقام، وإن سبقته أقمت -وهو وادٍ خارج مكة- قال: فأدلجنا سحرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج فغدونا حتى انتهينا إلى الهده، فنجد عمرو بن العاص بها، وهنا عرفنا بأن الرجال الثلاثة التقوا في هذا المكان من قصة إسلام عمرو بن العاص، وعرف الرجال الثلاثة عزم كل واحد منهم على المضي إلى المدينة، فساروا جميعًا حتى دخلوها، وقبل أن يدخل خالد لبس من صالح ثيابه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ فلقيه أخوه فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرّ بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطلعت عليه، فما زال يبتسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فردّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ لخالد: ((الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير))، قلت: يا رسول الله، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا للحق، فادع الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلام يَجُب ما قبله))، قلت: يا رسول الله، على ذلك -أي: يرجوا الدعاء له-، فقال النبي ﷺ: ((اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله))، ثم تقدّم الرجال فبايعوا رسول الله ﷺ، وهنا يذكر خالد أن قدومهم كان في سفر ثمانٍ، ويقول: والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حزبه من أمر.

المسير واحد لهذين الرجلين العظيمين خالد وعمرو، واللقاء واحد، وسرور النبي ﷺ بهم جميعًا هذا السرور العظيم، وكان حريًّا بأمثال هؤلاء الرجال أن يهديهم الله للإسلام، وأن يدخرهم لقوة المسلمين ولما سوف يأتي من أعمال جهاد عظيمة بعد ذلك.

وإذا كان خالد وعمرو لهما هذا الأمر، وهداهم الله لذلك؛ فإن عثمان بن طلحة وكان من بيت حملة اللواء -لواء قريش-، ونعلم الكثيرين منهم من قتل في أحد، وكذلك في بدر. إذًا فهو يمثل فرعًا من قريش كان له صلة بالحرب وهي اللواء، وخالد من بني مخزوم الذين كانوا فرسان قريش في القتال، وكان إليهم أمر القتال كله في قريش كما عرفنا، ونذكر لهذا الرجل الذي كان يُرجى له أن يكرمه الله بالإسلام، نذكر موقفه مع أم سلمة { حينما خرج بها من مكةَ يصونها، ويحرسها بأمر الله، ويحفظها حتى أوصلها إلى حيث زوجها أبو سلمة الذي هاجر، وتركها هي وولدها سلمة من قبل ذلك بعام، وكان أمينًا عفيفًا ذكرت أم سلمة ما كان يفعله معها من الأمانة، أمانة الرجال وحفظ الأعراض في هذا الخلاء الذي ما كان فيه إلا عثمان، وأم سلمة وابنها، والله من فوقهم ومن ورائهم عليم.

ولذلك كانت هذه الصحبة، صحبة عثمان لأم سلمة، من الأمور التي ذكرتها بالخير أم سلمة بعد ذلك، وذكرت التي ذكرتها بالخير لعثمان، ولذلك لم يكن غريبًا أن يكرم الله ﷻ مثل هذا الرجل الأمين هذه الكرامة العظيمة، وأن يدخل مكة في صحبة هذه الجماعة المؤمنة التي أعز الله بها الإسلام والمسلمين.

سرية مؤتة: أسبابها، وأهميتها، وموقف هرقل وأعوانه منها

أ. أسباب غزوة مؤتة:

سرية مؤتة من أهم السرايا التي وجّهها النبي ﷺ إلى الشام لقتال الروم وأعوانهم، ذلك أنه ﷺ لما بعث بكتبه إلى الملوك والأمراء، فإنه بعث بكتاب إلى ملك بُصرى مع الحارث بن عمرو الأزدي، فلما وصل مؤتة عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، وكانت الرسل لا تقتل؛ فغضب النبي ﷺ لذلك، وكان هذا سببًا في إرسال هذه السرية سرية مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ب. الفرق بين الوصف بـ(الروم)، و(الرومان)، موقف هرقل وأعوانه من السرية:

قبل أن نتناول أمر هذه السرية وما تمّ فيها من العمل والجهد، فإننا نُشير بأن لأول مرّة تخرج سرية تقاتل جموعًا مثل هذه الجموع، وميدانًا جديدًا هو ميدان نصارى الشام من الروم وأتباعهم من متنصّرة العرب الذين ارتبطت مصالحهم بالدولة الرّومية، ولما وصل كتاب النبي ﷺ إلى هرقل دعاه فيه إلى الإسلام -كما عرفنا.، ودعا ملوك الشام من الغساسنة وغيرهم كذلك.

إذًا فالدعوة سابقة بالحسنى، وكان هذا أمره ﷺ أن يسبق دائمًا بالدعوة إلى هذا الدين العظيم، وكما رأينا ما حدث مع أهل وادي القرى، وأمر النبي ﷺ لعلي حينما أعطاه الرّاية أن يدعو أولًا إلى الإسلام. إذًا فالدعوة دعوة خير ولكن أنّى

لأمثال هؤلاء الذين طوّعوا أمر الدين لمصالحهم، ونحن لو رجعنا إلى أمر الرومان أسلاف الروم وموقفهم من النصرانية لما ظهر أمرها في الشام وفي مصر، رأينا كيف أن هذه الدولة دولة الرومان تصدّت للنصرانية والنصارى على هذا النحو الذي نكل بهم قرابة ثلاثة قرون، ولكنهم كلما ازدادوا تعنتًا كلما انتشرت النصرانية حتى كان آخر أمرهم أن يدخلوا في هذا الدين، ويعلنوا الإيمان به، لا عن رغبة في الإيمان ولكن لأنهم رأوا أن من المصلحة لهم ولدولتهم أن يسايروا الناس فيما اعتنقوه من دين، وأن يتولّوا أمر رعاية النصرانية كما كان يزعم أباطرتهم.

ومن أدلّ الأمور على هذا أن عهد الإمبراطور دِقِلْديانوس الذي تولّى سنة مائتين وأربع وثمانون للميلاد كان أشد عهود القياصرة أذًى وتنكيلًا للنصارى، حتى إن نصارى مصر يعتبرون التاريخ القبطي يبدأ من تاريخ هذا الرجل ومن بعده جاء قسطنطين الذي اعترف بالمسيحية اعترافًا لا يدل عن اقتناع، فإنه ما اعترف بهذا إلا لينال تأييد شعوب الشرق مصر والشام، لتأييده في قتاله مع عدوه الذي نازعه الحكم في ذلك الوقت، ولذلك قدم الاعتراف وإباحة الاعتقاد بالنصرانية كرشوة لأهل الشرق حتى إنه لمن المحير عند المؤرخين أمر دخول قسطنطين نفسه في النصرانية، ويشك كثير من المؤرخين أنه مات عليها كذلك.

فإن أباطرة الشرق في دولة الروم بعد أن انتقلت العاصمة إلى القسطنطينية، وتركت القسم الغربي بعد تقسيم الدولة إلى قسمين ساروا على نفس الأمر، ونفس النهج، وتدخلوا في أمر الدين وجعلوا الكنيسة تخضع لهم، وكانوا يقيمون المجامع الدينية مجمعًا من بعد مجمع، حتى يؤكدوا القرار الذي يخدم مصالحهم، ولذلك اضطربت الكنيسة الشرقية في أمرها؛ لأن هذه الكنيسة كانت

تخضع للإمبراطور، أما الكنيسة الغربية فإنها التزمت نهجًا واحدًا في المعتقد، وهو المذهب الكاثوليكي. ولم يكن لأحد سلطان على البابا في ذلك الوقت، بل كانت يده هي الطولى على ملوك الغرب.

إذًا فالفارق واضح، مما جعل أباطرة الشرق يعبثون بأمر الدين، وبالمذاهب النصرانية على حسب ما يخدم مصالحهم؛ إذًا فالدين عندهم إنما هو مصلحة لا غير، ونحن هنا نشير إلى استطراد حتى نعرف التعريفات العلمية السليمة، فنحن نقول: الرومان، والروم، فالرومان أو الوصف بالرومانية إنما يطلق على ما قبل سنة ثلاثمائة وخمس وتسعين؛ لأنه في ذلك العام قسّمت الدولة الرومانية إلى قسمين القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية، وهي بيزنطة في الأصل والقسم الغربي في إيطاليا، ولم يلبث القسم الغربي حتى أخذته القبائل الجرمانية التي جاءت من أوربا، واستولت على ممتلكات الدولة الرومانية، واستولت على القسم الغربي بكامله، ومن ثَمَّ لم يعد من المناسب أن يطلق على القسم الشرقي الدولة الرومانية، وإن كثيرين يجانبهم التوفيق في أن يصفوا بعد ذلك الدولة البيزنطية، أو دولة الروم بوصف الرومانية يقولون: الجيش الروماني والإمبراطور الروماني، وهم يقصدون من عاصر المسلمين في أيامهم.

لنا في القرآن العظيم الذي ذكره اسمهم بالروم، وكذلك النبي ﷺ فنحن نقول: الروم في هؤلاء وكذلك نقول: البيزنطيون مرادف للتعبير والتعريف بأمثال هؤلاء، هذا استطراد أردنا أن نحدده حتى نلتزم به في تعبيراتنا العلمية.

نأتي إلى ما حشده هرقل لقتال المسلمين بعد أن جاءته دعوة الحق من النبي ﷺ، وبعد أن طلب بعض من بالشام من العرب، فصادف وجود أبي سفيان فجاءه وناقش هرقل في أمر النبي ﷺ، ثم لما ذكر له أبو سفيان أمر النبي وأجابه على

أسئلته التي سأل، أقر بنبوته ﷺ وعرف الحق، ومع هذا نجده بعد ذلك بعد أشهر من مجيء الكتاب إليه يجمع هذه الجموع، من غير شك أن ملوك الشام من الروم وأتباعهم كانوا يعلمون في ذلك الوقت بأمر انتصار المسلمين الذي تحقق لهم على اليهود، وفراغهم من قريش بصلح الحديبية، وقيامهم بتأديب الأعراب في كل نواحي الجزيرة ممن كان يخاف منه، ولعلهم لما ذكروا هذا كله، وأن النبي ﷺ بعث يدعوهم إلى الإسلام فلكأنهم ظنوا أنه يريد أن يأخذ بلادهم، والنبي ﷺ لما بعث لهرقل يدعوه إلى الإسلام ما طلب منه أن يدخل في طاعته ﷺ وإنما خاطبه بعظيم الروم، وضمن له كما ضمن لغيره من الملوك والأمراء ما هو تحت أيديهم، وأنه ﷺ لم يكن يريد منهم إلا أن يكونوا قائمين على أمر هذه الدعوة بعد أن يعتنقوا أمر هذا الدين، والناس دائمًا تبع لملوكهم، ولكنَّ كما نرى بأن الأمر ليس أمر ملك أمام ملك في عراك على أرض، وإنما هو على عقيدة، وإنما هو دين يدعوا إليه رسول وهو في انتشار دائمًا، وفي إقبال من الناس عليه وعلى الإيمان به، وكانت بواعث هرقل بعد ذلك هي أن هذا الدين سوف يسود على النصرانية، ثم لا يبقى لهم بعد ذلك شيء يضمن لهم السيادة على الناس، فإن الأباطرة كانوا يعتبرون أنفسهم رعاة للنصرانية.

ومن ثمَّ جعلوا هذا الأمر من أسباب خضوع الناس لهم وطاعتهم إياهم، وهنا نرى بأن مشاعر الخوف على المُلك هي التي دفعت هرقل إلى ذلك الأمر، ثم إن من عداه من أتباعه من ملوك الشام إنما هم أتباع له، ومن هنا كان هذا الإصرار على الخروج والقتال، وحتى يعرِّف المسلمين أن هذه الجبهة جبهة الشام، أو بالأحرى جبهة النصرانية هي أشد بأسًا وأكثر عددًا وأمضى سلاحًا، ولذلك كانت هذه العدة الكبيرة التي خرج فيها هرقل في مائة ألف من الروم، ثم ما

اجتمع إليهم من العرب وقبائلها، والممالك التي دانت بالحكم والتبعية للروم الذين بلغوا نحوًا من مائة ألف كما تذكر الآيات.

نأتي لذكر أمر النبي ﷺ بإرسال هذه السرية، فقد اختار النبي ﷺ أمراءها ولذلك سميت سرية الأمراء، فإنه أمّر عليهم أولًا زيد بن حارثة، وقال: ((إن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون رجلًا منهم فليؤمروه عليهم))، وفي هذا ما يدل على يقين رسول الله ﷺ بعِظم المهمة، حتى لتذكر بعض الروايات بأن رجلًا من اليهود ممن بقي على عهد قال لزيد بن حارثة: أعهد أي: أوصي لأنك مقتول على أساس ما عرف عند بني إسرائيل أنه إذا كان نبي يبعث بعثًا فيهم، ثم يحدد الأمراء أميرًا من بعد أمير فإنه يدل على قتل هؤلاء الأمراء، حتى ولو كانوا مائة، ولذلك لما قال هذا الرجل اليهودي لزيد بن حارثة: أعهد فإنك مقتول إذا كان محمد نبيًّا، فقال زيد: أشهد أنه رسول الله حقًّا.

خروج المسلمين لمؤتة بعد أن ودّعهم الرسول ﷺ ووعظهم، وبطولات المسلمين فيها

أ. خروج المسلمين لمؤتة بعد أن ودّعهم الرسول ﷺ ووعظهم:

تحدد الأمر، وتحدد المسير وخرج المسلمون في طريقهم، بعد أن ودعهم رسول الله ﷺ وشيعهم حتى بلغ ثنية الوداع، ثم وقف ووعظهم، فقال: ((اغزوا بسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ثم قال: أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تعقروا نخلًا، ولا تهدموا بيتًا))، كل

هذا مما يدل على أن دعوة الإسلام حتى في القتال إنما هي للإصلاح، وليست للتخريب.

ثم إنه ﷺ أمر أمراءه أن يبدءوا بدعوة أعدائهم أولًا إلى هذا الدين العظيم، قبل أن يقاتلوهم، وبعد هذا مضى الرجال متوجهين إلى طريق الشام حتى نزلوا معان من أرض الشام، وهناك بلغ الناس أن هِرَقل نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام، وبهراء، وبلي، وغيرها من القبائل مائة ألف أخرى عليهم رجل من دلي يقال له مالك بن رافلة. فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا؛ لأنهم رأوا عدوًا كثيرًا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: يا قومي إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون -أي: الشهادة-، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا. فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور، وإما شهادة؛ فتشجع الناس لذلك وقالوا: قد والله صدق ابن رواحة، ومضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هِرَقل من الروم والعرب بقرية تسمى مشارف من قرى البلقاء.

ب. بطولات المسلمين في غزوة مؤتة:

ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وعبئوا أنفسهم فيها، وجعلوا على الميمنة قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري ثم التقى الناس واقتتلوا، فاستشهد زيد فأخذ الراية من بعده جعفر، فاقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها وقاتل حتى أكرمه الله بالشهادة، وقد قيل بأن جعفر أخذ اللواء

بيمينه فقطت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولذلك بشر النبي ﷺ أن الله أبدل جعفر بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، وقد وجدوا في جسده ما ينيف على ستين جرحًا ما بين طعنة ورمية وضربة بسيف، وبعد جعفر تقدم عبد الله بن رواحة الذي بث في بأمره بكلامه الشجاعة، ولكنه عند ساعة أخذ الراية بدا منه بعض التردد ولكنه تشجع بشعر خاطب به نفسه:

أقسمت يا نفسُ لتنزلنه ❖ لتنزلن أو لتكرهنه
إِن أجلَبَ الناسُ وَشَدّوا الرَّنَّة ❖ ما لي أراك تكرهين الجنة

ثم قال وهو يخوض في الناس:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ❖ هذا حِمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ❖ إن تفعلي فعلهما هديت

أي: إن تفعلي فعل زيد وجعفر، ثم نزل > وباشر القتال حتى قتل شهيدًا يرحمه الله.

وهكذا قتل الأمراء الثلاثة، وهنا أخذ الراية ثابت بن أرقم وطلب من المسلمين أن يصطلحوا على رجل منهم حتى لا تقع الراية، وحتى لا ينهزم المسلمون فالناس براياتهم في القتال، فلما عرض الناس على ثابت أن يقودهم لم يرضَ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، فأخذ الراية خالد، ولما أعطاه ثابت قال: إنك لهذا الأمر أصلح مني.

هكذا وفق الله المسلمين إلى ذلك الرجل إلى خالد بن الوليد، وكان قتل ابن رواحة مساءً وآلت الإمارة إلى خالد الذي بات يفكر في هذا الأمر، فلما أصبح خالد عمل أمورًا في صفوف الجيش حتى يكون لها أثرها في نفوس الأعداء،

فجعل مقدمة الجيش ساقة، والساقة مقدمة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، ولذلك أنكر الأعداء ما رأوا وظنوا أن مددًا قد جاء المسلمين، وقاتل خالد والمسلمون قتالًا عنيفًا مستبسلين مقدمين غير متقهقرين حتى أبلوا بلاءً حسنًا، حتى أن خالدًا ليذكر بأنه اندقت في يده في مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يده إلا صفيحة يمانية؛ مما يدل على أن المسلمين رغم قلة عددهم، فإن إقبالهم على الجهاد والموت في سبيل الله كان أمرًا واضحًا في هذه السرية التي أثبتت معية الله ﷻ كانت خير دعم لهم في هذا اللقاء.

عبقرية خالد في إدارة غزوة مؤتة، وحزن الرسول ﷺ على أمراء المسلمين

أ. عبقرية خالد في إدارة غزوة مؤتة:

الذي يظهر من خطة خالد في القتال هو أنه عزم على أن ينحاز بالمسلمين بلا خسائر تذكر أمام هذه الجموع الكثيرة، وكان في هذا نصر الله ﷻ، ولذلك فإنه قاتل الروم وأعوانهم قتالًا شديدًا، استبسل فيه المسلمون غاية الاستبسال، ويكفي المقارنة بين عدد المسلمين وبين عدد الروم وأعوانهم، حتى نعرف مدى الإقدام والإقبال الذي كان عند المسلمين.

وحتى لا يظن بعض الناس أن انسحاب خالد بالمسلمين كان تقهقرًا؛ فإن النبي ﷺ بشر المسلمين بعد أن أنبأهم بمقتل الأمراء الثلاثة، بشرهم بأنه قد أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه وهو خالد، ولذلك سُمي فعل خالد فتحًا، وكان حريًّا به أن يوصف بهذا الوصف حين نَجَا بالمسلمين وانحاز بهم وانحيز عنهم، وخاف الروم وأعوانهم أن يتابعوا خالدًا الذي انسحب انسحابًا

منظمًا لم تكن فيه خسارة تذكر. إذا ما أخذ في الاعتبار هذه المعركة غير المتكافئة في العدد بين هذين الجمعين.

على أيّة حال فإنه مما يؤكّد أن هذا الانسحاب المنظم الذي قام به خالد، إنما كان نصرًا من عند الله ﷻ، ولذلك فإنه بعث بشيرًا إلى النبي ﷺ يبلغه، ومعنى كلمة بشير أن ما حققه المسلمون بقيادة خالد عند انسحابهم من هذه المعركة هذا الانسحاب المنظم، ولكأنه انحياز إلى فئة كما يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦] وهنا نرى بأن عمل خالد بالمسلمين إنما كان تحيزًا إلى فئة المسلمين والعودة إلى المدينة.

ولذلك فإن النبي ﷺ على الرغم مما أصابه من الحزن لما علم بمقتل الأمراء الثلاثة فإنه ﷺ سُرّ لما رأى أمرهم وما نالهم من الخير بفضل الله ﷻ والثواب العظيم في الجنة، كذلك فإنه سرّ بتصرف خالد وعودته بالمسلمين من هذه المعركة دون الهزيمة. فلقد رأينا جيش الروم وكثرة عدده وعدته، فكان من المحتمل هزيمة المسلمين في هذه المعركة، ومع ذلك فإن المسلمين استشهدوا كلهم إلا من نجا منهم، أو من ارتث من بين القتلى.

وهذا –لا شك- يدل على النصر واستبسال المسلمين، وقد حفظت لنا الروايات التي رويت وسطرت في الكتب مظاهر الإقدام والاستبسال الذي بذله المسلمون في قتالهم، وأن عمل خالد كان نصرًا بأمر الله، فالأكثرون على أنه هو ومن معه قاتلوا من المشركين الكثير، وصمدوا أمامهم حتى صعب على المشركين النيل منهم، وهزيمتهم مع كثرة عددهم وعدتهم، ولذلك فإن خالدًا كان انتهز الفرصة ووضع خطة انسحاب منظمة، استطاع بها أن ينجو بالمسلمين دون خسائر الهزيمة.

ومما يذكر في روايات الأخبار: أن المسلمين كانوا يتعمّدون أمراء الجموع من الروم ومن أعوانهم حتى إذا قتل الأمير منهم فرّ أتباعه، ونذكر من هؤلاء ما يذكره ابن إسحاق أن قطبة بن قتادة العذري كان على ميمنة المسلمين، حمل على مالك بن رافلة، وهو من قبيلة إراش، وهو الذي كان على مائة ألف من نصارى العرب من لخم، وجذام، وقبائل قضاعة، وبلقين، وبهراء، وبلي، وكانوا مائة ألف فقتله، ولذلك قال قطبة مفتخرًا بذلك:

طعنت بن رافلة بن الإراش برمح ❖ مضى فيه سمًّا حطم
ضربت على جيده ضربة ❖ فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بني عمه ❖ غداة رقوقين سوق النَّعم

هذا مما يدل على أن انهزام أو قتل هذا الرجل وهو ابن رافلة، وهو أمير أعراب النصارى كان له أثره في تقهقر، وتراجع من معه؛ لأن الناس براياتهم وأمرائهم كما نعرف.

كذلك فإن خزيمة بن ثابت > يقول: حضرت مؤتة فبارزني رجل منهم فأصبته، وعليه بيضة فيها ياقوتة فلم تكن همّتي إلا الياقوتة فأخذتها، فلمّا رجعنا إلى المدينة أتيت رسول الله ﷺ بها فنفّلنيها فبعتها زمن عثمان بمائة دينار، فاشتريت بها حديقة نخل. أي: أنه قتل رجلًا ليس من عوام الناس بدليل أن بيضته أي: الخوذة التي على رأسه كانت محلاة بهذه الياقوتة.

كذلك فإن كان هناك رجل من اليمن ممن كانوا في هذه السرية ما كان معه سلاح يذكر تربص لرجل من الروم حتى هجم عليه فقتله وأخذ سلبه، وكان سلبًا كثيرًا حتى إن خالدًا استكثر عليه هذا السلب، مما يدلّ على أن هذا الرجل الرومي لم يكن رجلًا عاديًّا، وإنما كان من أمراء الناس، أو كان من كبار الروم.

وهذا مما يدلنا على أن المسلمين إنما كانوا يعمدون إلى قادة هؤلاء الأعراب والروم فيقتلونهم، ومن ثَمّ كانت تتفرق جموعهم فينتهز خالد الفرصة فينسحب بمن معه من جموع المسلمين حتى تَمّ له ذلك بفضل الله ﷻ، وكان ذلك فتحًا من الله ﷻ، ويكفي في اعتبارنا أن هذا الأمر كان فتحًا ما ذكره النبي ﷺ: ((ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه)). ومن يومها سُمّي خالد: سيف الله، كما سمّاه النبي ﷺ.

ب. حزن الرسول ﷺ على أمراء المسلمين:

وهنا نناقش أمرًا: وهو أنه ﷺ علم بمصاب المسلمين في هؤلاء الأمراء أعلمه الله ﷻ بذلك قبل أن يأتي بالخبر فَرُئِيَ الحزن في وجهه ﷺ حتى لاحظ المسلمون ذلك، وساءهم ما فيه النبي ﷺ من الحزن الذي ظهر عليه بعد أن صلى الظهر على أثر ذلك الخبر، ثم إنه ﷺ لما صلى العصر كان على ذلك الحزن، وكذلك المغرب، وكذلك العشاء.

ثم لما كانت صلاة الصبح من اليوم التالي دخل النبي ﷺ المسجد وهو يبتسم، فقال الناس بعد أن فرحوا بتبسّمه ﷺ الذي يدل على سروره يا نبي الله، بأنفسنا أنت لا يعلم إلا الله ما كان بنا من الوَجْد منذ رأينا منك الذي رأينا فقال رسول الله ﷺ: ((كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي حتى رأيتهم في الجنة إخوانًا على سرر متقابلين)).

وهنا نقول بأنه ﷺ: إنما كان حزنه لرقّة قلبه ورحمته بأمته، وإن الحزن لا ينافي الرضا والتسليم لأمر الله ﷻ؛ فلقد بكى النبي ﷺ يوم وفاة ولده إبراهيم، وقال: ((وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون)) مع أنه أعلم برضاه بأمر الله ﷻ، وتسليمه له فيما أصابه ﷺ.

عودة المسلمين من مؤتة إلى المدينة، وموقف أهل المدينة منهم

عاد خالد بالمسلمين إلى المدينة، ولكنه في طريقه ما نسي أن يؤدّب جماعة من العرب قتلوا رجلًا من المسلمين عند ذهابهم إلى الشام فغزاهم، وحاصرهم، وقتل فيهم مقتلة عظيمة؛ تأديبًا لهم على ما فعلوا بهذا الرجل وبالمسلمين، ثم عاد خالد إلى المدينة بهذا النصر العظيم الذي أيّده الله به.

وهنا نناقش أمرًا، وهو ذكره بأن المسلمين تلقّوا الذين عادوا من هذه الموقعة يحثون في وجوههم التراب، ويصفونهم بالفُرار، ولم يكن حتى ظنّ كثير من الناس ممن يقرءوا أمر هذه السرية، ظنوا بأنهم أرادوا بذلك خالدًا ومن معه؛ لأنهم عادوا منسحبين من أمام العدو، ولكنَّ الحقيقة أنه لم يكن مواجهة المسلمين في المدينة جند خالد وهم راجعون مؤيَدين بنصر الله ﷻ، وإنما كانوا يقصدون الجماعة التي فرت من أول الأمر، ولم يصمدوا مع خالد بن الوليد > ، وذلك حينما فتنوا بكثرة الروم وأتباعهم من متنصّرة العرب، فرّوا ورجعوا إلى المدينة، وظنوا أن المسلمين سوف ينسحبون لأن العدد كثير عليهم، ولمّا عادوا تلقّاهم الناس حتى الصبيان يحثون في وجوههم التراب ويسمّونهم بأنهم الفُرّار، ويقولون: يا فُرّار، حتى إن بعضهم كان يتحرّج من شهود الجماعة مع النبي ﷺ؛ خجلًا من فراره من هذا اللقاء.

النبي ﷺ يعالج الموقف:

إذًا فهذا التجبية من المسلمين، لم يكن لمن مع خالد، وإنما كان لأولئك الذين فرّوا من أوّل الأمر، ومع هذا فإنا نجد بأن النبي ﷺ يعالج هذا الأمر بكلّ حكمة

منه، مع أنه كان يكره أن يعود بعض الناس من السرية التي يبعثها، ويقول: ((بعثتكم جميعًا وتعودون فرادى))، كان يكره ذلك، ومع ذلك لأن هذه كانت تجربة صعبة على المسلمين في هذا الميدان الذي باشروا القتال فيه لأول مرة، وهو ميدان النصارى، نصارى الشام؛ فإن النبي ﷺ لما قيل لهؤلاء: يا فُرّار، فإنه ﷺ كان يقول: ((بل إنهم العكارون)) أي: الفرارون، وكما قال ﷺ: ((إنما أنا فئتكم)) أي: تلميحًا إلى قول الله ﷻ: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦].

وبهذا عالج النبي ﷺ هذا الأمر مع أولئك الذين ضعفت نفوسهم أمام هذا الجمع الكبير، والحشد الكبير من الروم وأعوانهم، على أنه ﷺ بشّر المسلمين بما نال أولئك الذين استشهدوا في هذه السرية، بما نالهم من عظيم التكريم من الله ﷻ. ولعل ذلك لأن هذا أول لقاء في هذا الميدان، ونحن دائمًا نلاحظ بأن الذين يشهدون الأحداث الهامّة في حياة الإسلام، ويكونون رادة فيها.

وأول من يباشر الأمر فيها بالجهد والجهاد، إنما تكون لهم هذه المنزلة عند الله ﷻ، ومن هؤلاء مثلًا نذكر الذين بايعوا بيعة العقبة، وكذلك أهل بدر أول لقاء حاسم مع المشركين، وكذلك الذين خرجوا في صلح الحديبية مسيرة السلام التي انتهت بأمر هذا الصلح، ومن هذا الباب أولئك الذين كانوا رادة في هذا الميدان الجديد على المسلمين على عظيم الجهد الذي بذلوه فيه، ولذلك فإن النبي ﷺ أخبر عنهم، وقال: ((ما يسرّهم أنهم عندنا))، وذلك لما نالهم من عظيم التكريم من فضل الله ﷻ عليهم.

على أنه كان من أهم النتائج التي ترتّبت على نصر الله ﷻ المسلمين في هذه السرية: أن المسلمين تعلموا دروسًا من القتال في هذا الميدان، وتعاملوا مع عدوّ جديد لم يتعاملوا معه من قبل، وكان ذلك من الأمور التي ترتّب عليها اهتمام

النبي ﷺ بهذا الميدان، وكان من مظاهر ذلك: غزوة تبوك التي كانت آخر غزواته ﷺ، والتي كانت في رجب من السنة التاسعة.

وكذلك فإنه ﷺ بعد أن حج حجة الوداع في السنة العاشرة كان شغله بعد أن عاد إلى المدينة من الحج، هو إعداد بعث أسامة الذي وجّهه إلى الشام، وكان اهتمامه ﷺ بهذا البعث عظيمًا، حتى إنه ﷺ كرّر الوصاة للمسلمين بأن يبعثوا هذا البعث، ولذلك تردّد منه ﷺ هذا القول، وهذا الأمر: ((أنفذوا بعث أسامة))، فما كان يفيق ممّا كان يغشاه من شدّة وجعه حتى يقول: ((أنفذوا بعث أسامة))، ولذلك كان آخر أعمال النبي ﷺ هو إعداد هذا البعث، وكان أول عمل عمله أبو بكر > لما تولّى أمر المسلمين بعد النبي ﷺ هو أنه أنفذ هذا البعث كوصية النبي ﷺ.

سرية عمرو بن العاص إلى قُضاعة

لم تمضِ أيام على عودة خالد ومن معه إلى المدينة حتى أعدّ النبي ﷺ سرية أخرى عليها ذلك الرجل، الذي كان إسلامه قرينًا بإسلام خالد وهو عمرو بن العاص >، وجهه على سرية إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قُضاعة التي غرّها ما حدث في مؤتة، وكانت هي الأخرى اشتركت مع الروم في تجمّعهم أمام المسلمين، ولذلك فإن النبي ﷺ بعث إليهم عمرًا لّما علم بأنهم يتجمّعون يريدون الدنوّ من المدينة؛ فتقدم عمرو في ديارها، وكان معه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وأمره النبي ﷺ أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بلي وعذرة وبلقين، وبلغ عمرو بن العاص أن قضاعة خرجت واستعدت في جموع كثيرة.

وهنا بعث يستمدّ من النبي ﷺ فأمدّه بمائتين من المهاجرين والأنصار، عليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وكان من أفراد هذه السرية المدد أبو بكر وعمر } . ولما بعث النبي ﷺ أبا عبيدة مددًا لعمرو طلب منه أن يتطاوع. وعلى الرغم أن عمرو

كان في رجال السرية أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار المهاجرين والأنصار، ونعلم تأخّر إسلام عمرو، كما نعلم أنه لم تَكَدْ تمرّ شهور على إسلامه، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أمَّره على هذه السرية؛ بل إنه صلى بالناس كلهم وبالمدد الذي جاء به أبو عبيدة، وكان أميرًا عليه، فما وسع أبا عبيدة إلا أن يسلم بطاعة عمرو لأن النبي ﷺ وصّاه بذلك.

كما أن عمرًا بعد ذلك أمر المسلمين ألا يوقدوا نارًا في ليلة كانوا يحتاجون فيها إلى النار للتدفئة، ولما شكوا ذلك للنبي ﷺ، وعرف منه ﷺ بأنه خشي أن يرى العدو نارهم فيستقلّها، فيعلم من ذلك قلّة عدد المسلمين؛ فاستحسن النبي ﷺ هذا التصرف من عمرو > .

ثمّ إن هذه السرية قامت بهذه المهمّة التي خرجت من أجلها، فتوغّل المسلمون في ديار قضاعة التي هربت، وتفرقت، وأعاد ذلك في نفوس الأعراب ومن حولهم من نواحي الشام الهيبة للمسلمين، والخوف منهم، وهكذا تمّ النصر من الله ﷻ للمسلمين في هاتين السريتين اللتين تلاحقتا في وقت قريب في هذا الميدان الجديد سرية مؤتة، وسرية ذات السلاسل كما رأينا.

فتـح مكـة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	فتح مكة، ومحاولة أبي سفيان تلافي خطأ قريش	٤٦١
العنصر الثاني :	أمر النبي ﷺ المسلمين بالاستعداد لفتح مكة، وموقف حا ـب بن أبي بلتعة، ودعوة الناس للخروج لفتح مكة، والمسير للفتح	٤٦٤
العنصر الثالث :	إسلام أبي سفيان، ورجوعه إلى قريش يخبرهم بما جاء به #	٤٦٨
العنصر الرابع :	أوامره # لخالد ومن معه مكان دخولهم مكة، والقتال عند الخندمة، دخوله # مكة من كداء، وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن قريش	٤٧٣
العنصر الخامس :	صلاة الفتح، وتأمينه # الناس كلهم إلا تسعة نفر	٤٧٨
العنصر السادس :	ثأر خزاعة، وسياسته # في تأمين عتاة المشركين	٤٨١
العنصر السابع :	خوف الأنصار من إقامته # بمكة، وأعماله بعد الفتح	٤٨٣
العنصر الثامن :	موقف الرسول ﷺ بعد فتح مكة، إسلام كعب بن زهير	٤٨٥

فتح مكة، ومحاولة أبي سفيان تلافي خطأ قريش

أ. سبب المسير إلى فتح مكة:

كان هناك عمل من أجل الأعمال وفتح هو أعظم الفتوح التي أتمها الله على المسلمين، ألا وهو فتح مكة، الذي كان في رمضان من السنة الثامنة، وكان لهذا الفتح العظيم أسباب دعت إليه؛ فإنه ﷺ بلغه نقض قريش للعهد ذلك أنهم أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على حلفائه ﷺ من خُزاعة فقد جاءت بنو بكر إلى خُزاعة وهم على ماء لهم يقال له: الوتير فبيتوهم وقتلوا منهم رجالًا كثيرين، وكان مع بني بكر رجال من قريش قاتلوا مستخفين، منهم صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ومِكْرز بن حفص، حتى إنهم ألجئوا خزاعة إلى الحرم، ومع ذلك تبعوهم، ولجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له: رافع، وكان الباعث على ذلك هو ما كان بين بني بكر وبين خزاعة من الدماء التي كانت قبل الإسلام قبل بعثة النبي ﷺ ينالون بعضهم من بعض في معارك متتابعة حتى جاء الإسلام وتشاغل الناس بشأن هذا الدين، ثم إنه لما كان صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين قريش، ووقع الشرط بأن من أحب أن يدخل في عَقْد رسول الله وعهده فله ذلك، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فله ذلك، ولذلك دخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده.

واستمرت المدة -كما عرفنا. لأنها كانت من ذي القعدة في سنة ست من الهجرة أما هذا العدوان الذي من بني بكر على خزاعة فإنه كان في شعبان من السنة

الثامنة وكان هو السبب الذي دفع النبي ﷺ إلى أن يعد العدة لفتح مكة وغزو قريش ؛ لأنهم ساعدوا حلفاءهم على قتال وقتل حلفاء النبي ﷺ وهذا مما يقع يناقض أمر ما اتفق عليه النبي ﷺ مع قريش في صلح الحديبية.

على أنه ﷺ جاءه الخبر من السماء بما فعلت قريش مع خزاعة حتى إن عائشة > أخبرت أنه في صبيحة كانت وقعة بني نفافة وخزاعة بالوتير قال لها النبي ﷺ : ((يا عائشة ، لقد حدث في خزاعة أمر)) ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشًا تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال رسول الله ﷺ : ((ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى)).

كما أنه ﷺ سمع وهو يتوضأ ويقول : ((لبيك لبيك ثلاثًا ، نُصِرتَ نُصِرت)) فلما سئل عن ذلك قال : ((هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بكر بن وائل)) ، ولم تمر ثلاثة أيام حتى جاء عمرو بن سالم الخُزاعي يناشد النبي ﷺ النصر على قريش التي أعانت عليهم بني بكر ، جاء عمرو بن سالم الخُزاعي إلى النبي ﷺ ثم وقف عليه وهو جالس في المسجد بين أصحابه فقال :

يا ربي إني ناشد محمدًا ❖ حلف أبينا وأبيه الأتلدَا
قد كنتم ولدًا وكنا والدا ❖ ثم تأسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أيدا ❖ وادع عباد الله يأتوا مددا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ❖ ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا ❖ وقتلونا ركعا وسجدا

ولذلك لما سمع النبي ﷺ هذا الشعر من عمرو قال : ((نصرت يا عمرو بن سالم)) ثم إن بديل بن ورقاء قدم في نفر من خزاعة على رسول الله ﷺ بما

أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم رجعوا إلى مكة، ولكن النبي ﷺ أمرهم أن يتفرقوا وهم راجعون في الأودية حتى لا ترى قريش جمعهم، فتعرف أنهم قدموا على النبي ﷺ ولذلك قال: ارجعوا وتفرقوا في الأودية. فرجعوا متفرقين كأمر النبي ﷺ ولزم بديل بن ورقاء في نفر من قومه جادة الطريق حتى لقيهم أبو سفيان فسأل بديل بن ورقاء: من أين أقبلت يا بديل؟ ظانًّا أنه أتى النبي ﷺ ولكنه قال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي.

ب. مجيء أبي سفيان يتلافى خطأ قريش:

ولكن أبا سفيان الذي كان قد خرج بعد أن تشاور مع قريش فيما يصنع بعد أن حدث هذا الحدث الذي لم يكن موافقًا عليه كما يبدو فخرج أبو سفيان متوجهًا إلى المدينة يطلب مد الصلح مع النبي ﷺ وتأكيده ولم يمض على الصلح إلا أقل من سنتين ومع هذا يذهب ليشد من عقد الصلح وليطلب زيادة المدة، ولعله كان يطمع كما كانت تطمع قريش أن ذلك سوف يحجز النبي ﷺ عن أن ينالهم بما يستحقون من الجزاء على ما فعلوا مع خزاعة.

على أية حال، فإن أبا سفيان وصل إلى المدينة كما أخبر النبي ﷺ من قبل هذا حينما قال لأصحابه: ((كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد المدة)) فلم تمضِ إلا أيام قلائل حتى جاء أبو سفيان يطلب الذي أخبر به النبي ﷺ ودخل أبو سفيان على النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم النبي ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه في ذلك الأمر فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ! فوالله لو لم أجد إلا

الذر لجاهدتكم به، ثم دخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة والحسن غلام يدب بين يديهما فطلب من علي أن يشفع له عند النبي ﷺ بعد أن قال له: إنك أمس القوم بي رحمًا، فلا أرجعنك ما جئت خائبًا، ولم يجد عند علي ولا عند فاطمة حتى ولا عند الحسن بن علي ما جاء يطلب من الشفاعة لهذا الأمر الذي وقعوا فيه، ثم إنه خرج بعد ذلك عائدًا إلى مكة آخذًا بنصح عليٍّ له بأن يجير بين الناس، وأن يلحق بأرضه وأن هذه المشورة كانت غاية ما يمكن أن يقدمه عليٌّ إلى أبي سفيان، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق عائدًا إلى مكة.

أمر النبي ﷺ المسلمين بالاستعداد لفتح مكة، وموقف حاطب بن أبي بلتعة، ودعوة الناس للخروج لفتح مكة، والمسير للفتح

أ. أمره ﷺ بالاستعداد لفتح مكة، والنداء في القبائل للمسير للفتح:

وبعد ذلك أمر النبي ﷺ الناس بالجهاز والاستعداد للمسير إلى مكة وأمر أهله أن يجهزوه ودخل أبو بكر على ابنته عائشة > وهي تقوم في بعض جهاز النبي ﷺ فقال: أي بنية، أمركن رسول الله ﷺ بتجهيزه؟ قالت: نعم فتجهز أبو بكر ثم قال لعائشة: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري، ثم إنه ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتجهيز لذلك وقال ﷺ: ((اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها))، فتجهز الناس لهذا الأمر، وكان من حلمه ورحمته ﷺ أن يبغت قريشًا في مكة وفي دارها حتى تكون على غير عدة فلا يكون قتال ويكون التسليم.

ب. موقفه ﷺ من حاطب لما بعث يحذر قريش:

وعلى الرغم مما عرف المسلمون من أنه ﷺ كان يحب كتمان الأمر في أي وجهة كان يتوجه إليها أو يوجه إليها فإن رجلًا من كبار الصحابة شهد بدرًا هو حاطب بن أبي بلتعة قام بأمر يناقض هذا، فلقد بعث إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطى هذا الكتاب امرأة، وجعل لها جعلًا على أن تبلغه إلى قريش فخرجت المرأة بعد أن أخذت الكتاب وخبأته في ضفائرها، وعلم النبي ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليًّا والزبير ليأتي بكتاب حاطب من هذه المرأة، وقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش، فخرج علي والزبير حتى وجدا المرأة بذلك المكان الذي حدده النبي ﷺ فاستنزلاها وقالا لها: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئًا فقال لها عليٌّ: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلم رأت الجد منهما قالت: أعرضا، فأعرضا عنها فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها، ثم دفعته إليهما فأتيا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: "من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش؛ يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ"، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: ما هذا يا حاطب؟ فقال حاطب: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ولا بدلت ولكني كنت امرأً ملصقًا في قريش -أي ليس منهم- لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد وليس فيهم قرابة وكان من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه خان الله ورسوله وقد نافق، فقال النبي ﷺ: ((إنه شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)).

ج. دعوة الناس للخروج لفتح مكة، والمسير للفتح:

فها قد أذن الله ﷻ لرسوله بفتح البلد الحرام والمسير إليه، بعد أن نقضت قريش عهود الصلح "صلح الحديبية" الذي خالفته بإعانتها بني بكر حلفاءها على خزاعة حلفاء النبي ﷺ.

ولما عزم رسول الله ﷺ على المسير فإنه دعا من حول المدينة من الأعراب وبعث المنادين يحثهم على الخروج مع رسول الله ﷺ وكان النداء لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسلًا في كل ناحية حتى قدم إلى المدينة خلائق كثيرة من المسلمين.

وقد خرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون من رمضان، ونادى مناديه: من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر، وصام رسول الله ﷺ.

وخرج ﷺ في المهاجرين، والأنصار، وطوائف العرب، وقادوا الخيل، وامتطوا الإبل، وقدّم رسول الله ﷺ أمامه الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين، ولما بلغ ﷺ البيداء قال: ((إني لأرى السحاب يستهل بنصر بني كعب)).

ثم إنه ﷺ لما بلغ الكديد بين عسفان وأمج عزم على أن يقدم الأسوة للمسلمين في أن يفطروا، لأن الصيام شق عليهم، فاستوى على راحلته ﷺ ثم دعا بإناء من لبن أو ماء فشربه، حتى يراه الناس وهو يفطر، وناول الإناء رجلًا كان إلى جانبه فشرب كما شرب النبي ﷺ وذلك حتى يكون في الفطر عونٌ للناس على المسير.

ثم مضى ﷺ حتى نزل مر الظهران، ومعه عشرة آلاف من المسلمين.

وعمى الله الأخبار عن قريش الذين كانوا على وجل وترقب، وكان أبو سفيان الذي تحمل مشاق التبعات في قيادة أمر قريش ومكة، كان يخرج يتحسس الأخبار، فخرج هو وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وكان العباس > قد خرج من قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، وقيل: بعد ذلك.

وكان ممن لقيه كذلك في الطريق: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه، وكذلك: عبد الله بن أبي أمية، لقياه ﷺ بالأبواء، فأعرض ﷺ عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، حتى قالت له أم سلمة { : "لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك"، وقال عليٌّ لأبي سفيان ينصحه حتى ينال عفو النبي ﷺ فقال له: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له كما قال أخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنه ﷺ لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ لما تلا عليه هذه الآية يستعطفه بها: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فأنشده أبو سفيان أبياتًا منها:

لعمرك إني حين أحمل راية ❖ لتغلب خيل اللاتي خيل محمد

لك المدلج الحيران أظلم ليله ❖ فهذا أواني حين أهدى فأهتدي

هداني هادٍ غير نفسي ودلني ❖ على الله من طردت كل مطرد

فضرب النبي ﷺ في صدره وقال: ((أنت طردتني كل مطرد))، فأسلم أبو سفيان بعد أن كان من أشد الناس على النبي ﷺ في مكة، أسلم وحسن إسلامه بعد ذلك، كان يقول: "بأنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه"

وكان رسول الله ﷺ يحبه وقد شهد له بالجنة، وقال: ((أرجو أن يكون خلفًا من حمزة)).

ثم إنه ﷺ كان قد نزل مر الظهران عشاءً فأمر الجيش فأوقد النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار.

وجعل رسول الله ﷺ على الحرس كله عمر بن الخطاب > .

إسلام أبي سفيان، ورجوعه إلى قريش يخبرهم بما جاء به

وكان العباس مشفقًا على قريش، وعلى ما سوف ينالها على يد رسول الله ﷺ والمسلمين معه، فحرص على أن يبلغ قريش بهذا الأمر الخطير والخطر المحدق بهم والذي أصبح وشيكًا، فخرج يبحث لعله أن يجد بعض الحطابة، أو أحدًا يخبر قريش ليخرجوا فيستأمنوا رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة عليهم عنوة، ثم إنه ركب بغلة رسول الله ﷺ وخرج لعله يجد من يرسله.

فإذا به يسمع كلام رجل عرف أنه أبو سفيان، وكان قد خرج مع بُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيران قط ولا عسكرًا، فقال له بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فعرف العباس صوت أبي سفيان فناداه، فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل فأجابه العباس، وأخبره الخبر بمجيء رسول الله ﷺ وأن هذا عسكر المسلمين، وهذه نيرانهم التي أوقدوها، وقال له: وا صباح قريش والله، فاستشاره أبو سفيان ماذا يفعل؟ فقال له: والله لئن ظفر بك رسول الله ﷺ ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك

رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب أبو سفيان خلف العباس، ورجع بُديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، وجاء أبو سفيان وحده للقاء النبي ﷺ.

ومضى به العباس داخل المعسكر، وكلما مر على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وعمه العباس عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ حتى مر العباس بنار كانت لعمر بن الخطاب > فلما عرف عمر من رديف العباس، وعرف أنه أبو سفيان، قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ يخبره بأمر أبي سفيان، فأسرع العباس فسبقه، ودخل على رسول الله ﷺ وكل هذا حرص من العباس على حياة أبي سفيان، وحياة قريش وأهل مكة كلهم، ودخل عمر بعد العباس، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته.

ثم جلس العباس إلى رسول الله ﷺ يناجيه، فأخذ برأسه وقال: والله لا يناجيه أحدٌ الليلة دوني، وأكثر عمر القول في شأن أبي سفيان، فقال له العباس: مهلًا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي ما قلت مثل هذا! يريد أن يستثير عمر، ولكن عمر قال: مهلًا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ وقد حسم الأمر: ((اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به)).

فذهب به العباس فلما أصبح غدا به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: ((ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله))، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك!! لقد ظننت أنه لو كان مع

الله إلها غيره لقد أغنى عني شيئًا، قال: ((ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟)) قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! أما هذه فإن ففي النفس حتى الآن منها شيئًا، فقال له العباس: ويحك! أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم، وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: ((نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن)).

ثم إن رسول الله ﷺ أراد أن يرى أبو سفيان عظمة أمر الجيش، وعدته، وعدده، فأمر العباس عمه أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، وهو مضيق، حتى يتمكن أبو سفيان من رؤية الجيش وهو يمر في هذا المضيق، وما دام سيمر عند خطم الجبل فإنه سيستغرق وقتًا طويلًا حتى يكون في ذلك إرهابٌ لأبي سفيان، لأنه يمكن أن يذهب إلى أهل مكة فيعلمهم بالخبر كله، فإن عينه التي تنظر إلى هذا الجيش، إنما ينظر بها لقريش ولصالحهم ولطلب الأمان لهم.

وكان كلما تمر به جماعة من جنود الله فيراها، فيسأل العباس > عن القبائل قبيلة من بعد قبيلة، فيقول: يا عباس من هذه؟ فيقول العباس: سليم، فيقول أبو سفيان: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيسأل العباس: من هؤلاء؟ فيقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى مرت القبائل كلها، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أجابه عنها، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، أي: التي تلبس الحديد، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس! من هؤلاء؟ فقال له:

هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، ثم قال مخاطبًا العباس: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا، قال العباس مجيبًا له: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن، ثم قال له: النجاء النجاء إلى قومك.

فخرج أبو سفيان يقصد مكة ليعلم قريشًا بهذا الأمر، وهاهو قد دخل مسلمًا، هذا الرجل شيخ مكة، أعطى قياده، أسلم لله، وأسلم لرسول الله ﷺ وذهب بعد أن رأى ما رأى ليبلغ أهل مكة ليأخذوا حذرهم، ويعلمهم بأنهم لا طاقة لهم بمحمد ﷺ وجنود الإسلام معه.

ولقد كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة -أي: الكعبة- اليوم أذل الله قريشًا، فلما حاز رسول الله ﷺ أبا سفيان شكا له مقالة سعد، وقال: يا رسول الله أمرت بقتل قومك! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة، فقال ﷺ: ((وما قال؟)) فأخبر الرسول ﷺ بمقالة سعد، فقال رسول الله ﷺ: ((كذب سعد يا أبا سفيان؛ اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، واليوم تكسى فيه الكعبة، واليوم يوم أعز الله فيه قريشًا)).

ثم إنه كان قد سمع هذا الكلام كذلك من سعد بن عبادة عثمانُ بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف } فقالا لرسول الله ﷺ: ما نأمن أن تكون له في قريش صولة، فطمأنهما رسول الله ﷺ ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى بذلك أن اللواء لم يخرج عن سعد، إذ صار إلى ابنه، حتى لا يكون لذلك أثر صدر سعد.

ويقال: بأنه دفعها إلى الزبير، ولكن يجمع الرواة بين هذا كله: بأن النبي ﷺ بعث عليًّا فأخذ الراية من سعد، وأعطاها لابنه قيس، ثم إن سعدًا خشي وخاف أن يصدر من ابنه أمرًا لا يحبه رسول الله ﷺ فاعتذر عن أن تكون الراية مع ابنه فدفعها النبي ﷺ إلى الزبير بن العوام }.

ولقد لقي النبي ﷺ امرأة أنشدته شعرًا فيما علم من كلام سعد، فقالت:

يا نبي الهدى إليك لجا حيُّ ❖ قريش ولات تحين لجائي
حين ضاقت عليهم سعة الأرض ❖ وعداهم إله السماء
إن سعدًا يريد قاصمة الظهر ❖ بأهل الحجون والبطحاء

وهذا الشعر صاغه ضرار بن الخطاب، وجعل هذه المرأة تنشد رسول الله ﷺ حتى يكون في كلامها ونطقها وحتى يكون في إلقائها هذا الشعر على رسول الله ﷺ مستميلًا لرحمته، واستجداءً لأمنه ﷺ.

وكان أبو سفيان قد جاء قريشًا فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبا سفيان فهو آمن، فانبرت له زوجه هند بنت عتبة فقالت: اقتلوا هذا الحميت الدسم، تريد أن تثير أبا سفيان استعظامًا لهذا القول الذي سمعته منه، ثم قالت له: قُبح من طليعة قوم، فقال لهم: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه والله قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: وما تغني عنا دارك، فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ثم قال بعد ذلك: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

وهكذا كان تيسير الأمان منه ﷺ لأهل مكة، الذين فعلوا به ما فعلوا، وكان أمرهم معه ما علمنا، يريد أن يُبقي عليهم ﷺ.

أوامره ﷺ لخالد ومن معه مكان دخولهم مكة، والقتال عند الخندمة، دخوله مكة من كداء، وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن قريش

وكان النبي ﷺ قد أمر خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها، وكان على المجنبة اليمنى وفيها: أسلم، وسليم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقبائل من العرب.

أما أبو عبيدة فقد كان على الرجالة والحسر، أي: الذين ليس لهم خيل ولا دروع.

وقال النبي ﷺ لخالد ومن معه: ((إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم، حتى توافوني عند الصفا)) وكان أمره ﷺ لهم كذلك: ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واضطرهم لقتالٍ.

وكان بعض رجال مكة ممن أبوا أن يسلموا لأمر طلب الأمان، وعزموا على قتال النبي ﷺ والمسلمين، وهذا كان دربًا من السفه؛ لأن هذا الجمع العظيم لا يمكن أن يقاوم أبدًا.

ومع هذا فقد أجمع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وجماعة من أهل مكة الذين غرروا بأناس كثيرين، فاجتمعوا عند الخندمة وهو جبل بأسفل مكة ليتصدوا للمسلمين، حتى إن رجلًا منهم هو حماس بن قيس من بني بكر كان يعد سلاحًا قبل دخول رسول الله ﷺ ولما سألته امرأته عن ذلك قال: أعده لمحمد وأصحابه، فقالت له: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، إفراط في الوهم والغرور ويقول:

إن يقبلوا اليوم فما لي عله ❖ وذو غرارين سريع السله
هذا سلاح كامل وأله ❖ ... ...

الأله: حربة طويلة السنان.   السله: سيف ذو حدين.

وشهد مع صفوان وغيره، ثم إنه خرج إلى الخندمة مع صفوف المعاندين، فلما لقيتهم جموع المسلمين ناوشوهم شيئًا هينًا من القتال، ولكن خالدًا بعزمه وشدة بأسه فرَّقهم، وقتل منهم من قتل.

وفر هذا الرجل مع من فر من جموع من تصدى لخالد، ثم عاد سريعًا إلى بيته يطلب من امرأته أن تغلق الباب، فلما سألته: وأين ما كنت تقول؟ -تبكته- فقال لها:

إنكِ لو شهدت يوم الخندمة ❖ إذ فر صفوان وفر عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة ❖ يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضربًا فلا نسمع إلا غمغمة ❖ لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

هذا من ناحية الجنوب من أسفل مكة.

دخوله ﷺ مكة من كداء، وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن قريش:

أما رسول الله ﷺ فإنه دخل من كداء، مستبشرًا بشعر حسَّان بن ثابت < الذي قاله في عمرة الحديبية، وكان مما جاء فيه:

عدمنا خيلنا إن لم تروْها ❖ تثير النقع موعدها كداء
ينازعنا الأعنة مصعداتٍ ❖ على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطراتٍ ❖ تلطمهن بالخمر النساء

أي: الحراب.

ولذلك فإن النبي ﷺ لما ذكر هذا الشعر، وسأل أبا بكر عنه فرواه له فقال: ((ادخلوا من حيث قال حسان، وهو يبتسم)).

وكان مما حدث في ذلك اليوم وفي هذا الدخول: أن النساء تلقت خيل رسول الله ﷺ وهن يضربن بخمرهن وجوه الخيل، يزلن ما علق بوجوه الخيل من التراب والغبار، فلك أن حسان كان ملهمًا حينما قال ذلك الشعر، وحق له أن يقول عنه النبي ﷺ: ((أن روح القدس يؤيده فيما يقوله من الشعر)).

ودخل رسول الله ﷺ مكة، مؤيدًا بنصر الله ﷻ، دخل ﷺ في كتيبته وقد جمعت قريش أوباشها، وهم الأخلاط الذين غررت بهم، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا من الطاعة، ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما رأى هؤلاء الذين جمعتهم قريش نادى أبا هريرة، وأمره أن يدعو الأنصار للنبي ﷺ وقال: ((لا يأتيني إلا أنصاري)) فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وأطافوا به فقال لهم: ((أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى: احصدوهم حصدًا حتى توافوني بالصفا)) فانطلق الأنصار مستجيبين لأمر رسول الله ﷺ فما يشاء واحد منهم أن ينال من هؤلاء أحدًا إلا قتله، وما تمكن واحدٌ من هؤلاء أن يقوم بأمرٍ أمام المسلمين.

ثم ركزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح.

وفي هذا الموقف المهيب وذلك اليوم العظيم دخل رسول الله ﷺ ظافرًا منتصرًا بأمر الله ﷻ ولكنه كان يبدي الخشوع لله ﷻ حتى لتذكر الروايات: بأنه دخل مطأطئًا رأسه عليه عمامة سوداء، وإن لحيته لتمس واسطة رحله ﷺ وتقرب منها تواضعًا لله ﷻ حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى وكثرة المسلمين.

وكان ﷺ وهو داخلٌ مكة يقرأ سورة الفتح، وسورة النصر، ويرجع الآيات فيهما ترجيعًا ﷺ.

ثم إنه ﷺ نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ((جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق، وما يبدئ الباطل وما يعيد)) ويفعل هذا ﷺ والأصنام تتساقط على وجوهها.

وها هي الأصنام التي رفعت بيد شيخ خزاعة الذي جاء فبدل ملة إبراهيم ﷺ وأقام هذه البدعة الضالة المضلة في مكة وحول الكعبة، وجاءت قريش من بعده لتسير على هذا الأمر، ولم ترضَ أن تدخل الإسلام؛ لأنها رأت أن العرب قد استشرى فيهم داء الوثنية، فلم ترضَ أن ترجع عنه حتى وإن كان إلى الهدى.

وها هو رسول الله ﷺ ابن إبراهيم وإسماعيل ﷺ يأتي فيزيل هذا الخبث الذي دخل مكة، وأقيم حول الكعبة، وخرج منها إلى باقي الجزيرة عند العرب.

ثم إنه ﷺ كان يطوف على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذ، ولذلك فإنه ﷺ اقتصر على الطواف فلم يكمله، ودخوله ﷺ على غير إحرامٍ؛ لأن مكة أحلت له كما قال ﷺ: ((ساعة من النهار)) يوم الفتح.

ثم إنه ﷺ لما أكمل طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- يستقسمان بالأزلام فقال: ((قاتلهم الله، والله إنِ استقسما بها قط)) أي: ما استقسما بها قط، ورأى في الكعبة أشياء من علامات الوثنية فكسرها بيده ﷺ ثم أمر ﷺ بالصور فمحيت.

ثم إنه ﷺ أغلق عليه باب الكعبة، وكان معه أسامة وبلال فاستقبل ﷺ الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك،

ثم دار في البيت وكبَّر في نواحيه، ووحَّد الله ﷻ ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع بهم ﷺ؟

فأخذ بعضادتي الباب، وقريش تحته، فقال: ((لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ثم قال: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها، وتعظمها بالآباء، الناس لآدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال موجهًا كلامه إلى قريش: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيرًا أخٌ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)).

ثم إنه ﷺ جلس في المسجد، فقام إليه عليٌّ بن أبي طالب يطلب مفتاح الكعبة؛ أن يكون لبني هاشم، وقال له: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك وسلم، وكان هذا الأمر طلبه العباس كذلك، ولكن رسول الله ﷺ نادى وقال: ((أين عثمان بن طلحة؟ فدُعي له، فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء))، وذكر النبي ﷺ عثمان بن طلحة بموقفٍ كان قبل هجرته ﷺ وذلك حين أراد أن يدخل الكعبة، وكانت تفتح يوم الاثنين والخميس كما يقول عثمان بن طلحة، فلما أقبل رسول الله ﷺ يريد أن يدخلها مع الناس- أغلظ له عثمان، ونال منه، فحلم ﷺ عنه، ثم قال له: ((يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت))، فقال عثمان: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال ﷺ: ((بل عمرت قريش وعزت يومئذ)).

ثم دخل الكعبة ﷺ يومها، ولكن وقعت هذه الكلمة من نفس عثمان موقعًا، وظن يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال النبي ﷺ فلما كان يوم الفتح قال: ((يا عثمان، ائتني بالمفتاح، فآتاه فأخذه ﷺ منه، ثم دفعه إليه وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف)).

يقول عثمان: فلما وليت ناداني فرجعت، فقال: ((ألم يكن الذي قلت لك يا عثمان يومئذ؟)) قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

ثم إنه ﷺ أمر بلالًا أن يصعد فيؤذن فوق الكعبة، وأبو سفيان، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام، وجمع من سادات مكة جلوسٌ بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدًا -يعني أباه- ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حقٌّ لاتبعته، وكان أبو سفيان معهم، فقال: أما والله لا أقول شيئًا لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء، وهنا خرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: ((قد علمتم الذي قلتم، ثم ذكر لكل واحدًا منهم ما قال، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك)).

صلاة الفتح، وتأمينه # الناس كلهم إلا تسعة نفر

ثم إنه ﷺ دخل دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل، وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان الوقت ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما كانت هذه صلاة الفتح.

ولذلك كان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنًا أو بلدًا صلوا عقب الفتح هذه الصلاة "صلاة الفتح" اقتداء برسول الله ﷺ وهذا مما يدل على أن صلاته ﷺ كانت بسبب الفتح شكرًا لله ﷻ على هذا النصر العظيم.

ولما استقر أمر الفتح، أمن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، فإنه ﷺ أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة هم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

وقد كان من أمر هؤلاء ما يحتم قتلهم، فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، وكان يكتب الوحي للنبي ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح استجار بعثمان بن عفان، فجاء به رسول الله ﷺ ليبايعه، ولكنه ﷺ أمسك طويلًا عنه ثم بايعه، وقال: ((إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه)) فقال له رجل: هلا أومأت إليّ يا رسول الله، فقال ﷺ: ((ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين)) وهكذا أراد الله ﷻ بنجاة هذا الرجل الذي سوف يكون له في الإسلام وفي الفتوحات أمر عظيم بعد ذلك، فإنه كان قائد المسلمين في وقعة ذات الصواري التي أنزلت الهزيمة الكبرى بأسطول الروم سنة أربع وثلاثين للهجرة.

ولقد كان ﷺ مجلًّا لعثمان حييًّا منه، ولذلك لم يرد له هذا الرجاء.

وغير عبد الله بن سعد بن سرح، كان مقيس بن صبابة أخو هشام بن صبابة، الذي قتله أحد الأنصار خطأ في غزوة بني المصطلق، فجاء هذا الرجل وأعلن إسلامه وطلب دية أخيه، فأعطاه النبي ﷺ هذه الدية، ولكنه تربص بقاتل أخيه فقتله، ثم ارتد وعاد إلى مكة مرتدًا، وقال شعرًا يصر فيه على الكفر، ويفتخر بأنه قتل قاتل أخيه، وقال فيه:

شفى النفس وأن قد بات بالقاع مسندًا ❖ تضرج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله ❖ تلم فتحميني وطاء المضاجع
حللت به وتري وأدركت ثُؤرتي ❖ وكنت إلى الأوثان أول راجع

فهو مرتد وقاتل، جمع بين السوأتين، ولذلك فإنه ﷺ أمر بقتله، وإن تعلق بأستار الكعبة.

أما ابن خطل فإنه كذلك كان قد أسلم، وهاجر إلى المدينة، فسماه ﷺ عبد الله بعد أن كان اسمه عبد العزى، واستعمله ساعيًا، وأخدمه رجلًا من خزاعة، ولكن هذا الرجل أبطأ عليه يومًا فنام عن إعداد الطعام له فضربه ضربًا أفضى إلى قتله، ثم ارتد عن الإسلام وعاد إلى مكة، وكان يقول الشعر يهجو به النبي ﷺ وكانت له قينتان تغنيان بهجوه ﷺ كما أنه لما عزم رسول الله ﷺ على دخول مكة كان فيمن تصدى لهذا الدخول معاندًا، ولكنه بعد أن لبس عدة الحرب فرَّ أمام المسلمين، واستتر بأستار الكعبة، فلما أمسكوا به جيء به فقتل بين زمزم ومقام إبراهيم ﷺ.

أما هبار بن الأسود: فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ بعد خروجها من مكة بعد بدر، ونخس راحلتها حتى سقطت > على صخرة فأسقطت جنينها، وظل وجعها بها حتى مرضت وماتت، ففر لما دخل النبي ﷺ مكة، ثم استؤمن له وأسلم وحسن إسلامه.

كذلك استؤمن رسول الله ﷺ لسارة، ولإحدى القينتين، فأمنهما ﷺ فأسلمتا.

كذلك فإنه ﷺ قبل جوار بنت عمه أم هانئ لما أجارت رجلين من أحمائها هما:

الحارث بن هشام بن المغيرة، شقيق أبي جهل الذي أسلم وحسن إسلامه واستشهد في خلافة عمر > .

أما الثاني: فهو زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وقيل: إنه عبد الله بن أبي ربيعة.

ثأر خزاعة، وسياسته # في تأمين عتاة المشركين

وهنا أمور يجب أن نناقشها وهي:

أنه ﷺ أذن لخزاعة أن تأخذ بثأرها من بني بكر، فأحل لهم ذلك حتى عصر ذلك اليوم، ثم أمر بالكف عن القتل والقتال، ولما بلغه ﷺ أن خزاعة قتلت رجلا من بني بكر بمزدلفة في اليوم الثاني غضب لذلك وودى ذلك الرجل، وقال: ((إنه من قتل بعد ذلك قتيلًا فيترك الأمر لأولياء دمه، إن شاءوا قبلوا الدية، وإن شاءوا كان لهم القصاص)) فكفت خذاعة لذلك.

هذا، وإن أعمال هذا اليوم العظيم لكثيرة تدل على المعجزات التي كانت له ﷺ من إخباره بالغيب، وإطلاع الله له على كل من قال كلمة، أو همَّ بفعل.

فلقد رأينا ما تحدث به: عتاب بن أسيد، والحارث بن هشام، وأبو سفيان.

كذلك فإن فضالة بن عمير بن الملوح همّ بما يمنع الله نبيه ﷺ منه، حيث إنه حاول أن يقتله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: ((أفضالة؟)) قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: ((ماذا كنت تحدث به نفسك؟)) قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: ((استغفر الله))، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه ﷺ.

على أن أمرًا تعلق يومئذ بصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، فقد فرا من مكة خوفًا منه ﷺ لكفرهما، ولوقوفهما مع الذين تصدوا للمسلمين عند

الخندمة، فلما فر صفوان استأمن له عمير بن وهب النبي ﷺ فأمنه ﷺ فخرج عمير بن وهب حيث لحقه بجدة وهو يريد أن يركب البحر فارًّا منه ﷺ فرجع به بعد أن قال: اجعلني بالخيار في هذا الأمر شهرين، فقال النبي ﷺ: ((له أربعة أشهر ﷺ))، كل ذلك استمالة لأمثال هؤلاء.

كذلك فإن عكرمة بن أبي جهل، لما فر كذلك وأراد أن يلحق باليمن استأمنت له النبي ﷺ زوجه أم حكيم بنت الحارث، وكانت قد أسلمت فتبعته، وبلغته بأمان رسول الله ﷺ إياه، فعاد إلى مكة مسلمًا وحسن إسلامه، وكان من قادة المسلمين بعد ذلك.

كذلك أسلم عتبة ومعتب ولدا أبي لهب عم رسول الله ﷺ سأل عنهما النبي ﷺ عمه العباس فجاء بهما إليه ﷺ فأسلما، وبايعا وحسن إسلامهما.

هكذا نرى رحمته ﷺ بذوي قرباه، وأولئك الذين آذوه أشد الأذى، وكان هذا من فضل الله على هؤلاء الذين دخلوا هذا الدين العظيم في هذا اليوم المبارك يوم الفتح العظيم.

هذا، وقد جاء أبو بكر > بأبيه أبي قحافة، بعد أن دخل النبي ﷺ المسجد، جاء يقود أباه كأن رأسه ثغامة من البياض، فقال ﷺ: ((هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه)) فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشي إليه، فأجلسه ﷺ ثم مسح صدره، فأسلم أبو قحافة، وهنا هنَّأ النبي ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه.

خوف الأنصار من إقامته # بمكة، وأعماله بعد الفتح

ولما فتح الله مكة على رسول الله ﷺ وهي بلده الحبيب إلى قلبه ووطنه، قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها؟ وكان النبي ﷺ يدعو ربه على الصفا، فلما فرغ من دعائه قال: ((ماذا قلتم؟)) قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ((معاذ الله، المحيى محياكم، والممات مماتكم))، وهنا وفَّى لهم ﷺ بما وعدهم به ليلة العقبة، لما قالوا: أرأيت إن أظهرك الله على الناس أن ترجع إلى قومك؟ قال يومها: ((بل المحيى محياكم والممات مماتكم)) ﷺ وهو أبر من وفَّى ﷺ.

وكان من أعماله ﷺ بعد الفتح:

هو أنه جدد أنصاب الحرم، وهي الأحجار التي تحدد حدود الحِل والحَرم، وكان أول من حددها وأقامها إبراهيم ﷺ علمه جبريل أماكنها ودله عليها فوضعها في أماكنها، ثم جددها قُصي جد النبي ﷺ حتى كان يوم الفتح فجدد ﷺ أنصاب الحرم، وبعث لهذا تميم بن أسد الخزاعي فقام بهذا العمل.

ثم إنه ﷺ بث السرايا لتحطيم الأوثان من حول مكة، وكانت قد كسرت من حول الكعبة من قبل، وأمر ﷺ مناديًا ينادي بمكة: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره)) وهكذا كان شأن الأوثان آخر الأمر بعد أن أقامها عمرو بن لحي الخزاعي في مكة وعند الكعبة، وبثها في رجاء الجزيرة من مكة.

كما أنه ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان ليهدمها، فخرج إليها في ثلاثين فارسًا حتى انتهوا إليها فهدمها، ثم رجع يخبر النبي ﷺ بذلك.

كذلك فإنه ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى سواع وهو صنم لهزيل ليهدمه، فانتهى إليه وعنده سادنه فلما عرف السادن بما جاء له عمرو، قال له: إنك لا تقدر على ذلك، وإنك تمنع من هذا، فقال له: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك! فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا منه فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ وكان يظن أنه سيحدث لهم أمر يصيبهم قال: أسلمت لله.

كما أنه ﷺ بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت بالمشلل عند قُديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فخرج سعد في عشرين فارسًا حتى انتهى إليها وعندها سادنها، فقال لما عرف بأمر سعد قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها فهدمها، ولم يجدوا في خزانته شيئًا، ويبدو أن سدنة هذه الأصنام أخذوا ما كان في خزائنها مما يهبه لها الناس من الأموال وغير ذلك.

ولقد كان من أثر هذا الفتح العظيم وإسلام قريش أن بادرت القبائل إلى الإسلام؛ لأن فتح مكة، وإسلام قريش زعيمة الوثنية والقائمة على أمرها كان باعثًا للعرب أن يدخلوا في الإسلام، لأنهم ما عرفوا الوثنية إلا من مكة التي خرجت منها، كما عرفنا من أيام خزاعة، وقامت على أمرها قريش من بعد ذلك، بل أصرت ولم تقبل الإسلام حتى لا تخالف دين العرب الذين دانوا لها بهذا الأمر.

ويحكي عمرو بن سلمة عن أبي قلابة أن العرب كانت تَلَوَّم -أي: تنتظر وتتربص- بإسلامها، فيقولون عن النبي ﷺ: اتركوه وقومه؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادرت كل قبيلة بإسلامها، وكان هذا من فضل الله ﷻ على العرب وعلى الإسلام والمسلمين.

ثم إنه ﷺ أمر بالنزول في خيف بني كنانة، واختاره؛ لأنه كان المكان الذي تقاسمت فيه قريش على صحيفة المقاطعة الباغية الظالمة، وكانت وُجَاه شِعب أبي طالب؛ حيث حاصرت قريش كل من أيد هذه الدعوة بإسلامه، أو آزار النبي ﷺ من قومه حتى وإن كان على الكفر.

موقف الرسول ﷺ بعد فتح مكة، إسلام كعب بن زهير

١- موقف الرسول ﷺ بعد فتح مكة:

تكلمنا فيما سبق عن عطاء رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم، والذين كانوا وشيكي عهد بإسلام، وقد بيَّن ﷺ أن عطاءه الكثير إنما كان لمناسبة هذا الأمر، وأنه ﷺ ترك أناسًا لم يعطهم لثقته في إيمانهم بالله ﷻ.

ولقد كان للأنصار -وهم الذين كان جهادهم عظيمًا وبلاؤهم كبيرًا في هذا الدين العظيم- موقفًا من هذا العطاء الذين لم ينلهم شيء منه، ولقد ذكر أبو سعيد الخدري > مبينًا هذا الموقف، فقال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء- وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة -أي: الكلام- حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، ثم إن سعد بن عبادة دخل عليه

وقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، فقال النبي ﷺ لسعد: ((فأين أنت من ذلك يا سعد؟)) قال: يا رسول الله، ما أنا إلا رجلًا من قومي. فقال ﷺ: ((فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)).

فخرج سعد فجمع الأنصار، وجاء رجال من المهاجرين، فدخلوا معهم، ثم جاء آخرون فردهم -وذلك لحكمة أرادها النبي ﷺ في إذنه لمن دخل من المهاجرين، ورده غيرهم- فلما اجتمعوا جاء النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: ((يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، واجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم)) قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ((ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟)) قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ -اعترافًا منه ﷺ بدورهم-: ((أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدقتم، آتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا)) واللعاعة هي الأمر اليسير((تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ثم دعا لهم ولأبنائهم، فقال: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)).

فأثَّرت هذه الكلمات الصادقة في نفوسهم، وفي قلوبهم الرقيقة فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا، ثم انصرفوا وتفرقوا.

وهكذا تم الأمر فيما تعلق بغزوة حنين والطائف، وما تم من قسم الفيء على النحو الذي رأينا ورضي كل أناس، حتى من لم ينل شيئًا من هذا العطاء، ثم إنه ﷺ - بعد هذا كله - خرج في عمرة من الجعرانة، وأمر ببقايا الفيء فحبس بمجنة.

ثم إنه لما فرغ ﷺ من هذه العمرة انصرف راجعًا إلى المدينة، بعد أن استخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن، وكان اختياره ﷺ لمعاذ اختيارًا صائبًا، حتى يفقه أهل مكة وهو الفقيه ويعلمهم.

وهكذا رد الله على أهل مكة ذلك الفضل الذي قام به رجل منهم يعلم الأنصار ويفقههم في الدين -أول الأمر- وهو مصعب بن عمير > في إسلام أهل المدينة وتعليمهم الدين والقرآن، ثم هذا رجل من أهل المدينة يأتي ليعلم أهل مكة الدين والقرآن، وكان قدوم النبي ﷺ إلى المدينة بعد هذا الجهاد كله في بقية ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة، وإن كان ابن هشام يحدد هذا الرجوع بأنه كان لستٍّ ليالٍ بقين من ذي القعدة.

ولما دخل موسم الحج كان من حكمته ﷺ أن يدع العرب يحجون على ما كان عليه أمرهم، ولذلك حج بالناس عتاب بن أسيد، وحج العرب على ما كان عليه أمرهم من قبل.

ولقد أقام أهل الطائف على شركهم حتى جاء وفدهم معلنًا إسلامه في رمضان من السنة التاسعة للهجرة، على أنه سبق ذلك إسلام رجل كان له شأنه في الطائف، وهو عروة بن مسعود الثقفي > ، فلقد لحق بالنبي ﷺ بعد أن قذف الله نور الإسلام في قلبه، فتبعه ﷺ حينما وصل إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه واستأذنه ﷺ في أن يرجع إلى الطائف ليدعو أهلها، ولكن النبي ﷺ قال له:

((إني أخاف أهل الطائف عليكم أن يقتلوك)) ولكنه في ثقة بالله عاد، ودعا قومه إلى هذا الدين العظيم، ولكنهم قتلوه، وأوصى > بأن يدفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف.

ثم إنه ﷺ كان له فيما بَعُد عن الطائف ومكة أمر في هدم الأصنام والأوثان، فبعث الطفيل بن عمرو الدوسي ليهدم صنم "ذا الكفين" وهو صنم دوس وأمره أن يستمد قومه، ويوافيه بالطائف، فهدم هذا الصنم وحرقه، وانحدر مع من معه من قومه، فوافوا رسول الله ﷺ بالطائف، هذا من حرصه ﷺ على ألا يدع وثنًا ولا صنمًا، وبخاصة في أمثال هذه القبائل التي كان لها شأن في الإسلام.

٢- إسلام كعب بن زهير:

على أنه من الأحداث التي كانت خلال هذه الفترة إسلام كعب بن زهير، وهو من الشعراء المجيدين، وابن زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف، وكان أخوه بجير قد أسلم، فلما علم كعب بإسلام أخيه قال شعرًا، أهدر النبي ﷺ دمه من أجله.

فلما علم أخوه بذلك بعث إليه ينصحه بأن: يأتي تائبًا إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل من جاءه تائبًا مسلمًا، فجاء كعب بن زهير إلى النبي ﷺ ودخل المدينة، ونزل على رجل من جهينة صديق له، ثم دخل على رسول الله ﷺ وهو بالمسجد بعد أن صلى الصبح، وقال له: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: ((نعم)) فقال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، ثم إنه أنشد رسول الله ﷺ قصيدته التي مدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها المهاجرين بكل خير، ولم يشر إلى الأنصار فيها، ذلك أن رجلًا من الأنصار لما عرف به -وهو يصافح النبي ﷺ قال: مرني

يا رسول الله أضرب عنق هذا الكافر فكان لهذا القول أثره في نفس كعب فلم يذكر الأنصار في قصيدته.

ولذلك فإنه بعد أن أنشد رسول الله ﷺ قصيدته التي تسمى بانت سعاد، وذكر فيها رسول الله ﷺ بمدح عظيم يليق بانتساب هذا الرجل إلى بيت الشعر العريق -بيت زهير بن أبي سلمى- وكانت القصيدة تسجل ما كان فيه كعب من الخوف ومن إرجاف الناس به، حتى جاء رسول الله ﷺ وقال:

نبئت أن رسول الله أوعدني ❖ والعفو عند رسول الله مأمول

وكان مما قاله فيه ﷺ:

إن الرسول لنور يستضاء به ❖ مهند من سيوف الله مسلول

ولما انتهى من هذا قال له النبي ﷺ: ((لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل)) فأنشد كعب هذه القصيدة في مدح الأنصار، والتي منها:

من سره كرم الحياة فلا يزل ❖ في مقنبٍ من صالح الأنصار

ورثوا المكارم كابرًا عن كابر ❖ إن الخيار هم بنو الأخيار

وإلى غير ذلك مما استرضى به الأنصار في قصيدته بإيعاز منه ﷺ.

ومما لا شك فيه أن دخول أمثال هؤلاء الشعراء المجيدين في الإسلام إنما هو كسب عظيم لهذا الدين.

غزوة حنين

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	المسير إلى حنين، وهزيمة هوازن	٤٩٣
العنصر الثاني	:	ثباته، وإدارته ﷺ للمعركة، وأثر ذلك في تحقيق النصر	٤٩٩
العنصر الثالث	:	شهداء المسلمين، وقتلى المشركين، حصار المسلمين أمام هوازن، وثباتهم	٥٠٢
العنصر الرابع	:	هزيمة هوازن وتفرقها ، ملاحقة المسلمين لهوازن حيث تفرقت، شهداء المسلمين وقتلى المشركين	٥٠٦
العنصر الخامس	:	موقفه # من بني سعد بن بكر أخواله من الرضاع، سياسة مالك بن عوف في الإعداد لقتال المسلمين	٥٠٨
العنصر السادس	:	تقسيمه ﷺ الفيء على المسلمين	٥١١

المسير إلى حنين، وهزيمة هوازن

عزم النبي ﷺ على المسير إلى حنين، حيث إن قبيلة هوازن كانت قد أعدت عدتها، وجمّعت جموعًا كثيرة بلغت نحوًا من عشرين ألفًا من القبائل.

فقد اجتمعت ثقيفٌ كلها كما اجتمعت مضر، وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، وكان في جشم دريد بن الصِّمة وكان شيخًا كبيرًا ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان معروفًا بالشجاعة قبل ذلك، وكان في كل قبيلة سادتها، فلما علم النبي ﷺ بخروجهم له، لأنهم خافوا أن تكون الدائرة عليهم بعد أن سلمت قريشٌ وفتحت مكة.

ولقد كان الذي جمع هذه الجموع كلها هو مالك بن عوف النصري، وهو بهذه النسبة إلى جده الأعلى نصر بن معاوية وقد أسلم بعد غزوة الطائف، وكانت له صحبة وشهد القادسية وفتح دمشق.

هذا الرجل مالك بن عوف لما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ ساق الناس كلهم، وأموالهم ونساءهم، وأبناءهم معهم، ونزل بأوطاس، ثم اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة الذي لما سأل عن أي واد نزلوا؟ قالوا: أوطاس، قال: نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهس، ثم لما سأل مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي، ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فلما سأل عنه وجاءه مالك، قال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل

خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فلم يعجب دريد هذا الكلام، وقال: وهل يرد المنهزم شيءٌ؟! إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ثم سأل عن كعب وكلاب من القبائل، قالوا: لم يشهدها أحد منهم، قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب.

فلما سأل عمن شهد هذه الموقعة قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، قال: ذانك الجذعان يضع من شأنهما، وقال: لا ينفعان ولا يضران، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنع بلادهم، وعليا قومهم، ثم الق السباط على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك، قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرت، وكبر عقلك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، هدد بالانتحار، هدد بقتل نفسه، وكره أن يكون لدريد فيهم ذكرى ورأي، فأطاعوه، ولذلك قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني، ثم أنشد:

ياليتني فيها جذع ❖ أخب فيها وأضع

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم -أي: المسلمين- فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد، كما أنه بعث عيونًا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، قالوا: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضًا على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

وكانت جنود الله ﷻ التي أيد بها نبيه ﷺ، ولكن ما رد ذلك مالكًا عن عزمه.

وكان # لما سمع بأمرهم، بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم أمرهم، ثم يأتيه بخبرهم.

فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم وسمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أخبر رسول الله ﷺ الخبر.

فلما أجمع # السير إليهم علم أن صفوان بن أمية عنده أدراع وسلاح، فأرسل إليه وهو يومئذ على شركه، فطلب منه أن يعيرهم سلاحه حتى يلقى المسلمون عدوهم، فلما قال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: ((بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك))، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، كما أنه حملها إليهم وتكفل بذلك.

ثم خرج # بمن كان معه من المسلمين الذين فتح الله بهم مكة، وهم عشرة آلاف، خرج وخرج كذلك معه # ألفان من أهل مكة، فصاروا اثني عشر ألفًا.

لم يكن لرسول الله ﷺ خروج في غزوة من قبل بهذا العدد العظيم، وهنا قال الناس لن نغلب اليوم من قلة، فغضب النبي ﷺ لذلك، وكان هذا الأمر الذي ذكرته آية سورة براءة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وهنا كان إعداد مالك إعدادًا محكمًا للقاء المسلمين، فإنهم سبقوا المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته، وبين أشجاره، وكانت خطتهم محكمة، تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم

في وادي حنين المنحدر، الذي أتعب المسلمين في الوصول إليه والنزول إليه، فقد كان واديًا حطوطًا، كما جاء في صحيح البخاري.

ولقد كانت معنويات هوازن عالية، لأن قائدهم أوضح لهم أن المسلمين لم يلقوا مثلهم من قبل من حيث معرفتهم بالحرب، وشجاعتهم، وكثرتهم، وسلاحهم.

وقد تقدم المسلمون في الوادي قبل طلوع الفجر تتقدمهم الخيالة بقيادة خالد بن الوليد وفي طليعتها بنو سليم، ثم بقية الجيش في صفوف منتظمة.

ثم إنهم لما بدأ القتال تراجعت طلائع هوازن أمام تقدم المسلمين تاركين بعض الغنائم، لعلها كانت استدراجًا للمسلمين الذين أقبلوا على جمع الغنائم، وكأنهم حسبوا أن هوازن قد هزمت وتراجعت، ولكن هوازن فاجأتهم بالسهام التي انهالت عليهم، والتي أصابتهم إصابات بالغة ما أخطأتهم.

كذلك ولعل أمر الفتح في مكة حينما جاء على ذلك النحو السهل وكثرة العدد جعلت المسلمين يدخلون هذه المعركة بغير اكتراث أو بعضًا منهم على الأقل، حيث إن بعض المسلمين تعجلوا بالخروج دون استكمال عدة القتال، فكان بعضهم حاسري الرءوس، والبعض الآخر من الشبان لم يحملوا معهم من السلاح ما يكفي، ولم يعدوا للأمر عدته.

وهنا كان هول المفاجأة التي كانت من هوازن، ولعلها كانت تخطيطًا منهم سابقًا لذلك الأمر، فرشقوا المسلمين رشقًا بسهامهم، كما وصف البراء بن عازب أحد شهود المعركة من الصحابة حينما قال: فانكشفت خيول المسلمين، ثم المشاة من بعدهم، وفر الطلقاء أي: أهل مكة، ثم الأعراب، وكذلك بقية الجيش، حتى لم يصمد إلا رسول الله ﷺ مع فئة قليلة حوله صمدت بصموده، منهم:

العباس عمه > وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر وعمر، وعبد الله بن مسعود، وجماعات، حتى ليذكر عبد الله بن مسعود أنهم كانوا نحوًا من ثمانين رجلًا.

ثم إنه # أمر عمه العباس وكان جهوري الصوت شديد الصوت أن ينادي في المسلمين ليرجعوا ويستحثهم يا أهل السمرة -أي: أهل الشجرة التي بايعوا النبي ﷺ عندها. وكان ذلك سببًا في عودة وإياب المسلمين إلى النبي ﷺ الذي ثبت في هذا الموقف وكان يقول: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ﷺ)).

وكان لثبات النبي ﷺ ونداء العباس الأثر في أن يرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ يتلاحقون بعضهم على أثر بعض يلبون هذا النداء، حتى إن بعضهم ممن لم يتمكن أن يثني بعيره كان ينزل عنه آخذًا سلاحه ويترك البعير، فاشتد القتال من جديد، وهنا قال النبي ﷺ: ((الآن حمي الوطيس، ثم إنه # أخذ حفنة من التراب فرمى بها في وجوه الكافرين، وهو يقول: شاهت الوجوه، انهزِموا ورب محمد)) وهنا كان أمر الله ﷻ ونصره له، فإن هذه الكف من الحصباء أصابت عيون القوم وأفواههم، حتى إن أبناء بعض من شهدوا الوقعة مع هوازن قالوا: فما منا رجل إلا وقد امتلأت عينه وفمه بالتراب من هذه الحفنة التي رمى بها النبي ﷺ.

وهكذا تحققت الآية حينما أعجبتهم كثرتهم، فلما فروا على رسوله وعلى المؤمنين وأمده بجنود من عنده وهنا تكمن الآية: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة٢٥ :٢٦] وهكذا كانت الجولة الثانية بعد أن فر المسلمون ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ كانت هذه الجولة فيها نصر الله ﷻ.

فلم تلبث هوازن ومن معها حتى فروا راجعين يتعقبهم المسلمون بعيدًا عن حنين، قد تركوا وراءهم قتلى كثيرين، وأموالًا عظيمة، ونساءهم، وأبناءهم، وأموالهم، ولم يتمكنوا من أن ينسحبوا على نظام حتى إنهم تركوا خلفهم شراذم الجيش تمكن المسلمين من القضاء عليهم بسهولة، فكانت خسارتهم في الأرواح خلال الهزيمة أعظم من خسارتهم في المعركة، لأنه # أمر المسلمين بتعب الفارين وقتلهم لإضعاف شوكتهم حتى لا يعودوا إلى الاجتماع أبدًا بعد ذلك.

وقد أباح سلب المشرك لقاتله، ولكنه # نهى عن قتل النساء عندما رأى امرأة مقتولة فقال: ((ما كانت هذه تقاتل))، وكذلك نهى عن قتل الذراري لما بلغه أن بعض المسلمين يقتلونهم، فلما ذكروا إنما هم أولاد المشركين قال: ((أو هل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها)).

ثم إنه # لم يعنف أحدًا ممن فر عنه، بل لما قالت له أم سليم الأنصارية أن يقتل الطلقاء لفرارهم، قال: ((إن الله قد كفى وأحسن)).

وهكذا كانت خسارة هوازن وثقيف جسيمة على الرغم من هذا العدد الذي خرجوا به، والعدة، والتخطيط الذي أعدوا به للمعركة، فالوادي واديهم كانوا أخبر الناس به، ولذلك كانت خطتهم محكمة في لقاء المسلمين، ولكن إذا أراد الله أمرًا أصابه.

على أن أمر القتل فيهم ما كان يصل في تأثيره كأمر السبي الذي وقع في نسائهم وذراريهم وقد بلغوا ستة آلاف، أما الأموال: فكانت أربعة آلاف أوقية من الفضة، وأما الإبل: فكانت أربعة وعشرين ألفًا، وأما الشاة: فكانت أكثر من

أربعين ألف شاة، وكان معهم خيل، وبقر، وحمير، لكن لمصادر لم تذكر عدد ما غنمه المسلمون منها.

وقد أمر # بحبس الغنائم في الجعرانة، حتى يعود من حصار الطائف.

وهكذا انتهت هذه الغزوة، وهذه الموقعة التي كان فيها نصر الله ﷻ عظيمًا على المسلمين، وقد انهزمت هوازن، وتفرقت في الجبال والأودية، وتحصن مالك بن عوف النصري الذي قاد هذه الجموع بالطائف بعد أن فر إليها، في حين عسكر آخرون منهم بأوطاس وهو وادٍ بين الطائف وحنين، كما عسكر بنو غيرة من ثقيف في نخلة، ومع هذا فإنه # اتبعهم بخيل المسلمين التي تبعتهم حتى لا يجتمع أمرهم من بعد ذلك.

ثباته، وإدارته ﷺ للمعركة، وأثر ذلك في تحقيق النصر

فقد رأينا كيف أتم الله نعمة النصر على المسلمين، وأيد رسوله ﷺ والمؤمنين معه بجنود من عنده، حتى تم هذا النصر، على الرغم من أن بداية الأمر كانت -كما رأينا- إعدادًا قويًّا من هوازن، ومفاجأة تامة للمسلمين أذهلتهم في بداية الأمر.

وهنا نرى الحكمة في القيادة، وثبات النبي ﷺ الذي كان له أكبر الأثر في أن يفيء المسلمون ويرجعوا إلى رسول الله ﷺ، وهنا براعة القيادة التي عهدناها فيه ﷺ إنما تكون القيادة الحقة عند نزول البأس والضر بالجنود والرجال، ولكن ثبات القائد هو الذي يكون سببًا -بأمر الله- في أن يجتمع الناس لاستئناف القتال على ثبات وعزيمة وقوة.

وما أشبه هذا الموقف بموقف الفرار يوم أحد، حين دعاهم النبي ﷺ وكانوا لا يلوون على أحد، ثم كان في ثباته ﷺ وهو بجراحاته التي أصابته، كان بهذا الثبات خير أسوة لهم في أن يرجعوا ويثبتوا على الرغم مما أصابهم.

على أنه تجدر ملاحظة وهي أنه كان في جموع الطلقاء الذين جاءوا من مكة يشاركون المسلمين في هذه الغزوة وكانوا نحوًا من ألفين كما عرفنا، وكان فيهم من لم يزل على شركه كصفوان بن أمية الذي اشترط مدة حتى يدخل في الإسلام فأعطاه النبي ﷺ ما شرط، شارك في هذه الغزوة مع رسول الله ﷺ وهو ما يزال على شركه، كما أنه كان هناك كثيرون ممن دخلوا في الإسلام، ولكن لم يكن الإيمان قد تعمق في قلوبهم.

ولقد تكلم بعضهم من أهل مكة ولكأنهم يتشفون في المسلمين، فلقد قال أبو سفيان -لما رأى الهزيمة-: إن هزيمتهم لم تنته دون البحر، كما قال جبلة بن الحنبل وهو أخو صفوان بن أمية لأمه قال لما رأى المسلمين وقد نزل بهم ما نزل: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، أي: لأن يسودني رجل من قريش، وكان ما يزال على شركه كما رأينا ولكنه تعصبًا على هوازن انتصر للنبي ﷺ ورد كلمة أخيه.

على أنه مما يسجل في هذه المعركة بفضل الله على المسلمين أنه لم يستشهد منهم في هذه الموقعة التي التقى فيها المسلمون بعددهم، بهوازن على عددهم، لم يستشهد من المسلمين إلا أربعة من المسلمين، وكانت هناك إصابات في المسلمين بجراح لم تفض بهم إلى الموت.

ولعل الخسارة الطفيفة التي أصابت المسلمين إنما كانت بسبب أنه لم يكن هناك التحام في الجولة الأولى، وإنما كان التراشق بالسهام، ثم إنهم في الجولة الثانية كان القتل مستحرًّا في هوازن ومن جمعتهم لقتال المسلمين.

على أن هوازن بعد أن كانت الريح مع المسلمين بنصر الله وتأييده لما انهزمت تفرقت في الجبال والأودية، وذهب رئيسهم مالك بن عوف إلى الطائف يتحصن

بحصونها، في حين عسكر بعضهم بأوطاس وهو الوادي الذي يقع بين الطائف وحنين، كما عسكرت بنو غيرة من ثقيف في نخلة بين مكة والطائف.

وهنا كان الأمر من النبي ﷺ بأن يتبع المسلمون هؤلاء حيث سلكوا.

فتبعت خيل المسلمين من سلك من هوازن في نخلة، وأرسل النبي ﷺ أبا عامر الأشعري إلى أوطاس فقاتلهم، وفي هذه المعركة -معركة أوطاس- قتل دريد بن الصمة، كما أن في حين أصيب أبو عامر الأشعري بسهم فاستشهد بعد أن استخلف أبا موسى الأشعري، وأوصاه بتبليغ السلام لرسول الله ﷺ وأن يطلب منه أن يستغفر له.

وهكذا آلت الإمارة على هذا الجند الذي خرج يتعقب الفارين في أوطاس إلى أبي موسى الأشعري ابن عم أبي عامر، ففتح الله على يديه وهزمهم.

وقد استحر القتل في بني رئاب من بني نصر حتى إن عبد الله بن قيس وكان مسلمًا وهو من بني رئاب ذهب إلى رسول الله ﷺ يقول: هلكت بنو رئاب، فقال النبي ﷺ: ((اللهم اجبر مصيبتهم)).

وهذا ما يدلنا على أن هؤلاء لما تفرقوا كان تعقب المسلمين لهم شديدًا في إعمال القتل فيهم، حتى إن أبا عامر الأشعري وحده قتل عددًا من الأخوة لما التقى بعشرة أخوة من المشركين فحمل عليهم واحدًا بعد الآخر، وكان يدعو الرجل منهم أولًا إلى الإسلام حتى يعذر إليه، ولكن كان ينتهي الأمر بقتل هذا المشرك فتتابعوا أخوة على القتل على يد أبي عامر وحده، وكان آخرهم رجلٌ كف عنه أبو عامر فأفلت وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، فكان رسول الله ﷺ يقول إذا رآه: ((هذا شريد أبي عامر)).

ولقد كان من رحمة رسول الله ﷺ أنه نهى عن قتل الضعفاء من النساء والذراري، ومن لا حيلة له في القتال، ولما امرأة قتلت وعلم أن خالدًا قتلها فقال رسول الله ﷺ: ((أدرك خالدًا فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك عن أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا -أي الأجير-)).

ولقد جاءت الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة فأكرمها # وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها بين أن تبقى عنده مكرمة، أو أن ترجع إلى قومها بعد أن يمتعها أي: يزيد في عطائها مبالغة في تكريمها، ولكنها اختارت أن ترجع بعطاء رسول الله ﷺ فأعطاها، وتوسع لها في العطاء، وردها إلى قومها.

شهداء المسلمين، وقتلى المشركين، حصار المسلمين أمام هوازن، وثباتهم

أما شهداء المسلمين في حنين فكانوا أربعة شهداء هم:

أيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وسراقة بن الحارث بن عدي، وأبو عامر الأشعري الذي كان قائدًا للمسلمين الذين توجهوا إلى أوطاس.

ثم إنه # أمر بجمع السبايا -سبايا حنين- والأموال التي أصابها المسلمون، وجعل على هذه المغانم مسعود بن عمر الغفاري، ثم أمر # بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها، وكان # يقصد من حبسها بالجعرانة حتى تسلم هوازن، وتجيء قبل أن يحدث قسم لهذه الغنائم، ولعله كان يود أن يعاملهم معاملة قريش لأن إسلام هؤلاء وقوتهم إنما يدعم قوة الإسلام في هذه النواحي.

سجل بجير بن زهير بن أبي سلمى نصر الله ﷻ للمسلمين في هذا الشعر الذي قاله :

والله أكرمنا وأظهر ديننا ❖ وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرق جمعهم ❖ وأذلهم بعبادة الشيطان

مسير المسلمين لحصار الطائف، وتطوير أساليب الحصار :

بعد هذا توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف التي تحصن بها الفلول من هذا اللقاء في حنين، وقد تحصنت ثقيف وكان معهم مالك بن عوف قائد هوازن.

وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي، وبأسوارها القوية، وحصونها التي كانت تعينهم على الصمود والدفاع، ولم يكن إليها سبيل سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لطول الحصار من النبي ﷺ، وهيأت من وسائل الحرب والدفاع ما يكفل لها طول الصمود.

وقد وصل المسلمون إلى الطائف في نحو العشرين من شوال من هذه السنة، من قبل أن ينال المسلمون قسطًا من الراحة بعد أعمال الفتح، من المسير من المدينة إلى أعمال الفتح في مكة، ثم المسير إلى هوازن كل هذه أعباء جهاد كانت قد أصابت المسلمين في هذا الخروج.

ولم يكن أمام المسلمين إلا أن يحاصروا الطائف وأن يشتدوا في حصارها، لأنها قد تمنعت عليها بأسوارها وأبوابها التي أغلقت على ثقيف ومن معها.

وكانت مدة الحصار نحوًا من خمسة عشر يومًا، وهذا هو الأقرب إلى الصواب من الروايات التي حددت حصار الطائف، لأن بعضها يذكر أن الحصار دام

خمسة وعشرين يومًا، وبعضها يقول أن الحصار دام شهرًا، ومن يبالغ يقول: إنه بلغ أربعين يومًا وهذا بعيدًا عن الصواب.

والأصح والأقرب إلى الصواب أنه كان نحو نصف الشهر كما جاء عند موسى بن عقبة وهو من أصح كتَّاب السير، لأن طول المدة عن ذلك يتناقض مع تتابع الأحداث التي أعقبت حصار الطائف.

ولقد سلك المسلمون في تقدمهم نحو الطائف الطريق القديم الذي يدخل الطائف من ناحية الجنوب، فمروا على نخلة، ثم المليح من وديان الطائف، ثم بحْرة حتى وصلوا إلى الطائف، وهي مسافة تزيد على ما هو معروف الآن من الطريق بين مكة والطائف الذي يصل إلى نحو ٩٠ كيلو مترًا، ولقد كان هذا الطريق الذي سلكه المسلمون مع النبي ﷺ يزيد على المائة والثلاثين كيلو مترًا في أرض نعرف طبيعة الطائف وارتفاعها، ومشقة السير والوصول إليها.

على أن الطائف كان يستحيل اقتحامها من ناحية الشمال، لأن التضاريس الجبلية المعقدة التي تعطيها مناعة وتحصينًا زائدًا، كل هذا جعل المسلمون يتوجهون إلى الطائف من ناحية الجنوب.

ثم إنه # أراد أن يحول بين ثقيف وبين إمدادها من هوازن من الشرق، ومن جنوب الطائف.

هذا وقد نزل المسلمون قريبًا من حصون الطائف، ولذا فإنهم كانوا في متناول سهام ثقيف، فأصيب بعضهم فتحولوا بعسكرهم إلى الموضع الذي بنى فيه النبي ﷺ مسجده وهو المعروف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس، وكان الطائف قديمًا إلى الجنوب الغربي من هذا المسجد.

ولعلنا نلاحظ أن هذه المعركة من أولها في حنين وفي حصار الطائف إنما كانت السهام تلعب دورًا كبيرًا في اللقاء.

ومن ثَم فقد استخدم المسلمون في حصار الطائف آلة من الخشب التي كانت تعرف باسم الدبابة كان يدخل فيها الرجال يحتمون من وابل السهام، لأنها كانت مصنوعة من الخشب السميك المغلف بالجلود، وهي مركبة على عجلات مستديرة، فكانوا يحتمون بها، ويمضون تحتها حتى يصلوا إلى الأسوار، يتقون بها إصابات السهام، وهذه أول مرة يستخدم المسلمون فيها آلات مثل هذه الآلات لضرب الحصون ونقبها.

وكان حصول المسلمين على هذه الآلة حينما جاء خالد بن سعيد بن العاص بمنجنيق، ودبابتين من جُرَش اليمانية التي اشتهرت بصنع أمثال هذه الآلات وهي في أعلى وادي بيشة.

وكان لا بد أن يتخذ المسلمون في حصار الطائف أمورًا تطور دفاعهم وأساليبهم في القتال، ومن ثَم استعملوا هذه الآلة، وكذلك استخدم النبي ﷺ المنجنيق، وكان ذلك الاستعمال أول أمره في حصار الطائف كذلك.

ولما لم يكن متوفرًا عند المسلمين من أمثال هذه الآلات التي تستخدم لنقب الأسوار، أو فتح الأبواب، فإن حصار المسلمين لم يكن له أثر واضحٌ لاقتحام الطائف وأسوارها، وهنا أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب، والنخيل في ضواحي الطائف، حتى يكون في هذا أسلوب ضغط على ثقيف التي لما رأت عزم النبي ﷺ على هذا الأمر ناشدته ألا يفعل فتركها بعد أن أحدثت هذه المحاولة أثرها في إضعاف معنوياتهم، ولعل هذا يذكرنا بأمره # مع بني النضير حينما أمر بقطع نخيلهم وتحريقها، نكاية في العدو حتى يكون ذلك أدعى إلى استسلامه، فليس هذا تخريبًا وليس هذا فسادًا، وإنما هي أساليب تباح في أمثال هذه المواقف، وبخاصة مع أعداء هذا الدين العظيم.

هزيمة هوازن وتفرقها، ملاحقة المسلمين لهوازن حيث تفرقت، شهداء المسلمين وقتلى المشركين

كما أنه # وجه نداء إلى عبيد الطائف أن من ينزل منهم من حصون الطائف، ويخرج إلى المسلمين فهو حر، ويعتبر نزوله وفراقه أرض الطائف إعلانًا بعتقه وحريته.

ولذلك خرج وتسلل من عبيد الطائف ثلاثة وعشرون من عبيدهم، منهم أبو بكرة الثقفي الذي سمي بهذا الاسم لبكرة تتدلى بها من أسوار الطائف وحصونها فأسلم، وكان هذا سببًا في إسلام هؤلاء العبيد وعتقهم، ولم يعودوا إلى ثقيف بعد ذلك حتى بعد أن أسلمت، وجاءت معلنة إسلامها، فإن النبي ﷺ لم يرد إليها هؤلاء الرجال على الرغم من إلحاح ثقيف في طلبهم.

هذا ولقد حاول المسلمون جاهدين في أن يرشقوا بأن يرموا ثقيفًا بالسهام والنبال، ولكن لم يجد هذا الأمر كثيرًا في أهل الطائف.

أما المسلمون فإن الجراحات قد كثرت فيهم، واستشهد منهم اثنا عشر رجلًا، في حين لم يقتل من هؤلاء المشركين سوى ثلاثة نفر، بسبب امتناعهم بالحصون والأسوار.

القصد من حصار الطائف، والأمر بفك الحصار، ورحيل المسلمين:

على أن هناك بعض الروايات التي تذكر أن رسول الله ﷺ لم يكن يقصد بحصار الطائف فتحها، بل إنما أراد كسر شوكة ثقيف، وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاءوا دخلوها، وما كان الرسول ﷺ ليشق على المسلمين

ويكثر من تقديم الشهداء لفتح بلد حصين يحيط به الإسلام من كل مكان ومن كل جانب، وليس له آخر الأمر إلا الإسلام، أو الاستسلام طال الوقت أم قصر.

كما أنه # كان يحرص على بقاء ثقيف حرصه على قريشٍ من قبل، فهم إن تحولوا إلى الإسلام كانوا رجالًا له، لأنه أهل فطنة وذكاء، وكان # يطمح في إسلامهم، بل إنه # لما ضيقت قريش على الدعوى في المرحلة المكية، وبخاصة بعد وفاة أبي طالب وخديجة > ، إنما عزم على التوجه إلى الطائف وأن ينقل الدعوة إليها، إيمانًا بمكانة ثقيف، ومكانة الطائف، وكان حرصه # من أول الأمر على إسلام هذه البلدة في هذا الوقت المبكر كما رأينا وعلمنا من دراستنا السابقة.

حتى إن بعض المسلمين لما طلبوا منه - لما اشتد حصار الطائف وأذاهم للمسلمين- طلبوا منه # أن يدعوا عليهم، ما دعا عليهم، وإنما دعا لهم، وقال: ((اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم)).

كحاله # يوم جاءه ملك الجبال ومعه جبريل يطلب منه يستأمره في أن يهلكهم، ولكنه # قال كلمته الرحيمة: ((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)).

ثم إنه # كان قد أمر بفك الحصار من قبل ولكن المسلمين عز عليهم هذا، فدخلوا تحت الدبابات متوجهين إلى حصون الطائف، يتقون بالدبابة السهام، ولكن ثقيفًا كانت تعد كذلك عدة لأمثال هذه الآلات، فألقت عليهم الحديد المحمي بالنار، ولذلك اضطر المسلمون الذين كانوا داخل الدبابة إلى الخروج منها فأصابتهم السهام.

ثم إنهم بعد ذلك لما أمرهم النبي ﷺ بفك الحصار، والعودة، فقد أصابهم هذا بارتياح وقبول، وهنا تبسم النبي ﷺ لرضاهم آخر الأمر بعد أن أصابهم ما أصابهم.

على أن النبي ﷺ أذن لأبي سفيان والمغيرة بن شعبة > أن يحاول المفاوضة مع ثقيف، فنادوا ثقيفًا أن يؤمنوهم حتى يكلموهم، فأمنوهم وكان ذلك أمرًا فعله النبي ﷺ بين يدي فك حصاره عن الطائف.

ولقد أعقب هذا أن أمر النبي ﷺ بارتحال المسلمين وعودتهم، وقال: ((إنه لم يؤذن له في ثقيف))، أي: أن الله ﷻ لم يكن من أمره فتح ثقيف في هذه الجولة، وإنما كان لها أمرٌ آخر قدره الله ﷻ وهو أن تأتي ثقيف مؤمنة طائعة لله ﷻ.

ولقد كان شهداء المسلمين في حصار الطائف اثني عشر رجلًا، سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، ورجلًا من بني ليث.

وهكذا عاد النبي ﷺ من هذا الحصار ظافرًا بأمر الله ﷻ بعد أن لقن ثقيفًا درسًا بأنها ليست بعيدة المنال عن أيدي المسلمين.

موقفه # من بني سعد بن بكر أخواله من الرضاع. سياسة مالك بن عوف في الإعداد لقتال المسلمين

ثم إنه # توجه بعد حصار الطائف حتى نزل الجعرانة فيمن معه من المسلمين، وكان معه من هوازن السبي الكثير، وكان معه سبي هوازن.

وهنا جاءه وفد هوازن وقد أسلموا، وقالوا: يا رسول الله إنا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا من الله عليك استمالة للرسول ﷺ، ثم قام رجل منهم من بني سعد بن بكر الذين استرضع فيهم رسول الله ﷺ رهط

حليمة السعدية < فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. ومعنى ملحنا: أي أرضعنا.

وهنا فقد خيرهم النبي ﷺ بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، وكان # من قبل قد استأنى بهم، وانتظر لم يقسم السبي والأموال حتى يأتوه، ولكنهم ما جاءوا، وما جاءوا إلا بعد أن قسم # ما أفاء الله عليه منهم فخيرهم.

فلما خيرهم # قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال لهم # : ((أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا، فقولوا: إن نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم، ففعلوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وكذلك قالت الأنصار)).

ولكن الأقرع بن حابس قال: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: وأما أنا وبنو سليم فلا، وهنا ردت عليه بنو سليم قومه فقالوا: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، ولذلك قال لهم عباس: وهنتموني.

ثم إنه # جعل لمن تمسك منهم بحقه من هذا السبي، لكل إنسان معه ست فرائض من أول سبي يصيبه، أي: ست من الإبل، ولذلك شجع ذلك من تمسك بحقه، فردوا ما معهم من النساء والأبناء إلى هوازن.

أثر استمالة مالك بن عوف إلى الإسلام:

على أنه كان من أمر الله إسلام مالك بن عوف النصري الذي جمع الجموع لقتال المسلمين، وكان من أمره ما أصاب قومه هوازن، حينما خرج بهم يعادي الإسلام والمسلمين.

وكان إسلامه من كريم أمره ﷺ واستمالته لأمثال هؤلاء، فإنه # لما جاءه وفد هوازن سألهم عن مالك وأمره، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ لهم: ((أخبروه أنه إن آتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل)) فكان في هذا استمالة لمالك الذي خرج من الطائف متسللًا حتى لا تشعر ثقيف بأمره فيحبسوه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بالجعرانة، وقيل: جاءه بمكة، فرد عليه النبي ﷺ أهله وماله وأعطاه ما وعد، وأسلم فحسن إسلامه، ولذلك قال في شعر يسجل هذا:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ❖ في الناس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ❖ ومتى تشأ يخبرك عما في غد

ولقد استعمله # على من أسلم من قومه، جعل له أيضًا قيادتهم، ورئاستهم، وحفظ له مكانته في قومه، وكان هذا من حسن سياسته ﷺ.

وهكذا أسلمت هوازن، وأسلم قائدها، وأصبحت قوة في هذه النواحي في غضون أيام، وفي غضون مدة قليلة، منذ أيام سلفت كانوا على الشرك يقاتلون في سبيل الطاغوت، أما هم الآن فقد أصبحوا جندًا لله قريبين من مكة، تدعم قوتهم قوة أهل مكة، حيث صاروا بعد ذلك قوة للإسلام.

ولقد كان من أول ما قام به مالك وقومه هو: الإغارة على أموال ثقيف، وعلى صرحها حتى ضيق عليهم مما ألجأهم آخر الأمر إلى أن يتوجهوا معلنين إسلامهم للنبي ﷺ.

ثم إنه # بعد هذا قام بتقسيم الغنائم والأموال، وتجمع الناس حوله وبخاصة من الأعراب الذين ما جاءوا إلا لطلب الدنيا حتى إنهم ألجئوه إلى شجرة علق بها رداءه ﷺ من كثرة ما تزاحموا عليه، وهنا قال لهم # لما رأى حرصهم على المال والغنائم: ((فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا، ولا جبانًا، ولا كذابًا. ثم إنه # نادى في الناس ألا يرتكب منهم أحدٌ جريمة الغلول حتى لا يكون ذلك عارًا عليه ونارًا يوم القيامة))، فجاء كل رجل أصاب شيئًا مما قل إلى رسول الله ﷺ يرده إلى غنائم المسلمين.

وفي هذا تربية للمسلم على هذه الأخلاق الطيبة وتجنب الغلول في الغنائم.

تقسيمه ﷺ الفيء على المسلمين

ثم إنه # لما قسم هذا الفيء على المسلمين توسع في عطاء المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافًا من الناس من قريش، يتألفهم بذلك، ويستميل قلوبهم.

كما أنه كان يعلم # أن في استمالة أمثال هؤلاء استمالة لمن يتبعهم من أقوامهم، ولذلك فإنه # أعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، كما أعطى ابنه معاوية مائة كذلك، وكذلك أعطى حكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كلدة أخا بني عبد الدار، كما أعطى الحارث بن هشام أخا أبي جهل، وكذلك سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والعلاء بن جارية الثقفي، كما أعطى عيينة بن حصن شيخ بني فزارة، والأقرع بن حابس شيخ بني تميم، كما أعطى مالك بن عوف النصري -كما رأينا. كلهم أعطاهم # مائة بعير، كل واحد منهم أصاب مائة بعير.

وممن أعطاه # كذلك صفوان بن أمية وكان ما يزال على شركه، وهؤلاء يعتبرون أصحاب المئين كما ذكرهم علماء السير.

ودون المائة أعطى # رجالًا من قريش منهم: مخرمة بن نوفل، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو، كل هؤلاء أخذوا دون المائة.

كما أعطى سعيد بن يربوع خمسين من الإبل، وكذلك أعطى عدي بن قيس.

كما أنه # أعطى من بايعوه من قريش وغيرهم يوم الجعرانة من غنائم حنين استمالة لهم كذلك، وهم كثيرون تذكرهم روايات كتّاب السير، شملت رجالًا من بني عبد شمس، وبني عبد الدار، وبني مخزوم، وبني عدي، وبني جمح، وبني سهم، وبني عامر.

كذلك أعطى من أفناء القبائل من بكر، وبني قيس، وبني عامر، وبني نصر، وبني سليم، وبني غطفان، وبني تميم.

كل هؤلاء لأن العدد كان كثيرًا، وأكثرهم كانوا قد خرجوا على إسلام ضعيف، فأراد # أن يعمق الله الإسلام في قلوبهم بهذا العطاء.

وكما رأينا بأنه أعطى صفوان بن أمية وكان ما يزال على شركه في المدة التي شرطها عند إسلامه، وكان ذلك دافعًا إلى أن يبادر صفوان بإسلامه.

ونلاحظ على أنه مما يلاحظ في عطائه # : أنه ترك رجالًا ممن كان يثق في دينهم وإسلامهم، فلما قال قائل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري، وهو من قبيلة بني ضمرة، فقال رسول الله ﷺ: ((أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من تلاع الأرض كلهم، مثل عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس (أي من ملء الأرض) ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه))، وهكذا كان أمره # مع الأنصار الذين وكلهم إلى إسلامهم، وكان لهم معه موقفٌ # .

غزوة تبوك، وعام الوفود

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	غزوة تبوك، تاريخها، وترتيبها	٥١٥
العنصر الثاني	:	أسباب الخروج في هذه الغزوة، عدد الخارجين فيها، وعوامل الصعوبة، وموقف المنافقين	٥١٧
العنصر الثالث	:	مصالحة الرسول ﷺ ما حدث أثناء الرجوع من غزوة تبوك، وما كان من أمر المنافقين أثناء العودة	٥٢١
العنصر الرابع	:	مظاهر تودده # مع المسلمين، وائتمامه بابن عوف، وسؤاله عمن تخلف من غفار وأسلم، أمر مسجد الضرار، وحكم الله فيه	٥٢٤
العنصر الخامس	:	المتخلفون عن هذه الغزوة، وموقفه # منهم	٥٢٧
العنصر السادس	:	سورة التوبة سجل حافل بأمر هذه الغزوة ومواقف المنافقين فيها، والوفود دليل على قوة الإسلام، والسنة التاسعة وأهميتها في هذا الشأن، اهتمام المؤرخين بأمر الوفود	٥٣٣
العنصر السابع	:	نماذج من أهم الوفود	٥٣٥
العنصر الثامن	:	نماذج من الوفود السيئة	٥٤٥

غــزوة تبــوك، تـاريخهــا، وترتيبهــا

ثم إنه # بعد أن استقر به المقام في المدينة بعث المصدقين -الذين يجمعون الصدقات والزكاة- فبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار، كما بعث عباد بن بشر إلى سليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، وغيرهم إلى بقية القبائل؛ حتى يكون ذلك مثبتًا للإيمان والإسلام في قلوبهم، فليست الصلاة وحدها هي التي يكون بها الإسلام، وإنما لا بد كذلك من الزكاة، وأن يعود العرب على ذلك العطاء وبخاصة الأعراب.

على أن ما تبع رجوعه # إلى المدينة كان مواصلة للجهاد في بث السرايا إلى القبائل التي كان منها بعض المخالفات أو بعض التجمع ضد الإسلام، وحتى يكون ذلك حافزًا لهم، وأخذًا لهم بالقوة ودفعًا بهم إلى حظيرة الإسلام بعد أن أعطت قريش وغيرها المقادة ودخلت في الإسلام.

وهكذا بدأ العام الهجري التاسع، وقد حقق الله النصر على أعداء هذا الدين في مجال الدعوة الخاصة، سواء في ذلك قريش والأعراب والقبائل الكبيرة، وكذلك بعد أن حقق الله النصر على اليهود.

ومن ثم كان الأمر يحفز إلى الخروج بهذه الدعوة إلى خارج الجزيرة وملاقاة الروم الذين كانوا بالشام وأعوانهم على تخوم الشام مما يلي الجزيرة من الغساسنة وغيرهم، ممن كانوا يكونون جبهة قوية من النصارى -الذين انحرفوا بالمعتقد السليم في هذه العقيدة، وهذه الملة ملة عيسى # فلقد تعددت فيها المذاهب وبعُد النصاري بهذه العقيدة عن المنهج السليم، وتعددت المذاهب، وعبث الأباطرة بأمر الدين، ولم يكن لهم منه إلا أنه يحقق لهم المكاسب وإخضاع الناس لسلطانهم.

ولقد رأينا من قبل كيف أن النبي ﷺ بعث بكتابه إلى هرقل وإلى غيره من ملوك الغساسنة، ومن دخل في طاعة الروم، نواحي الشام. ورأينا كيف كان الرد منهم، بل إن بعضهم قتل رسول رسول الله ﷺ ومن ثم كانت سرية مؤتة التي عرفنا أمرها.

ولما رجع # إلى المدينة بعد الفتح وبعد أمر الطائف، وهوازن، فإنه # عمل على أن يخرج في هذه الغزوة التي كانت آخر غزواته ﷺ وهي غزوة تبوك التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة.

وكان # في كل غزواته يوري بغيرها حتى لا يعرف الناس من أعداء المسلمين في المدينة بأمره إلا هذه الغزوة، فإنها لبعد الشقة والمسافة فيها -لأن تبوك إنما تقع على بعد أكثر من سبعمائة وسبعين كيلو مترًا هذا بالطريق المعبد المعروف الآن.

كذلك فإن العدو فيها ليس عدوًا سهلًا أو قليلًا، وإنما هو عدو كثير؛ حيث اجتمع من الروم، ومن أعوانهم نحو من مائتي ألف، وهم يمثلون قوى منظمة في: سياساتها، وسلطانها، وحربها، وسلمها، ولذلك فإنه # أعلن الناس حتى يأخذوا أهبتهم، ويجمعوا لذلك نية صادقة في المسير.

ولقد سميت هذه الغزوة باسم آخر وهو "غزوة العسرة" فاسمها تبوك لمكانها، و"العسرة" لما كان قد أصاب الناس في ذلك الوقت من ضيق الحال، حيث إن الوقت كان حارًّا وقد أينعت الثمار، وانتشرت الظلال، والناس يحبون المقام في ذلك الوقت في بلادهم في المدينة، وفي بساتينهم ولكن جاء أمر رسول الله ﷺ بالخروج في هذا الوقت الشديد العصيب، حتى يميز الله الخبيث من الطيب، وحتى يظهر قوي الإيمان من ضعيفه، وحتى يظهر المؤمن من المنافق، ولذلك سميت بهذا الاسم.

كذلك فإنه كان قد أصاب الناس فاقة، وقلة في الزاد، حتى إنهم كانوا يشقون التمر ويقتسمونه، كما أنهم كانوا يمصون النوى ويشربون عليه الماء -كما جاء ذلك في صحيح مسلم- بل إنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم في نحر رواحلهم.

أسباب الخروج في هذه الغزوة، عدد الخارجين فيها، وعوامل الصعوبة، وموقف المنافقين

ولقد كان من أسباب الخروج في هذه الغزوة ما ذكر من أنه # أراد أن يثأر لأهل مؤتة الذين قتلوا بيد الروم وأعوانهم وهم شهداء المسلمين فيها.

كذلك فإنه # إنما خرج؛ لأن الأمر كان لا بد من مواصلة الجهاد، ومتابعة أمر نشر هذا الدين العظيم إلى خارج الجزيرة، وكان لا بد من الخروج إلى الروم بعد أن مهد النبي ﷺ إلى دعوتهم بإرسال الكتب كما رأينا.

وكان خروجه # لهذا الغرض، وهو قتال أمثال هؤلاء، وهذا ما يذكره ابن كثير، ويجعل الآية التي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وكان الذين يلونهم من الكفار بعد ذلك إنما هم الذين بدلوا دين الله من النصارى في الشام ونواحيها.

ولقد أمر النبي ﷺ المسلمين وحضهم على الإنفاق من أجل إعداد هذه الغزوة التي كثر المسلمون فيها، حتى إن بعض الروايات لتذكر أنهم كانوا ثلاثين ألفاً من المسلمين معهم عشرة آلاف فرس.

وكان هذا الحض من رسول الله ﷺ على الإنفاق باعثًا للمؤمنين الصادقين، سواء في ذلك الموسرون من الأغنياء، وبسطاء الناس، بل حتى الفقراء، كل ساهم بما أعانه الله عليه، وكان أكثر الناس عطاء في هذا وإسهامًا فيه عثمان بن عفان > الذي جاء بألف دينار، وضعها في حجر النبي ﷺ الذي أخذ يقلبها ويتعجب من إيمان عثمان، حتى إنه # بشره بأنه ما ضره ما فعل بعد ذلك، كذلك جاء عبد الرحمن بن عوف > بمال كثير للنبي ﷺ وكما أشرنا بأن الفقراء الذين لم يكن عندهم ما يكفي جاءوا بما ساهموا به، حتى إن الرجل ليأتي بصاع من التمر أو بنصف الصاع.

ومع هذا؛ فإن كل هؤلاء لم يسلموا من ألسنة المنافقين، الذين كان لهم شأن خبيث يليق بهم، حتى في آخر غزواته ﷺ فحينما يرون غنيًّا يعطي العطاء الكثير ويساهم، يقولون: ما جاء بذلك إلا رياء؟ ومن يأتي بالقليل؟ يقولون: إن الله لغني عن صاع هذا، ولذلك نزل فيهم قول الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

كما أنه كان للمنافقين سعي في تثبيط المؤمنين، فقد كان أناس منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ حتى لا يخرجوا معه، ولذلك فإنه # بعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم البيت ففعل ذلك طلحة.

وكان من قولهم للمسلمين يثبطونهم: أتحسبون جلاد بني الأصفر -يقصدون الروم كقتال العرب بعضهم بعضًا. والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال.

ولكن هذا لم يفت في أعضاد المسلمين، فاجتمعوا للخروج مع النبي ﷺ.

هذا في حين خرج عبد الله بن أبي بن سلول فيمن تبعه من رجاله المنافقين، وكان عسكره نحو ناحية ذباب -وهو جبل بالمدينة- وكانوا كثيرين، من هؤلاء المنافقين، ولكن رسول الله ﷺ لما صار تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

ولقد جاء الجد بن قيس يعتذر لرسول الله ﷺ عن الخروج؛ لأنه يخشى الفتنة من بنات بني الأصفر، الروم.

ولذلك فإنه # كان لا يرغب في صحبة أمثال هؤلاء له في هذه الغزوة، ونزلت آيات سورة براءة الفاضحة التي فضحت المنافقين في مثل هذا الموقف تقول آياتها: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤ - ٤٧]... إلى آخر الآيات التي ذكرت مواقفهم في سورة التوبة.

حتى إنه # لما أمر علي أن يخلفه في أهله وأن يبقى بالمدينة أشاعوا: أنه ما تركه إلا استثقالًا له وتخففًا منه، حتى إن عليًّا > لبس عدة وتبع النبي ﷺ ولحقه، وهو نازل بالجرف على نحو ثلاثة أميال من المدينة، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: "كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي" فطمأن النبي ﷺ خاطر علي، ثم مضى الرسول ﷺ على سفره.

هذا، وإذا كان أمر المنافقين كما رأينا وعلمنا من القعود والتثبيط للناس، وكره الله لهم أن يخرجوا، فإنه كان هناك أناس ممن كان إسلامهم وإيمانهم قويًّا، تخلفوا عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، كانوا أربعة:

منهم أبو خيثمة > الذي دخل حائطه بعد أن مضى رسول الله ﷺ وكان في يوم حار، أعدت امرأتاه كل ما يطيّب المقام من عريش مظلل وماء بارد، فلما دخل أبو خيثمة على امرأتيه، وهما على تلك الحال، قال: رسول الله ﷺ في الضح -أي: الشمس والحر والريح- وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنصف.

ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فتهيأ له الزاد والراحلة، وخرج > يتبع رسول الله ﷺ حينما دنا من تبوك فلما رأى الناس راكبًا قادمًا قال النبي ﷺ: "كن أبا خيثمة" فكان أبا خيثمة الذي جاء لرسول الله ﷺ يعتذر إليه عن هذا التأخير، وهذا التخلف فقبل النبي ﷺ ودعا له بخير.

ولقد كان النبي ﷺ في مسيره إلى تبوك أمر الناس إذا نزلوا بالحجر، وهي في طريقهم ألا يشربوا من مائها، وألا يتوضئوا منه للصلاة، ولكن بعضهم خالف في ذلك، فأمر النبي ﷺ بما عجنوا من عجين أن يعلفوه للإبل، وألا يأكلوا منه شيئًا، كما أنه # استحث راحلته لما مر بالحجر، وسجى ثوبه على وجهه، وقال: "لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم".

وهذا من التعليم والأدب النبوي الذي علم به # أمته.

ولما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله ﷻ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

وهنا نرى بعض المنافقين ممن لم تؤثر فيهم أمثال هذه المعجزات، فيحكى محمود بن لبيد أن رجلًا من المنافقين لما قيل له: ويحك هل بعد هذا شيء: قال: إنما هي سحابة مارة.

كذلك فإن بعض المنافقين حينما ضلت ناقة النبي ﷺ وخرج أصحابه يطلبونها، قال رجل منهم: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فلما أخبر النبي ﷺ بذلك قال: "وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا، وكذا، قد حبستها شجرة بذمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها".

وإن مواقف المنافقين -في هذه الغزوة من أولها، وفي خلالها، وبعد أن تمت، وفي الرجوع كذلك- لمواقف مخزية لأمثال هؤلاء، ولكن هكذا -دائمًا. نرى أمثال هؤلاء الذين كانوا على صلة وثيقة بالنبي ﷺ يغشون المسجد، ويخالطون المسلمين، ويرون أمر النبي ﷺ ومع ذلك لا يؤثر هذا في قلوبهم، ولا يأتي بهم طائعين إلى الإيمان.

مصالحة الرسول ﷺ ما حدث أثناء الرجوع من غزوة تبوك، وما كان من أمر المنافقين أثناء العودة

ولما وصل # إلى تبوك فإنه آتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة فصالح النبي ﷺ وأعطى الجزية، كذلك أتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوا الجزية، وكتب النبي ﷺ الأمان لهؤلاء، وأولئك، فكان كتابه ليوحنا بن رؤبة: "بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله، ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون

نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنع ماءً يردونه، أو طريقًا يردونه من بر أو بحر".

كذلك فإن أمانه لأهل جرباء وأذرح جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب -وهو الشهر الذي أمنهم فيه- ومائة أوقية طيبة وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين". وقد أعطى # أهل أيلة بردته مع كتابه أمانًا لهم.

كما أنه # بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، فجاء به إلى النبي ﷺ فحقن دمه، وصالحه على الجزية ﷺ. وبعد هذا رجع النبي ﷺ متوجهًا إلى المدينة.

ما حدث أثناء الرجوع من غزوة تبوك، وما كان من أمر المنافقين أثناء العودة:

بعد أن قضى # في تبوك نحوًا من عشرين ليلة، عزم على الرجوع بعد أن منّ الله عليه بنعمة النصر في هذه الغزوة، فإنه # لم يلق كيدًا من أولئك الذين كان لهم شأنٌ آخر مع أصحاب سرية مؤتة كما عرفنا من قبل.

وها نحن قد رأينا من يأتي من ملوك هذه النواحي يأخذ الأمان والعهد منه # .

ولقد كان من أثر هذا الخروج في هذه النواحي: أن توطد سلطان المسلمين في شمالي الجزيرة العربية، كما أن ذلك مهد لفتح الشام التي كان لرسول الله ﷺ الأعمال الأولى، والريادة في هذا المجال، بعثه بالكتب، وإرساله سرية مؤتة، وقيامه بنفسه ﷺ غازيًا في آخر غزواته # كما رأينا.

كما أنه # لما رجع إلى المدينة ما كاد ينتهي من لقاء الوفود، وقضاء ما بقي من سني الهجرة التي ختمها بحجه ﷺ حجة الوداع، فإنه # كان مشغولًا بإعداد بعث أسامة الذي وجهه إلى الشام.

إذن فهذه الأعمال هي التي جاء من بعدها المسلمون وأولهم أبو بكر > الذي تسلم الراية من رسول الله ﷺ وتابع أعمال الفتح في هذا الميدان المبارك.

كما أنه # بعث قبل أن يرجع دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل بكتاب، رد عليه هرقل بإرسال رجلٍ يعرف بـ"التنوخي" ردًّا على رسالته ﷺ وليتعرف على بعض علامات النبوة فيه # وإذا صحت هذه الراوية التي تذكر هذه البعثة لدحية؛ فإنها تكون الثانية إلى هرقل، لأنه وصله كتاب مع دحية من قبل ذلك.

وفي طريق العودة نجد أن بعض المنافقين كان ما يزال أمرهم على الشقاق، والنفاق، والمخالفة لأمره # فقد أمر ألا يستقى من ماءٍ في الطريق كان يعلمه # كان هذا الماء يخرج من وشلٍ في بعض الأودية، فأمر ألا يستقي أحد من هذا الماء حتى يأتي النبي ﷺ ولكنه # لما وصل لم يجد شيئًا من الماء، وعلم أن رجلين من المنافقين سبقا وخالفا نهيه # من أن يستقي أحد من الماء، فغضب # ودعا عليهما، ثم إنه # قام دعا ربه ومسح الوشل فأخذ الماء يتفجر منه له صوت كالصواعق فشرب الناس

وأخذوا حاجتهم من الماء.

كذلك فإن بعض المنافقين حاولوا ما الله مانعٌ رسوله منه وهو محاولة الفتك به # وأن يطرحوه من رأس عقبة كانت في الطريق، لكنه # أُخبر بخبرهم، وكان قد نهى أن يصعد أو أن يسير الناس في العقبة، ولكن هؤلاء خالفوا.

ففي حين أن الأمر كان بمسير الناس في الوادي فإن هذه الجماعة من المنافقين، وكانوا اثني عشر رجلًا، صعدوا العقبة يريدون ما بيتوا أمرهم عليه، وكان عمارٌ آخذًا بزمام ناقته # وحذيفة يسوقها فلما رأى النبي ﷺ هؤلاء المنافقين قد تلثموا وجاءوا ليعترضوه، فنبه حذيفة رسول الله ﷺ فصرخ بهم، فولوا مدبرين.

وكان حذيفة قد استقبل وجوه رواحلهم بمحجن كان معه فولوا، ثم إنه # سأل حذيفة: هل عرف أحدًا منهم؟ قال: ما عرفت إلا رواحلهم، فأخبره # بهم، وبأسمائهم، واستكتمه ذلك الأمر، وكان # يتخذ من حذيفة صاحبًا لسره بأمر المنافقين ومعرفة أسمائهم.

مظاهر تودده # مع المسلمين، وائتمامه بابن عوف، وسؤاله عمن تخلف من غفار وأسلم، أمر مسجد الضرار، وحكم الله فيه

وفي الطريق كذلك شكا المسلمون له # ما أصاب إبلهم من الإجهاد والتعب، فدعا # ربه أن تنشط هذه الرواحل، وقال في دعائه: "اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البر والبحر" فنشطت الإبل، وما شكوا منها بعد ذلك حتى بلغوا المدينة، حيث كانت تنازعهم أزمتها.

كما أنه # في رحلة الإياب قام بأمر دل على كريم تواضعه ﷺ فإن عبد الرحمن بن عوف تقدم فأم الناس في صلاة فجرٍ في يوم من أيام العودة، لأنه # خرج ومعه المغيرة بن شعبة يحمل له الماء، فلما تأخر النبي ﷺ قدموا عبد الرحمن بن عوف، فجاء النبي ﷺ وهم يصلون، وأدركهم في الركعة الثانية،

فلما سلم الناس أعظموا ذلك الأمر، ولكنه هدأ من روعهم وقال: "أحسنتم، وأصبتم" وهذا مما يدل على كريم تواضعه ﷺ.

وفي الطريق سأل ﷺ أبا رُهْم كلثوم بن الحصين الغفاري، عن تخلف من تخلف من غفار، وأسلم فأخبره > بأمرهم، وقال # : ما منع أحدًا من أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطًا في سبيل الله، ثم قال لأبي رهم: إن أعز أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون من قريش، والأنصار، وغفار، وأسلم ﷺ.

وهكذا كان # يتودد إلى أصحابه، ويشعرهم بمكانتهم عنده.

أمر مسجد الضرار، وحكم الله فيه:

ثم إنه # كان له أمر آخر مع المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، حيث اتخذوا ذلك المسجد مكانًا يدبرون فيه المؤامرات ضد المسلمين والإسلام، ويريدون به تفريق الجماعة عن مسجد قباء ومسجده # .

كما أنهم جعلوه مكانًا يتلقون فيه رسائل أبي عامر الفاسق الذي آل أمره إلى المقام بالشام عند هرقل، وكان يمنيهم أنه يحرض هرقل على النبي ﷺ بغضًا وعداء للإسلام والمسلمين.

ولذلك فإنه # لما طلب منه المنافقون قبل أن يخرج إلى تبوك أن يصلي في هذا المسجد، يظهرون أن هذا تبركًا وترويجًا لأمر هذا المسجد بصلاة النبي ﷺ فيه، فإنه # اعتذر لهم لأنه كان في شغلٍ بأمر السفر وقال: "إنا على جناح سفر"، ووعدهم أن يصلي، وكان # يعزم على أن يصلي حينما يعود من هذه الغزوة، وهنا أراد الله ﷻ ألا يصلي النبي ﷺ في هذا المسجد؛ لأن الوحي نزل

عليه في مكان قريب من المدينة، هو الوادي المعروف بـ: "ذي أوان" جاءه جبريل # بأمر الله ﷻ ألا يصلي في هذا المسجد، ويخبره بخبر هؤلاء وما أجمعوا عليه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨]، يقصد مسجد قباء.

وهنا أمر النبي ﷺ مالك بن الدُّخشم، ومَعْنَ بن عدي، وقيل: أخاه عاصم بن عدي، أمرهما أن ينطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، وأن يهدماه ويحرقاه، فقاما بهذا الأمر، فحرق المسجد وهدم وتفرق عنه أولئك المنافقون.

وهكذا نرى هؤلاء الكفرة المنافقين الذين يستترون خلف القول الصالح، والعمل الصالح صلاةً، وإنفاقًا، وخروجًا في الغزو، وبناء هذا المسجد ليباشروا من وراء ذلك أعمال السوء، والفساد، والكفر، حتى بناء المساجد حينما أعلنوا لرسول الله ﷺ أنهم إنما بنوه لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية.

وكان هذا القصد كما عرفنا إنما هو لمباشرة أعمال الكفر والنفاق انطلاقًا من مسجد أرادوا أن يصلي فيه النبي ﷺ وكان الذي بنى هذا المسجد وقام على أمره اثنا عشر رجلًا من المنافقين ممن كانوا على صلة وثيقة بأبي عامر الفاسق، ثم إنه # لما دنى من المدينة قال لأصحابه: "إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم"، فتعجب المسلمون وقالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة!. قال: "وهم بالمدينة حبسهم العذر".

وهكذا نرى أمر هذا الدين يعطي المؤمن الذي لا يقوم بالعمل الثواب الجزيل كأنه قام به، لأنه توفرت له نية الإيمان الصادق والإخلاص في العزم على العمل لولا الحوائل التي تحول دون ذلك، ويمنع الله ﷻ الثواب ويحرم منه حتى من خرج يتظاهر بالجهاد أو بالعطاء، يمنع الله ﷻ الثواب منه، لأنه لم تكن له نية.

وإن لنا في أمر المنافقين الذين خرجوا هذه الرحلة الطويلة، ولم ينالوا من وراء ذلك إلا سخط الله ﷻ وغضبه عليهم ولعنته، لأنهم كانت تنطوي جوانحهم على قلوب قد اسودت بالكفر وأفعمت بالعداء لله ولرسوله وللمؤمنين.

المتخلفون عن هذه الغزوة، وموقفه # منهم

ولما تم وصوله ﷺ إلى المدينة ورأى أحدًا قال: "هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه"، وقد خرج الناس للقائه # فيهم النساء والصبيان والولائد يتلقون رسول الله ﷺ عند ثنية الوداع بعد أن عاد بفضل الله ﷻ إلى المدينة.

هكذا عاد رسول الله ﷺ بهذا الجمع العظيم الذي ما اجتمع مثله له من قبل، ثلاثون ألفًا من الرجال على أصح الروايات في عدد أهل هذه الغزوة، معهم عشرة آلاف فرس، ما تخلفوا عن رسول الله ﷺ واستجابوا لدعوته # .

ولكن كان في المدينة جماعات تخلفوا عنه # منهم -من المنافقين- الذين تخلفوا بأعذار واهية، فكان يأذن لهم # تخففًا منهم. هذا إلى الأعداد الكثيرة التي تخلفت مع ابن سلول الذي كان له عسكرٌ كذلك عند خروج النبي ﷺ ولكنه كان عسكر كفر ومنافقين، وغير المنافقين فقد تخلف أناسٌ لم يكن هناك شك في إيمانهم تخلف بعضهم لأعذار وهم البكائون، الذين لم يجدوا ما يحملهم عليه

رسول الله ﷺ حتى إنهم لشدة عزمهم، وحبهم للخروج معه # بكوا، فسموا البكائين.

كما جاء الأشعريون ليطلبوا من رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، فانتظر بهم حتى جاءت رواحل أعطاها لهم فساروا بها.

وغيرها هؤلاء وأولئك، كان هناك أناس من المؤمنين الصادقين الذين أبطئوا وسوفوا في الاستعداد للخروج حتى فاتهم الوقت، فتخلفوا عن رسول الله ﷺ وكانوا على حسب ما ذكرت الروايات عشرة رجال هم: الثلاثة الذين خلفوا أصحاب كعب بن مالك وهم: كعب بن مالك وصاحباه، وسبعة آخرون هم: أبو لبابة ومن كانوا معه.

كذلك فإن أبا خيثمة تأخر، ثم لحق بالنبي ﷺ وكذلك تأخر أبو ذر ولكنه لحق بالنبي ﷺ.

وعلى الرغم من أنه # ما كان يعبأ بتخلف أهل النفاق ويتساهل في قبول أعذارهم، فإن أمره مع المؤمنين كان غير ذلك، ومن هؤلاء كما عرفنا أولئك الذين تخلفوا فكان أمره معهم دالًّا على أن المؤمن له حساب آخر، لأنه بإيمانه لا بد أن يكون عمله موافقًا للإيمان.

ولقد كان من أمره # مع هؤلاء العشرة الذين تخلفوا من المؤمنين الصادقين، فأما أبو لبابة ومن معه وهؤلاء سبعة أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد حتى يطلقهم رسول الله ﷺ فأقسم # ألا يطلقهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، ونزل فيهم قوله ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢]

فكان هذا إطلاقٌ لهم بأمر الله ﷻ ولذلك جاءوا بأموالهم إليه # قد تصدقوا بها، ويطلبون منه # أن يستغفر لهم، فقال # : "ما أمرت أن آخذ أموالكم"، فأنزل الله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]

ولما جاء أبو لبابة بماله أخذ # منه ثلث ماله وترك له الثلثين، وأبو لبابة نعرف أنه قد ربط نفسه من قبل حينما أحس أنه أفشى سر رسول الله ﷺ لليهود بنو قريظة، وهنا كذلك تخلف، ولكنه من بعد هذا لم ير منه إلا الخير في الإسلام.

هذا ولقد كان المتخلفون عن تبوك على هذا أقسامًا:

مأمورون مأجورون: كعلي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة الذي خلفه النبي ﷺ على المدينة من بعده.

ومعذورون: وهم الضعفاء والمرضى.

والمقلون: وهم البكاءون الذين لم يكن معهم ما يستعينون به على الخروج، ولا وجدوا من يحملهم على ذلك الخروج.

كذلك كان في المتخلفين عصاة مذنبون، وهم هؤلاء العشرة الذين تاب الله عليهم.

وآخر الأمر: ملومون، مذمومون، مغضوب عليهم، وهم: المنافقون الذين تخلف كثير منهم، وكان ممن خرجوا مع النبي ﷺ الأذى الكثير للمسلمين في هذه الغزوة، فما أصابوا خيرًا لا في تخلفهم، ولا في خروجهم مع النبي ﷺ.

وإذا عرفنا أمر السبعة أصحاب أبي لبابة من المؤمنين الذين تخلفوا وتاب الله عليهم؛ فإن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وهؤلاء الثلاثة

كانوا من الأنصار المعروفين بحسن إيمانهم، لأن كعب بن مالك شهد سائر الغزوات قبلها سوى بدر، كما أنه شهد بيعة العقبة التي كان يعتبر أن أمرها لا يقل عن أمر غزة بدر، ولكن تخلفه عن بدر لم يجد عتابًا فيه من النبي ﷺ لأنه لم يكن لأحد من الأنصار قبل بدر أن يخرج مع النبي ﷺ أو في سرية يبعثها.

ولكن في هذه الغزوة الأخيرة التي لم يشهدها كذلك كعب بن مالك يذكر من خبره: أنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، ولكنه يقول: طفقت أغدوا لكي أتجهز مع المسلمين، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، ولم يزل يتمادى به ذلك الأمر حتى اشتد بالناس الجد، ولكنه لم يكن قد قضى من جهازه شيئًا، ولم يزل به ذلك حتى أسرع الناس وفاتوا، يقول: هممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ أحزنني ألا أرى إلا رجلًا مغموسًا بنفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولما بلغه أنه # توجه قافلًا من غزوه، يقول: حضرني همي فطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.

ولما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أقبل زاح عني الباطل، وأجمعت على أن أصدقه فجئته، فلما سلمت عليه، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: "تعال"، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: "ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟"، فقلت: بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدقٍ تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر،

والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: "أما هذا فقد صدق الله فقم حتى يقضي الله فيك". قال: فقمت.

وثار رجال من بني سلمه رهطه، فجاءوا يؤنبونني أي: يعتبون عليه، أنه لم يعتذر كما اعتذر غيره، وكما قبل منهم النبي ﷺ من المنافقين، فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا نعم: رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما: مثل ما قيل لك وهما: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية صاحباه، فذكروا لي، قال عنهما: إنهما رجلان صالحان شهدا بدرًا، وأن له فيهما أسوة.

ثم إنه # عاقب هؤلاء الثلاثة بأن نهى المسلمين عن كلامهم، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم، حتى تنكرت لهم الأرض، يقول كعب: فما هي الأرض التي أعرفها، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم عليه، وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه أسارقه النظر أي: يختلس النظر إلى النبي ﷺ يقول: فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

يقول: وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطيٌ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، جاء يسأل الناس من يدله على كعب بن مالك؟ فلما أشار الناس إليه جاءه ودفع إليه كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه: "أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله في دار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك"، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، أي: أحرقها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة، إذا رسول من رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، اعتزلها ولا تقربها، وأرسل # إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى علي جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب، يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي فكسوته إياهما والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس يهنئونني بالتوبة، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك"، قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله، فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك"، فقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، وأنزل الله ﷻ على رسوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨].

ونأخذ من هذا الأمر الذي أخذ به أمثال هؤلاء ممن اشتد النبي والقرآن مع هؤلاء مع إيمانهم، لأنه لا يعامل المؤمن كمعاملة المنافق، على أنا نلاحظ بأن هذا التشدد مع الأنصار في أمر الخروج لهذه الغزوة، إن هذا الأمر ليدلنا على أنه حدث تطورٌ في أمر الأنصار، فإنهم بعد أن كانوا في بداية أمرهم ليس لهم الخروج عن المدينة مع النبي ﷺ في غزوة يغزوها أو في سرية يبعثها، فإنا نرى الأمر في بدر، وكان أول ما شهد من خروجهم في بدر خرجوا من عند أنفسهم، وتركهم النبي ﷺ لأنهم ما خرجوا لقتال، وإنما كان الخروج للقافلة، ثم من بعد ذلك نرى حرصهم على أن يخرجوا للجهاد، وكان أول إصرارهم على ذلك في أحد التي لم يرض شباب الأنصار ممن فاتهم الخروج في بدر، وممن ندموا أن فاتهم ذلك الشرف يحرصون على الخروج من بعد ذلك في أحد وما تلاها من الغزوات والسرايا كما عرفنا، حتى آل الأمر في هذه الغزوة إلى أن يعامل هؤلاء الأنصار الذين تخلفوا هذه المعاملة، فيمنع الناس من كلامهم، ويفرق بينهم وبين أزواجهم حتى كان من أمر الله ﷻ فيهم ما كان.

سورة التوبة سجل حافل بأمر هذه الغزوة ومواقف المنافقين فيها، والوفود دليل على قوة الأسلام، والسنة التاسعة وأهميتها في هذا الشأن، اهتمام المؤرخين بأمر الوفود

وهنا نرى كيف تحول الأمر بعد ذلك إلى أن أمر الجهاد والخروج في سبيل الله ﷻ لم يعد يُفَرَّقُ فيه بين مهاجري وبين أنصاري، وإنما الكل جنود من جنود الله ﷻ؟.

هذا وكما عهدنا في غزواته ﷺ التي ينزل القرآن العظيم مسجلًا أحداثها، وكل أمر يتعلق بها، فإن سورة "التوبة" التي سميت كذلك سورة "الفاضحة" التي فضحت

المنافقين وأعمالهم، تناولت بإفاضة أمر هذه الغزوة من حين أمر النبي ﷺ بالاستعداد لها، وبينت أحوال الناس من المؤمنين الذين أسرعوا، وسارعوا في الإعداد، والاستعداد للخروج في هذه الغزوة باذلين المال، والنفس في سبيل الله.

كما أنها تناولت أمر الذين تباطئوا واثاقلوا عن إجابة هذه الدعوة، كما أنها أفاضت في أمر المنافقين الذين اعتذروا بأعذار واهية، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ وكان ذلك من أمر الله وحبه أن يتخلفوا ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

كما أن الآيات تتناول أمرهم من بعد ذلك، لا تترك الآيات صغيرًا ولا كبيرًا من أمرهم حتى توضحه وتبينه لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، كشأن القرآن دائمًا يفضح هؤلاء في كل المواقف التي يظهر فيها إيمان المؤمن، ويميز الله الخبيث فيها من الطيب حتى تتضح صورة هؤلاء، على الرغم من أنه مضى زمن طويل للإسلام في المدينة أسلم فيه من أسلم من أهلها ومن غيرهم، وصدق اللهَ فيه من صدق، ولكن هؤلاء دائمًا الذين لم يرد الله بهم خيرًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، هذا كان مصيرهم وهذا كان شأنهم، ليسوا أهلًا لفضل الله ﷻ ولا لخير ينالونه في الإسلام.

الوفود دليل على قوة الإسلام، والسنة التاسعة وأهميتها في هذا الشأن:

وقد شهدت السنة التاسعة للهجرة وفود كثيرٍ من قبائل العرب على النبي ﷺ وكان هذا الأمر كنتيجة لظهور أمر الإسلام في الجزيرة العربية بعد فتح مكة، وحصار الطائف، وبعد غزوة تبوك التي عرف الناس فيها قوة المسلمين الذين خرجوا لقوة الروم وأعوانهم، ولم يلقوا كيدًا ولا حربًا، ولكن مع هذا أثبت خروج النبي ﷺ في غزوة تبوك قوة الإسلام.

ومما لاشك فيه أن هذه الأعمال التي تمت في العام الثامن والتاسع للهجرة أقنعت العرب بهذا الأمر وهو قوة المسلمين، والعرب يحترمون القوة والأقوياء، وكان

إسلام قريش في العام الثامن بعد فتح مكة، وهدم الأوثان فيها، وإرسال السرايا لهدم الأوثان والأصنام في أرجاء الجزيرة العربية، كان كل ذلك من العوامل التي أقبل العرب طائعين يعلنون إسلامهم بسببها.

اهتمام المؤرخين بأمر الوفود:

ولقد لقي أمر الوفود اهتمامًا كثيرًا من المؤرخين، وكتاب السير، والمحدثين مثل: البخاري، والبيهقي، وابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وكذلك ابن كثير الذي كان من أهمهم تناولًا لذكر الوفود واستدراكًا على من سبقه من العلماء.

ولقد زاد عدد هذه الوفود التي ذكرها هؤلاء الأئمة عن الستين وفدًا، في حين أن بعض المؤرخين وكتاب السير زاد بها على المائة.

وإذا كان قد اشتهر بين المؤرخين بأن السنة التاسعة كانت سنة الوفود، فإن ذلك لا يستلزم أنه لم يسبق هذه السنة مجيء وفود تعلن إسلامها ولا بعدها، ولكن كانت هذه السنة قد شهدت وفود الكثيرين من قبائل العرب.

ويذكر ابن كثير بأن الذين قدمت وفودهم إلى النبي ﷺ قبل الفتح إنما تعد وفادتهم هجرة للنبي ﷺ ولذلك فإنهم يفضلون من جاء بعد الفتح.

نماذج من أهم الوفود

وإذا كان أمر الوفود على هذه الكثرة الذي تناوله بها المؤرخون، وكتاب السير، فإننا نختار بعض هذه الوفود كأمثلة لما كان يتم في لقاء النبي ﷺ بهذه الوفود التي جاءت تعلن إسلامها راغبة أو راهبة.

وكان النبي ﷺ يهتم بلقاء هذه الوفود، فكان # يلبس أحسن ثيابه، وكانت له حلة يمانية، كذلك كان يحضر لقاء هذه الوفود بالنبي ﷺ الصحابة، وعليهم مثل ما عليه من جميل الثياب، وهذا نوع من رقي الذوق في الإسلام.

كما أنه # كان يعلم هذه الوفود أركان الإسلام، ويجيب على من يريد التفقه منهم في أمور الدين العامة، أو فيما يخصه من المسائل، ثم إنه # كان يودعهم، ويحسن العطاء لهم.

ولقد ترددت في كثير من الوفود عبارات أنهم نزلوا في بيت رملة بنت الحارث، وهي امرأة من الأنصار لها صحبة، وكانت زوجًا لمعاذ بن عفراء، وكانت دارها مع معدة لنزول الوفود.

كما أن بلالًا كان يقوم بخدمة هذه الوفود وإطعامهم، والسعي بينهم، وبين رسول الله ﷺ وإعطائهم الجوائز، كما نلاحظ ذلك في كثير من النصوص التي تناولت ذلك الأمر.

ونحن إذا ألقينا نظرة على الكتب التي تناولت أمر الوفود سنجد أن بعضها نهج نهجًا في الترتيب غير الآخر.

فمثلًا ابن سعد قسم الوفود ورتبها على أساس نسبها، فبدأ بوفود قبائل مضر، وذكر منهم ثلاثة وعشرين وفدًا، ثم ذكر وفود ربيعة التي كانت خمسة وفود، ثم وفود اليمن التي بلغت اثنين وأربعين وفدًا.

كذلك فإن الصالحي وهو محمد بن يوسف المتوفى سنة تسعمائة واثنتين وأربعين في كتابه (سبل الهدى والرشاد) ذكر الوفود ورتبها على حروف المعجم حتى يسهل التناول لها.

كما أن ابن كثير لما ذكرهم على حسب أفضليتهم في السبق ذكر أول ما ذكر:

وفد مزينة الذين قدموا على النبي ﷺ في السنة الخامسة للهجرة، وكانوا أربعمائة رجل، وكان ذلك في رجب من السنة الخامسة، وقد جعل لهم النبي ﷺ

وفادتهم هجرة لهم، ولكنه جعل هجرتهم في دارهم وقال: "أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم"، وكان أو من قدم منهم خزاعي ابن عبد نهم، مع عشرة من قومه، فبايع الرسول ﷺ على إسلام قومه، لكنهم تأخروا بإسلامهم، فأمر # حسان بن ثابت أن يذكر خزاعي في شعر وأمره ألا يهجوه، فقال حسان:

ألا أبلغ خزاعيًا رسولًا ❖ بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرٍ ❖ وأثناها إذا ذكر الثناء
وبايعت الرسول وكنت خيرًا ❖ إلى خير وأداك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه ❖ من الأشياء لا تعجز عداء

أي: أنه ذكره بعهده مع رسول الله ﷺ وأنه إذا لم يجد إقبالًا من مزينة كلها على الإسلام، فإن رهطه وهم: عِداء الذين هو منهم يمكن أن تؤثر فيهم هذه الدعوة، وأن يكون الشعر هذا مؤثرًا فيهم، ولذلك قال لهم خزاعي: لقد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله، وحضهم على الإسلام، ولذلك فإنهم قالوا: لا نبو عليك، ولم يخذلوه وأسلموا، ووفدوا على النبي ﷺ.

وقد دفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعي، وكانوا يوم الفتح ألف رجل.

على أن أهم الوفود التي وفدت على النبي ﷺ في عام الوفود كان وفد ثقيف أهل الطائف، الذين قدموا عليه ﷺ في رمضان من السنة التاسعة مرجعه من غزوة تبوك.

وكان الذي دفعهم إلى هذا أن الإسلام وقع في قلوب رجال كان لهم شأنهم في ثقيف، أمثال: عروة بن مسعود الذي لحق بالنبي ﷺ بعد أن مضى إلى المدينة من

حصار الطائف، ولقد كان ﷺ يحرص على ثقيف، كما كان يحرص على قريش، لأن بقاءها في هذه النواحي ما يعد قوة للإسلام.

ولعلنا نذكر أنه # كان أول بلد خرج إليه يدعوه إلى الإسلام -بعد مكة- كانت الطائف، ولما حاصر الطائف لم يشتد في حصارها، ولم يستمر حتى يفتحها لأنه أراد أن تأتي ثقيف مسلمة بأمر الله، ولذلك لما طلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف قال: "اللهم اهد ثقيف، وائت بهم" وكان أمر مالك بن عوف قائد هوازن أنه كان يغير عليهم، ويقاتلهم حتى ضيق عليهم فلم يجدوا بدًّا من أن يتوجهوا إلى المدينة، فائتمروا فيما بينهم، ومشى رجال منهم إلى النبي ﷺ منهم: عبد ياليل، وابناه: كنانة، وربيعة، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة، وعثمان بن أبي العاص، وكثيرون غيرهم بلغوا نحوًا من سبعين رجلًا. في حين يذكر بعض الرواة أنهم كانوا بضعة عشر رجلًا وهذا هو الأثبت.

ثم إنهم لما قدموا إلى المدينة رآهم المغيرة بن شعبة وكان في ركاب المسلمين يرعاها، فلما رآهم أسرع يخبر النبي ﷺ ويبشره # بمجيء قومه، فتلقاه أبو بكر وعلم منه وأقسم عليه ألا يسبقه بهذا الخبر إلى رسول الله ﷺ وأن يكون أبو بكر هو الذي يبلغ النبي ﷺ ولذلك سر النبي ﷺ بمجيئهم، وضرب لهم قبة في المسجد، وكانوا ضيوفًا عليه نحوًا من عشرة أيام.

وكان # من حرصه على ثقيف فإنه كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم ويحدثهم ويراوح بين قدميه من التعب في الوقوف، كما أنه # حرص على تعليمهم القرآن، وتفقيههم في أمر الدين.

ومن ناحية أخرى؛ فإن وفد ثقيف سألوا رسول الله ﷺ أمورًا لم يجبهم إليها، فقد سألوه # أن يدع لهم الطاغية وهي: اللات ثلاث سنوات فأبى عليهم ﷺ

ذلك، فما برحوا يسألونه سنة، سنة ويأبى عليهم # ذلك، حتى سألوه أن يستبقيها شهرًا بعد مقدمهم إلى الطائف فأبى كل ذلك عليهم # ثم إنهم وما كان قصدهم من وراء هذا إلا أن أهل الطائف كانت قد أشربت قلوبهم حب اللات، وكانوا يخشون من سفهائهم، ومن النساء، ولذلك فإنهم لما رأوا شدة الرسول ﷺ في هذا الإباء استعفوه من أن يهدموها بأيديهم، فأجابهم إلى ذلك.

كما أنهم طلبوا منه # أن يعفيهم من الصلاة فقال # : ((وأما الصلاة: فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه)) وهكذا أسلم هذا الوفد، وكتب لهم النبي ﷺ كتابهم.

ثم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًّا، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم القرآن، وهذا مما لاحظه عليه أبو بكر > فذكر ذلك للنبي ﷺ وكان من وصاته # لعثمان: بأن يسير فيهم بأمر الدين، وفيما يتعلق بأمر الصلاة فإنه أمره أن يتجوز فيها وأن يقدر الناس بأضعفهم، حتى يكون في ذلك استمالة لقلوب ثقيف إلى الصلاة، ما داموا قد طلبوا إعفاءهم منها.

أما أمر اللات؛ فإن النبي ﷺ بعث معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة أخاهم لهدم اللات؛ فتقدم فأراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان في أمر الهدم، ولكن أبا سفيان أبى من ذلك، فتقدم المغيرة بن شعبة وعلاها يضربها بالمعول، وقام دونه بنو معتب قومه خشية أن يرمى أو يُصاب كما أصيب عروة من قبل حينما أذن في علية بيته لما أسلم.

وكان أبو مليح بن عروة، وقارب بن الأسود قدمًا على النبي ﷺ في وفد ثقيف حين قتل عروة، يريدان فراق قومهما فأسلما، وقال لهما النبي ﷺ: "توليا من

شئتما" لأنهما عزما على هجر قومهم ثقيف، فقالا: نتولى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: "وخالكما أبا سفيان بن حرب" وقد طلب أبو مليح بن عروة أن يقضي النبي ﷺ دين أبيه من مال اللات، فوافق النبي ﷺ على ذلك، فطلب قارب بن الأسود ذلك أيضًا لقضاء دين أبيه الأسود بن مسعود أخي عروة، ولكن النبي ﷺ لم يرض، لأنه مات على شركه، فقال قارب: يا رسول الله، إنما تصل بذلك مسلمًا فإن دينه علي، فوافق النبي ﷺ على أن يُقضى دين عروة المسلم، ودين أخيه الأسود من أموال اللات.

وهكذا أسلمت القرية الأخرى التي كانت لها مكانتها قريبًا من مكة، وأصبحت قوة للإسلام، وأصبحت كذلك ثقيف قوة للإسلام والمسلمين.

كذلك وفد على النبي ﷺ وفد تميم وهي من القبائل التي لها شهرتها بين العرب.

وكان قدومهم عليه # لما نالهم على يد السرية التي بعثها النبي ﷺ وجعل عليها عيينة بن حصن، ذلك أنهم تعرضوا للمصدق الذي جاء يأخذ زكاة خزاعة، ذلك أن خزاعة جمعت زكاتها فاستنكرت بنو تميم ذلك، واستكثرت هذه الزكاة، وشهروا سيوفهم مما دفع عامل رسول الله ﷺ على هذه الصدقات إلى أن يرجع إلى النبي ﷺ فقال: "من لهؤلاء؟" فانتدب عيينة بن حصن فبعثه النبي ﷺ فلم يصمدوا له، بعد أن أغار عليهم، ويقال: بأنه أسر أحد عشر رجلًا منهم، وسبى إحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيًّا، وقدم بهم إلى المدينة، ومن ثم جاء رؤساء بني تميم إلى النبي ﷺ فيهم عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، ورجالٌ كثيرون من رؤسائهم، وتذكر بعض الروايات أنهم كانوا نحوًا من ثمانين أو تسعين رجلًا، فدخلوا المسجد وقد أذن بلال لصلاة الظهر والناس ينتظرون خروج النبي ﷺ ولما كان بنو تميم لم يعرفوا

آداب المسجد، وقد جاءوا فإنهم صاحوا ينادون النبي ﷺ من وراء الحجرات: اخرج لنا يا محمد.

ولذلك ذكرت هذه الحادثة آيات سورة الحجرات التي سميت بالحجرات، حجرات نساء النبي ﷺ التي نادوه من ورائها، ثم إنهم قالوا للنبي ﷺ: إنما جئنا نفاخرك، وكان هذا بعد أن صلى # الظهر بالناس، فأذن # لخطيبهم أن يتكلم، فقام عطارد بن حاجب فتكلم يفخر بقومه وأعمالهم، فأمر النبي ﷺ ثابت بن قيس أن يقوم فيجيب عن المسلمين فقام فخطب وأجاد > ثم قالوا: يا محمد، ائذن لشاعرنا فأذن له ﷺ فقام الزبرقان بن بدر فأنشد قصيدة يعدد فيها -كذلك- مآثر قومه ويفاخر بهم، فلما فرغ الزبرقان من شعره، طلب النبي ﷺ من حسان أن يجيبه، فقام حسان فقال: شعرًا يرد به على شاعر بني تميم، ويذكر فيه مآثر المهاجرين والأنصار، فلما فرغ حسان من شعره، قال الأقرع بن حابس: وأبي يقسم إن هذا الرجل -يقصد النبي ﷺ- لمؤتًا له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، ثم بعد ذلك أعلن القوم إسلامهم، وجوزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم.

كذلك وفد على النبي ﷺ ضمام بن ثعلبة وافدًا عن قومه بني سعد بن بكر، وقد جاء إلى مسجد النبي ﷺ فأناخ بعيره على باب المسجد، ثم دخل وسأل عن النبي ﷺ وكان جالسًا في أصحابه، وسأل النبي # أسئلة عن حق رسالته، وأن ما أمره الله به من أوامر الإسلام، وعدد فرائض الإسلام، وكان # يجيبه عن كل ما يسأل، ثم إنه لما فرغ من سؤاله النبي ﷺ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى قومه راجعًا، ولما أتى قومه دعاهم

فاجتمعوا إليه، فكان أول ما قال فيهم: بئست اللات والعزى، فقالوا: مه، يا ضمام اتق البرص والجذام والجنون، يخوفونه أن تصيبه اللات والعزى، فقال: إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه، فأجابه قومه إلى الإسلام.

وكان يقول عبد الله بن عباس: "فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام".

وكان من خير الوفود التي وفدت على النبي ﷺ وفد عبد القيس، هذه القبيلة التي كانت تسكن البحرين، وكانت لهم وفادتان على النبي ﷺ:

الأولى: قبل الفتح في سنة خمس أو قبلها، وهم أول من أقاموا الجمعة بعد المدينة بقريتهم المعروفة باسم جواثا التي سبقت القرى كلها في تجميع الجمعة.

وكان وفدهم الأول ثلاثة عشر رجلًا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وقد قالوا للنبي ﷺ: إن بيننا وبينك كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأشياء نأخذ بها وندعو من وراءنا، فأوجز لهم # الأمر والنهي في الدين، وكان # بشر بمقدمهم بين أصحابه، وقال عنهم بأنهم خير أهل المشرق.

ولذلك قام عمر يستقبلهم ويخبرهم بما قال عنهم النبي ﷺ فنزلوا سراعًا عن رواحلهم، فأتوا النبي ﷺ لم يرتدوا لباس اللقاء به # وإنما تلقوه بلباس سفرهم فرحًا بهذه البشرى، وتناولوا يده الشريفة يقبلونها.

الثانية: فكانت سنة الوفود، وكان عددهم حينئذ أربعين رجلًا فيهم الجارود بن عمرو الذي كان على النصرانية، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، ورغبه فيه، فقال: يا محمد، إني كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟ فقال النبي ﷺ: "نعم، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه" فأسلم وأسلم أصحابه، وكان الجارود حسن الإسلام، صُلبًا في أمر دينه، حتى وافته منيته، وقد أدرك الردة، فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينهم الأول بعد أن غرر بهم الغرور بن المنذر، قام الجارود فتكلم وشهد شهادة الحق، ودعا إلى الإسلام، فقال: أيها الناس، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأكفر من لم يشهد.

وهنا ملاحظة وهي: أن إقبال أمثال هؤلاء الرجال الذين كانوا على دين سماويٍ إنما يدل على ثبات الإيمان في قلوبهم، لأنهم ما يدخلون إلا عن اقتناع، أما الوثني فإنه يعلم أنه ليس على شيء.

كما قدم المدينة وفد طيئ فيهم سيدهم زيد الخيل، وقد عرض رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال النبي ﷺ عن زيد: ((ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته، دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل؛ فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه، ثم سماه # زيد الخير، وقطع له مكانًا بشرقي سَلْمى)) وهو أحد جبلي طيئ هذا المكان اسمه: فيد، كما أقطعه أرضين معه، وكتب له بذلك كتابًا فخرج من عنده # راجعًا إلى قومه، ولكن أدركته الوفاة وهو في طريقه.

وما دمنا في الحديث عن طيئ فنذكر أمر عدي بن حاتم الطائي الذي أسلم هو الآخر، ولكن بعد أن هرب إلى الشام كرهًا في الإسلام، وكان قد فر إلى الشام لما

غزا المسلمون طيئ، فر بأهله وترك أخته التي أخذت مع من أخذ من أهل طيئ، فلما جيء بهم إلى المدينة سألت النبي ﷺ أن يمنّ عليها بالفداء، وكررت ذلك عليه أيامًا، حتى منّ عليها النبي ﷺ ولكن قال لها: "لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لكي ثقة حتى يبلغك بلادك، ثم آذنيني". ولكنها كانت تقصد أن تذهب إلى أخيها بالشام، فانتظرت حتى قدم ركبٌ من بلي، أو قضاعة، فاستأذنت النبي ﷺ في أن تخرج فأذن لها # وكساها، وأعطاها نفقة، وحملها على ما يبلغها غايتها.

ثم إنها لما وصلت إلى الشام عاتبت أخاها على تركه إياها، ونصحته أن يلحق بالنبي ﷺ وأخبرته عن أمر النبي ﷺ معها، ولذلك قدم أخوها عدي إلى النبي ﷺ فلما دخل المسجد، وسلم على النبي ﷺ وعرف أنه عدي، انطلق به # إلى بيته، وكان عدي يلاحظ أمر النبي ﷺ وأمره مع المسلمين، فأعجب بوقوف النبي ﷺ لامرأة ضعيفة كبيرة استوقفته فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها # فقال عدي: فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ثم إنه # مضى به حتى دخل بيته فتناول وسادة من أدم، فتناول وسادة فدفعها إليه وقال: اجلس على هذه، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فما رضي النبي ﷺ فدفعها إليه فجلس عليها، وجلس النبي ﷺ على الأرض، فقال: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال النبي ﷺ: "يا عدي، إنك ركوسي، قال: بلى، قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قال: أجل والله، قال: وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل بين الناس؛ ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ثم إنه أسلم وحسن إسلامه > .

نمـــاذج مــن الوفـــود الـــسيئة

وإذا كانت هذه الوفود تمثل وفودًا جاءت طائعة لله أسلمت من عند أنفسها وحسن إسلامها بعد أن عرض النبي ﷺ عليها هذا الدين العظيم، فإنه كان من الوفود وفودٌ كانت سيئة المقصد، ومن هؤلاء:

وفد بني حنيفة:

الذين قدموا عليه # وكان فيهم مسيلمة الكذاب، وكانوا بضعة عشر رجلًا، وقد أقاموا أيامًا يختلفون إلى رسول الله ﷺ يعلمهم أمر الدين، ويدعوهم إلى الإسلام، وكان فيهم الرّجّال بن عنفوة يتعلم القرآن من أبي بن كعب، ثم إنهم لما أرادوا الرجوع، أمر لهم # بجوائز لكل منهم.

فلما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة، وتنبأ لهم، وقال: إني أشركت في الأمر معه يقصد النبي ﷺ وسجع لهم سجعًا يضاهي به القرآن، واستمال عقول قومه الذين استجابوا لأمره، والتفوا حوله مرتدين عن الدين.

ولقد بعث النبي ﷺ الرَّجَّال بن عنفوة الذي تعلم القرآن حتى يقف في وجه مسيلمة، ويمنع الناس من أن تؤثر فيهم هذه الفرية الكاذبة، لكنه كان شرًّا على قومه هو الآخر، فلم يفده ما تعلم من القرآن، وما عرف من أمر الدين من بعد قومه في المدينة، ودخل في هذه الفتنة يزيد من سُعارها، ويعلن للناس أن رسول الله # إنما بعثه ليؤيد دعوة مسيلمة، كان لهذا أثره في استشراء هذه الفتنة، فتنة مسيلمة في نواحي نجد، والتي كانت أخطر حركات الردة التي واجهها المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ

وفد بني عامر:

كذلك فإن وفد بني عامر الذين جاءوا وفيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، جاء عامر إلى النبي ﷺ يقول بأنه يخيره # بين ثلاث خصال: أن يكون للنبي ﷺ أهل السهل وله أهل المدر، أو أن يكون خليفته من بعده وإلا فإنه سيغزوه بغطَفان، وكان مما قاله للنبي ﷺ أتجعل لي الأمر من بعدك إن أسلمت؟ فقال النبي ﷺ: ليس ذلك لك ولا لقومك هذا الأمر الذي طلب منه # أيامًا إن كان يعرض نفسه على القبائل، وهو في مسيس الحاجة إلى من يقف بجانبه من العرب حتى يؤدي رسالة ربه، ولكنه أبى من كل هذا، وقال: إن الأمر لله، إن الأمر لله، إن الأمر لله يجعله حيث شاء، وكان عامر قد دبر مؤامرة مع إربد بن قيس للغدر بالنبي ﷺ ولكن الله منع رسوله ﷺ من ذلك فكان عامر يقول لأربد: "سوف أشغله عنك وأنت تعلوه بالسيف، ولكن الله ﷻ منع رسوله ﷺ وعاد عامر بعد أن لم يسلم؛ فقتله الله في الطريق وقتل أربد بصاعقة من السماء.

كذلك قدم النبي ﷺ فروة ابن مسيك المرادي الذي جاءه # مفارقًا لملوك كِنده ومباعدًا لهم فأسلم وحسن إسلامه واستعمله النبي ﷺ على مراد وزبيد ومزحج، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ ولقد قال فروة للنبي ﷺ: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: "نعم، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم". فلما وليت دعاني فقال: "لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام".

كذلك وفد على النبي ﷺ وفد الأزد ثم وفد أهل الجرش حيث قدم أولًا سرد بن عبد الله الأزدي في وفد من قومه على النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وأمره النبي ﷺ على من أسلم من قومه وأمره # أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبل اليمن.

ولذلك فإنه جاهد أهل جُرش، وكانت مدينة حصينة وبها قبائل من اليمن، وقد انضم إليهم قبيلة خثعم فتحصنوا بجرش لما سمعوا بمسير المسلمين إليهم فحاصرهم سُرد شهرًا أو قريبًا منه، ثم إنه أوقع بهم في قتال نال منهم فيه، وكان أهل جرش لما ضيق عليهم قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ ينظران في أمره، فلما كان عنده ﷺ نعى لهم قومهما يوم أن أوقع بهم سُرد بن عبد الله، ودعا لأهل جرش بأن يرفع الله عنهم ما نزل بهم، ولما رجع الرجلان إلى قومهما فأخبراهم بأمر ما أخبرهم به النبي من أمر ما وقع به سارعوا إلى الإسلام وحسن إسلامهم.

وفد ملوك حمير، وجُزام، وهمدان:

كما قدم على النبي ﷺ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك، وجاء رسولهم إليه # بإسلامهم فكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا ذكر لهم علمهم بكتابهم وبما فيه من إسلامه، وقتلهم المشركين، وأن الله قد هداهم بهداه إن أصلحوا وأطاعوا الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة.

ثم بين لهم # أمر الزكاة وبين ما عليهم فيه في كل ما يجب فيه الزكاة، كما أنه # بعث إليهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة، وأمرهم أن يجمعوا ما عندهم من الصدقة والجزية من مخالفهم في الدين مما بقوا على نصرانية أو يهودية، كما أنه # أمرهم أن يحسنوا إلى رسوله الذين بعثهم إليهم ليعلمهم وليفقهوهم في الدين، وقد أمر النبي ﷺ على من بعثهم إلى ملوك حمير معاذ بن جبل بعد أن أوصاه بهم، وقال له: "يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر"، وبعد أن سأله بماذا يحكم فيهم؟ فقال: "بكتاب الله"،

فقال: فإن لم تجد؛ فقال: فبسنة رسول الله ﷺ فقال لـه # : "فإن لم تجد"، فقال: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو، فتبسم النبي ﷺ وقال: "الحمد لله الذي هدى رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله ﷺ.

وفد جُزام:

كما قدم على النبي ﷺ وفد جزام وفيهم رفاعة بن زيد الجزامي الذي كتب له النبي ﷺ كتابًا له ولقومه، ولمن دخل معهم أن يدعوهم إلى الله ﷻ فمن أقبل ففي حزب الله ومن أبى فله أمان الله شهرين فأجابه قومه وأسلموا، حتى إن رجلًا من جُزام كان عاملًا للروم على معان وما حولها من أرض الشام أسلم كما أسلم قومه، وأهدى للنبي ﷺ بغلة بيضاء، فلما علم الروم بإسلامه أخذوه فقتلوه وصلبوه، ولما قدم للقتل قال: "أبلغ صراط المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي" وهذا مما يدل على موقف الروم ومن تابعهم من الإسلام حتى هذا الحين.

وفد همدان:

كما كان من الوفود التي جاءت وفد همدان الذين رحب بهم النبي ﷺ قائلًا: نعم الحي همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد، ومنهم أبدان وأوتاد الإسلام فأسلموا وكتب لهم النبي ﷺ بما أقطعهم بهم من نواحي بلادهم كتب ذلك لمن أسلم منهم ﷺ.

وهنا نشير إلى أنه كان من أهل همدان من أجاب النبي ﷺ أيام عرضه نفسه الكريمة على القبائل وهو في مكة من قبل الهجرة حيث لقيه قيس بن مالك بن

سعد، وقال: يا رسول الله، أتيتك لأؤمن بك وأنصرك فقال له # : "أتأخذنني بما في يا معشر همدان" قال: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: فاذهب إلى قومك فإن فعلوا فارجع أذهب معك، ولكنه # جاءه الأنصار الذين كتب الله لهم أن يكون بلدهم مهاجر النبي ﷺ ذلك أن الأنصار لم يتربصوا بإسلامهم وإنما أقبلوا طائعين.

ويذكر بأن وافد همدان استأذن النبي ﷺ أن يراجع قومه في أمر الإسلام فرضي النبي ﷺ بذلك، ولكن عوض الله بالأنصار خيرًا من عنده، وإذا كنا قد أشرنا إلى وفد همدان وتذكرنا أمرهم أيام عرضه # نفسه على القبائل، فإن وفدًا كان من أشد الناس # في ذلك الوقت وهم بنو محارب الذين جاءوا للنبي ﷺ فأسلموا فأكرم النبي ﷺ وفادتهم، وقال له # نحن على من ورائنا، وكان في الوفد رجل منهم فعرفه النبي ﷺ فقال الرجل للنبي ﷺ: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك. وكان هذا الرجل قد أساء إلى النبي ﷺ وبالغ في الإساءة.

هذه هي أمثلة لبعض الوفود التي وفدت على النبي ﷺ تعلن إسلامها، وإن أمر الوفود التي جاءت إليه # إنما يدل على أن دعوة الحق قد انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية على اختلاف قبائلها، والتي يعد قدومها إلى المدينة دليلًا واضحًا على ذلك، وهكذا جعل الله لجهاد رسوله ﷺ بعد أن وصل إلى المدينة في خلال هذه الفترة الوجيزة كانت هذه النتيجة التي لم تحدث من قبل ولم تقم بها قوة مكن الله لها في الجزيرة من الممالك المختلفة التي قامت في اليمن أو في كندة أو من ملوك غسان أو من غيرهم ممن كانت الحروب بينهم تتابع، ولا يزيد أمرها إلا تفريطًا للعرب، وخضوعهم إلى القوى الخارجية، سواء أكان الروم في الشام أو الفرس في العراق وفي اليمن، وكان يتبع انضواء هذه القبائل كلها تحت راية

الإسلام إلى أن هذه العقيدة قد ساد أمرها ووحدت العرب جميعًا تحت ظل راية الإسلام، وهذا أمر لم يتم إلا بفضل الله ﷻ وجهد النبي ﷺ وجهاده هو وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وهذه الوفود التي تعرضنا لبعض أمثلة منها إنما تدل على ذلك الأمر كله، ثم إنه # بعث الرسل من عنده معلمين للقبائل، كما بعث المصدقين الذين يجمعون الزكاة من القبائل، والعمال على هذه النواحي حتى تشتد آصرة الانتماء إلى الإسلام، وإلى مدينة النبي ﷺ التي توجهت القلوب كلها عن طواعية للمدينة.

فأرسل # المهاجر ابن أبي أمية إلى صنعاء، كما بعث زياد بن لبيد إلى حضر موت، وعدي بن هشام اليرجوعي على صدقات بني حنظله، وبعث عدي بن حاتم الطائي على طيء وصدقاتها، وبعث علي بن أبي طالب > إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم؛ لأنه كان فيهم من أسلم ومن بقي على نصرانيته.

على أن أمر الإسلام لقي في نجد وفي اليمن ما يعكر صفوه بانبعاث مسيلمة الكذاب في بني حنيفة في نجد، وتعرضنا للكتاب الذي بعثه مسيلمة إلى النبي ﷺ وبقي أمر مسيلمة بهذه الفتنة التي استشرى أهلها في نجد حتى بعد وفاة النبي ﷺ وكانت فتنته من أشد حركات الردة التي قضي عليها في خلافة أبي بكر > بعد وفاة النبي ﷺ.

ومن ناحية أخرى فإن كاذب آخر أدعى النبوة في اليمن هو الأسود العنسي الذي استشرى خطره في اليمن بعد أن مات باذان عامل النبي ﷺ الذي استجاب لأمر الله ودخل باليمن في الإسلام لما مات بزان هذا انبعث الأسود العنسي بهذه الفتنة

وأدعى النبوة واجتمع عليه أناس كثيرون حتى خافه عمال النبي ﷺ لأن فتنته عظم خطرها واستشرى أمرها، وما كان انبعاثه إلا بعد موت باذان كما عرفنا فاستولى على صنعاء وتزوج امرأة باذان كرهًا عنها، وقد تعاون جماعة من الأبناء من الفرس على قتل هذا الرجل بمساعدة المزوبانة زوجة باذان وقضى الله على هذه الفتنة التي استشرى خطرها فقد كان هذا الكذاب يستعين بشيطانين أحدهما: يسمى سحيق والآخر يسمى: شقيق كان يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس وكان هذا مما فتن الناس به.

ولما تمكن الأبناء في اليمن من قتل الأسود بعثوا إلى النبي ﷺ يخبرنه ولكن النبيﷺ جاءه الوحي بذلك من قبل وفاته # بيوم وليلة فأخبر أصحابه بذلك ثم جاء الخبر بعد ذلك بعد خلافة أبي بكر > وقيل: وصل الخبر بذلك صبيح دفن النبي ﷺ وهكذا قضى الله على هذه الفتنة في نواحي اليمن، وعاد اليمن مسلمًا، كما كان وعزة كلمة الإسلام فيه، ورجع عمال النبي ﷺ إلى أعمالهم ومباشرة ما كلفهم به النبي ﷺ.

هذه من الأحداث التي كانت قبل حجه # وهي أحداث عظيمة كانت لها دلالتها على رسوخ الإسلام في نواحي الجزيرة من قبل وفاة النبي ﷺ اللهم ما كان من أمر مسيلمة الكذاب في نواحي نجد.

حجة الوداع

عناصر الدرس

العنصر الأول :	إعلان حجه # والخارجين فيه، حج أبي بكر وما تَمَّ فيه	٥٥٥
العنصر الثاني :	إعلان الناس بحجه # ، المسير إلى مكة والوصول إليها، وسوقه الهدي معه #	٥٥٧
العنصر الثالث :	بدأ أعمال حجة # : يوم عرفه وعمله # فيه، وعمل ليلة النحر بمزدلفة، وعمل يوم النحر بمزدلفة ومنى وحكمه	٥٥٩
العنصر الرابع :	تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك، ذهابه # إلى منى، وحجه، وخطبته	٥٦١
العنصر الخامس :	ـواف الوداع والعودة إلى المدينة، وبعثه # بأسامة لغزو الروم وأعوانهم، ومرضه #	٥٦٦
العنصر السادس :	مؤكدات الإحساس بدنو أجله # وصلاة أبي بكر بالناس	٥٧٠
العنصر السابع :	ساعة وفاته # وذهول الناس هول النبأ، وثبات أبي بكر، تلاقي أبي بكر خطر الفتنة، أبو بكر خير من يخلفه #	٥٧٣

إعلان حجه # والخارجين فيه، حج أبي بكر وما تمَّ فِيه

أ. إعلان حجه # والخارجين فيه:

عزم النبي ﷺ على أن يختم حياته بحج إلى بيت الله الحرام وكان ذلك في السنة العاشرة من الهجرة، حينما خرج إلى الحج بعد أن أعلن في الناس، فاجتمع بشر كثيرون في المدينة؛ ليكون لهم شرف الصحبة مع النبي ﷺ في حجه هذا.

وإذا كنا سنتناول أمر حج النبي ﷺ وهذا ثالث موسم حج بعد فتح مكة، فإن الموسم الأول الذي جاء ومكة قد دخلت في الإسلام كان في العام الثامن؛ لأن مكة فتحت في رمضان، فلما جاء موسم الحج ترك النبي ﷺ العرب يحجون كما كانوا يحجون، ولم يأخذهم قهرًا، وحج بالناس في ذلك العام عَتّاب بن أسيد عامل النبي ﷺ على مكة، وهنا نرى رفق النبي ﷺ بالعرب وبالمشركين حتى يدخلوا الإسلام على طواعية، فما منعهم الحج هذا العام على الرغم مما كانوا عليه من الشرك والمخالفات الشديدة التي بعدت بمناسك الحج، وأدائها عن ملة إبراهيم # .

ب. حج أبي بكر، وما تم فيه:

ثم إنه # في العام التاسع أمر أبا بكر بالخروج بالمسلمين أو بوفد المسلمين من حجاج المدينة ومن حولها، فخرج > وكان معه ثلاثمائة من الصحابة ساقوا عشرين بَدنه.

ولما فصل أبو بكر > بالناس، نزلت سورة براءة فأتبع النبي ﷺ أبا بكر بعلي بن أبي بكر يحمل صدر سورة براءة أربعين آية وأمره أن يقرأها على الناس في الموسم وأن يبلغ الناس بلاغ النبي ﷺ وأمر الله ﷻ.

وقد اختار النبي ﷺ عليًّا ؛ لأنه قال # : ((لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي)) ولما رأى أبو بكر عليًّا ظن أنه بُعث أميرًا فسأله أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، وعرفه أنه إنما جاء ليبلغ عن رسول الله ﷺ إلى الناس في مواقف الحج ما أنهى الله به كل أمور الشرك بما أنزلت به آيات سورة التوبة -أو سورة براءة.

وكان مما أمر به النبي ﷺ عليًّا أن ينادي في الناس: ((لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته))، ثم كانت آيات سورة براءة التي فَصَلَت الأمر بين الإيمان والشرك، فلم تعد هناك مهادنه مع المشركين ها هي قد مضت أكثر من سنتين بعد فتح مكة، وترك الناس حتى يقبلوا على الإسلام من عند أنفسهم، وجاءت الوفود من أرجاء الجزيرة تعلن إسلامها، ولكن إذا كانت هناك بعض الجيوب قد بقيت للشرك في نواحي الجزيرة، فإن سورة براءة جاءت لتفصل في هذا الأمر: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣] ثم تجعل الأمد للمشركين أربعة أشهر حتى يكون الإمهال رحمة بأمثال هؤلاء.

كما تبين الآيات في صدر هذه السورة رحمة الإسلام ورفقه بأمثال هؤلاء: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦] وهكذا كان هذا البلاغ الذي تولى أمره أبو بكر > باعتباره أميرًا لموسم الحج، وأدى عن رسول الله ﷺ علي وأبو هريرة وغيرهما من الصحابة، حينما كانوا ينزلون في منازل العرب في منىً وغيرها يُعْلِمُونَ الناسَ بهذا النداء الذي أمر النبي ﷺ أن يَبْلُغَ العرب، وأنه بعد هذا العام لا مهادنة لمشرك، فلن يحج بعد العام مشرك، ولن يطوف بالبيت عُريان حتى وإن

كان مسلمًا،ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وهكذا لم يعد هناك عذر لأي من العرب الذين بقوا على شركهم.

وكان حج أبي بكر بالناس في العام التاسع؛ لأن النبي ﷺ إنما شغل بلقاء الوفود التي أتت إلى المدينة تعلن إسلامها، من ناحية أخرى فإن أمر حج العرب كان فيه من المخالفات التي تسامح النبي ﷺ في أن يباشرها العرب في العام الثامن وفي العام التاسع، وحتى يبلغ الناس بانقطاع القضاء على هذه العادات التي أدخلها العرب في الحج ومناسكه، وحتى يكون ذلك ممهدًا لحج النبي ﷺ في العام العاشر الذي تطهر البيت فيه من أرجاس المشركين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨] وكان هذا أمر من الله ﷻ وهكذا بلغت الدعوة كل الناس؛ لأن قبائل العرب الذين حجوا في هذا الموسم رجعوا بهذه البلاغات التي بلغها النبي ﷺ إليهم، وبلغها عنه علي وأبو بكر، وصحابة النبي ﷺ فلم يعد هناك عذر لمعتذر من بعد ذلك، وطهرت مكة من أرجاس الجاهلية، ومن المشركين، كما طهرت من قبل من الأوثان والأصنام التي كانت حول الكعبة.

إعلان الناس بحجه # المسير إلى مكة والوصول إليها، وسوقه الهدي معه

أ. سبب تأخير حجه # بعد فرض الحج:

لما عزم # على الحج، أعلن في الناس أنه حاج هذا العام، فقدم إلى المدينة خلق كثير يريدون أن يكون لهم شرف صحبة النبي ﷺ في حجه، فلم يتمكن من الحج في التاسعة للوفود التي قدمت؛ ولأنه # لم يرد أن يشارك العرب في حجهم، وهم على هذه المخالفات.

وعلى هذا يكون النبي ﷺ قد أَجَّلَ الحج عامًا بعد فرضه في السنة التاسعة على أصح الأقوال، وقيل: إنه فرض في السنة السادسة، وبعضهم يقول: إنه فرض في السنة العاشرة وهذا أمر بعيد، ولعل الأرجح هو ما أكده ابن القيم: في أن فرض الحج كان في السنة التاسعة.

ب. المسير إلى مكة والوصول إليها، وسوقه الهدي معه # :

ولقد خرج النبي ﷺ يوم السبت لخمس باقين من ذي القعدة بعد أن صلى الظهر بالمدينة فنزل بذي الحُلَيفة وبات بها # ثم أحرم بالحج والعمرة معًا قارنًا على أصح الأقوال التي تناولت حجه # ، وكان إحرامه بعد أن اغتسل وغسل رأسه بخطميٍ وأُشنان ولبد رأسه بما يعرف باسم الغِسل؛ لأنهم كان يعتدون هذا حيث لا ينشر الشعر أو ينتشر فيه الهوام، ثم طيبته عائشة > بطيب فيه مسك حتى إنه # كان يرى وبيص المسك في مفارقه وفي لحيته -أي بريق المسك.

ثم إنه # قلد بدنه قبل الإحرام، وأشعرها من جانبها الأيمن، ثم ركب ناقته بعد أن صلى الظهر بذي الحليفة قصرًا، ولبَّى ورفع صوته بالتلبية حتى يسمع الناس.

وكان مسيره من ذي الحليفة في يوم الأحد؛ لأنه بات ليلة الأحد في ذي الحليفة، ووصل # إلى ذي طوى قريبًا من مكة، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، ثم إنه # بعد أن صلى الصبح انتظر حتى اغتسل في هذا اليوم، ونهض إلى مكة التي دخلها من أعلاها من الثنية العليا التي تشرف على الحاجين.

بدء أعمال حجه # : يوم عرفه وعمله # فيه، وعمل ليلة النحر بمزدلفة، وعمل يوم النحر بمزدلفة ومنى وحكمه

أ. بدء أعمال حجه # :

سارالنبي حتى دخل المسجد ضحى، ثم عمد إلى البيت، وطاف بعد أن استلم الحجر الأسود، ثم بعد الطواف أتى خلف المقام -مقام إبراهيم- فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: ١٢٥] ثم صلى # ركعتين، ثم بعد ذلك طاف ثم سعى بين الصفا والمروة، وأدى هذا العمل، ثم إنه # بعد ذلك نزل بظاهر مكة، فأقام بها ما بقي من أيامٍ حتى جاء يوم الخميس الثامن من ذي الحجة، الذي خرج منه ضحىً متوجهًا بمن معه إلى منًى، فأحرم بالحج من كان أحل منهم؛ لأنه # أمر من لم يكن قد ساق الهدي معه بأن يتحلل بعمل عمرة، فأحرم بالحج كل من تحلل بعمرة يوم أن دخلوا مع النبي ﷺ وأهلوا من رحالهم كما أمرهم النبي ﷺ وصلى بذلك وصلى النبي ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء في منى حتى أصبح فصلى الصبح، وكانت تلك ليلة الجمعة يوم عرفة.

ب. يوم عرفه وعمله # فيه، وعمل ليلة النحر بمزدلفة، وعمل يوم النحر بمزدلفة ومنى وحكمه:

فلما طلعت الشمس سار # من منى إلى عرفة، وكان من بين أصحابه الملبي والمكبر والمهلل وهو يسمع ذلك # ولا ينكر على أحد منهم، ثم نزل # بعرفات في قبة ضربت له بنمرة وكانت قرية شرقي عرفات، حتى إذا زالت الشمس رحلت ناقته القَصواء.

ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عُرنة، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة، قرر فيها قواعد الإسلام، وهدم قواعد الشرك والجاهلية، وقرر تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وجاء الإسلام ليؤكد ذلك: وهي تحريم الدماء والأموال والأعراض، كما أنه # وضع في هذه الخطبة أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها كذلك رِبا الجاهلية، وأوصى بالنساء خيرًا، كما أوصى بالاعتصام بكتاب الله ﷻ وبين للناس أنهم لن يضلوا أبدًا ما تمسكوا به وبسنته، ثم إنه # أخبرهم أنهم مسئولون عنهما أمام الله، واستنطقهم بماذا يقولون؟ وبماذا يشهدون؟ فقالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فرفع أُصبعه إلى السماء، واستشهد الله عليهم ثلاثًا قائلًا: ((ألا هل بلغت اللهم فاشهد)) ثم أمرهم # أن يبلغ الشاهد منه الغائب.

وهنا أرسلت أم الفضل زوج العباس -رضي الله عنها وعنه- بقدح لبن إلى النبي ﷺ فشربه أمام الناس، وهو على ناقته، يخطب حتى يتأكد للناس أنه كان مفطرًا في هذا اليوم، ثم إنه # لما أتم هذه الخطبة أمر بلالًا فأذن أذانًا واحدًا وأقام الظهر فصلاه ركعتين # ثم أقام للعصر إلى أذان فصلاه ركعتين، ثم إنه # بعد الصلاة ركب ناقته حتى أتى الموقف في ذيل الجبل عند الصخرات واستقبل القبلة وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله ﷻ حتى كان الغروب.

فلما غربت الشمس واستحكم غروبها أفاض # إلى مزدلفة مردِفًا خلفه أسامة بن زيد، وأمر الناس # بالسكينة، وضرب المثل من نفسه حين ما ضم إليه ذمام ناقته حتى إن رأسها ليصيب طرف رَحله، وكان يأمر الناس بالسكينة فيقول: عليكم بالسكينة، يقرر ذلك حتى لا يتدافع الناس.

تـصحيح مخالفـات العـرب في أداء المناسـك، ذهابـه # إلى منـى، وحجـه، وخطبتـه

أ. تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك:

وهنا نرى أنه # بحجه بين أمرًا كانت تخالف فيه قريش والعرب كذلك فإن قريشًا ما كانت تقف بعرفة لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم غير العرب، وأنهم من أهل الحرم، كذلك فإنه # لم ينفر من عرفة إلى المزدلفة إلا بعد أن كمل غروب الشمس، وكان في هذا مخالفًا للعرب؛ لأن قبائل العرب كانت تفيض من عرفات إلى المزدلفة قبل غروب الشمس، حينما تكون على رءوس الجبال كالعمائم على رءوس الرجال؛ ولذلك كان هديه # بأمر الله مبينًا كل ما خالفت فيه العرب، وحتى يأخذ الناس عنه # صحيح المناسك؛ فكان يقول لهم: ((خذوا عني مناسكم)).

ثم إنه # سار حتى أتى المزدلفة فتوضأ للصلاة، ثم أمر بلالًا فأذن أذانًا واحدًا، وأقام للمغرب وللعشاء التي صلاها # قصرًا وجمعًا مع المغرب جمع تأخير.

ثم إنه # نام حتى أصبح، ولم يحي تلك الليلة لجهد اليوم السابق، وللجهد الذي سوف يكون في يوم النحر.

ثم إنه # كان قد أذن لضعاف الناس أن يتقدموا إلى منىً قبل طلوع الفجر وأمرهم ألا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس، ثم لما طلع الفجر وهو # في المزدلفة صلاه، ثم بعد ذلك ركب إلى موقفه عند المشعر الحرام، فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع لله ﷻ حتى قرب شروق الشمس، فخرج منها إلى منىً

مخالفًا بذلك أمر العرب الذين كانوا يخرجون إلى منىً بعد طلوع الشمس، كل هذا بيان صادق من النبي ﷺ لمناسك الحج للناس.

ب. ذهابه # إلى منى:

هذا يوم الحج الأكبر حينما خرج النبي ﷺ إلى منىً بعد أن أدى شعائر الحج في المزدلفة وسار إليها # يلبي حتى شرع في الرمي، وكان قد أمر أن تلتقط حصيات الرمي، وأمر أن تكون كحصى الخزف، وهو الحصى الصغير الذي يشبه حب البقلاء، ثم أخذ الحصيات ونفضهن في كفه وأراهنَّ للناس وقال: بمثل هذا فارموا، ولا تغلوا فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين.

وفي هذا اليوم العظيم كان للنبي ﷺ في منى أعمال ترتبت على هذا النحو فقد بدأ # بجمرة العقبة ثم نحر هديه وكان قد قدم مائة بدأ نحر بيده ثلاثًا وستين بدنه على حسب سن عمره ﷺ، ثم أمر علي أن ينحر ما زاد على ذلك حتى المائة، ثم أمر عليًّا أن يتصدق بالبُدن على المساكين، فلما يرد عن هديه إنسانًا، ولا محتاجًا ﷺ، ثم طبخ من كل بُدنة قطعة، فأكل النبي ﷺ من ذلك وشرب من مرقه، وفي غضون ذلك حلق # وأمر الحلاق أن يحلق الجانب الأيمن من رأسه الشريف، وأمر أن يقسم شعره على من يليه من هذا الجانب، وكذلك فعل بالجانب الأيسر، ثم إنه # خطب الناس في هذا اليوم حين ارتفع الضحى خطبة بَيَّنَ فيها كثيرًا من أمور الدين، وأمر الناس بما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وكان مما جاء فيها أنه # بين حرمة الدماء والأموال والأعراض، وأنها كحرمة هذا اليوم في هذا البلد في هذا الشهر، ثم قال: ((ألا هل بلغت اللهم فاشهد،

فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغٍ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)) ثم ذكر # أن الزمان قد استداركهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن الأمر قد استقام بعد عبث المشركين بنسيئة الأشهر الحرم ثم أمرهم # بالسمع والطاعة لمن أُمِّرَ ولو كان عبدًا مجدع الأنف ما قاد الناس بكتاب الله.

و بين # أنه لا تجني نفس على أخرى كما أنه # قال للناس: إن الشيطان قد يأس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن سيكون له طاعة في ما تحقرون من أعمالكم فيرضى، ثم بين -عليه السلام- أن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، وأمرهم قائلًا: ((اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصموا شهركم، وأطيعوا إذا أمرتم، تدخلوا جنة ربكم)) كما أنه # أوصى الناس بما ملكت الأيمان فقال: ((أراقاءكم أراقاءكم أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون وإذا جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم)) ثم استشهد الناس على بلاغه أمر الله وقال: ((اللهم فاشهد)).

وهكذا أدى رسول الله ﷺ هذا العمل الذي وصل به عمل الأمس من أعمال الحج، ثم توجه إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة، بعد أن تطيب ولبس ثيابه، فطاف طواف الإفاضة وشرب من ماء زمزم ومن نبيذ التمر بماء زمزم الذي لم يرض إلا أن يشرب مما يشرب منه الناس، ولما أراد العباس > أن يأتي بنبيذ من البيت خاص به أبى ولم يرض إلا أن يشرب مما شرب منه الناس مع أن الناس كانت تخوض أيديهم في هذا الشراب ﷺ.

ج. عمل أول أيام التشريق، عمل ثاني أيام التشريق، إتمام الحج:

ثم إنه # عاد إلى منى، وأكمل اليوم بها وبات حتى أصبح في أول أيام التشريق وانتظر # حتى زالت الشمس فرمى الجمرات الثلاث، ولم يقدم شيئا بعد الزوال على الرمي؛ لأن وقت الرمي في منى عند الزوال كوقت الرمي في يوم النحر عند طلوع الشمس.

ثم إنه # في اليوم الثاني وهو أوسط أيام التشريق نزلت عليه سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١- ٣] فأمر براحلته فرُحلت.

د. خطبته # في حجة الوداع:

ثم ذهب ليخطب الناس خطبة الوداع لأنه عرف أن هذا أجلَه وكان مما جاء في خطبة أوسط أيام التشريق على ما رواه أبو داود من رواية سراء بنت نبهان أنه # سأل عن اليوم والشهر والبلد، نرى ذلك يتقرر في خطبه # حتى يستنطق الناس بحرمة الموقف واليوم والشهر، ثم قال: أليس هذا أوسط أيام التشريق؟ ثم بين # أن حرمة الدماء والأموال والأعراض كحرمة هذا كله، وهذا نجد التأكيد منه # على هذه الحرمة حتى لقاء الله ﷻ.

ثم قال # : اسمعوا مني تعيشوا؛ ألا لا تظالموا، ثلاثًا، وإنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ثم إنه # قرر هنا كذلك وضع كل دمٍ ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمه إلى يوم القيامة، وجعل ربا العباس عمه ودم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أول ربًا، وأول دمٍ يوضع من ذلك تحت قدمه،

وهكذا نجد مثل هذه الأمور تتقرر في خطبه # ليؤكد للناس ذلك، وليسمع من لم يكن سمع منه # ولعل هذا هو السبب في تكرير أمثال هذه الأمور في خطبه # في حَجة الوداع.

ومن هذا ما قاله # لهم باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن أشهر السنة عادت بترتيبها الذي خلقها الله عليه، ثم حذر # المسلمين من أن يرجعوا كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض، كما أمر بتقوى الله في النساء وفي حبهن على الرجال، وبين # أن الشيطان قد يأس أن يعبده المصلون ولكنه لم ييأس في التحريش بينهم، وأنه رضي من المسلمين بمحقرات الأعمال.

ثم قال # في ختام خطبته: ألا ليبلغ شاهدكم غائبكم، لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ثم رفع يديه فقال: اللهم فاشهد وفتح الله له أسماع الناس فسمعوه حتى في منازلهم كما يذكر هذا عبد الرحمن بن معاذ التيمي.

هـ. تصحيح مخالفات العرب في أداء المناسك، والتيسير على أصحاب الأعذار:

وكان النبي ﷺ قد أعلن في الناس وأمر من ينادي فيهم بأن أيام منى أيام أكل وشرب وذكر لله ﷻ فلا صيام فيها بيانًا وتعليمًا منه # كذلك فإنه # أذن لعمه العباس أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، كما رخص بذلك لرعاء بجمع الرمي ليومين وأن يتناوب في هذا تيسيرًا في كل هذا على ذوي الضرورات.

وقد أقام # بمنى حتى أكمل حجه فلم يتعجل في يومين فلما كان يوم النفر الآخر وهو ثالث أيام التشريق، وكان يوم الثلاثاء فإنه # ركب والمسلمون معه بعد أن أتم آخر الرمي، فنفر من منى ونزل بالمحصب وهو خيف بن كنانة

وبقي به # حتى صلى العشاء، ثم رقد رقدة وركب بعدها إلى البيت، وكان نزوله # بالمحصب هذه الفترة لأنه المكان الذي كان أنسب لنزول الناس لهذا الجمع يجتمعون فيه حتى ينطلقوا منه إلى مكة لطواف الوداع، ثم العودة إلى المدينة.

طواف الوداع والعودة إلى المدينة، وبعثه # بأسامة لغزو الروم وأعوانهم، ومرضه

أ. طواف الوداع والعودة إلى المدينة:

وكان # قد أذن لعائشة بعمرة من التنعيم بصحبة أخيها عبد الرحمن، فلما فرغت منها فإنه # أذن بالرحيل حيث حرص # أن يكون الطواف آخر عهد الناس بالبيت، لأنهم كانوا قبل ذلك ينصرفون من كل وجه كما قال ابن عباس، وهذا من الأمور التي بينها النبي ﷺ في حجه للناس.

وبعد هذا توجه النبي ﷺ عائدًا إلى المدينة بعد أن أتم هذا النُسك وبين للناس حجهم، وكان آخر لقائه للناس وآخر عهده بمكة ﷺ.

وفي هذه الحجة من التشريع والبيان الذي تضمنته وكانت بيانًا واضحًا وتطبيقًا رحيمًا منه # في أداء هذا الحج، وما يجب على المسلمين أن يتخلقوا به وأن يلتزموه في أداء مناسك الحج حتى يوم القيامة.

وبعد؛ فهذه هي حجة الوداع التي حجها النبي ﷺ وسميت بذلك لوداعه # الناس فيها لقوله: ((خذوا عني مناسكم، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا)) كما أنها سميت: حجة البلاغ؛ لأنه # كان يقول لخطبه للناس فيها: ((ألا هل بلغت)) ثم يقول: ((اللهم فاشهد)) كما سميت: حجة الإسلام؛ لأنها التي

حججها # بعد فرض الحج لم يحج # غيرها ؛ لأن الحج فرض في السنة التاسعة أو العاشرة على خلاف وإن كان أصحها هو الأول والنبي ﷺ كان يباشر الحج من قبل الإسلام ومن قبل الهجرة وأنه حج حججًا كثيرة كما يقول ابن الجوزي : بل إنه # كان يحج قبل البعثة ، وهذا ما ذكره جبير بن مُطعِم لما رآه # واقفًا بعرفة أيام الجاهلية وكان هذا من توفيق الله ﷻ لأن قريشًا كما عرفنا لم تكن تقف بعرفات ؛ لأنها لم تكن تريد أن تقف في المشاعر من الحِل وعرفات منها.

وهكذا تمت هذه الحجة المباركة ووصل النبي ﷺ إلى ذي الحُليفَة عائدًا بعد أن أدى نسكه فبات بها ثم دخل المدينة ﷺ وقد أدى هذا الحج ، وبقي في المدينة بعد ذلك نحوًا من واحد وثمانين يومًا كانت فيها ختام الأعمال التي أتم الله بها هذا العمر الكريم المبارك الذي هدى الله به أمة الإسلام والناس جميعًا.

ب. بعثه # بأسامة لغزو الروم وأعوانهم :

وكان من أهم الأعمال التي قام بها # في هذه الفترة هو بعث أسامة الذي وجهه لغزو الروم وأعوانهم أخذًا بثأر شهداء مؤته ، فإنه # أقام بعد حَجه في المدينة بقيّة ذي الحجة والمحرم ، ولما جاء يوم الاثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر ، أمر النبي ﷺ للتهيؤ لغزو الروم وأمر الناس بالجد في ذلك ثم دعا من الغد أسامة بن زيد فقال : يا أسامة ، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك على هذا الجيش فأغر صباحًا على أَهْلِ أُبْنَى وَحَرّقْ عَلَيْهِمْ وَأَسْرِعْ السّيْرَ تَسْبِقْ الْخَبَرَ فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.

ج. مرضه # :

فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر بدأ برسول الله ﷺ وجعه، فحمّ وصدع ﷺ فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءً بيده ونصحه وأمره بالغزو في سبيل الله، فخرج أسامة > بلوائه معقودًا فدفعه إلى بُريدَة بن الحصيب الأسلمي وعسكر بالجرف وهو على ثلاث أميال من المدينة ولم يبق أحدًا من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في هذه الغزوة منهم أبو بكر والصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من وجوه الأنصار والمهاجرين.

د. كلام الناس في إمارة أسامة وموقفه # من ذلك:

ثم إنه # اشتكى وزاد وجعه ثم وجد من نفسه راحة فخرج عاصبًا رأسه، وأمر الناس أن ينفذوا بعث أسامة، وهنا كره بعض الناس إمارة أسامة لصغر سنه، وكان ممن تحدث في هذا عياش بن أبي ربيعة المخزومي الذي قال: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين، وكثرت المقالة، وسمع عمر بن الخطاب > بعض ذلك فرده على من تكلم به تسليمًا بأمر النبي ﷺ وانقيادًا له.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك فغضب غضبًا شديدًا وخرج يوم السبت العاشر من ربيع الأول، وقد عصب رأسه بعصابة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد فما مقالة قد بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة بن زيد ولئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله إن كان للإمارة لخليق، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي وإنهما لمخيلان لكل خير فاستوصوا به خيرًا فإنه من خياركم" ثم نزل فدخل بيته # وجاء

المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ وفيهم عمر بن الخطاب، ويمضون إلى المعسكر بالجرف، وهنا دخلت أم أيمن على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لو تركت أسامة يقيم في معكسره حتى تتماثل فإن أسامة إن خرج على حاله هذا لم ينتفع بنفسه، فقال: انفذوا بعث أسامة، فمضى الناس إلى المعكسر فباتوا ليلة الأحد.

وجاء أسامة إلى النبي ﷺ في هذا اليوم، وقد اشتد به الألم وزاد عليه المرض فدخل عليه وعنده الناس والنساء حوله، فطأطأ عليه أسامة فقبله والنبي ﷺ لا يتكلم، وجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة كأنه يدعو له، ثم رجع أسامة إلى معسكره استعدادًا للخروج لأمر النبي ﷺ.

ولما دخل يوم الاثنين وهو اليوم الذي توفي النبي ﷺ، وكان قد أصبح فيهم مفيقًا ﷺ وجاءه أسامة فقال له: اغد على بركة الله فودع أسامة رسول الله ﷺ وخرج إلى معسكره لما رأى رسول الله ﷺ مفيقًا، وهنا دخل أبو بكر > فقال: يا رسول الله أصبحت مفيقًا بحمد الله، واليوم يوم بنت خارجة، فأذن لي، فأذن له # فذهب إلى بيته بالسُنح وهي منازل ابن الحارث بن الخزرج بالمدينة.

وركب أسامة إلى العسكر وصاح في أصحابه باللحوق به، ولما انتهى إلى المعسكر وأمر الناس بالرحيل وبينما هو على ذلك الأمر أتاه رسول من أمه أم أيمن يخبره أن رسول الله ﷺ يموت، فأقبل إلى المدينة وأقبل منه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فتُوفي رسول الله ﷺ ذلك اليوم ومن ثم دخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة ورجع بُريدة بن الحُصَيب باللواء معقودًا بعقدة النبي ﷺ فغرسه عند باب الرسول ﷺ.

هذا البعث للجهاد في سبيل الله في هذا الميدان العظيم ميدان الشام، وأمر البعث بعد ذلك هو الذي سيتولاه أبو بكر حتى يكون أول أمر يباشره بعد أن ولي أمر المسلمين بعد النبي ﷺ، ولذلك هذا البعث كان وصْلة الخير في العمل بين عمل النبي ﷺ وعمل أبي بكر فإذا كان هذا البعث آخر عمله # فقد كان أول أعمال أبي بكر > الذي أصر على إنفاذه وعلى أن يسير هذا البعث في عقدة اللواء التي عقدها النبي ﷺ بيمينه حتى يكون له بركة النصر -إن شاء الله.

إذا كان هذا البعث بعث أسامة آخر أعماله ﷺ وهو الذي اهتم به وهو في مرض وفاته، وقرر الأمر بإنفاذه، ولم يخرج البعث بوفاته ﷺ التي كانت مصاب المسلمين جميعهم وكانت في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول بعد نحو من عشرة أيام أو تزيد قليلًا من المرض الذي نزل به # وكان مرض الوفاة.

مؤكدات الإحساس بدنو أجله # وصلاة أبي بكر بالناس

أ. مؤكدات الإحساس بدنو أجله الرسول # :

لما نزلت سورة النصر على الرسول ﷺ عرف المسلمون بأن هذا أجل رسول الله ﷺ كما أنه # عرف بهذا من قبل ففي شهر رمضان من هذه السنة أحس النبي ﷺ بذلك لأن جبريل # كان يدارسه القرآن في رمضان كل عام مرة، أما في هذا الشهر آخر رمضان في حياته ﷺ فإن جبريل دارسه مرتين وهذا ما أسر به النبي ﷺ لابنته فاطمة التي جاءت تزوره في مرضه، فلما جاءته أسر لها سرًا فبكت ثم أسر لها سرًا آخر فضحكت وهنا سألتها عائشة > ما الذي سرها به رسول الله ﷺ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لما مات # وسألتها عائشة قالت: أما حينما أسر لي في المرة الأولى فإنه قال

لي: إن جبريل كان يدراسني القرآن مرة في رمضان ولقد دراسني القرآن في رمضان هذا العام مرتين ولا أراه إلا دنو أجلي فبكت فاطمة < ، فأسر لها بما جعلها تبتسم وهو أنه بشرها بأنها أول أهل بيته لحوقًا به.

كذلك فإنه # لما أحس بوجعه وابتدئ بشكواه نادى على أبي مويهبه مولاه من جوف الليل وقال له: إني قد أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فخرج النبي ﷺ ومعه أبو مويهبه، فلما وقف بين أظهرهم في البقيع، قال: السلام عليكم يا أهل المقابر يهني لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى، ثم أقبل على أبي مويهبة فقال: يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، وهنا بادره أبو مويهبة فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر # لأهل البقيع ثم انصرف فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه.

ب. شدة وجعه # وتمريضه في بيت عائشة:

ولما اشتد عليه وجعه وكان ذلك في بيت ميمونة بنت الحارث < استأذن نساءه في أن يمرض في بيت عائشة فأذنَّ له كلهن فانتقل إلى بيتها ﷺ.

ج. صلاة أبي بكر بالناس بأمره # ، وآخر مجالسه # مع الناس:

وقد اشتد مرضه # فأمر بأن يصلي أبو بكر بالناس ولكن عائشة < رغبت في أن تدفع هذا الأمر عن أبيها حتى لا يتشاءم الناس به لأنه قام مقام رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله: إن أبا بكر رجل أسيف رقيق القلب لا يقوى أن

يقف فيقرأ القرآن مقامك ويصلي بالناس، ولكنه # كرر الأمر بأن يصلي أبو بكر بالناس، حتى إن عائشة > طلبت من حفصة أن تطلب من النبي ﷺ ولكنه غضب # وكرر الأمر بأن يصلي أبو بكر بالناس وهكذا قام أبو بكر نائبًا عن النبي ﷺ في هذا الأمر العظيم الذي كان فيه إشارة من النبي ﷺ لمكانة أبي بكر في الأمة وعند رسول الله ﷺ.

د. نظرة الرضا للناس في آخر فرض في حياته # :

ثم إنه # لما اشتد به وجعه أمر بأن يصبوا عليه سبع قربٍ من الماء من آبار شتى حتى يخرج للناس فيعهد إليهم ففعلوا ذلك حتى قال: حسبكم أي: كفاكم صبًا من الماء علي، ثم خرج # للناس فجلس إليهم آخر مجلس جلسه معهم وكان عاصبًا رأسه فجلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فأختار ما عند الله فهمها أبو بكر فعرف إنه # وعرف أنه # يريد نفسه فبكى وقال: نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا يا رسول الله فقال على رسلك يا أبا بكر ثم خطب فيهم فقال: أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فعرفه ذلك له أيها الناس إني عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين راضٍ فعرفه ذلك لهم، أيها الناس أحفظني في أصحابي وأصهاري وأحبابي لا يطلبكم الله بمظلمة أحد منهم، أيها الناس ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين وإذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا.

وفي هذه الخطبة قال # : ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر، وكان هذا هو آخر مجلس جلسه # للناس وخطبهم فيه وكان ذلك قبيل وفاته #

بخمسة أيام، وكان ذلك يوم الخميس الأخير في حياته وكان # في ذلك اليوم كان قد وجد خِفة فخرج للناس ولم يلبث # أن اشتد به وجعه حتى جاء يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول حينما كان أبو بكر يصلي بالناس صلاة الفجر في هذا اليوم.

ثم إن المسلمين لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ وقد كشف سِتره حجرة عائشة > فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم # فنكص أبو بكر ليصل الصف وظن أنه # يريد أن يخرج إلى الصلاة، وقد هم المسلمين أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ فأشار إليهم # بيده؛ أن أتموا صلاتكم.

ساعة وفاته # وذهول الناس لهول النبأ، وثبات أبي بكر، تلاقي أبي بكر خطر الفتنة، أبو بكر خير من يخلفه

أ. ساعة وفاته # وذهول الناس لهول النبأ:

ثم دخل الحجرة وأرخى ستره وعلى الرغم مما أمِله المسلمون من عافية رسول الله ﷺ من أمره هذا وهم في صلاتهم، إلا أن الساعات التي تلت هذا الموقف كانت آخر الساعات في حياته ﷺ وفيها اشتد عليه وجع الموت، وبينما هو في حجر عائشة > إذ دخل عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه النبي ﷺ وأبّد النظر، فعلمت عائشة أنه يريد السواك، فتناولته من أخيها ولينته للنبي ﷺ فاستاك به، تقول فما استنّ رسول الله ﷺ استنانًا أكمل منه ولا أتم، ثم بعد أن استاك # رفع يده وأصبعه وشخص ببصره نحو السقف وتحركت

شفتاه لما أصغت إليه عائشة حيث سمعته # وهو ينطق بآخر كلامه: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهمّ الرفيق الأعلى، كرر ذلك ثلاثة، وكان هذا آخر ما تكلم به # ثم مالت يده ولحقت بالرفيق الأعلى ﷺ وكان ذلك حين اشتد الضحى أو في منتصف النهار، وهنا قالت: فاطمة: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وهنا لم يصدق الناس ما نزل برسول الله ﷺ حتى إن عمر > لما علم بوفاة الرسول ﷺ أخذ يقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجالًا من المنافقين وألسنتهم يزعمون أو يقولون: إن رسول الله ﷺ قد مات.

ب. ثبات أبي بكر في الموقف الصعب:

ووقف الناس في ذهول كلهم حتى جاء أبو بكر لما علم بوفاة النبي ﷺ قدم من السُنح مسرعًا على فرسه فدخل على النبي ﷺ ولم يلتفت إلى عمر وكلامه، وقول الناس وذهولهم، ثم دخل على النبي ﷺ وهو مسجى في ناحية من البيت عليه بُرد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ فقبله # ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة، ثم رد البُردة على وجه رسول الله ﷺ وخرج وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى عمر إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فقال لهم: أيها الناس، إنه مَن كان يعبد

محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلي هذه الآيةَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ، وأخذ الناس هذه الآية عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم، حتى قال عمر: فوالله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت من الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات. هنا عَمَّ الذهولُ الناسَ، ونزل المصاب فادحًا بهم.

ج. تلاقي أبي بكر خطر الفتنة، أبو بكر خير من يخلفه # :

وإذا كان هذا أمر أبي بكر، وأمر ثباته في الناس، مما ثبت الناس لثبات أبي بكر > فإنه كان لأبي بكر في هذا اليوم أمر عظيم من مواقف الإسلام لهذا الرجل، فإن الأنصار كان لهم شأن في ثقيفتهم -ثقيفة بني ساعدة- التي اجتمعوا فيها يجعلون رجلًا خليفة لرسول الله ﷺ هو سعد بن عُبادة > وهو رجل له مكانته في الإسلام وجهاده فيه، وهو أول رجل استخلفه النبي ﷺ عند أول خَرجَة له في غزوة الأبواء، ولعل الأنصار عرفوا فضل سعد بن عبادة ومكانته فيهم، ولذلك رشحوه، لأن يلي أمر المسلمين من بعده من بعده # .

ولكن حُمل نبأ اجتماع الأنصار في ثقيفة بني ساعدة إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي بكر اللذين خفا إلى حيث الأنصار في ثقيفتهم حتى يتفادوا أمر الفُرقة التي أوشكت أن تطل برأسها في ذلك اليوم العصيب، ولما دخل أبو بكر وعمر إلى

حيث الأنصار أراد عمر أن يتكلم، ولكنّ أبا بكر > منعه من ذلك فقام فأحسن الكلام بعد أن تكلم الأنصار، وذكروا فضلهم وسابقتهم في الإسلام، ولكن أبا بكر قام وقال: إن العرب لن تعرف هذا الأمر -وهو أمر خلافة النبيﷺ وقيادة الناس- إلا لهذا الحي من قرش، وذكر الأنصار وعملهم بالخير وأنهم كان لهم جهادهم ودورهم في الإسلام، وقال لهم: لقد كنتم أول من آزر فلا تكونوا من أول من بدل وغير.

وهنا قال أبو بكر للناس في الثقيفة: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فاختاروا واحدًا منهما، ولكن عمر وأبا عبيدة قالا: ما كان لنا أن نتقدمك يا أبا بكر وقد رضيك النبي ﷺ لديننا -أي للصلاة- أفلا نرضاك لدنيانا.

وهنا اجتمع أمر المسلمين في ثقيفة بني ساعدة على انتخاب أبي بكر خليفة للنبيﷺ وحسمت هذه الفتنة في ذلك اليوم.

نبذة عن أزواجه ﷺ وأخلاقه، وبعض من معجزاته

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أول زواجه # مرحلة الشباب مع زوجة واحدة، ودور السيدة خديجة في حياته # قبل البعثة، وبعد البعثة	٥٧٩
العنصر الثاني :	زواجه # قبل الهجرة بعد خديجة، زواجه من سودة وعائشة	٥٨٢
العنصر الثالث :	زواجه # من حفصة وزينب بنت خزيمة، وحكمة زواجه منهما	٥٨٥
العنصر الرابع :	زواجه # من أم سلمة وجُوَيرية بنت الحارث، والحكمة من زواجه منهما	٥٨٧
العنصر الخامس :	زواجه # من زينب بنت جحش وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وحكمة زواجه منهما، و زواجه من صفية وميمونة، وحكمة زواجه منهما، وحكمة الإباحة بهذا العدد	٥٩٠
العنصر السادس :	أخلاق الرسول ﷺ	٥٩٣
العنصر السابع :	معجزات الرسول ﷺ ومعجزات في حياة الأنبياء قبله	٦٠١
العنصر الثامن :	معايشة المؤمنين لمعجزاته #	٦٠٣

أول زواجه # مرحلة الشباب مع زوجة واحدة، ودور السيدة خديجة في حياته # قبل البعثة، وبعد البعثة

أ. أول زواجه # مرحلة الشباب مع زوجة واحدة:

موضوع زواج النبي ﷺ بهذا العدد من النساء الذي أباحه الله ﷻ لرسول الله ﷺ.

وإذا تناولنا هذا الموضوع من أول زواج تزوجه النبي ﷺ وهو زواجه لأمنا خديجة { الذي تزوجه وهو في مقتبل شبابه -في الخامسة والعشرين من عمره- وكانت في سن الأربعين على ما يقول الكثيرون، وإن كان عبد الله بن عباس يقول: "إن سن السيدة خديجة كان عند زواجها بالنبي ﷺ ثمانية وعشرين عاماً".

وعلى أي حال: فإنه # تزوج السيدة خديجة، وعاش معها خمسة وعشرين عاماً؛ لأنها توفيت في السنة العاشرة من البَعثة، وكان زواجه منها # برغبة دفعت السيدة خديجة إلى أن تقترن بالنبي ﷺ حينما علمت من غلامها ميسرة الذي صحب النبي ﷺ في سفره في تجارتها إلى الشام، ورأى من أخلاق النبي ﷺ ما رأى مما قصه على سيدته، فأحبت أن تقترن به ﷺ لما رأته فيه من كريم الأخلاق، وحسن المعاملة، وما دلها عليه غلامها ميسرة مما رآه من أخلاق النبي ﷺ في صحبته في سفره، وأخلاق الرجال لا تظهر على حقيقتها إلا في السفر، ولما رأى ميسرة ما رأى من كريم معاملة النبي ﷺ في السفر، وأماناته في البيع والشراء؛ فإنه لما عاد وذكر ذلك جعل خديجة > تسر إلى صديقة لها -وهي نفيسة بنت مُنيَة- التي حملت هذه الرغبة إلى النبي ﷺ وسألته: ما يمنعه من الزواج؟ فقال: ما عندي ما أتزوج به، فقالت: فإن دُعِيتَ إلى الجمال

والشرف والحسب والعقل؟! فقال: من؟ قالت: خديجة، فقال: ومن لي بذلك؟ قالت: عليّ ذلك.

وتم الأمر بأمر الله، وربما لما نقلت نفيسة إلى خديجة أن النبي ﷺ ليس عنده ما يمنعه من ذلك، ربما كان هناك لقاء بين خديجة وبينه ﷺ أعربت له عن رغبتها صراحة في الزواج منه، وهنا أخبر النبي ﷺ أعمامه الذين جاءوا فخطبوا السيدة خديجة، وتزوج النبي ﷺ بهذه المرأة الكريمة أول زواج لها، والتي عاش معها سني الشباب يعمل في مال الأسرة بعد أن كان مجرد أجير لها في مالها في هذه التجارة التي خرج فيها إلى الشام.

ها هو الآن زوج هذه المرأة الكريمة العاقلة يتولى أمر مالها ورعاية شئون الأسرة كلها ويقوم فيها بأمانة الله على صيانة هذا المال، ثم إنه ﷺ عاش في هذه المرحلة حياة هانئة مع هذه المرأة الكريمة ما قرن بها غيرها، وما تزوج عليها بأخرى طول حياته معها، وكانت منزلتها عنده منزلة كريمة، حفظها لها حتى بعد وفاتها < .

ب. دور السيدة خديجة في حياته # قبل البعثة، وبعد البعثة:

وكانت نعم الزوج؛ رزقه الله منها الولد، وواسته بمالها، ولمّا كان # يعيش مرحلة السنين التي سبقت البعثة بقليل، وكان # قد بدأت إرهاصات النبوة معه، فإنها كانت نعم المعين له بعد الله ﷻ على تحمل مشقة هذه السنين التي سبقت البَعثة.

وتقبلت بكل رضا ما كان يعتريه من حب الخَلوة، وما كان يقوم به من الاعتكاف في غار حراء إلا غير ذلك من أمور كانت دلائل واضحة على أن حدثاً هاماً سوف يكون لهذا الرسول ﷺ.

وهنا لما جاءها بعد أن لقيه جبريل # في غار حراء وهو معتكف الليالي ذوات العدد، التي كانت تتقرر معه # في رمضان من كل عام لما نزل جبريل # وحدث أول لقاء له بالنبي ﷺ وأصيب النبي ﷺ بفزع شديد من هذا اللقاء؛ فإنه لما عاد ممتقع اللون، مأخوذ الفؤاد، ما عنفته خديجة < ؛ وإنما تقبلت أمره بكل عقل وكل حكمة، فقالت له: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا؛ فإنها كانت تعرف منه # كريم الخلق، ولذلك وثقت به، وذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي أخبره بأنه نبي آخر الزمان، وبشره بذلك؛ فزاد إيمان خديجة بزوجها محمد ﷺ.

وعاشت معه حياة خلال فترة عشرة أعوام -منذ بداية البعثة وحتى ماتت في السنة العاشرة منها. والنبي # في سن الخمسين، كانت عشرة سنين كلها جهاد وكفاح في هذه المرحلة الحاسمة التي عاشها النبي ﷺ يتلقى الصدود والإنكار والتكذيب؛ فكانت في بيتها خير من يسري عن النبي ﷺ وعاشت معه # هذه الحياة الطويلة، وكابدت معه كل مشقة حتى مشقة الحصار في الثلاث سنوات الأخيرة من حياتها مع النبي ﷺ، وما إن انتهت هذه المرحل مرحلة الحصار حتى توفاها الله ﷻ بعدها بقليل، فكان مصاباً عظيماً للنبي ﷺ زاد على مصابه بوفاة عمه أبي طالب الذي كان قبلها بأيام قلائل، ولذلك اجتمع عليه # هذان المصابان فسَمَّى ذلك العام "عام الحزن".

ولقد كان # يُكِّن لخديجة < كل ودٍّ وحبٍّ، وذكر لها، وكان يذكر لها ذلك حتى بعد وفاتها، وبعد أن تزوج بزوجات أخريات -منهن البِكر الصغيرة عائشة وغيرها. وكان يذكرها دائماً بخير؛ حتى إن عائشة قالت: "ما غرت من أحد من النساء ما غرت من خديجة"؛ لأن النبي ﷺ كان يذكرها دائماً أمامها بكل خير، وكانت تقول: إن كان ليذبح الشاة فيقطعها أعضاءً؛ فيبعث منها في

كل صواحب خديجة، ويقول: اذهبوا بهذا لفلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة، أو بهذا فلانة فإنها كانت تأتينا أيام خديجة، حتى إنها < قالت لما فاض بها خديجة: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة: أما والله لقد أبدلك الله خيراً منها. فقال # : ((لا والله ما أبدلني الله خيراً منها قط، لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني حيث كذبني الناس، وواستني بمالها، ورزقني الله منها الولد)) فكفت بهذا الرد السيدة عائشة عن أن تذكرها بشيء يسوؤها أمام النبي ﷺ.

ج. أثر وفاتها في حياته # :

كذلك فإن النبي ﷺ لما توفيت أصابه حزن شديد لاحظته عليه خَولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: كأني أراك يا رسول الله قد دخلتك خلة لفقد خديجة. فقال: ((أجل! كانت أم العيال، وربة البيت)).

هذه الزوجة الكريمة التي اختارها الله ﷻ لتعيش مع النبي ﷺ هذه المرحلة العصيبة من مرحلة الدعوة التي لاقى فيها # ما لاقاه من قريش ومن أهل مكة خلال المرحلة المكية.

زواجه # قبل الهجرة بعد خديجة، زواجه من سوده وعائشة

ثم إنه # من بعد أن ماتت خديجة عرضت عليه خَولة أن يتزوج النبي ﷺ حتى يذهب عنه ما هو فيه؛ لأنه مما لا شك فيه: أن فقد الزوجة له أثر عظيم في حياة الرجل، وبخاصة إذا كانت على هذا الخلق وهذه العشيرة الطيبة، ومن ثم اقترحت خَولة على النبي ﷺ أن يتزوج وعرضت عليه امرأة مسلمة هي سودة بنت زمعه زوجة السكران بن عمرو، كما عرضت عليه أيضًا عائشة بنت أبي بكر -رضي الله عنه وعنها..

لذلك سعت هذه المرأة في زواج النبي ﷺ من بعد خديجة وكان ترشيح سودة بنت زمعة مع أنها كانت ثيباً سبق لها الزواج، إلا أن النبي ﷺ أراد أن يكافئها بزواجه منها على إسلامها وتبكيرها بهذا الإسلام وهجرتها إلى الحبشة مغاضبة في هذا أهلها وقومها، الذين كانوا لا يرضون لها ذلك، فلما ذهبت إلى الحبشة مات زوجها السكران بن عمرو.

وكانت هجرتهما إلى الحبشة في الهجرة الثانية للمسلمين إليها، فلما عادت أراد النبي ﷺ أن يتزوجها تعويضاً لها عن فقدها زوجها، وجزاءً لها على إسلامها وحبّها لله ولرسوله وللإسلام، وعاشت معه # ما بقي له من سنين في مكة قبل الهجرة من بعد السنة العاشرة حتى هاجر النبي ﷺ فلحقته بالمدينة، وكانت < بدينة ثقيلة الجسم، أرادت أن تبقى لها شرف أمومة المؤمنين، فعرضت على النبي ﷺ أن يجعل يومها وليلتها في القسم للزوجات لعائشة } فأحبّها النبي ﷺ وأحبتها عائشة لذلك.

وكانت < زاهدة في الدنيا؛ فإن عمر بن الخطاب < لما بعث إليها بغرارة من دراهم؛ فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم، قالت: في الغرارة مثل التمر! فأمرت بها، وفرقتها على الفقراء، وقد عاشت بعد النبي ﷺ حتى ماتت في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة أربع وخمسين للهجرة.

ولقد كان زواج النبي ﷺ بسودة قريناً كذلك بزواجه لعائشة } فإنه تزوج عائشة في نفس العام -في السنة العاشرة من البعثة- عقد عليها وهي بنت ست سنوات، ثم تزوجها وهي بنت تسع سنين لما هاجر إلى المدينة، فتزوجها في شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان زواجه # بعائشة < تكريماً لأبيها أبي بكر؛ الذي كان له جهاده العظيم في الدعوة إلى الله وفي مكابدة مشاق الدعوة مع النبي ﷺ.

فلقد كان أول المؤمنين به من الرجال، كما أنه دعا إلى الله ﷻ كثيرين من المسلمين الذين لهم شأنهم في الإسلام؛ أمثال: عثمان وعبد الرحمن وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وغيرهم كثيرين، كذلك فإنه كان المقرّب إلى قلب النبي ﷺ ولذلك أراد # أن يؤثره بهذا الشرف؛ شرف زواجه من بنته.

وقد كان أبو بكر وعد المطعم بن عدي -لما خطبها لابنه جبير- بزواج عائشة من ابنه؛ فلما خطبها النبي ﷺ فلكأن أبا بكر وجد حرجًا في ذلك؛ فإنه كان يحب ألا يخلف إنساناً ما وعد، وها هو النبي ﷺ يخطب ابنته، وهنا كان فضل الله عليه؛ بأن رجع المطعم بن عدي من نفسه لإسلام أبي بكر وصحبته النبي محمداً ﷺ فكان الرجوع حينئذٍ من المطعم بن عدي، ولذلك أمضى أبو بكر أمر زواج النبي ﷺ من ابنته.

وقد كانت عائشة } من فضليات زوجات النبي ﷺ؛ لأنها كانت ذات عقل راجح على الرغم من صغر سنها، واستوعبت كثيراً من أمور الدين وفقهتها؛ حتى إن النبي ﷺ قال في أمرها: ((خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء)) وإنها في أمور النساء مما يتعلق بضرورات حياتهم في الفقه كانت مرجعاً هاماً بالنسبة لهن وللفقهاء في أمثال هذه المسائل التي تتعلق بالنساء، كما أنها كان لها أمرها ووزنها في علم الفرائض، فكانت مرجع المشيخة من أصحاب محمد ﷺ في علم الفرائض.

وكانت لها منزلتها عنده # : حتى إنه لما ثقل في مرض وفاته ﷺ فإنه طلب أن يُمرّض في بيت عائشة، وكان هذا مما تفتخر بها عائشة > فيما كانت تفخر به على غيرها؛ فإنه # لم يتزوج بكراً غيرها، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجرانِ غيرها، وأنزل الله ﷻ براءتها من السماء، وأن جبريل # جاء النبي ﷺ

بصورتها في حريرة، وقال: تزوجها فإنها امرأتك، وأنه # عاش لحظات حياته الأخيرة معها، وقبض # كما تقول: وهو بين سحري ونحري، وأنه مات في الليلة التي كان يدور فيها عليها، ودُفِن في بيتها ﷺ.

ولما تُوفيّ النبي ﷺ وجاء عهد عمر بن الخطاب > وفرض للناس الفرائض؛ فإنه جعل لكل زوجة من زوجات النبي ﷺ عشرة آلاف درهم وزادها ألفين لمكانتها عند النبي ﷺ ولمكانة أبيها عنده ﷺ.

وعاشت عائشة مرجعاً في أمور الفقه للمسلمين؛ لما كانت تراه من سلوك النبيﷺ وما كانت تعلمه من علمه # ، وعاشت بعده # حتى توفيت سنة ثمانين وخمسين من الهجرة وصلى عليها أبو هريرة > .

زواجه # من حفصة وزينب بنت خزيمة، وحكمة زواجه منهما

أ. حفصة بنت عمر وحكمة زواجه منها:

ومن زوجاته # كذلك حفصة بنت عمر بن الخطاب > وأمها زينب بنت مظعون، وخالها عثمان وقدامة، وقد ولدت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين كما يقول أبوها: وقريش تبني الكعبة، وقد كانت زوجاً لخنيس بن حذافة، فكانت عنده، وهاجرت معه إلى المدينة، فمات عنها بعد الهجرة مقدم النبي ﷺ من بدر، ولقد حزن أبوها عمر لتأيمها وفقدها زوجها وشغل بذلك الأمر؛ فعرضها على أبي بكر فلم يرد على عمر، وكان قد عرضها على عثمان فلم يبدِ رغبة في الزواج؛ يقول عمر: فوجدت في نفسي على أبي بكر أكثر مما وجدت على عثمان، فلمّا يلبث قليلاً حتى خطبها النبي ﷺ وهنا لقي أبو بكر عمر >

وقال له: لعلك وجدت في نفسك مني حيث لم أرد عليك لَّما عرضت علي حفصة، فقال: أجل، فقال ذلك لأني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، فلم أشأ أن أفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها لقبلتها.

وكانت حفصة < لها كذلك مكانتها عند النبي ﷺ لمكانة أبيها التي كانت له المكانة التالية لأبي بكر عند النبي ﷺ فكما أنه # تزوج عائشة تكريمًا لأبيها؛ فكذلك تزوج حفصة لمكانة أبيه عند النبي ﷺ ولأثره في الإسلام ولدوره فيه، وقد أرضى النبي ﷺ عمر لما تزوج منه؛ فقال له: قد زوج الله عثمان خير من ابنتك وزوج ابنتك خيرًا من عثمان، وروي أن النبي ﷺ طلقها ثم راجعها، وقد دخل أبوها عليها وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؛ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبداً؛ وعندما طلقها النبي ﷺ أتاه جبريل # فقال له: "رجّع حفصة فإنه صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة".

ب. زواجه # من زينب بنت خزيمة الهلالية؛ التعريف بها، حكمة زواجه منها:

أما خامسة الأزواج فكانت زينب بنت خُزيمة الهلالية < وكانت من قبل زوجة للطفيل بن الحارث بن عبد المطلب فطلقها، وقيل: فتزوجها بعده عبيدة بن الحارث الذي قتل في غزوة بدر، وقيل: كانت قد تزوجت عبد الله بن جحش، وقتل عنها يوم أحد شهيداً، وكانت هذه المرأة تدعى أم المساكين في الجاهلية لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، وقد روي أن النبي ﷺ عندما تزوجها أولم عليها بجذور، فكثر المساكين فتركهم الناس يطعمون من الطعام، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث < لأمها، وكانت لها مكانتها عند

النبيﷺ التي كرمّها بالزواج منها؛ وقد تزوجها في رمضان من السنة الثالثة للهجرة، ومكثت عنده # ثمانية أشهر، وتوفيت في شهر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة، ولم يمت من أزواجه # في حياته غيرها، وغير خديجة بنت خويلد -رضي الله عنهن أجمعين.

زواجه # من أم سلمة وجُوَيرية بنت الحارث، والحكمة من زواجه منهما

أ. زواجه # من أم سلمة، والحكمة من ذلك الزواج:

كذلك فإنه # تزوج بأم سلمة > وهي هند بنت أبي أمية التي كان لها هي الأخرى دورها وجهادها وبلاؤها في الإسلام هي وزوجها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد الذي كان من المسلمين الأولين، وهاجر بزوجته إلى الحبشة مرتين، وبادر لما جاء الأنصار يبايعون النبي ﷺ فهاجر من قبل هجرة النبي ﷺ لما علم أن المدينة أصبحت مسلمة وآزرت الإسلام والمسلمين، وهنا وقف أهلها من بني مخزوم يمنعون أبا سلمة من أن يأخذها معه، وقالوا له: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، فما بال هذه نتركها معك تذهب بها في بلاد الناس، فنزعوا خِطام البعير من يده؛ فأخذوها ومنعوها وابنها من أن تلحق به، فتركهم ومضى > وعاشت أم سلمة بعد ذلك سنة كاملة قد فرق قومها بينها وبين زوجة الذي تركها وهاجر إلى المدينة؛ كذلك فإن رهط زوجها لما رأوا أهلها منعوها من أن تهاجر مع زوجها أخذوا ابنها سلمة، وتنازع رهطها ورهط زوجها ابنها بينهم؛ حتى انخلع ذراع الولد، وبقية سنة كاملة تعاني من فراق زوجها وابنها، وحرمانها منهما.

وكانت تخرج إلى "الأبْطَح" كل يوم تبكي حتى يدركها المساء؛ حتى رقّ لها رجل من بني قومها، فقال لقومها: ألا ترحمون هذه المسكينة!! فرقتم بينها وبين زوجها وولدها؛ فرضي أهلها بأن تلحق بزوجها، وهنا ردّ أهل زوجها ابنها سلمة إليها، وخرجت مهاجرة في سبيل الله وحيدة مع ابنها؛ اللهم إلا ما يرعاها ربها ﷻ به، وهنا لقيها عثمان بن طلحة، فصحبها حتى أوصلها إلى المدينة.

تقول أم سلمة -تشكر صحبة هذا الرجل لها وأماناته وعفته وصيانته لحرمتها فكانت تقول-: فما أعلم رجلًا من العرب في مثل خلقه، حتى وصلت إلى قُباء لتبدأ حياة الهجرة في المدينة مع النبي ﷺ ولتبدأ مرحلة جهاد مع المجاهدين في المدينة.

وكان زوجها أبو سلمة من ذوي البلاء الحسن في الإسلام؛ جاهد مع النبي ﷺ، وشارك في "أُحُد" حتى جرح جرحاً كبيراً اندمل بعد فترة، لكنه عاوده الألم واشتد عليه الجرح، مما كان سبباً في وفاته بعد أن خرج في سرية بأمر النبي ﷺ إلى بني أسد بعد "أُحُد"، ولما عاد انطلق جرحه مرة ثانية فمات منه.

ولذلك كان النبي ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يكافئ أمثال هؤلاء النسوة اللائي لقين ما لقين في سبيل الإسلام وفي ذات الله من أمثال: أم سلمة > وزينب بنت خزيمة -رضي الله عنهن أجمعين- وقد ردت أم سلمة على النبيﷺ بأنها امرأة غيرى، وأنها مصبية، وأنه ليس أحد من أوليائها حاضرًا، وأنها قد طعنت في السن، فقال لها النبي ﷺ: بأن أولادها إنما هم في كفالة الله وكفالة رسوله ﷺ أما ما بها من السن فقد أصابه ما أصابها منه، وأما الأولياء فإنه ليس أحد بشاهد ولا غائب إلا سيرضى برسول الله ﷺ ومن ثم فإنها قالت: يا عمر -لابنها. قم فزوج رسول الله ﷺ وكان زواجه # بها في شوال من سنة أربع.

على أن أم سلمة إذا كان من الحكمة التي هدف إليها النبي ﷺ أن يعوضها عما وجدت من فقد زوجها ومما لقته من قبل في هجرتها إلى الحبشة وإلى المدينة.

وقد كان لأم سلمة عقل راجح فصلت في أمر وجد النبي ﷺ في نفسه شيئًا فيه من أصحابه، لما أمرهم بالحلق والنحر يوم الحديبية، فلما تباطؤوا -ليس عن عصيان ولكن- رجاء أن يراجع النبي ﷺ قريش حتى يعتمروا، فلما دخل على أم سلمة > وكانت هي التي خرجت معه في هذه الغزوة -"غزوة الحديبية"- قالت له: يا رسول الله -مشيرة بأمر كله حكمة- اخرج وانحر هديك واحلق ولا تكلم أحدًا بعد أن هدأت من نفسه ﷺ وقالت: بأنهم قد وجدوا في أنفسهم لما منعوا من البيت وقد كانوا يأملون أن يعتمروا ويدخلوا مكة، فلطّف ذلك عن النبي ﷺ وكان رأيها رأياً صائباً؛ إذا حُلت هذه المشكلة، فلما خرج النبي ﷺ يعمل بمشورتها ورأيها تدافع الناس ينحرون هديهم ويحلقون رؤوسهم.

ب. جُوَيرية بنت الحارث، وحكمة زواجه # منها، وبركة هذا الزواج على قومها:

كذلك فإنه كان من أزواجه # جُوَيرية بنت الحارث > وهي التي كانت سُبيت من "بني المصطلق"، وأبوها كان شيخ بني المصطلق، وهو الذي جمعهم لحرب النبي ﷺ ولكن آل أمرهم إلى أن هزم وسبي من نساء قومه وأسر من أسر؛ ولذلك فإن النبي ﷺ لما جاءته جويرية تسأله أن يعينها على أن تؤدي ما عليها من كتابة لمن وقعت في سهمه؛ فإنه # قال لها: ((أو خير من ذلك؟!)) ثم عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فكان زواجه # منها بمثابة تكريم لها؛ فهي ابنة سيد وشيخ له مكانته في بني المصطلق وفي خُزَاعة، ومن هنا

فإنه # كرمها وأعتقها وتزوجها، بل جعل ذلك زلفًا للتودد إلى بني المصطلق وإلى خزاعة بوجه عام، فإذا كان بنو المصطلق قد سلكوا طريق العداء للنبي ﷺ من بين خزاعة فإن زواج النبي ﷺ منهم إنما يُعدُّ تودداً إليهم، كذلك فإنه تودد إلى خزاعة على وجه العموم التي كانت ودّ النبي ﷺ ومن ثم لم يكن في الزواج إلا هذا الأمر الذي كان خيرًا على بني المصطلق؛ فإن كل من أخذ سبياً أو وقع في ملك يمينه رجل من بني المصطلق فإنه رده معتقاً؛ لأنهم أرادوا أن يقيموا أصهار رسول الله ﷺ، فكان من زواجه # من جويرية زيادة في حب بني المصطلق للإسلام، وللنبي ﷺ فأقبلوا مسلمين.

زواجه # من زينب بنت جحش وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وحكمة زواجه منهما، وزواجه من صفية وميمونة، وحكمة زواجه منهما، وحكمة الإباحة بهذا العدد

أ. زينب بنت جحش وحكمة التشريع من الزواج منها، تشويه المغرضين لوجه الحق في هذا الزواج:

كذلك تزوج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وهي ابنة عمة النبي ﷺ أميمة، وكان قد زوجها النبي ﷺ على كره منها لمولاه زيد بن حارثة الذي كان معتبراً عند قريش أنه ابن محمد بالتبني وقصته معروفة، ولما تزوجها زيد ووجد منها إعراضاً فإنه كان يشكوها إلى النبي ﷺ وكان # يأمره بإمساكها، وأراد الله ﷻ أن يقضي على عادة كانت عند العرب، وهي أنهم كانوا لا يتزوجون زوجة الابن المتبنى؛ فأراد الله ﷻ أن يقضي على هذه العادة بنبيه ﷺ ولذلك فإنه أوحى إليه # بهذا الأمر، ومع هذا فإنه # خشي من ذلك لما يعرف تأصل العادات عند العرب واستمساكهم بها، ولهذا فإن الله ﷻ عاتبه في هذا

الأمر، وقال له: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فالحكمة التي أراد الله من زواجه # من زينب هي التي ذكرها القرآن، ولكن المغرضين ما تركوا أمثال هذا الحق الواضح إلا وحاولوا أن يشوهوه بكل ما ادعوه على النبي ﷺ كذباً وبهتاناً وافتراءً.

ب. أم حبيبة بنت أبي سفيان، وحكمة زواجه منها # :

كذلك فإنه # تزوج من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان التي هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الذي لما وصل إلى الحبشة تنصر، وبقيت على إسلامها لم ترتد مع زوجها الذي قال لها: إني كنت على النصرانية وإنها أحسن من دين محمد، فبقيت على إسلامها، ولذلك كافأها النبي ﷺ بأن بعث عمرو بن أمية الضَمري يخطِبها للنبي ﷺ ويطلب من النجاشي أن يقوم بذلك الأمر، فتم زواج النبي ﷺ بهذه المرأة التي ثبتت على إيمانها.

كذلك فإنها بنت شيخ مكة -أبي سفيان- الذي يحمل لواء العداء للنبي ﷺ وللإسلام، وكان في هذا تقربًا كذلك إلى أمثال هذه البيوت العريقة التي كانت تفخر بزواج النبي ﷺ الذي كان شرفاً اعترف به أبو سفيان نفسه.

ج. صفية، وحكمة زواجه منها:

وكذلك تزوج النبي ﷺ من صفية بنت حُيي بن أخطب اليهودي الذي حمل لواء العداء للنبي ﷺ وأعلنه من يوم أن رآه في قباء حتى يوم أن قدم للقتل في "بني قريظة" لما قال: والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك يا محمد، فهذه المرأة التي قتل

زوجها وأبوها وأخوها تزوجها النبي ﷺ بعد أن وقعت في مِلك لدحية الكلبي، ولكن النبي ﷺ أشير عليه بألا يجعلها لدحية؛ لأنها أكرم من هذا، وإن في القوم من هو أكرم من دحية حتى لا يجد بعض المسلمين الكبار في أنفسهم من ذلك، ولذلك تزوجها النبي ﷺ عرض عليها أن تدخل الإسلام ويعتقها ويتزوجها؛ فتزوجها لذلك وكانت بنت شيخ "بني النَضير".

وهكذا نلاحظ أن نساء النبي ﷺ إنما ينتمين إلى بيوتات عريقة، وكان أولى بهن تكريم النبي ﷺ أيهن بالزواج.

د. ميمونة بنت الحارث وحكمة زواجه منها:

كذلك تزوج النبي # من ميمونة بنت الحارث الهلالية -أخت زوج عمه العباس- أم الفضل فتزوجها النبي ﷺ لأنها كانت لها أخوات كلهن مسلمات، ولذلك قال النبي ﷺ عنها وعن أخواتها: ((الأخوات المؤمنات)) يقصد ميمونة وأم الفضل وأسماء بنات الحارث.

هـ. حكمة الإباحة بهذا العدد:

وهكذا نرى أن الحكمة من هذا التعدد الذي أبيح للنبي ﷺ وحده في الإسلام وكان مباحاً من قبل بلا قيود عند العرب، ذلك لأن كل زوجة من هذه الزوجات كانت لها حكمة خاصة أراد الله ﷻ أن يتم زواج النبي ﷺ بها، لذلك ونحن أمام هذا لا نصغي إلى أمثال المغرضين الذي يعيبون هذا الأمر على النبي ﷺ ومهما قالوا: فإن وجه الحق ظاهر في أمر زواجه # وتعدد زوجاته أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن أجمعين.

أخـــــلاق الرســـــول ﷺ

وفي الختام نتناول موضوعاً كريماً هو دراسة نماذج من أخلاقه ﷺ ومن نحن حتى نتكلم عن أخلاق رسول الله ﷺ؟!

إن العبارات لتقصر -أي: البيان- أمام هذا الأمر العظيم الذي لن يسهل إلا بتسهيل الله ﷻ وإن وصف النبي ﷺ وتعرض لصفاته الخلقية والخلقية مما عني به كتاب السِّير، ومما نقله لنا أصحابه -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- الذين عاشوا مع النبي ﷺ ورأوا منه كرم الأخلاق: الحلم، والجود، والعفو، والتواضع، والحياء، إلى غير ذلك من الصفات الكاملة التي حباه الله ﷻ بها، الذي قال فيه -سبحانه-: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. ليس هذا كلام شاعر أو نثر ناثر؛ وإنما هو كلام الله ﷻ الذي خلق نبيه وخلقه على هذا الخلق العظيم.

إن صفات الكمال التي وهبها الله نبيه محمداً ﷺ حتى يكون رمزاً عظيماً لهذه الرسالة التي كملت في كل شيء، كملت في كتابها خير الكتب، وفي رسولها خير الرسل، وفي أمتها خير الأمم، هذا الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ووصفه ﷻ في كتابه العظيم: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أ. رحمته # :

قد كانت صفة الرحمة صفة ظاهرة في سلوكه ﷺ رحمة شملت كل شيء الرحمة بالناس؛ الرحمة بالحيوان، حتى الرحمة بالذين كفروا وآذوه،

فكان # يرحمهم ولا يدعو عليهم ؛ حتى إنه # في شديد وقع الأذى عليه كان يقول : ((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)) ولما سئل # أن يدعو على "دوس" قال : ((اللهم اهد دوساً واهد بهم)) كذلك دعا للطائف ، كذلك دعا لثقيف فقال : ((اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم)) دعوة رحمة من الله ﷻ.

وكان # يرحم الأم إذا بكى صغيرها ، فإذا كان في صلاة يريد أن يطيل فيها فلقد كان يقصرها حينما يسمع بكاء الصبي شفقة به وبأمه ورحمة ، كذلك فإنه # كان يرحم حتى الحيوان ، لما جاءه وفد ووقفوا راكبين على الخيل فأمرهم إما أن ينزلوا عنها فليست كراسي وإما أن يمضوا ، كذلك فإنه # كأن يأمر بالرحمة والإحسان حتى بالذبيحة تذبح ويأمر بذلك : ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء ؛ فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة)) حتى الإحسان للعدو ولمن وجب عليه الحدّ والقتل.

ب. حلمه # :

كذلك فإنه # كان حليماً بكل من عنف عليه أو ناله بأدب ، كان # في مجلس مع أصحابه فدخل أعرابي فبال في المسجد ، أي شيء أعظم من هذا؟!! فهمّ الناس به ، ولكن النبي ﷺ قال : ((دعوه ، ولا تقطعوا عليه بولته ، ثم أهريقوا على بوله سجلاً من ماء)) حلت المشكلة.

كذلك فإنه # لما جاءه رجل أعرابي يطلب منه ، وكان # يلبس بردًا نجرانياً غليظ الحاشية ، فجبذ النبي ﷺ منه حتى أثر البرد في عاتق النبي ﷺ وصفحة عنقه ، وقال : يا محمد أعطني من مال الله ، لا أسألك من مالك ولا من مال أبيك ، ومع هذا تبسم النبي ﷺ له بعد أن همّ الصحابة به ، ولكنه # أخذه فأعطاه وزاده وأحسن إليه ، وأراد منه أن يخرج إلى الصحابة فيترضاهم ؛ لأنهم

وجدوا في أنفسهم على ذلك الرجل لما فعل ذلك برسول الله ﷺ فخرج الرجل يشكر النبي ﷺ ويثني على عطائه، وهنا توجه النبي ﷺ لأصحابه وقال: إن مثلي ومثل هذا كمثل رجل نفرت راحلته -شردت منه راحلته- فتبعها الناس يطلبونها، وكلما زادوا في طلبها زادوها نفوراً وشروداً، فقال لهم صاحبها: خلوا بيني وبين راحلتي فإني أعلم بها، ثم أخذ شيئاً من خشاش الأرض وضعه في حجره وأشار به إليها فجاءت إليه راغبة طائعة، فهكذا مثلي ومثله، ولو تركتم وإياه فقتلتموه دخلتم النار.

ج. عفوه # :

كذلك فإنه # كان متسماً بالعفو لكل من أذاه، ولا أدل على ذلك من أهل مكة الذين أخرجوه منها وتابعوه يريدون قتله وهو في طريقه إلى المدينة، وظلوا يحاربونه نحواً من ستة أعوام، ومنعوه دخول مكة معتمراً، بل إنه طلب منه أن يخرج في عمرة القضاء في السنة السابعة وما سمحوا له أن يبقى فيها يوماً بعد الثلاث، ومع هذا لما دخل مكة فاتحاً، فإنه # قال لهم: يا أهل مكة ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

د. حياؤه # :

وكان # حيياً شديد الحياء أكثر من العذراء في خدرها ﷺ.

هـ. كرمه # :

كما أنه كان كريماً غاية الكرم يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، يعطي العطاء الجزيل حتى إنه جاءه أعرابي فأعطاه غنماً تملأ وادياً بين جبلين فذهب إلى قومه، وقال: إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر؛ فكان ذلك سبباً في إسلامه

وإسلام قومه، كذلك فإنا نرى عطاء النبي ﷺ للمؤلفة قلوبهم يوم حنين من أهل مكة، ومن المؤلفات قلوبهم كان يعطي عطاءً واسعاً، كان يعطي المائة بعير للرجل، أعطى أبا سفيان وابنه معاوية، وكذلك أعطى يزيد بن أبي سفيان وكثيرين من أهل مكة ممن كانوا حديث عهد بإسلام، بل ربما أعطى من لم يكن قد أسلم بعد، كما أعطى صفوان بن أمية في المهلة التي اختارها حتى يدخل في الإسلام بعد أن عفا النبي ﷺ فإنه أعطاه عطاء جزيلاً حتى لم يبقَ للأنصار شيء فوجدوا في أنفسهم من ذلك، ولكن النبي ﷺ لما جمعهم فقال لهم: ((أترضون الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله؟ والله إني لأعطي الرجل وغيره خير منه، لا أعطيه ثقة بإيمانه، فرضي الأنصار)).

و- تواضعه # :

كما كان # متواضعاً شديد التواضع لا يحب أن يتميز على أصحابه في شيء، فها نحن قد عرفنا إصراره على أن ينزل ويمشي حينما خرج المسلمون إلى بدر يتعاقبون الإبل الثلاثة والأربعة، ولما جاءت نوبة النبي ﷺ مع زميليه علي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي لما جاء دوره في أن ينزل ويمشي قال: عرض عليه # أن يظلّ راكباً ويكفونه مؤنة السير؛ فأبى من ذلك ﷺ وقال: ((لستما بأقوى مني على السير، ولست بأزهد منكم في الأجر)).

ونجده في "الأحزاب" ينزل ويباشر أمر الحفر، وحمل التراب حتى تغبر صدره ووجهه وبطنه الشريف ﷺ ما امتنع ذلك، بل كان مقصد الصحابة فيما يصعب عليهم من الصخور التي كانت تعتريهم في حفر "الخندق" فيفزعون إليه # فيتولى أمرها بفضل الله؛ كذلك فإنه # لما كان يختص بأمر خاص به كطعام يدعى إليه، فإنه ما كان يستأثر نفسه، وإنما كان يدعو المسلمين معه، وها هو يدعوهم في حفر "الخندق" لطعام صنعه جابر بن عبد الله، دعا الناس كلهم

وبفضل الله ﷻ كفاهم، لم يرد أن ينسل وحده من بينهم حتى يذهب إلى هذه الدعوة الخاصة له التي حددها صاحب الطعام ولكن النبي ﷺ ما أراد أن يستأثر بشيء من ذلك، وأراد أن يشرك الرجال معه ما داموا يعملون كلهم في سبيل الله ؛ فلا بد أن تكون المقاسمة في كل أمر واحدة.

كذلك فإنه # لما كان يأتيه طعامٌ منيحة أو هدية فإنه كان يدعو لها أهل الصفة فقراء المسلمين الذين كانوا يعيشون معه # في صفة المسجد، وهو بجوارهم في حجرته اللصيقة بهم.

وهكذا نراه # بهذا الإيثار الذي يعطي فيه كل ما يأتيه ولا يختص به نفسه ﷺ.

كذلك فإنه # كان وفيّاً كريماً يلتزم الوفاء مع كل إنسان عاهده على أمر، وها نحن نرى أمره في "صلح الحديبية" يرد أبا جندل لما جاءه مستغيثاً به # وبالمسلمين ألا يرده إلى المشركين ومع هذا: فإنه # أمره بأن يرجع وفاءً بما تعاهد عليه النبي # مع قريش، كذلك فإن حذيفة بن اليمان يحكي أمراً حينما جاء والنبي ﷺ على استعداد للقتال في "بدر"، فأخبر النبي ﷺ لما اعترضته وأباه وهما في طريقهما إلى المدينة ولم تتركهما يمضيان في طريقهما إلا بعد أن أخذت عليهم عهداً ألا يقاتلاهم مع النبي ﷺ فلما أخبر رسول الله ﷺ بأمرهما مع قريش ما كان منه # إلا أن أمرهما بالالتزام بالوفاء بعهدهما معهم، وقال لهم: "فيا لهم بعهدكما، ونحن نستعين الله عليهم".

ز- زهده # :

ومن أخلاقه # الكريمة زهده وتقشفه وأخذه من الدنيا بالقليل اليسير، فإنه # ما شبع من طعام قط ولا أكل من النقي -وهو الدقيق المنخول- وما كان يأكل إلا الشعير، وما كان ينخل ؛ فإنهم ما كانوا يعرفون المناخل، وإنما كان ينفضونه فيتطاير القليل من قشره وما يبقى يُعجَن ويُخبَز للنبي ﷺ فيأكل منه.

كذلك فإنه # كان يطوي اليوم واليومين والثلاثة جائعاً ما يأكل ؛ لأنه لا يجد ما يأكله ، وها هي عائشة { تحكي بأنه كان يمر الهلال إلى الهلال إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما يوقد في بيت نساء النبي ﷺ نار لطبخ ، ولما سئلت : فماذا كان طعامكم؟ قالت : الأسودان التمر والماء.

ﷺ إذا كان طعامه على هذا النحو الذي كان يقول فيه # : ((أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد)) ﷺ كذلك فإنه # ما كان ينام على وثير الفراش ، وإنما هو حصير أثر في جنبه ، بكى عمر لما رأى أثر الحصير في جنبه ﷺ ، وقال : يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا ، فقال # : ((ما لي وللدنيا ، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها)).

كما أنه # قال فيما رواه البخاري عن أبي هريرة : ((لو أن لي مثل أحد ذهباً ما سرني أن تأتي علي ثلاثة ليالٍ وعندي منه شيء ؛ إلا شيء أرصده لدين)). وكان # يقول : ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً)). أي : لا ادخار فيه ، والقوت هو قوت اليوم خاصة ، وقد أقسم أبو هريرة قائلاً : ((والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا)).

ويذكر أنس بن مالك > أن فاطمة > ناولت رسول الله ﷺ كِسرة من خبز الشعير ، فقال : ((هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام)).

هذا ، وإن أمثلة زهده ﷺ ليست فرادى في حياته ، وإنما حياته كلها كانت زهداً والتزاماً بالعزوف عن نعيم الدنيا ومتاعها.

إذا كان هذا في الطعام فقد كان كذلك في اللباس ، فلما يكن يسبل إزاره وإنما كانت سنته # التي أمر به أصحابه أن يكون إزاره إلى منتصف ساقه ﷺ ،

كذلك فإن فراش بيته كان على هذا التواضع فراش من حصير أو كساء ما كان يرضى أن يثنى في طيه، وكان يعتبر ذلك تنعماً، ولما فعلوا ذلك يوماً بفراشه ﷺ أمرهم أن يردوه على ما كان عليه، وتحكي عائشة < فتقول: ((دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت إلي فراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: قلت: يا رسول فلانة الأنصارية دخلت عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا، فقال: رديه. فقالت: فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، قالت: فقال: رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة)).

وقد سألت حفصة: ما كان فراش رسول الله ﷺ قالت: "مسح نثنيه ثنيتين فينام عليه، فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته له بأربع ثنيات كان أوطأ له، فثنيته بأربع ثنيات، فلما أصبح قال: ما فرشتم لي الليلة؟ قلنا: هو فراشك إلا أنا ثنيناه لأربع ثنيات، قلنا: هو أوطأ لك، قال: ردوه لحاله؛ فإنه منعتني وطاءته صلاتي الليلة".

ح. شجاعته # :

وكان من صفاته # وأخلاقه الكريمة التي كانت مناسبة أتم التناسب لهذه المهمة التي اختاره الله لها، وهي الرسالة التي تحتاج إلى الجهاد، هذه الصفة التي طبعه الله عليها -وهي الشجاعة والإقدام-، فلقد كان # يباشر أمر القتال ثابتاً لا يتزحزح عن موقفه وعن مكانه مهما كانت الشدائد في الموقف وفي المعركة، وإنه كان يعتبر بأن الله ﷻ أمره بالثبات ولو وحده: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا

نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ [النساء: ٨٤]، ولقد كان يوم بدر يباشر القتال مع ما كان يباشره من أمر القيادة والانشغال بالقيادة والتضرع والسهر الليل كله وأصحابه كلهم نيام يحرسهم؛ لأن العدو قريب منهم، وهو يعلم أنهم قد أصابهم التعب فظل يحرسهم هذه الليلة، ولما أصبح # وباشر القتال كان أدنى الناس إلى العدو، بل إن علياً يقول: "كنا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس كنا نلُذ برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه". هذا في "بدر" وفي "أحد" لما حدثت المصيبة ونزلت بالمسلمين وفر المسلمون ثبت النبي ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار ينادي على المسلمين ((إليّ إليّ عباد الله))، ويدعوهم في أخراهم حتى يرجعوا، وكان ثباته # وشجاعته في الموقف هذا سبباً في أن يئوب المسلمون إلى رسولهم ﷺ، ويوم حنين لما فجئتهم هوازن نكصوا على أعقابهم، وثبت النبي ﷺ وظل يصول ويجول بسيفه ويقول: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)) ﷺ.

بل إن كل أمر كان ينوب المسلمين كان يقدم # المسلمين في معرفته والوقوف عليه، فقد حدث أمر فزع في ليلة بالمدينة وهبَّ الناس يريدون أن يعرفوا ما هذا، وخرجوا له؛ فرأوا النبي ﷺ عائدٍ من قبل الصوت يركب فرساً لأبي طلحة عرياً ليس عليه سراج، ويقول لهم: ((لم تراعوا)) هكذا كانت أخلاق النبي ﷺ.

وهذه نماذج منها، ولو أننا أخذنا نتكلم فيها إلى ما شاء الله لنا لن يكفينا وقت ولن تسعنا صحف، ولن تكفي أقلام لتسطر هذه الأخلاق الحميدة الكريمة التي كان عليها نبينا محمد ﷺ؛ ولذا فإننا نكتفي بهذه الأمثلة من هذه الصفات الكريمة التي اقتصرنا على بعضها، والله الموفق للصواب.

معجزات الرسول ﷺ ومعجزات في حياة الأنبياء قبله

مما لا شك فيه أن الله ﷻ أيّد رسله بمعجزات تصدقهم عند أقوامهم، وكانت معجزات الرسل تتناسب مع ما يكون سائداً في عصورهم وفي عهودهم.

فمثلاً: نجد موسى: وقد برع الناس أيامها في السحر، فجاءت معجزة العصا والمعجزات الأخر التي بعثه الله بها ﷻ إلى فرعون فآمن بها من آمن وكفر بها من كفر.

وعيسى # : الذي كان في أيام برع الناس فيها في الطب، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى -بإذن الله-.

أما نبينا ومن قبله: طلب قوم صالح آية واضحة؛ فأتاهم صالح بالناقة وفصيلها كما طلبوا، ولكنهم كفروا بهذه الآية التي جاءت وفق ما طلبوا وأكثر؛ ولذلك فإن الله ﷻ كرم هذه الأمة أمة محمد ﷺ بأن وهبها إيماناً صادقاً وقلوباً مؤمنة لم يشأ -سبحانه- أن تأتي الآيات على نحو ما كانت تأتي من قبل؛ لأن حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه إذا جاءت الآية ولم يكن الإيمان كان العقاب والعذاب؛ ولذلك رزقت هذه الأمة قلوباً طيبة رقيقة تؤمن بالله ولا تحتاج إلى المزيد من المعجز من الأمر حتى تصدق، بل إن أمر المعجزة ربما لا يكون سبباً في الإيمان، فها هي ثمود قد عقرت الناقة، الآية التي طلبتها فكان هلاكها، وها هم بنو إسرائيل رأوا من الآيات ما لم يروه السحرة؛ لأن السحرة رأوا العصا فخروا لله ساجدين قائلين: أمنا بالله رب العالمين رب موسى وهارون، أما هؤلاء رأوا هذه الآيات، ورأوا انفلاق البحر، ورأوا أن الماء ينبجس من الصخر، ورأوا آيات المن والسلوى كل ذلك رأوه، ومع ذلك لم

يدفع هذا بني إسرائيل إلى الإيمان والتصديق ؛ ولذلك نجدهم بعد أن عبروا البحر ناجين ورأوا بعينهم هلاك عدوهم فإنهم لما جاوزوا البحر قالوا لموسى كما تقول الآية : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠].

ها هم بعد رؤيتهم هذه الآية الخارقة وهي : فلق البحر يطلبون أن يعبدوا غير الله ولّما أتتهم الآيات تباعاً من غير ذلك ما وسعهم إلا أن يقولوا : يا موسى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] إذاً فليست العبرة بالمعجزة وعظمتها ولا بكثرة المعجزات حتى يؤمن الناس ، وإنما الإيمان هبة من عند الله ؛ لأن القلوب تختلف في قبول الحق حتى وإن تأيد بالمعجزة ؛ ولذلك فإن نبي الله ﷺ ما كان يلبي لما تطلب منه الآيات : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

[الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

إذًا : فالعبرة هنا ليست إجراء المعجزة كما يطلبها الكافرون تعنتاً ، إنما كان أمر المعجز الذي أتاه الله نبيه محمد ﷺ إنما هو الوحي العظيم المبارك ؛ ولذلك قال # : ((ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله أمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله ﷻ إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)).

ولما طلب منه كفار قريش الآيات: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن ﴾. جاء الأمر ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩، ٥٠]. على أن الآيات إنما يراها المعاصرون للأنبياء الذين كانوا في خصوصية مكان وخصوصية زمان، أما هذه الأمة أمة الإسلام فإنها لا يحدها زمان ولا مكان؛ ولذلك كان هذا القرآن العظيم الآية العظمى والمعجزة الكبرى التي أعجزت العرب أيام البلاغة والفصاحة، وأعجزت العلماء أيام ارتقاء العلم وبلوغه أوج الكمال؛ ولذلك فإن الله ﷻ جعل هذا القرآن معجزاً بلفظه للعرب أرباب الفصاحة والبلاغة، ومعجزاً للعلماء أهل العلم الذين ربما لا يعرفون فصاحة الكلام ولا بلاغته، وإنما يعرفون الحقائق الكونية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه العزيز وهي تأتي وتتجدد جيلاً من بعد جيل؛ لأن حظ كل جيل من إعجاز القرآن يحفظه الله له: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

معايشة المؤمنين لمعجزاته

إن المعجزات التي أجراها رب العزة علي يد نبيه ﷺ لكأنها كانت خاصة بالمؤمنين به؛ تزيدهم إيماناً مع إيمانهم، ومن ذلك ما كان يرونه منه # من معجز الأمر في أمور كثيرة.

أ. معجزة تكثير الماء:

ومن ذلك لما احتاجوا إلى الماء يوم "الحديبية"، وكانت البئر ناضبة فإن النبي ﷺ أخرج سهماً من كنانته وأمر بأن يغرس في البئر ففاض بالماء فشرب الناس وما

معهم من الأنعام والإبل، ويوم "تبوك" كذلك لما نزح رجلان مما كان مع المسلمين ماء بئر نهى النبي ﷺ أن يشرب منها أحد، فلما جاء ووجد أن البئر لم يعد فيها إلا النذر اليسير الذي لم يكد يغرف، فجمع للنبي ﷺ فغسل # وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثم قال # لمعاذ: ((يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملأ جناناً)). وقد حدث بالفعل ما أخبر به النبي ﷺ.

ب. معجزة تكثير اللبن:

كما أنه # كان له بركة وإعجاز في إكثار اللبن الذي حكا أمره أبو هريرة لما تعرض جائعاً لأبي بكر وعمر يريد أن يقريه واحد منهما لجوعه، ولكن النبي ﷺ لما رآه وعرف ما به دعاه وذهب إلى بيت من بيوت نسائه وسأل: ((هل عندكم من شيء؟)) فقيل: منيحة لبن بعث بها آل فلان، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة: ((ادعُ لي أهل الصفة))، فقال أبو هريرة -في نفسه-: وما يقع هذا اللبن في أهل الصفة؟! لأنهم كثير، لكنه ما كان من أمر رسول الله من بد فدعاهم، فقال: ((مر عليهم يا أبا هريرة فاسقهم)) فشربوا جميعاً، ثم قال له النبي ﷺ: ((اشرب يا أبا هريرة)) ثم قال # : ((اشرب)) فشرب، ثم قال له: ((اشرب)) فشرب، ثم قال له بعد ذلك: ((اشرب))، قال: والله يا رسول الله ما عُدت أجد له مسلكاً؛ لقد كاد الري أن يخرج من أظافري، وهكذا كفى هذا النزر اليسير من الطعام من اللبن هذا الجمع الكثير كذلك.

فإنه # في أزمة حفر "الخندق" حينما يدعو جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ ورجلين معه إلى طعام لا يكفي غير ذلك، ولكن النبي ﷺ ينادي في أهل

الخندق، وكانوا نحوًا من ألف فيخرج بهم إلى بيت جابر، ويطعم الجيش كله من هذا الطعام الذي أعده جابر لرسول الله ﷺ ورجل أو رجلين معه بركة من الله ﷻ.

ج. معجزة تكثير التمر:

كذلك فإنه # كانت له بركة كذلك في إكثار التمر، فلقد حكا أبو هريرة أنهم كانوا في غزوة واحتاجوا إلى طعام، فجمع ما في العسكر من تمر فبلغ أحد وعشرين تمرة كما عدها أبو هريرة، كان النبي ﷺ يأخذ التمرة فيذكر الله ويسميه ويضعها، ثم غطاها ﷺ وأخذ يطعم الناس معه الواحد تلو الآخر من هذا التمر، ثم بقيت بقية أعطاها النبي ﷺ أبا هريرة ووضعها له في مزود، وقال له: إذا أردت أن تأكل فمد يدك ولا تنثره، ففعل ذلك أبو هريرة > فكفاه هذا التمر بقية حياة النبي ﷺ وحياة أبي بكر وحياة عمر وحياة عثمان كلها حتى فقد في الثورة على عثمان > وكان هذا المزود من الأمور التي حزن أبو هريرة عليها.

كذلك فإنه # لما دخل مكة كان يشير مجرد إشارة إلى الأصنام يوم الفتح فكانت تنكفئ على وجوهها، ويقول: ((جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)).

د. معجزة انقياد الشجرة:

ومن الأمور المعجزة كذلك انقياد الشجر له ﷺ كما روى مسلم عن جابر بن عبد الله أنه رأى النبي ﷺ وقد انطلق إلى حاجته ونزل وادياً به شجرتان، فأخذ ﷺ بغصن من أغصان واحدة منها وقال: ((انقادي علي بإذن الله تعالى فانقادت معه

كالبعير المخشوش حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فانقادت معه بأمر الله حتى اجتمعتا والتأمتا عليه فسترتاه، ثم بعد ذلك أمرهما: أن ترجع كل واحدة منهما إلى مكانها بأمر الله فرجعتا)).

كل ذلك يراه المؤمن فيزداد إيماناً بالنبي ﷺ بل إن شجرة من الأشجار هي التي أخبرت النبي ﷺ بالجن الذين جاءوا فاستمعوا القرآن إلى غير هذا من المعجزات العظيمة.

هـ. معجزة إخبار الغيب:

والتي كان من إخباره # أصحابه بأمور غابت عنهم، كما أخبر بما حدث لأهل الرجيع وبئر معونة ولشهداء مؤتة، وكما أخبر بمقتل كسرى وبمقتل الأسود العنسي إلى غير ذلك من الأمور العظيمة، وهذا رجل من الأنصار ورجل من ثقيف جاءا إلى النبي ﷺ يسألانه فقال: ((إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه، وإن شئتما تركتكما تسألان)) فقال: بل تخبرنا أنت يا رسول الله فأخبر # بما جاء يسألان عليه.

وكذلك أخبر عمير بن وهب الجمحي لما تعاهد مع صفوان بن أمية لقتل النبي ﷺ وجاء يتعلل بأخذ ولده الأسير، ولكن النبي ﷺ أخبره بما اتفق عليه مع صفوان، فقال: أشهد أنك رسول الله فوالله ما كان معنا أحد وما سبقني إليك أحد فآمن.

إلى غير ذلك من المعجزات العظيمة الكثيرة التي أيد الله به رسول الله ﷺ وكرم بها هذه الأمة الكريمة عند الله ﷻ.

هذا، ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا بسيرة النبي ﷺ والحمد لله أولاً وآخرًا.

قائمة المراجع العامة

١. (**الروض الأنف**)

عبد الرحمن بن عبد الله السهلي، تحقيق: مجدي منصور سيد الشورى، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٢. (**السيرة النبوية الصحيحة**)

أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٢م.

٣. (**غزوات النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن والأحاديث**)

محمد غوث الندوي، دار السلفية، ١٩٨٣م.

٤. (**سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**)

محمد بن يوسف الصالحي، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٣م.

٥. (**الطبقات الكبرى**)

محمد بن سعد بن منيع الزهري، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٩٨م.

٦. (**السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**)

محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم، ١٩٩٦م.

٧. (**السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي**)

أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٣م.

٨. (**الرحيق المختوم**)

صفي الرحمن المباركفوري، دار الشرق العربي، ٢٠٠٣م.

٩. (**الرياض النضرة في مناقب العشرة**)

أحمد المحب الطبري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

١٠. (**سير أعلام النبلاء**)

محمد شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.

١١. (**السيرة النبوية**)

أبو محمد عبد الملك ابن هشام الأنصاري، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥م.

١٢. (**فقه السيرة النبوية**)

محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، دار الفكر اللبناني ، ١٩٨٧م.

١٣. (**فقه السيرة**)

محمد سعيد البوطي ، دار الفكر ، ٢٠٠٢م.

١٤. (**البداية والنهاية**)

إسماعيل بن كثير . دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١م.

١٥. (**تهذيب سيرة ابن هشام**)

عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦م.

١٦. (**أوائل المؤلفين في السيرة النبوية**)

عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، القاهرة ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٢٠٠٥م.

١٧. (**مصادر السيرة النبوية وتقويمها**)

فاروق حمادة ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٠م.

١٨. (**السيرة الحلبية : أمان العيون في سيرة الأمين المأمون**)

علي برهان الدين الحلبي ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤٠٠هـ.

١٩. (**الدرر في اختصار المغازي والسير**)

يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١م.

٢٠. (**الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**)

القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦م.



السيرة النبوية ٢

IHIS 2043